فيبي صبري

نذر

حكاية هيلانة ويوسف الأرمني

رواية

elles

t.me/qurssan

نَذْر

حكاية هيلانة ويوسف الأرمني

إبداع أدبى (رواية)

المؤلفة

فيبى صبرى

الغلاف

زبير فارس

الطبعة الأولى

رقم الإيداع:

دارهن elles

٥ش الطيبرسى – قصر العينى – بجوار كلية الصيدلة-القاهرة

تليفون:0223682023

الايميل:kaggen1900@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة لدارهن elles وللمؤلفة

t.me/qurssan

نَذْر

حكاية هيلانة ويوسف الأرمني

فيبى صبرى

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الختم الأول

-

t.me/qurssan

-١

كان ذلك زمن الحرب العظمى في تاريخ البشرية. أوروبا تعاني المحارق، وأفريقيا تمثل جبهةً خلفيةً للدول المتنازعة في الشمال ما بين تقدم وتقهقر الحلفاء أمام المحور في الصحارى الملتهبة. وقد بدا أن كفة روميل تثقل، إذ يجبر الجيش البريطاني على التراجع المتوالي وخسارة مواقعٍ جديدةٍ كل يومٍ في الصحراء الليبية.

وفي العمق المصري كان زمن التظاهر. التظاهر بأن مصر دولة مستقلة القرار وليست طرفًا في الحرب رغم مواردها العسكرية والطبيعية المُسَخَّرة لدعم جيوش الحلفاء، ثم التظاهر بأن مصر حليفة للإمبراطورية العجوز رغم انطلاق المظاهرات في القاهرة والثغر لتأييد الألمان ودعوتهم لدخول القاهرة!

كان عصر مكافحة الحَفاء التي تبناها جلالة الملك فاروق لتغطية أقدام شعبه، وافتتاح مطعم فاروق الخيري، وارتفاع الأسعار والسخط المتنامي من نقص الغذاء.

تتابعت موجات الهجرة: من الإسكندرية المنهكة بالقصف نحو الأقاليم، والهجرة العكسية من أهالي الصعيد والنوبة إلى القاهرة، حيث هرب الفقراء من الجوع والأوبئة للتمركز بالمقطم والعاصمة القديمة، وفي أشباه بيوت لا تشي باستقرارٍ صارت نواةً لمجتمعاتٍ كاملةٍ فيما بعد، بينما اتجه أفراد الطبقة الوسطى وذوو الثراء المحدود في الأغلب إلى حي شبرا أو العباسية، وذلك سعيًا خلف الحياة المريحة بعيدًا عن شظف الريف، أو طلبًا لتعليم أولادهم في الجامعة المصرية ضمانًا لمستقبلٍ أفضل وكرامةٍ يحفظها المنصب الرسمي لو قُدِّر لهم ونالوه.

تبعًا لتلك الخطة الأخيرة حصل نجيب عبد المسيح شحاتة على شهادته العليا من كلية الزراعة وعُيِّنَ بها موظفًا في مصلحة الري التابعة لوزارة

t.me/qurssan

الأشغال. كان المقدس عبد المسيح يتمنى في الحقيقة إلحاقه بكلية الحقوق تمهيدًا لإلحاقه بحزب الوفد، ومن ثَمَّ الوصول إلى الوظائف العليا من أقصر الطرق، إلا أن نجيب لم يكن من مطامحه العمل بالمحاماة ولا العمل بالسياسة، بالمقابل كان سهلًا عليه تقمص وضع الموظف الصغير بحميةٍ، مثبتًا أنه متدرب كفء لا تعوزه الأمانة ولا خفة الظل، وليس متعجلًا الترقي ولا متلهفًا على الحوافز والبدلات؛ لذلك مال له رؤساؤه وزملاؤه على حدٍ سواء، وبدت حياته مرسومة الخطى شبه مضمونةٍ كأقصى ما يمكن ضمان شيءٍ في هذا العالم وهو لم يتجاوز الثانية والعشرين من عمره.

لم يكن نجيب يمانع في ذلك ولا يتخيل أفقًا أبعد. كان معقولًا في ميوله وأحلامه، يكفيه أن يضمن مرتبًا سيتزايد تلقائيًا مع تقدمه في الدرجة الوظيفية، وأن يعرف بوجود ريع أرضهم في "ملوي" ليرفع عنه هم التوفير للمستقبل، كما أن الترفيه وتزجية الوقت في القاهرة ليسا بالشيء الصعب على شابٍ مثله، فهو ماهر في اكتساب الصداقات والمعارف. كان يقضي أوقات فراغه مع صحبةٍ متباينةٍ في المقاهي، ما بين زملائه من شباب الموظفين ورفاق الدراسة السابقين، لاعبًا الطاولة، قارئًا الجرائد، أو مستمعًا إلى الراديو دون أن يمارس ما يستوجب الإسراف. فلم يفكر في الاختلاف إلى ملاهي عماد الدين أو روض الفرج كغالبية زملائه من العزاب، لما فُطِرَ عليه من طبعٍ محافظٍ يحب أن يسميه المتفكهون "بالصعيدي" إشارةً إلى أصل انتسابه إلى "ملوي". كان يبتسم لذلك التعليل مكتفيًا به؛ لأنه لم يحب أن يفسر إحجامه عن مشاهدة الرقص تفسيرًا دينيًا، ولا أن يقال عنه أنه "مدروش" أو" بتاع ربنا"، فهو لم يكن أبدًا هذا ولا ذاك.

لماذا لم يحب مشاهدة الرقص الشرقي؟ الواقع أن السبب يعود لحقبةٍ قديمةٍ قِدَم وعيه، حين كان طفلًا صغيرًا في بلدته الأم وكان رفاقه الأكبر سنًا يخبرونه بقدوم "الغوازي" وعزمهم الذهاب لرؤيتهن في المولد، فما أن يعرب

t.me/qurssan

لأمه عن رغبته في صحبتهم حتى تتحول ملامحها دائمة اللطف واللين إلى نقيضٍ مخيفٍ من الوعيد والغضب:

- تريد الذهاب إلى مأوى الشيطان بقدميك؟ ستكون هناك تحت رحمته ولن ينقذك منه أحد. إن أردت أن يركبك الشيطان ويجعلك مطيته اذهبْ معهم.

وكان رعبه بعد ذلك كفيلًا بسحق كل فضولٍ لديه بشأن الغوازي. لم يشهد نجيب الرقص في حياته سوى في الأفلام في مراحلٍ لاحقةٍ من مراهقته، وفهم لماذا اعتبرت أمه الراقصات، بكل تحفيزهن للرغبة المكبوتة في المتعة، رُسُلًا للشر وأدوات غوايةٍ، فكان ضميره يقوم بمساومةٍ مريحةٍ تتلخص في إمكانية مشاهدة الرقص بشكلٍ عابرٍ غير متعمد ضمن سياق أفلام السينما؛ لأنه لن يغادر دار العرض أثناء مشاهد الرقص طبعًا، بينما يدين قصد الملاهي بنية التمتع بالرقص الحي مباشرةً.

باتت المساومات هي دَيْدَنه عمومًا فيما يتعلق بوصايا الدين والأخلاق، حريصًا على الأمانة في عمله والتصدق بعشر مرتبه للفقراء وعدم التسبب في الأذى. اعتقد أنه لن يكون مدانًا أمام الله للهفوات الصغيرة، مثل الكذب المنجي، أو سب أحدهم عند الغضب مثلًا، فلابد أن الله يُقدر عدم سيطرة المرء على نفسه عند الغضب، *الله نفسه يغضب*، هكذا قال لنفسه.

عاش نجيب مع أبيه والخادم بباوي الذي تولى كل شئون البيت من غسيلٍ ونظافةٍ وطهيٍ في الشقة المطلة على مدرسة الراعي الصالح للراهبات بشبرا. في كل صباحٍ كان ينهض ليلقي نظرةً مدققةً على زيه ليتأكد من جهوزيته ولمعان حذائه قبل أن يذهب بسرورٍ إلى الفطور، محمولًا بحماسةٍ صادرةٍ عن احترامه الشديد للطعام! كان يحب أن يأخذ نفسًا عميقًا ليملأ صدره بالرائحة المنبعثة من المائدة قبل الشروع في الأكل، مهتمًا بجودة الطعام وتنوعه دون كميته، لذلك لم تصب قامته المهيبة الفرعونية بأي انبعاجات

t.me/qurssan

أو امتلاءات. وبينما كان يسير إلى عمله متمتعًا بهواء الصباح ومناظر الناس والشوارع كان يتذكر بأسى طفيفٍ أمه التي لم يُقَدر لها أن ترى القاهرة قط؛ فقد داهمها الموت وهو بعد طفل في العاشرة، ولا يزال يذكر كيف كانت تردد ألحانًا باللغة القبطية وهي تطعم البط في فناء دارهم الخلفية، وكيف كانت تحكي بورعٍ شديدٍ حكايات القديسين ومعجزاتهم والعذابات البشعة التي تحملوها في سبيل إيمانهم. دقتها في الوصف كانت جديرةً بحكائي المقاهي ولا ينقصها إلا الربابة، فكان الهلع يدهمه حينئذٍ ليسأل بخوفٍ غريزي:

- لماذا لم ينقذهم الله من هذا العذاب وتركهم لمن يمزق لحمهم وينزع أطرافهم ثم يلقي بهم في الزيت المغلي؟

فكانت إجابة أمه الباسمة التي لا تقنعه تمامًا:

- لكي ينالوا الأكاليل في السماء ويؤمن الناس حين يرون قوة إيمانهم .

حسنًا، ربما كانت أمه محقةً لكن ذلك لم يجعله راغبًا بالمرة في أن يكون قديسًا.

مرضت أمه فجأةً بحمى لم يستطع الطبيب تشخيصها، كانت تهذي قائلةً: "يا أم النور... ياملاك ميخائيل"، ومع ذلك فقد ماتت. لماذا لم تحدث معها إحدى المعجزات التي أمضت أيامها تتحاكى بها؟ توقف نجيب حينئذٍ عن الاعتقاد في شفاعة القديسين ملقيًا عليهم تهمة التقصير، لأنه لم يجرؤ على الأقل في أفكاره الواعية على لوم الله لموت أمه. أما ما أدهشه من أبيه بعد الإفاقة من الحزن الكاسح فهو التبدل الذي أصاب شخصه؛ فحَوَّله من رجل غير متدينٍ إلى مواظبٍ على قداسات الكنيسة والصلاة بالأجبية، صائمًا لكل الأصوام زائرًا ومتبرعًا للكنائس والأديرة، كأنه يتمم نيابةً عن زوجته ما عجزت هي عن إتمامه برحيلها مبكرًا. لكن الأثر الأعمق على

t.me/qurssan

حياتهما ظهر بقرار الرجل الرحيل إلى القاهرة وإغلاق بيته بالصعيد، تاركًا أرضه في رعاية إخوته.

في ذلك الصباح البارد من شهر فبراير لاحظ نجيب حركةً شاذةً بالشارع أثناء سيره للعمل، الناس يتلقون منشورات يتولى توزيعها عليهم شباب حسن الهندام لا يبدو عليهم قلق من مساءلةٍ أو إيقافٍ، ينادون بما عجز عن فهمه وجعله يسرع لالتقاط منشورٍ مثل باقي المتهافتين، وما أن قرأ الوارد به حتى أصابه وجوم له مذاق مرير.

كان نجيب يحمل أملًا نقيًا في مستقبلٍ كريم للبلاد دون أن يملك تصورًا خاصًا لكيفية تحققه رغم الحرب المرعبة، ورغم الصراع الأجوف بين الملك والنَّحَّاس، ورغم الدستور الذي يُطبق على استحياء، لكن لا زال هناك حزبٌ وطني يجمع المصريين ولا يفرق بينهم ويحترم أسس الديموقراطية، فالمسألة إذًا مسألة وقت يجب أن يمر قبل أن تصبح الديموقراطية واقعًا فاعلًا وله ثمار تُجنى، هذا ما تربى عليه وتلقنه من أبيه الذي وقع في شبابه على توكيل الشعب لسعد زغلول.

ولكن هذا الأمل كان بمثابة كائنٍ أرضي له متطلبات اللحم والدم من تغذيةٍ ومراعاةٍ وحفظٍ من الأذى، لم يكن محلقًا قَطْ ولا معصومًا ضد النوازل أو محصنًا ضد الموت، ورغم تكرار اللكمات التي وجهها الواقع له بحوادثٍ مختلفة إلا أنه بقي حيًا معتلًا بالشك، فكانت الضربة القاتلة له في ذلك اليوم من فبراير ١٩٤٢ بلا رادٍ ولا شافٍ.

وصفت المنشورات ما حدث من إحاطة الدبابات الإنجليزية بقصر عابدين، ودخول السفير الإنجليزي في حراسة ضباطه ليجبر الملك على الاختيار بين استدعاء النَّحَّاس لتشكيل الحكومة أو التنازل عن العرش، مفسرةً بذلك ما غمض من تولي النَّحَّاس غير المتوقع لرئاسة الحكومة في هذا التوقيت الحرج لكل من مصر و"حليفتها"، جاعلةً من الوضع كله فصلًا هزليًا بنكهة

t.me/qurssan

"بديع خيري"، يزيل بعبثيته أي شكٍ قائمٍ في صاحب السلطة الحقيقي في البلاد حتى إشعارٍ آخر، إنه سفير الإمبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس، هو من يقرر ترك الملك في واجهة الصورة لحفظ الاستقرار والأناقة البروتوكولية، ولكن عندما يتمادى ملك التشريفات فيظن نفسه حاكمًا حقيقيًا يجب حينئذٍ رده لصوابه وإفاقته من وهمه ولو بصفعةٍ قاسيةٍ على مرأى ومسمع من شعبه يستحيل أن يتظاهر أحد بأنها لم تحدث، حتى لو تم التعتيم عليها وحفظها من النشر في الجرائد.

ولكي تتم فصول المهزلة المبكية فإن زعيم الشعب، الذي يطالب في مقدمته بعلاقة الندية وليس التبعية لبريطانيا، يقبل بالمنصب ويشكل الحكومة تحت رعاية السفير بأريحيةٍ أجلب للهذيان من كل ما مضى من تاريخٍ أسود في الاحتلال. ما الداعي إذًا لادعاء أن الملك يحكم مصر، وبأن حزب الوفد هو حزب الشرف والنضال، وأن وجود الإنجليز في القناة مجرد إجراءٍ احترازي بسبب الحرب، وأن الدستور هو القول الفصل فيما يجب أو لا يجب تطبيقه، وأننا دولة حرة في تقرير مصيرها! ما الداعي للاكتراث أصلًا بأي شيءٍ يحدث في البلد أو خارجها ما دام أحد لا يملك أن يغير في معطيات هذه الأحداث قيد أنملة و بريطانيا العظمى في النهاية هي من تقرر مصيرنا شئنا أو لم نشأ، حتى لو لم تفز بريطانيا في الحرب، ستأخذ ألمانيا أو إيطاليا مكانها، ومتى لم تكن مصر مستباحةً لكل من يخطر بباله افتتاحها أو امتطاؤها! في ذلك اليوم أصبحت متابعة أخبار الساسة وتصريحاتهم تؤذيه كزوجٍ يجرحه سماع أخبار زوجته التي خانته على الملأ.

وصل نجيب عمله متأخرًا فلم يجد من يكترث له لعلو وطيس المناقشة بين الموظفين:

- لقد جن الإنجليز من تقدم روميل ولذلك يتصرفون بهذا التهور. لم يعد لديهم وقت للدبلوماسية. إنهم على شفا الهاوية.

t.me/qurssan

- لقد شككت من البداية في توقيت تولّي النَّحَّاس للوزارة، وأن تترك له حرية تشكيلها بالكامل من الوفديين.
- ولكن أن يوافق النحَّاس على تسلم منصبه من أيدي الإنجليز. إن لم تكن هذه هي الوصولية فماذا تكون إذًا؟
- وهل بمقدوره أن يترك البلد للفوضى بسبب رعونة الملك؟ ألم يشجع المظاهرات الداعية لانتصار الألمان فأثارهم عليه؟
- اخفضْ صوتك للحوائط آذان. ما رأيك يا نجيب أفندي؟
ما زال قانطًا مصدومًا، قال بصوتٍ شارد محاولًا عقد مساومةً أخرى:
- ملعون أبوهم كلهم.
أصيبوا جميعًا بالصدمة إزاء هذه البذاءة الصريحة غير المعتادة. يكمل نجيب:
- ما وقع قد وقع ولن نغيره حتى لو بقينا نتناقش ونتعاطى التحليل إلى يوم القيامة. ما الذي نعرفه من خفايا أي شيءٍ؟ ما زلنا أغرارًا لا نعرف صالحنا كما يبدو، ومن الأفضل أن نترك الكبار الخبراء يقررون لنا. ربما خطر له هذا الآن فقط. هدد الإنجليز بإلغاء معاهدة ٣٦... أي احتمال ممكن.
التقط أحدهم الفكرة الأخيرة وتشبث بها قائلًا:
-الله ينور عليك... هذا ما قلته. الرجل مُكرَه بالضرورة، كما أنه لم ينلْ سوى حقه الطبيعي الذي حرمه الملك إياه ظلمًا.
شاكسه آخر قائلًا:
-يا سلام... مُكْرَه على رئاسة الوزارة، والوفديون مُكْرَهون على الهتاف بحياة السير لامبسون مع النَّحَّاس؟ يالهم من مساكين فعلًا!
-هؤلاء صنيعة القصر لتأليب الشعب على الوفد.
-تُرى ماذا سيكون موقف الإخوان الآن؟ لقد بايعوا الملك من قبل على المصاحف فهل سيؤازرونه الآن بعد هذه الكسرة؟

t.me/qurssan

-بعد أن قضى حسن البنا شهرًا في سجن الأجانب بنهاية العام الماضي؟
أشك. هل قرأت ما كتبه في جريدتهم موجهًا للوزارة السابقة؟ إنه ينصب نفسه مكان شيخ الأزهر واعظًا وناقدًا، مطالبًا بحكمٍ إسلامي، كأن الحكم الحالي ليس كذلك.
هنا طلب نجيب قهوته لينشغل في رشفها مكتفيًا بالاستماع.
-ولكن الرجل لم يخطئ في دعواه. هل من الحكم الإسلامي أن تظل بيوت الدعارة مرخصةً بحجة الترفيه عن جنود الحلفاء، وبيع الخمور نهارًا جهارًا، والسفور الذي انتشر انتشار النار في الهشيم؟ لقد أُرسِل لصحوة هذه الأمة.
_لا بأس من منع الدعارة والخمّارات، على ألاَّ يمسوا تحية كاريوكا بسوءٍ.
كان نجيب هو من ألقى هذه المزحة الأخيرة ليحد من التوتر العام، وبالفعل هدأ احتدام النقاش وقد انتهى بضحكةٍ هنا وقفشةٍ هناك، انصرفوا إثرها لأداء أعمالهم وكأن شيئًا لم يكن. وعندما عاد نجيب إلى البيت وجد المقدس عبد المسيح عاكفًا على قراءة الكتاب المقدس في انتظاره لتناول الغذاء. كان المقدس لا يزال يرتدي الزي الصعيدي التقليدي ويحتفظ باللهجة الصعيدية، بخلاف ابنه الذي صار قاهريًا بالكامل عدا لقب"آبا" القبطي الذي يناديه به فيما بينهما بينما يلقبه بـ"بابا" أمام الناس. كان الأب دائمًا هو من يفتتح الحوار مع ابنه سائلًا إياه عن أحواله وما يحدث في العالم من تطورات؛ لأن الرجل لم يكتفِ بما يقرأه في الجرائد ويسمعه من قدامى الوفديين، واعتبر ابنه همزة وصل بينه وبين الأوساط الشابة خارج البيت والكنيسة، فكان نجيب يسرد عليه ما يتناقله الناس من إشاعات أو آراء.
وفي هذه المرة كان نجيب يتحدث بحذرٍ مشفقًا على أبيه من الصدمة لتعلقه بالوفد وإيمانه بنقاء القادة، لكن المقدس لم يدلِ بتعليقٍ واكتفى بتقطيبةٍ وهزتين من رأسه قبل أن يقول مغيرًا الموضوع:

t.me/qurssan

-بباوي،افتح الراديو على الإذاعة الإيطالية ونحن نأكل، سيذيعون أغاني عبد الوهاب الآن. اسمع يا نجيب، هناك موضوعان أريد مكالمتك بشأنهما؛ أولًا، هل تعرف بيت مدارس الأحد في روض الفرج؟ سأعطيك مبلغًا من المال لتذهب وتعطيه للأرشيدياكون حبيب جرجس. أنت تعلم أن الأسعار في ارتفاعٍ كل يوم بسبب الحرب، ولا أريد لخدمتهم أن تضعف أو تتأثر. أريدهم أن يستمروا في توزيع المطبوعات على الأولاد وتعليمهم دينهم كما ينبغي. لا يدرك أهمية ما يفعلونه إلا من حُرِم منه مثلي، ففي كنائس الصعيد بأيامنا لم يكن هناك من يكترث للأطفال. نشأنا لا نعرف يميننا من شمالنا، وصرنا تربةً خصبةً لعمل الإرساليات الكاثوليكية والبروتستانتية، مقتنصين منا العشرات اعتمادًا على جهلنا أكثر من أي شيءٍ آخر. رسوخ الأجيال القادمة يعتمد على ما يفعله حبيب جرجس وخُدَّامه الآن.

-حسناً، لك ما تشاء يا آبا.

-الموضوع الثاني يتعلق بك أنت، لقد آنَ أنْ تتزوج. لا يوجد ما هو أفضل من الزواج في سِنٍ مبكرةٍ ما دمت بصحةٍ جيدةٍ ولا يوجد ما يمنعك. والانفلات ليس مستحيلًا مهما بلغت أخلاقك من صلابة وتحكم بالنفس في مدينة مفتوحة والفرص متاحة يسيرة. لا تحمرْ خجلًا. أنت لست فتاةً. ها، مارأيك؟

كان مشروع الزواج يبدو له دائمًا حلمًا مؤجلًا بعيد الحدوث مثل ترقيةٍ أو علاوةٍ عليه أن يمضي سنوات من العمل حتى يستحقها، فإذا به على بعد خطوة لا أكثر. أبهذه السرعة؟!

-هل لديك شروط معينة في العروس؟

-لا أريد الزواج من القريبات في البلد. أنا أريد فتاةً متعلمةً.

كان هذا أول ماخطر بذهنه، سيصعب هذا الأمور قليلًا.

t.me/qurssan

-ظننت هذا، لكن أنصحك بأن تكون لك اليد العليا فلا تكون جامعية مثلك. عمومًا عدم وجود امرأةٍ بالبيت سيصعب الأمر، لذلك سأكلم أبانا جورجيوس؛ فهو يعرف أُسر المنطقة وقادر على تسهيل الأمور.

عند الغروب خرج نجيب حاملًا النقود مُيَمِّمًا شطر روض الفرج لتنفيذ طلب أبيه قبل التوجه لمقابلة أصدقائه، وفي الطريق شاهد أفيش فيلم "انتصار الشباب" من بطولة فريد الأطرش وأسمهان. نظرَ بعينٍ حاسدةٍ للصورة الملونة المثالية ذات الخدود الموردة والعيون الجذابة والشعر الطويل المصفف بأناقةٍ مستفزةٍ. ما الذي تشعر به الفتاة إذا ما تقدم لها خاطب؟ هل الفتيات مولعات بالتفكير في الجنس كالرجال وينتظرنه بشغف؟ أم أنهن لا يكترثن له؟ إن خبرات بعض أصحابه مع المأجورات لا يمكن الاعتداد بها في معرفة دواخل الفتيات الشريفات ربيبات البيوت. كم تبدو له المرأة الآن لغزًا يتوق إلى هتك ستره! وكم يبدو غريبًا على بداهته أن يكون الله هو من "صمم" الجنس في المقام الأول!

وصل إلى بيت مدارس الأحد فوجد درسًا قائمًا لبعض الشبيبة عن محبة الأعداء وعدم مقابلة الشر بالشر، يلقيه عليهم شابٌ يافع لم يتم العشرين وإن كان الذكاء يلتمع بارقًا في عينيه ويرن في نبرات صوته الواثق المتحمس:

-إن أعداءنا مرضى. من يكرهك ويَحيك ضدك المؤامرات مصاب بداء الخطية ومغلوب من الشيطان؛ فيجب علينا أن نصلي من أجله لا أن نكرهه، وندعو الله أن يشفيه من التشوه الذي لحق بروحه التي خُلقت نقيةً سليمةً. لهذا نحب أعداءنا ونبارك لاعِنينا؛ لأننا مطالبون بأن نكون نور هذا العالم المليء بالظلام.

ثم لمحه الفتى مترددًا عند الباب فاستأذن الأولاد وأقبل إليه باشًا مُبادِئًا:

-مساء الخير، تفضل، أي خدمة يمكنني تقديمها لك؟

ابتسم نجيب تلقائياً إزاء اللطف والجرأة المجتمعين في هذا الشاب، أجابه:

t.me/qurssan

-كنت أريد مقابلة الأستاذ حبيب جرجس لشأنٍ خاص.

-للأسف هو لا يأتى إلى هنا في هذا اليوم؛ اليوم هو في الكلية الإكليريكية في مهمشة. إن لم يكن الموضوع عاجلًا يمكنك أن تأتي غدًا في السادسة مساءً.

-حسنًا، سآتي غدًا. معذرةً للسؤال ولكن هل أنت مدرسٌ بالإكليريكية؟

ضحك الشاب من الافتراض وقال:

-كلا، لقد التحقت فقط بإعداد الخدام ثم أوكَل الأرشيدياكون حبيب إليَّ مهمة التعليم هنا وفي كنيسة مسرة.

-ولماذا لا تكتفون بالتعليم في الكنائس؟

بدا على الشاب قلة الرغبة في الإجابة لكنه صرح بها على أي حالٍ:

-المشكلة أن بعض الآباء الكهنة، أحيانًا، يرفضون عقد مدارس الأحد داخل الكنيسة ظنًا منهم أنها مجلبة للفوضى والضجيج! لذلك أتينا بالأولاد إلى هنا.

-هل أنت موظفٌ إذًا؟

-لا، أنا طالبٌ بالسنة النهائية بالتوجيهية.

-أتمنى لك التوفيق إذًا، إلى اللقاء!

-فرصة سعيدة، شرفتنا يا أستاذ...

-نجيب عبد المسيح، ومد يده يصافحه، فصافحه الفتى باسمًا.

-وأنا نظير جيد، إلى لقاءٍ قريب بإذن الله.

توارت قليلًا حيرته بشأن الزواج مفسحةً المجال لقلقٍ مشوبٍ بالضيق والحسد. ها هو يقتصر دوره في الكنيسة على حمل المال، الذي يخص أبيه، إلى الذين حملوا على عاتقهم، دون تكليفٍ من أحد، إزالة الظلام بما يحوونه من نورٍ.

يا لها من مهمة! ولكن، هذا الفتى الذي يُعلم بثقة العارف المجرب، هل يحب أعداءه ولا يحاول دفع الشر عن نفسه؟ هل يقابل الإساءة بالإحسان ويرد

t.me/qurssan

على من يسبه بالبركة؟ أيُّ رجلٍ سليم العقل متزن النفس يتلقى الإهانة بالغفران والتنازل عن الحق؟ سأذهب إذًا إلى الجحيم إنْ كان الانتقام لكرامتي سيحول بيني وبين السماء. إن من يبلغ هذه الدرجة من التسامح لهو من مرتبة الرسل والقديسين أو هو -سامحني الله- معتل النفس غير سوي.

في طريقه إلى المقهى مر بمنزل صديقه نسيم غبريال لاصطحابه. كان الأخير زميلًا سابقًا بالدراسة وفضل العمل بالبكالوريا، ليس زهدًا في مشقة الدراسة، ولكن لعجز أسرته عن مكابدة سنوات تالية من الانتظار حتى يستطيع الاضطلاع بدوره في تخفيف أعبائهم المادية. كان نسيم مع ذلك طَلْق الوجه هادئًا، يريح من يتطلع إليه بابتسامةٍ وادعة وملامح تشي بطفولةٍ لم تنضج بعد. لا يحمل ضغينة ولا يلعن حظه. يتمنى صادقًا أن تتحقق مرام أصدقائه ولا يمانع أن ينعموا بما حرم هو منه من مباهج لا يملك ترف اقتنائها. أراد نجيب لو أن صديقه يملك قدرًا أقل من الكبرياء يسمح له بمساعدته في المسئولية الملقاة على رأسه، إذ صار وحده بعد موت والده دون أن يترك معاشًا، قائمًا بدور رب الأسرة المكونة من أمه وثلاث أخوات، وذلك من مرتبه الحكومي والعمل الإضافي كمسؤول حسابات بإحدى الصيدليات.

صغيرةً وقنوعةً كانت مباعث سروره؛ لاتزيد عن فنجان قهوةٍ مع صحبةٍ ليلًا أو شراء الكتب المستعملة على فتراتٍ متباعدة لإرضاء شغفه بالقصص التاريخية والملحمية، وتعويض ما أجبر عليه من اختصار للتعليم. لأدبه ولأمانته ولبشاشته اكتسب نسيم حظوةً خاصةً لدى الصيدلي الأرمني الذي يعمل لديه؛ فكان ذاك ينعم عليه بعلاواتٍ خاصة في الأعياد، ولم يمانع نشوء صداقةٍ بينه وبين ابنه الوحيد الطالب بكلية الطب، فكان نسيم هو

t.me/qurssan

من عرَّف نجيب بيوسف أرتينيان، ليحتل الفتى الأرمني موقعًا فريدًا في الجماعة مع كونه آخر المنضمين إليها وأصغرهم سنًا.

ضمت جماعتهم طالبًا آخر هو مراد دانيال، الزميل السابق لكل من نجيب ونسيم بالمدرسة الثانوية، يهودي الديانة بحكم المولد، أرستقراطي النشأة بحكم ثراء والده المالك لمحلات الذهب، وماركسي الهوى بحكم تأثره بأستاذه الفرنسي في كلية الحقوق، وقد بات هذا الهوى يرقى إلى مستوى الإيمان البديل.

تمتع مراد بجاذبيةٍ خشنةٍ؛ أحب هو تعزيزها بتنمية عضلاته عن طريق لعب الملاكمة ورفع الأثقال، فبدا أكبر وأنضج من عمره، وعكست ملابسه الأنيقة ذوقًا رفيعًا لم يتأثر بميوله الشعبية. أما يوسف ذو الأب الأرمني والأم الفرنسية فتفرد بجمالٍ "شمسي".

هكذا ظن نجيب بالذات وأسرَّ إلى نفسه بذاك الوصف منذ رآه للمرةٍ الأولى، فكيف بغير ذلك يمكن وصف ما لا تمل من النظر إليه ولا يمكنك الخروج من مجال تأثيره؟ تلك البشرة العاجية المضيئة فوق ملامحٍ مستقيمة منحوتة، تقف على الحد الفاصل والجامع بين الحدة والرقة، الرجولة والنعومة، يؤطرها الشعر البني الغزير كإكليلٍ نوراني يحيط بوجهه، وأخيرًا العينان المظللتان بكثافة أهداب داكنةٍ تناقض بريق الحدقتين ذاتا اللون العسلي. أحب نجيب يوسفَ محبةً خاصةً مبطنةً بعطفٍ أبوي، وافتخر بصحبته كأن له فضل ما في جماله، دون أن تعكر محبته تلك الغيرة التي يحملها للممثلين وأهل الغناء، لأن المقارنة أصلًا ببساطة لم تكن واردةً. وهل يغار البشر مهما تباينت طبقاتهم من الطبيعة! هذه حماقة بلا شك.

وجد نجيب سلامه الداخلي في النظر لكل ما هو جميل، والاستماع إلى كل ما يطرب مستخدمًا حواسه بكامل قوتها وأقصى طاقتها، كأنه في سباقٍ يسعى إلى إحراز أعلى النقاط فيه قبل انتهائه، ممتنًا بشدة لمن لهم الفضل في صنع

t.me/qurssan

وابتكار ما يُقبل هو على استهلاكه بشغفٍ، وكان يوسف بمثابة تجسيدٍ حي لكل ما أحبه وتعلق به من رفاهيةٍ حسية.

وصل هو ونسيم إلى المقهى ليجدا كلًا من يوسف ومراد في انتظارهما.

-وأما بعد، أيها السادة، ها قد جاءنا نجيب اللبيب ليشرح لنا دوافع الوفد الهُمام لقبول تشكيل الحكومة جالسًا فى حجر... آسف... أقصد على دبابة السير لامبسون.

كان الهاذر بهذا الاستقبال هو مراد، وكان يعرف بحماس نجيب العائلي للوفد؛ فراح يغمز هازئًا بما اعتبره فضحًا لتهافتهم على السلطة وتضحيتهم في سبيلها بما أعلنوه من مبادئ. غالبًا كان مراد يتخذ موضع المرشد المثقف لأصحابه كابتًا في نفسه شعورًا بالتفوق على ما يراه رجعيةً في ميولهم، وحال دون نفورهم منه ما امتاز به من خفة ظل تكسو سخريته منهم، إلى جانب شهامته عمومًا في الجد .

قال نجيب وهو يجلس واضعًا طربوشه على المائدة:

-ليس لديّ يا أستاذ مراد أي تفسير لسلوك الوفد ولا أهتم مثقال ذرةٍ، وأنصحك أن تكف أنت أيضًا عن الاهتمام.

-لا أصدق أذني، هل تنكرت لحزبك؟ ألم تفكر في الانضمام له يومًا ما؟

-نعم، فكرت لزمنٍ أطول مما ينبغي، لكني لا أظن أنني كنت مترجمًا الفكر إلى فعل. أبي منتمٍ للوفد عاطفيًا وماديًا بما يكفي كلينا معًا ولا أرى أي عائد ملموس من ذلك. هَبْ أن غارةً داهمتنا الآن وقُتلنا في موضعنا، أية منفعة نكون قد جنيناها من تأييد حزب ونبذ آخر؟ ما هي إلا طرابيش تُستَبدل على الرأس المنحوس نفسه دون أن تقدر على أن تزيد أو تنقص شعرة في هذا الرأس. كأني كنت أدرك هذا في قرارة نفسي منذ زمنٍ ولم أنتبه له إلا هذه الساعة. ألم يقل توفيق الحكيم كلامًا مشابهًا عن ملهاة الأحزاب في مصرنا الحبيبة؟

t.me/qurssan

فتح مراد الطاولة قائلًا بصوتٍ مرتفع كعادته:

-بعض فلسفتك يعجبني يا نجيب. أخيرًا وجدتُ من يدنو من فهم مهزلة السياسة في بلادنا وإدراك أن المستقبل ليس للأحزاب البرجوازية. ينقصك فقط الانتقال إلى المرحلة التالية والكف عما أنت فيه.

-وما هذا الذي أنا فيه؟

_حضرتك لاتزال غرًا من الناحية الفكرية وهذه فضيحة في ظل الصراع الحالي. متى تمارس التفكير حقيقةً وتقتنع بالمذهب المنطقي الوحيد القابل للتطبيق في هذا العالم؟ هذا الكلام لكما أيضًا.

قال وهو يشير إلى نسيم ويوسف الذي تدخل قائلًا بابتسامةٍ مليئة بالتوقع:

-أنت تقصد طبعًا المذهب الاشتراكي لكارل ماركِس وإنجلز، وبالتالي أنت مستعد للتنازل عن كافة المزايا التي ضمنها لك مولدك لأحد كبار البرجوازيين.

ابتسم مراد متمهلًا في رده، محاولًا اِسْتِكْناه مدى ما في سؤال صديقه من جدٍ واستفزازٍ، ثم قال ببطءٍ محافظًا على مظهر الرزانة:

-أنا لم أفتخر يومًا بهذه المزايا، وعندما يحين الوقت سأتنازل عنها أو هي ستزول تلقائيًا.

قال نسيم:

-أتعرف أنك ستشبه عندئذٍ أشهر القديسين؟ الأنبا بولا، الأنبا أنطونيوس، وغيرهما ممن تنازلوا عن ثرواتهم للفقراء، مهلًا... أنت لا تعرف أي منهما، لنقل مثلًا روبن هود.

قال نجيب ممتعضًا :

t.me/qurssan

-روبن هود كان يسرق الأغنياء، لا يتبرع بماله الخاص، ثم لماذا يعطيني الله ثروةً إذا كان يريد مني التخلي عنها؟ ألم يقتصر المطلوب منا ومنكم أيضًا، متوجهًا لمراد، على العُشر؟

قال مراد متحمسًا:

-السؤال الحقيقي هو:ما الذي عاد على هؤلاء الفقراء من هذا الإحسان العاطفي؟ لقد نالوا انفراجةً مؤقتةً تبقيهم على حالتهم الأصلية من العوز.

أسند يوسف رأسه ليديه المرتكزتين على المنضدة وراح يرمق الشارع قائلًا بصوتٍ هادئ:

-أنت تريد أن تساوي بين الجميع وأن يتلقى كل فرد النصيب العادل مقابل إنتاجه، ولكن كيف يمكن قياس عائد النبوغ؟ كيف تقيم مدى إنتاجية الفرد مثلًا في العمل الفكري؟ ثم ألا ترى أنكم تتجاهلون الفروق الفردية شديدة الخصوصية؟ وهل يعجبك حقًا النموذج الذي يعطيه ستالين عن حكم البروليتاريا؟

-أخطاء الاشتراكية، إن وُجدت، لن تقارن بخطايا الرأسمالية. كل نظام سياسي قادر على تصحيح نفسه مع الممارسة القائمة على الإخلاص للمبادئ.

صفق نجيب بيديه داعيًا النادل وهو يقول:

-مهلًا ورفقًا بنا. لن يتحول ملتقانا لندوةٍ سياسيةٍ، ولماذا أشم رائحة فاشية في طرحك يا أستاذ مراد؟ أنت تقول أن مذهبك هو الوحيد المنطقي القابل للتطبيق، هل أنت متأكد تمامًا؟ هل أنت مستعد للموت دفاعًا عن اعتقادك هذا؟

حلَّ عليهم صمتٌ محمل بالتفكير لثوانٍ قليلةٍ، قال يوسف شاردًا دون أن ينظر لأصحابه:

- قد لا يكون بالضرورة موته هو.

t.me/qurssan

بدا على مراد التوتر وهو يقطب قائلًا:

-ماذا تعني يا يوسف؟

اعتدل يوسف في جلسته ولم يتخل عن هدوءه الباسم وهو يتكلم كأنه يدلي برأيه في عرضٍ مسرحي:

-حزب الطاشناق الاشتراكي في أرمينيا وصل للحكم بانتخاب الشعب بعد كفاحه ضد الدولة العثمانية ونيل الاستقلال. أتعرف كم دام الحكم الديمقراطي الاشتراكي في بلادنا؟

لم يجب مراد وإن لاح توجسه جليًا من مسار الحوار. أردف يوسف قائلًا:

-لقد حكم حزب الطاشناق لمدة عامين، ثم اجتاح الجيش الأحمر البلاد وقبض على أعضاء الحكومة المنتخبين، وتخلص منهم بالسجن والتنكيل والإعدام. أيمكنك أن تخبرني بالمقصد السامي للجيش الشيوعي وراء فعلته؟ وأي فارقٍ يصنعه الهدف ما دامت الوسيلة الدامية واحدة؟ كأنك تقول: أنا أعرف ما هو الأفضل لك فدعني أحكمك، وإلا فأنا مضطر للأسف لرعاية مصالحك رغمًا عنك حتى لو قتلتك! ما الفرق بين ستالين وهتلر مثلًا في هذا الصدد؟ هتلر يريد أن يحكم الآريون العالم وستالين يريد أن يجعل من العالم كله جمهوريةً سوفيتية. هتلر يرتكب التطهير العرقي وهناك طبقة كاملة من مُلاك الأراضي في روسيا تم التخلص منهم بالنفي والاغتيال، عدا تروتسكي طبعًا الذي تم تعقبه وقتله في الجهة الأخرى من العالم.

اِحْمرَّ وجه مراد وفقد هدوءه قائلًا بعصبية:

-لم أعرف أنك متعمق في تجربة الكومنترن إلى هذا الحد، ولكن ما هو مصدر معلوماتك؟ فيما عدا ما يخص أرمينيا، وإن كان كل ما قلته بحاجةٍ للدراسة والتدقيق... لا أنصحك بالاستماع إلى دعاية الدول الاستعمارية في هذا الشأن .

t.me/qurssan

كان كل من نجيب ونسيم متحفزًا تخوفًا من رد يوسف وانقلاب اللقاء إلى شجار، فكانت دهشتهما عظيمة عندما ضحك يوسف فجأةً قائلًا:
-لو ترى نفسك في مرآةٍ الآن! لماذا تأخذ على عاتقك مسئولية الدفاع عمن لا يمثلونك في شيءٍ؟ أنت تظن فقط أنك تؤمن بما يدعون إليه، لكن الأمر لا يستحق هذا التعصب. أنصحك ألا تعتنق اعتقادًا ما قبل سن الثلاثين. استرخِ قليلًا واستمع إلى عبد الوهاب، فهو أولى بحسن الانصات، وما يجب أن تحْفَل به الآن في عمرك هذا. عبد الوهاب عرض فيلمه الجديد "ممنوع الحب"، ماذا؟ ألم يره أحدكم بعد؟ تفوتون على أنفسكم متعًا لا سبيل لتعويضها. أشكر الله على عبد الوهاب في هذه الأيام الرديئة.
وعاد لجلسته الأولى متطلعًا إلى السماء مغنيًا مع الصوت الصادح من الراديو:

جفنه علم الغزل ومن العلم ما قتل

فحرقنا نفوسنا في جحيم من القبل

ارتفعت أصوات كل من نجيب ونسيم ضاحكةً مهللةً إزاء صوت صديقهما الذي يباري وجهه جمالًا ويؤدي اللحن صحيحًا كمحترفٍ يغني مع تخته.
ابتسم مراد في النهاية مستسلمًا لرغبته في قضاء سهرةٍ لطيفةٍ دون منغصات وإن شق عليه ألا ينتهي السجال القصير بانتصاره، وقرر أن يستعد جيدًا لتكون ردوده جاهزةً مفحمةً في المرة القادمة.
وما أن بلغت الأغنية الشطر القائل: "كيف يشكو من الظما من له هذه العيون"، حتى أغمض يوسف عينيه وانبرى للغناء كأن حياته متوقفةً على ذلك، بكل رقةٍ ممكنةٍ آسرةٍ، حتى أن المحيطين بهم طفقوا يستمعون إليه، إلى هذا الخواجة ذي الوجه الملائكي الذي يغني لحن عبد الوهاب بهذا الإحساس المتدفق الطبيعي، لكن نجيب عجز عن الصمت تجاه ما يشعر

t.me/qurssan

به، وما أن أتى الفاصل الموسيقي حتى اقترب من صديقه عبر الطاولة وقال هامسًا:

-يوسف... أنت تحب... أليس كذلك؟

رمقه يوسف مرتبكًا لوهلةٍ كمن استيقظ من حُلمٍ، نقل بصره بين ثلاثتهم حائرًا قبل أن يقول بسرعةٍ:

-أنتم جميعًا مدعوون لحفلٍ فولكلوري أرمني الأسبوع القادم في مسرح الأزبكية. أنتم لم تشاهدوا رقصًا أرمنيًا من قبل، أليس كذلك؟

-صدقًا أريد أن أعرف لماذا اخترت دراسة الطب؟

كان هذا مراد الذي لم يستطع كبت غيظه.

-أنت تغني وتأخذ دروسًا في عزف العود وتحضر حفلات الرقص الشعبي... فلماذا؟

بالنظرة الهادئة نفسها أجابه يوسف:

-لكني لن أحضر الحفل يا مراد.

تساءل كل من نجيب ومراد في الوقت نفسه عما يعنيه، فكان نسيم هو من انبرى للإجابة نيابةً عنه:

_لأنه سيرقص فيه، دكتور يوسف- باعتبار ما سيكون- عضو بارز في فرقة الرقص الشعبي الأرمني. أنصحكما ألا تفوتا هذا المشهد.

نهض يوسف واقفًا، وقام بالانحناء أمامهم في تحيةٍ مسرحيةٍ، فلم يتمالكوا أنفسهم من الضحك. بدت الآن أخبار الحرب المقلقة والسياسة الملتهبة بعيدةً نوعًا، ثم لم يجد نجيب مفرًا من طرح الأخبار الجديدة التي كاد ينساها.

-الحق يا إخوان أن المقدس قد قرر أن يقوم بتزويجي وإن كانت العروس لا زالت في علم الغيب. ليست لدي أي فكرة عما ستكونه. ولا أعرف بماذا يجب أن أشعر ولا الدور الذي ينبغي علي لعبه في المسألة.

t.me/qurssan

قال نسيم:

-أما وأنك صعيدي أصيل فانتظرْ ما سيختاره لك القدر، الذي ينوب عنه أبوك، واقبله فرحًا شاكرًا حتى تكافئك السماء.

قال مراد:

-ليس للسماء دخل باختياراتنا. كفوا عن ترديد الأساطير. نحن فقط نُشقِي أنفسنا. لا تذهب إلى خطبة فتاةٍ لا تعرفها يا نجيب. هذه إهانة لآدميتك وآدميتها.

كان لتلك الكلمات وقع بصمةٍ غائرة بنفس نجيب، فعقب سائلًا:

-وماذا أفعل إذًا؟

-حاولْ على الأقل أن تراها وتعرف عنها ما تستطيع قبل أي ارتباطٍ رسمي. هذه نصيحتي حتى لا تندم؛ يجب أن تكون أحرص على تجنب الندم وأنتم لا تطلقون.

حرص نسيم على اصطحاب نجيب في طريق العودة حتى ينفرد به قائلًا:

-هناك ما أريدك أن تفعله إذا كنت جادًا في موضوع الزواج، غدًا أجازة وسآخذك لمن هو قادر على مباركة مساعيك وحفظك من الزلل والندم.

-ماذا تعني؟

-قابلني غدًا في الخامسة والنصف صباحًا وستعرف.

-ماذا؟ إن الشمس لا تطلع إلا بعد هذا الموعد بساعةٍ.

-تدثرْ بما يقيك البرد ولا تخشَ شيئًا .

في البيت كان بباوي قد نام بينما المقدس يصلي في غرفته منتظرًا عودته. دخل نجيب حجرته مكتفيًا بالصوت المصاحب لدخوله كإيذانٍ لأبيه بإمكانية خلوده للفراش.

لماذا لا أصلي أنا أيضًا؟ ربما أرشدني الله لما فيه خيري. هل يقبل الله هذه الوصولية؟ اليوم أطلبه لغرضٍ في نفسي وغدًا أنساه ما أن يقضي غرضي.

t.me/qurssan

ألا يجب أن أحاول معرفته أولًا قبل الحديث إليه؟ "يا ابني أعطني قلبك"، أين وردت هذه الآية؟ إن كنت تريد قلبي يارب خذه بيدك لأني لا أعرف بالمرة كيف أعطيه لك. كما أني لا أعرف تمامًا كيف تراني.

دخل فراشه لينام وهو يطرد عنه هواجس التقصير التي قد تبعده عن الدفء والنوم الفوريين.

لابد أنني سأعرف يومًا ما، ما الذي يجعل الصلاة بهذا اليسر وتلك التلقائية كما هي لدى أبي وكما كانت لدى أمي؟ وكيف يقدمها أحد على الراحة والنوم؟ لكن الليلة يجب أن أنام.

****

رائحة بخورٍ قوية تملأ الغرفة. هل أشعلها أبي أم بباوي؟ هذا بخور مما يستخدم في الكنيسة. من هذا المهيب ذو الطلة المخيفة؟ إنه ينظر إليَّ لائمًا غاضبًا، فلماذا لايحدثني؟ أريد أن أسأله عما يريد ولا أجد صوتي.

****

استيقظ نجيب في الفجر، ولكنه ظل فى الفراش لا يريد مغادرة الدفء. استرجع حلمه الغريب القصير ثم راح يلعن غباءه الذي جعله يوافق على هذا اللقاء المبكر في البرد ويوم الأجازة.

قابل نسيم في المكان المتفق عليه، فبادره بحنقٍ وهو يفرك كفيه:

-خيبك الله يا نسيم على أفكارك وخيبني على طاعتك. أين سنذهب في هذه الساعة؟

-المقطم.

-لابد أن عقلك قد ضاع.

-صبرًا، ستلتقي اليوم برجلٍ فريدٍ لم ولن ترى له شبيهًا.

-وهذا الرجل لا يقابل الناس إلا قبل شروق الشمس؟

-لا، سنبكر لنحضر القداس من أوله، قد يغضب لو وصلنا متأخرين.

t.me/qurssan

توقف نجيب عن السير وهو لا يصدق أذنيه:
-هل ما فهمته خاطئ أم أنك تصطحبني لصلاة القداس؟ هذا هو الأمر الخطير؟ الشخص النادر مجرد كاهن؟!
-قبل أن تتمادى وتندم أحب أن أعرفك أن ذلك الرجل ليس مجرد كاهنٍ، إنه راهب متوحد. كان قبلًا متوحدًا في صحراء وادي النطرون والآن في المقطم، في طاحونة من طواحين الحملة الفرنسية. ليس به أي شيءٍ عادي، سترى ذلك بنفسك.
-توحده وزهده رائعان، لكن هو، كيف سيفيدني؟ وأنا من ظننت أن القديسين صنف منقرض في عصر القصف بالطائرات واكتشاف الذرة. أيعرف ذلك الراهب كيف ستنتهي الحرب؟
-يمكنك أن تسأله، ولكن احذر الاستهانة يا نجيب، لو كنت تريد معونةً حقيقيةً في موضوعِ زواجك اسأله أن يرشدك. قد يعطيك نصيحةً أو إشارةً أو حتى اسمًا لو كنت محظوظًا.
-كيف عرفته يا نسيم؟ لا أعهدك من مرتادي المزارات طالبي البركة.
-هذا أمر مختلف وقائم على الاختبار المباشر. لقد عرفته عن طريق ابن خالتي. حلَّ له مشكلةً تتعلق بامتحاناته. لا فائدة من الحديث عنه. يجب أن تراه وتسمعه بنفسك. ستشعر بكل شيءٍ بمجرد الوجود في حضرته. إنه بمثابة سفير من السماء في هذا العالم.
-تحب المبالغة كمرادٍ لكن في الاتجاه المعاكس! ليس لدي اعتراض على ما تؤمن به، المشكلة تكمن فيَّ. أنا لا أحب الأسرار. أحب أن أكون واثقًا فاهمًا. هناك معضلة عامة خبيثة تؤرقني في عدم وجود قواعد ثابتة أطمئن إليها في معاملات الله معنا، وحتى مع قديسيه أنفسهم، دانيال مثلًا أُنقِذ من الأسود والثلاث فتية من أَتُون النار، بينما رُجِم أرميا ونُشِر أشعياء حتى الموت! هل من يموتون في غارات الألمان مثلًا أقل أهمية ممن يعيشون؟ أم أنهم أكثر

t.me/qurssan

تقوى واستعدادًا للحساب؟ لا شيء يدل على أي شيء. التعاسة والألم يلاحقان الأشرار والأخيار على حدٍ سواء. أتعرف أني كثيرًا ما أصاب بالرعب من تخيل ما سيكون عليه صليبي؟ ألم نُخْبَر مرارًا أنه لابد للمرء من صليبٍ وإلا ما استطاع بلوغ السماء؟ لذلك فإن استقرار الأحوال على منوالٍ هادئٍ خالٍ من الألم لا يطمئنني، لأني أفكر بجزعٍ في المجهول الذي ينتظرني، إذ لا يمكن أن تستمر الحياة على هذا النسق الخالي من المنغصات. لابد من مصيبةٍ ما مختبئةٍ بانتظاري لتجريبي بالألم المنشود وتنقيتي من الشوائب بنيران المحن والمعاناة. هل أصاب بشظيةٍ مثلًا في إحدى الغارات وأتحول لعاجزٍ؟ أم أمرضُ مرضًا يجعلني أعاني ما يتبقى لي من عمرٍ؟ وإذا كانت لدى الله خطة مسبقة ثابتة لحياتي فما جدوى اللجوء للمتشفعين؟ هل يحثون الله على تنفيذ ما سبق وقرر فعله؟ أم يمنعونه عما يراه صائبًا بحكمته المطلقة؟ ما الجدوى فعلًا؟ لو أن هناك جدوى لما ضيعنا الوقت بتوافه الطلبات مثل الزواج، لطلبنا أن تتوقف الحرب ويكف الموت عن حصد الآلاف كل يوم ويرحل الإنجليز وينتهي الفقر والمرض.

-يااااه... لم أكن أعلم أنك بهذا الاضطراب. كيف تعيش بهذا الاحتقان في رأسك؟ ربما يكون الشيء الإيجابي الوحيد بكلامك أنك لم تنكر وجود الله بعد.

-لا أستطيع أن أنكر وجود الله، لأني أشعر به. لا أعرف كيف أصف لك هذا. أنا أشعر بالله ولا أفهمه، وهذا ما يقض مضجعي. أحيانًا أنتظر الموت فقط لأفهم كل شيءٍ، لأستنير وأتغير، لكني أحب الحياة أكثر وأفضل عيشها على فهمها، بل لا أكاد أصدق كل ما فيها من إمكانيات للمتعة، وأحسب أن حياةً واحدةً فقط لا تكفي لاستكناه كل مشتهياتها. أظن أن هذه هي طريقتي لشكر الله على خليقته. لقد صمم الأرض لتكون سارةً لنا لذلك لا أرى الزهد

t.me/qurssan

فيها من حسن الأدب معه، بل لا أرى لماذا يكون المنصرف عنها أعظم فضيلةً ممن يستمتع بها شاكرًا.

-أظن الله يتقبل الطريقين في عبادته؛ طريق المكتفي به راغبًا عن عطاياه، وطريق المقبل عليها بامتنان.

-هذا ماتقوله أنت بقلبك الطروب المتفائل. رُبَّ متشائمٍ لا يرى سوى الله المنتقم الغاضب، وأغلبنا نتذكره رحيمًا حنّانًا إبان ارتكاب معصيةٍ محببةٍ، ثم نتذكر كرهه للخطيئة بعد وقوعنا فيها.

ما أن بلغا المقطم وشرعا في ارتقاء تل الطواحين حتى فوجئا بسيارة جيشٍ بريطانية تعترضهما وتشهر عليهما السلاح، على الفور، تشاءم نجيب متوقعًا الاحتكاك الذي سيودي به إلى السجن،"بهذه السرعة؟!"ردد واجمًا، لكن ماحدث أنهما أعُلما بوجوب المغادرة؛ لأن المنطقة بأكملها صارت عسكرية بسبب الحرب، وغير مصرح لأحد بالتواجد فيها!

اعترض نسيم بأنه زار الجبل حيث الطواحين الأثرية منذ أربعة أشهرٍ فقط، ولم يكن دخولها ممنوعًا، فأُجيب بأن كل من كان موجودًا بهذا المكان أُجبر على مغادرته في نوفمبر الماضي، أي عقب آخر زيارة له بأيام. فهما أن الراهب المتوحد لم يعد موجودًا بالطاحونة وأن عليهما الذهاب من حيث أتيا. ضحك نجيب وهما يهبطان الجبل محملين بالخيبة وقال:

-أرأيت؟ ألا تفكر الآن أن شكي وعدم إيماني هما السبب فيما مُنينا به من فشل مساعينا؟ الرجل غادر المكان قبل حتى أن تفكر في اصطحابي إليه بثلاثة أشهرٍ. معذرةً إن كنت قد أصبتك بالنحس. لا أعرف لماذا أتذكر هذا الآن. حلمت حلمًا غريبًا بالأمس. رجل يرتدي زيًا أسود، بلحيةٍ وشاربٍ، وشعره طويل مرسل على كتفيه، وبعينيه نظرة نارية مخيفة وبيده صليبًا من الجلد. كان يرفعه لأعلى كأنه سيرشمني أو يضربني به، ولم يقل شيئًا.

t.me/qurssan

ابتسم نسيم منتصرًا بارتياح ووضع يديه بجيوبه قائلًا وهو يتقدمه في السير:

-هذا هو الرجل. إنك تصف بالضبط أبينا مينا. لقد زارك ليعوضك عن عدم مقابلته اليوم، لكنه لم يجدك أهلاً للحديث. فسرْ هذا كما شئت الآن

-٢-

-إنهما فتاتان مثالان للجمال والأدب. الكبرى هي هيلانة في عامها الأخير بالتوجيهية، والصغرى تريز اكتفت بالثقافة وقبعت بالبيت، وكلتاهما تلقتا تعليمهما بمدرسة راهبات فرنسية لا أعرف كيف ينطق اسمها.

هكذا افتتح المقدس تنويهه عما وصل إليه بعد مباحثاته مع الأب جورجيوس. صمت لحظةً ثم أردف:

-الميزة في هذه الأسرة أصلها الصعيدي، مثلنا، وهم من أصحاب الأرض في أسيوط. لا أعرف موضع زمامهم بدقةٍ، ولكن الأب أتى القاهرة مقيمًا منذ سبعة عشر عامًا. يمكننا السؤال عن أصولهم هناك عن طريق أعمامك لو نويت. بديهي أن يحرص الرجل على تزويج الابنة الكبرى أولًا، لكن أنا لدى رغبة فى طلب يد الصغرى. يقولون أن الكبرى نابهةٌ للغاية وقد تلتحق بالجامعة، وحتى لو لم تفعل، ستظل شاعرةً بنديتها لك، إن لم يكن تفوقها عليك، فما رأيك يا نجيب بيه؟

ودون أن ينتظر رد ابنه مال عليه هامسًا:

-إنهم يعيشون في شارع الأمير الموازي لنا، عمارة رقم ٧. فكرْ ثم أعطني ردك.

للحظات لبث نجيب مرتبكًا عاجزًا عن الفهم. هل يطلب منه أبوه أن يحاول رؤية الفتاتين أولًا للاختيار؟ أم أنه يذكر العنوان عرضًا؟ ولكن اللهجة التي ذكر بها الأمر تبدو محرضةً متواطئةً، ولن يجرؤ هو على السؤال المباشر. تركه المقدس لمعضلته دون معلومات أو إشارات إضافية كأنه تمم نصيبه من المهمة وأوكل إليه إنهائها، وهذا ما لم يتوقعه من أبيه قط. لقد ظن أن

t.me/qurssan

الأب سيتولى كل شيءٍ بدءًا من اختيار الأسرة والعروس وشروط الزواج وانتهاءً بمكان الإقامة وتاريخ الفرح، على أن يقتصر دوره هو على تنفيذ الخطوة الأخيرة بالخطة الموضوعة مسبقًا. بدا الأمر كله مزعجًا و يحمل على التوتر.

مضت أيام لم يفاتح المقدس فيها ابنه بشأن مشروعه المرتقب، ولم يزد نجيب في تحركه عن أنه صار يوميا يأخذ طريقا محددا ليمر من شارع الأمير أمام العمارة رقم ٧، كأنه سيجد الأختين في انتظاره أمام الباب ليتمكن من رؤيتهما. لكن كل ما اكتسبه هو حفظ الطراز المعماري للبيت ذي النوافذ الفرنسية والشرفات المستديرة والأفاريز المزخرفة. قرر أن يحاول رؤيتهما بالكنيسة يوم الأحد، فهل يساعده أبونا جورجيوس أم يعتبر طلبه جريئًا لا يستحق الإجابة؟

تفهم الكاهن رغبة الشاب في تحسس الطريق قبل أن يقدم على السير فيه. قال له:

-الفتاتان وأمهما يجلسن دائمًا في الصف الأول، ستتعرف إليهن بلا شك. هناك شيء مشترك مميز يجمع ثلاثتهن ولا مثيل له بين بقية مرتادي الكنيسة.

صمت الأب كأنه يزن ما يقوله ويتردد في الاستمرار بالبوح، ثم عقد أمره وقال:

-العينان.

كأنه لم يدرك ابتذال ما يقوله إلا فور النطق به، فصمت ثانيةً مكتفيًا بذلك القدر من المباشرة، لكن نجيب لم يرَ ذلك توقيتًا مناسبًا للتمسك بالوقار، فألح عليه سائلًا:

-ماذا عن العينين؟

هنا همس الكاهن بجديةٍ:

t.me/qurssan

-لن ترى في حياتك كلها هذا اللون. يُقال أن الأم لها جذور يونانية قديمة لكني لا أعرف مدى صحة هذا القول، المهم أن عيون الثلاث فضية حتى أنها تكاد تضيء. لن تخطئهن بالتأكيد. سبحانك يارب.

راح خيال نجيب يتواطأ مع ميوله الطبيعية غير المشبعة فيصب الأختين في شتى القوالب؛ فهما أحيانًا تشبهان أسمهان وأحيانًا إنجريد برجمان، ودومًا هناك البراءة المطلقة في العينين الخاليتين من اللون خلوهما من المعرفة بالعالم الملوث. راح ينتظر الساعة التي ستتحقق فيها رؤياه بلهفةٍ تكاد تؤلم. وفي اليوم المنشود قصد الكنيسة قبل رفع البخور سابقًا أبيه للمرة الأولى، وفي الصف الثاني اختار مجلسه ليستطيع معاينة الصف الأول في الجهة المقابلة دون أن يلفت الأنظار. انتهى رفع البخور والكنيسة نصف فارغة وقد تحول بأكمله للترقب. اضطر أخيرًا أن يحني رأسه بينما الكاهن يقرأ تحليل الخُدام، وراح يفكر بخجلٍ؛ *سامح فضولي يارب، سأركز تفكيري في الصلاة المرة القادمة. لاتعاقبني على ما يبدر مني اليوم.*

رفع نجيب رأسه مع نهاية التحليل وهو يتذكر آخر مرة اشتم فيها رائحة البخور في الحلم. ماذا كانت دلالته يا ترى؟ وبينما هو يفكر بهذه الخاطرة فوجيء بالمقعد الأول وقد صار مشغولًا بثلاث نساء لم يكن موجودات من قبل، فلابد أنهن حضرن أثناء التحليل.

جالسات في هدوء وقد تغطت رؤوسهن بأوشحةٍ بيضاء، لم يستطع رؤية سوى وجه الأم الأقرب إليه في الترتيب، واستطاع أن يلمح البريق الفضي على استحياء وإن كان مطموسًا بلون الشعر الكستنائي الفاتح، فما أن نهضت الابنة المجاورة واقفةً حتى تبدت المعجزة.

التناقض الصريح بين الفضة السائلة في الحدقتين الكبيرتين والسواد الحالك في الحاجبين، والشعر المهيب الذي يحتضن هامتها غزيرًا فائضًا ويصل لأسفل خاصرتها. سُحُبُ البخور التي تطوف حولها كأنما غادرت

t.me/qurssan

المجمرة لترحب بها، زجاج النافذة الملون خلفية لرأسها السامق، كل شيء يبدو كأنما وُجِد فقط لإضفاء لمسة ما إلى أسطورتها المرئية. عيناها تنظران دائمًا إلى الصليب المجسم الذي يعلو الهيكل الرئيسي. أسفل الصليب يقف كل من العذراء ويوحنا والمجدلية. تعلقت عيناه بالمجدلية الحزينة وقد بدأ يلمح شبهًا بالفتاة الشاخصة إليها بإصرار كأنها تتطلع إلى مرآة. لماذا تُرسم المجدلية بذلك الشعر المسرف في الطول؟ هل لأنها أحبت كثيرًا أم لأنها بذلك الشعر جففت قدمي المسيح المبتلتين بدموعها؟

تناوبت على قلبه دفقات الدهشة والخجل، من كان يظن أن في هذا العالم القريب الملموس لحد الابتذال يمكن أن توجد مثل هذه التجليات الهاربة؟ كانت تغمض عينيها أحيانًا ثم تفتحهما وقد التمعت فيهما قطرات، فينتبه على إثرها إلى ما يقوله الكاهن فيثير دموعها. بلغت أشدها وسالت على خدها عندما قيل باللحن الغريغوري المبكي: "أظهرت لي تدبير تعطفك. احتملت ظلم الأشرار. بذلت ظهرك للسياط وخداك أهملتهما للَّطم". وعندها أيقن أنه غير مستحق للتناول. لقد نالت هي الجدارة بدموعها.

هاله أن يجد من يبكي متأثرًا بالصلاة بينما لا يدرك هو شيئًا مما يقوله. ما أروعها وما أتفهه! وما أتفه وأرخص ما كان يطمح إليه! لن يستطيع بعد الآن أن يهدأ ويقنع.

لقد كنت أعمى يا نجيب. لم ترَ قبلًا ما يستحق الرؤية ولم ترغب ما يستحق الرغبة. فهل أنت مستحق أن تدنو وأن تعرف؟ هذه هي هيلانة، ذات الاسم الملكي، لا يمكن أن تكون أخرى.

أدركَ أن القداس انتهى عندما رآها متوجهةً مع أختها وأمها للتناول. لم يجرؤ على التحرك من موضعه ولم يرَ غيرها. فلم يعرف كيف تبدو أختها. كل ما رآه "هي" وخلفها ظلٌ قصير يرتدي ثوبًا من نفس قماش ثوبها. ربما لهذا فقط لمحها. بدأ في النهوض مترنحًا والاستعداد للمضي عندما أخذ الكاهن في رش

t.me/qurssan

المياه وجاءته زخة باردة في وجهه لتوقظه من سباته العقلي وتبعث فيه الخجل المضطرب. ما أقسى الخروج الآن من عتمة الكنيسة الحانية إلى الشارع البارد بنوره وزحامه الخادشين للوحدة! لماذا لا يغلق الباب ليبقى هنا وإياها متطلعًا إليها فحسب، عله يفهم؟

رأى الثوب الأزرق بلون السماء يتهادى مبتعدًا حاملًا ذلك الرأس الشامخ ملتحفًا بالشعر الباذخ. الابتسامة مبتورة واللفتات شاردة طاعنة كأنما تشفق أن تضحك إجلالًا لذكرى دموعها القريبة في القداس. الكبرياء الملكي بادٍ، متحد مع الأنف العالي والجبين الناصع. اضطر لرؤية الأخت الصغرى، نسي اسمها، عندما حاذتها لتتحدث إليها، فبدت في جمالها الطفولي بالقياس إليها كأُهْزُوجَةٍ مرحة تتحدث إلى سيمفونيةٍ. تذكر نجيب تلك الآية التي لا يعرف شيئًا عن سياقها لكنها تتكلم عن حاله الآن: "أنسى ما هو وراء وأمتد لما هو قدام". لن يعود كما كان؛ لقد تغير أو تحدد مصيره في هذا اليوم.

***

t.me/qurssan

الختم الثاني

t.me/qurssan

خرجت مقطوعة "عزيزة" متبخترةً من الهاتف المحمول لتعلن ميقات اليقظة. ترددت أسِنات ما بين الصحو والنوم وهي لا تزال في فراشها، لا ترغب في إغلاق المنبه لتستمع إلى المقطوعة مرارًا. فى النهاية أغلقت الهاتف لتسحب الغطاء فوق رأسها محاولةً تذكر الأسباب المنطقية التي تدعوها إلى النهوض وارتداء ملابسها والخروج لمجابهة العالم، مثل الجرد الذي يجب أن تنهيه قبل انتهاء السنة المالية، وكتابة الطلبيات الخاصة بعيادة الأسنان. قررت بصدقٍ أن تلك الأسباب غير كافيةٍ فعادت لاستئناف النوم، ستتصل فيما بعد بالعمل طالبةً أجازة عارضة. لا تذكر إن كان لديها رصيد كافٍ من الأجازات ولكن ذلك لا يهم الآن.

لم يُقَدر لهذه الخطة أن تنفذ إذ تصاعد فجأةً هدير المحركات وهاجم الحجرة عبر النافذة الموصدة بإحكام. لقد بدأت آلات الحفر عملها مبكرًا اليوم؛ فالذهاب إلى العمل أهون إذًا.

نهضت مسرعةً وفتحت النافذة بتلك اللهفة المازوشية التي تجعلنا أحيانًا نجتر آلامنا ونحدق فيها بملء الأعين. كان الحفار يكمل ما بدأه من انتزاع أحشاء الأرض مختلطةً بجثث الأشجار العتيقة وأشلاء الجذور الضخمة التي تفوق أبيها عمرًا. كان يصنع حفرًا عميقةً قبيحةً تمهيدًا لملء مكان الحديقة القديمة بالأسمنت المسلح وأسياخ الحديد الصلب. دمعت عيناها وهي ترى المقبرة الآخذة في احتلال مقر حديقتها، وهالها تَكَشُّفُ موقع الحفر عما يشبه بحيرةً صغيرةً من المياه الجوفية لم يكن القائمون على العمل مستعدين لها، ومن بين أسنانها تمتمت بسخطٍ شامتةً:

-عليكم اللعنة! اللعنة عليكم جميعًا!

لن تبقى لمشاهدة هذا الطقس الجنائزي طوال النهار الذي يحطم ما تبقى لديها من أعصابٍ تالفةٍ. سخافة العمل أهون.

t.me/qurssan

ألقت تحيةً مقتضبةً على والديها اللذين اعتادا تجهمها الصباحي قبل أن تنزل الطوابق الثلاث وتدلف إلى الشارع .

كان عملها قريبًا، لا يستغرق المشي إليه سوى ربع ساعة، وخلال ربع الساعة تلك حرصت على تجنب أي دراجةٍ قادمة من الأمام أو من الخلف خوفًا من التحرش، وتجاهلت صبيًا تبدو عليه الفطنة والذكاء يناديها معاكسًا بـ"جورج"، وأبقت حقيبة يدها معلقةً على الكتف الموازي للرصيف حتى لا تُخطف منها.

وصلت أخيرًا سالمةً لتدخل مبنى المركز الصحي لحي غرب، المكون من طابقين حديثي البناء، واتجهت إلى الصيدلية لتفتحها. أسرعت تفتح النوافذ وتشغل مروحة السقف للتخلص من الحرارة والهواء الراكد، ثم ارتدت المعطف الأبيض وصنعت فنجانًا من القهوة سريعة الذوبان مستخدمةً الغلاية الكهربائية المخبأة خلف أرفف الدواء، لكي تتجنب ملاحظات التفتيش، وجلست إلى مكتبها لتتناول دفاتر العهدة وتستأنف ما بدأته في اليوم السابق من جردٍ للأدوية.

سرعان ما بدأ المرضى في التوافد لصرف العلاج الذي لا تتعدى أصنافه العشرين اسمًا، وظل العمل الروتيني المتمثل في تسليم العشرين دواءً مصحوبين بإرشادات الاستعمال شاغلًا لها الأربع ساعات التالية. قبل أن يتوقف تدفق المرضى ويتبقى لها تسجيل المتأخر من التذاكر في الدفاتر، وبينما هي منهمكة في هذه التفاصيل، تواتر لذهنها مهربًا مريحًا اعتادت اللجوء إليه كلما اختنقت بدواعي التكرار السيزيفي لعملها؛ وهو تدوين كل خواطرها وشواردها وتجاربها حتى تافه الشأن منها. ربما تصنع منها قصةً يومًا ما!

لنرى ما لدينا...

t.me/qurssan

حب من طرفٍ واحد، استمر طوال أعوام الكلية دون هدفٍ. تزوج الآن بالفعل. انتهى مع تاريخ الصلاحية بالتخرج وتشتت الشمل .

محاولات، دائمًا محاولات، لقصصٍ لم يكتمل أي منها .

بضع ترانيم لم تنجح سوى في تذكير الجميع بموهبة جدتي في المجال نفسه وتفردها.

علاقات أسرية ملتبسة، لكن عادية.

نزعة غريزية للهروب من الزواج، تشبه مقاومة الأمم للاحتلال الأجنبي.

وظيفة تافهة مزركشة بزمرةٍ من المتآمرين المساكين الذين لا تخرج مواضيع نزاعهم عن توزيع المكافآت الشحيحة أو الدس لبعضهم عند المدير لنيل حظوةٍ بائسةٍ.

كيف ينتج عن كل هذا شيئًا مختلفًا عن حبكة المسلسلات المبتذلة التي أسخر منها منذ مراهقتي؟ لماذا ولدت بعد أن كتب آخرون بالفعل كل ما يخطر على بالي من أفكارٍ؟

طرقةٌ قصيرة مألوفة على الباب أنهت حوارها الداخلي؛ قبل أن يُفتح الباب وتدخل منه حبيبة، طبيبة التكليف الشابة، أغلقت باب مكتبها خلفها وهي تبادر صديقتها بابتسامتها قائلةً:

-كيف حالك يا أسِناتي؟ معذرةً لتأخري عليك، لكني وصلت بعد التاسعة، واضطررت للذهاب إلى الدكتور مجدي؛ لأنه كان يحتفظ بدفتر الحضور والانصراف عنده، كأنه يتعمد ذلك في الأيام التي أتأخر فيها. المهم أنه أتحفني بمحاضرته السخيفة عن الالتزام بالمواعيد وأخذ العمل بجدية. كيف يجرؤ على التشدق بأهمية العمل في مركز صحي ليس به خيط جراحي بالطوارئ؟ ولا يوجد به سوى جهاز ضغط واحد سليم نتبادله بين العيادات بالتوقيع كالحرز الجنائي. ألا يخجل من بقائه كطبيب أسرة في خرابةٍ كهذه وقد تخطى الخمسين؟ لن يكف هذا الرجل عن إدهاشي أبدًا.

t.me/qurssan

-بمناسبة الخرابة التي أسعدنا الحظ بالعمل فيها، لقد انتهت صلاحية بعض الأدوية لدي، وأريد منك إضافتها على التذاكر المجانية بخطكِ.
-واااو. تزوير.
قالت وهي تمثل الإنبهار .
-ولماذا لا تعيدينها إلى المخزن أو تتخلصين منها فحسب؟
-هذا مسموح به في حالتي أمصال الثعابين والعقارب فقط، أما الأدوية التي تنتهي صلاحيتها دون أن تصرف فهي مسئولية الصيدلي، عليه أن يبدلها أو يدفع ثمنها من جيبه.
أصدرت حبيبة صوتًا يدل على الاعتراض على هذا المنطق البيروقراطي المريض قبل أن تقول وهي تكتب الأدوية المطلوبة:
-أنت تأمر يا باشا ونحن ننفذ. ما أخبار قصتكِ؟ أريد أن أقرأ ما كتبته حتى الآن.
-لم أكتب شيئًا منذ عشرةِ أيامٍ. ما انتهيت منه لا يمكن أن يصنف تحت الجنس نفسه مع أعمال نجيب محفوظ ودستويفسكي. أغلقي نافذة الصرف ودعينا نستمع إلى شيءٍ ظريفٍ. أمسكت بهاتفها. مارأيك، محمد فوزي أم ماجدة الرومي؟
نهضت الصديقتان للانصراف بعد ساعةٍ، فطلبت أسِنات من حبيبة أن تصحبها سيرًا حتى تمر بمدرستها القديمة.
كانت المدرسة الثانوية للفتيات في الأصل قصرًا؛ كانت استراحةً، أنشأها الملك فاروق لينزل بها عند مروره بالمدينة الصغيرة حينها وعاصمة المحافظة الزراعية الآن. قد تكون هي الشيء الوحيد الذي بقي على حاله، بما في ذلك حديقتها التي تحوي شجر البابايا والسور الحديدي الذي يسمح برؤيتها من الطريق.

t.me/qurssan

وقفت المدرسة/ القصر مكانها بكبرياء أميرةٍ سابقةٍ مزهوةٍ بشبابها الذي لم يهن، كأنها بُنيت البارحة، حديقتها الواسعة المدرجة هبوطًا من البوابة للداخل، الغنية بشتى أنواع الشجر والزهور، تحيطها كثوبٍ ملكيٍ متعدد الطبقات. أسِنات خلف السور تلتقط الصور بهاتفها بدقةٍ واجتهادٍ.

-لماذا تلتقطين صورًا للمدرسة يا أسِنات؟ كنتِ دائمًا تكتفين بالمرور جوارها لرؤيتها.

-لم أكن أشك قبلًا في احتمال زوالها. الآن، لم أعد واثقةً من بقاء شيءٍ.

بجوار بيت أسِنات كانت الحديقة العتيقة تابعةً للكنيسة الكاثوليكية الصغيرة اللصيقة به. كانت الكنيسة موجودة أولًا؛ فلا يعرف أحد تاريخ إنشائها بدقةٍ، أما الحديقة فبدأ غرسها في الفناء الواقع بين البيت والكنيسة عقب سكن جدها النازح من القاهرة بالبيت. كان جدها أحد من ساهموا في زرعها ورعايتها بمرور الزمن، وكانت الأرض كريمةً كأشد ما يكون الكرم في الاستجابة، فمن أشجار الفيكس غزيرة الظلال، لأشجار فاكهة وزيتون ونخيل، إلى زهورالفل والياسمين، وتكعيبة العنب السارحة فوق المدخل والخضروات النامية في بساطٍ ممتدٍ بين الشجر.

بالنسبة لأسِنات كانت الحديقة سابقةً للبدايات. ولدت لتجدها هناك لأجلها. شجرة الجميز الضخمة التي تطاول شرفتها كانت تغويها دائمًا للوصول إلى لمس أغصانها. الجنة التي تأوي لها بمرحِ الطفولة وآلام المراهقة. شريكتها في الصلاة للإله الرقيق الذي أوجد الجمال. رفيقتها في الولع بالموسيقى لدرجة الوجد. أَلِفَت كل شجرةٍ ونبتةٍ وشطح خيالها في كل ركنٍ. انتظرت كل يوم مظاهرات العصافير العائدة إلى أعشاشها وقت الغروب، ورأت في الأشجار أقرب الخلائق للملائكة، فهي لا تملك سوى تقديم الخير فقط عاجزةً عن الأذى.

t.me/qurssan

قبل أن تولد هي، بدأ عدد الكاثوليك في مدينتها، من الأجانب غالبًا، في التناقص تدريجيًا بعد قوانين التأميم والتمصير، وبقي في انحدار مع مرور الأعوام حتى بات قاصرًا على أربع راهبات فرانسيسكيات من لبنان يدرن مستوصفًا لخدمةِ الفقراء. كان وجودهن هناك ورعايتهن للحديقة من مسلمات الحياة لأسِنات، ثم جاء يوم وهي على أعتاب الثامنة والعشرين، حين قررت الكنيسة بيع كل شيءٍ: المبنى والحديقة، و تركُ المدينة لخلوها التام من رعيتها.

على إثر البيع أُغلقت الكنيسة وجاءت الكراكات أول ما جاءت يصحبها القتلة. أمام عينيها المرعوبتين راحوا يوجهون الطعنات للجذوع العتيقة، التي آمنت دومًا أنها ستبقى هناك للأبد، حتى يسهل اجتثاثها. لم يكن الأمر سهلًا؛ فالجذور عميقة الامتداد، والأرض تكاد تنهار مثل فكٍ في الفم تُنزَع ضروسه السليمة. قلب أسِنات عاجز عن تحمل الألم، كضحية حرب حُرمت وطنها وأهلها معًا وباتت في العراء بين ليلةٍ وضحاها. كادت تجن حين تذكرت أنها لم تلتقط قط صورةً واحدةً للحديقة. لا شيء باقٍ هناك ليدل على وجودها يومًا. مع سقوط شجرة الجميز الكبرى، القائمة منذ الأزل أمام شرفتها، بدأت شقوق روحها في الظهور.

كانت احتمالات نشوء تطورات عاطفية في حياتها آخذةً في التلاشي مع الزمن والحيز الضيقين لحياتها معًا. صديقاتها يختفين من حولها بالزواج وبالسفر من بلدهم الطارد للسكان. موهبتها الأدبية المحدودة التي لم تتعدَ يومًا القصائد والقصص غير المكتملة لا تفتح أمامها آفاق الاحتراف ولا تشكل مرفأً ثابتًا تلجأ إليه لتبرير وجودها. والمهنة لا يوجد تطور فيها ولا تحدي. الخدمة في الكنيسة تتقلب وفقًا إلى نوبات الفتور والشكوك التي تتبادل بانتظام موقعها مع الإيمان في قلبها.

t.me/qurssan

كان هناك دائمًا الأب، الدكتور عوني، بحبه المفرط الحامي المقيم للأسيجة والمُطَعَّم بالرعب من أهوال العالم، ففي نطاق أبيها لن تكون هناك أبدًا فرصة لتجربة أي شيءٍ. لن تسافر كما تحلم. لن تذهب وحدها إلى مكانٍ بأي مبررٍ. ستلتزم للأبد بشروط أبيها للأمان. الأمان الذي لا يمكن ضمان ما يكفي منه مهما فعلت؛ كونها "أنثى " و"مسيحية" في الوقت نفسه، في بلد يكره الإناث عمومًا والأقليات خصوصًا. شعرها الطويل الغزير يجب أن تعقصه فوق رأسها لتجنب لفت الأنظار في الشارع المكسو بالمحجبات. المناسبات التي يمكن أن تمتد إلى بعد التاسعة ليلًا لا داعي إلى حضورها. ممنوع ركوب التاكسيات إطلاقًا. لا زيارة إلى صديقةٍ في بيتها خاصةً لو كانت ذات أخٍ. التنزه في الشارع مجلبة للمعاكسات والجلوس في الكافيتيريات والمطاعم غير مرحب به. الندوات المسكينة بقصر ثقافة المدينة غير مسموح التردد إليها لأن الأب لا يعرف الناس الذين يحضرون مثل هذه الندوات!

كان باب الإمكانيات والمطمئنات آخذًا في الموارية على استحياء حتى انغلق تمامًا مع اقتلاع الحديقة. كانت الأم هي من أدرك ضرورة التدخل للحيلولة دون بلوغ ابنتها الكبرى حافة القنوط بعد أن تكررت المشاحنات بينها وبين أبيها، وبعد أن وجدت بالصدفة دواء الاكتئاب الذي تتناوله سرًا، وبعد أن سمعت منها ما يشبه التجديف متخفيًا في ملابس النقمة على قدر الإنسان العشوائي. قررت أن الوقت حان لتغيير أولوياتهم السابقة، القائمة في الحقيقة على قناعات زوجها وحده. استجمعت شجاعتها وفاتحته قائلةً:

-ليديا، صديقة أسِنات التي تعمل في فرع صيدلية "قدري" بشبرا، ستترك عملها لأنها ستتزوج في عين شمس. دعْ أسِنات تذهب للعمل هناك. يمكنها أن تقيم مع فادية ابنة خالتك في الشقة القديمة في شبرا وهكذا لن تقلق من إقامتها في بيت مغتربات. اسمعني جيدًا قبل أن تقرر؛أسِنات قد سبق

t.me/qurssan

ورفضت كل من تقدم لها من محيط معارفنا. كل شباب هذه المدينة من المسيحيين غير صالحين إما من ناحية الإمكانيات أو العمر أو المؤهل، ولن يتغير هذا لسنين قادمة. اتركها ترحل لمكانٍ جديدٍ، في شبرا، سواء في الصيدلية التي يتوافد عليها آلاف البشر أو في الكنائس المزدحمة، كل شيءٍ يمكن أن يحدث.

ذُهِلت أسِنات من حجم التنازل الذي قد يدفع إليه اليأس. ها هو المستحيل يصير ممكنًا وأبوها يدفعها دفعًا للبعد عنه بعد عمرٍ طويلٍ من الحماية المفرطة والحب الغارق في الخوف. مهما كان الدافع الأصيل وراء ذلك التحول الدرامي لن تتردد في اغتنام الفرصة والهرب إلى الفضاء الفسيح الذي بات متاحًا في طرفةٍ عينٍ. ستحقق حلمها القديم بالإقامة في القاهرة، بل في مزار طفولتها القديم، حيث وقف الزمن عند عامها الثالث عشر.

فور وصولها دوران شبرا تداعت الصور والروائح لذاكرتها. راحت تبتسم باستثارةٍ لم تشعر بها منذ تخرجها من الجامعة. كان مجيئها مع أبويها وأختها لزيارة جدتها طقسًا شهريًا استمر حتى وفاتها وهي في الإعدادية. تبدت لها تفاصيل هذا الحي الأسطوري كعجائب الدنيا مقارنةً بمسقط رأسها النائي. تذكرت دهشتها وهي ترى صور المسيح والقديسين ظاهرةً بنوافذ العرض أمام المارة، وكنيسة معمدانية هنا وكنيسة للإخوة هناك وإنجيلية أيضًا. كان كل شيءٍ فريدًا ولا يوجد ما يشبهه في أي مكانٍ آخر. هنا لن تجد من يعتقد أنه يستفزها بمناداتها "جورج"!

وقبل كل شيءٍ، عشقت أسِنات الطُرُز المعمارية للشارع العريق، وتنسمت عبرها رفاهية ذوق للماضي السعيد وحقبتها المعمارية المفضلة:حقبة الآرت ديكو والنيو باروك. ها هو البيت رقم ٧ بشارع الأمير يكاد يصبح أثرًا رغم شموخه ضد عوامل الزمن، بزخارفه المنمنمة وشرفاته المستديرة بأسيجتها من الحديد المطروق، والنوافذ الفرنسية الطويلة المخيفة. نعم. كانت تخاف

t.me/qurssan

في صغرها من النوافذ والشرفات التي توحي بتهديد السقوط أو الطيران دون أن يقلل ذلك من افتتانها بها وبسائر تفاصيل البيت، بدءًا من المدخل الفسيح والسلالم الرحبة الرطبة وحتى أبواب الشقق المزدوجة. لن تعرف أبدًا سر الرجفة المنتشية التي تلم بها إزاء الأبنية العتيقة، كأنها أمام وطنٍ مستقرٍ يعوضها عن غربةٍ إجباريةٍ تخضع لها منذ أن وُجِدت.

بحنينٍ جارفٍ راحت تتخيل الشقة بالغرف الخمس الموزعة على الصالتين دون أن تنسى أي تفصيلة. وقفت أمام الشقة بالدور الثالث تسترد أنفاسها قبل الضغط على الجرس، على يمينها باب ثانٍ يؤدي إلى غرفة الضيوف، بينما يقود الباب الرئيسي إلى الصالة الكبرى. مرت دقيقة قبل أن يُفتح الباب وقلبها يتواثب ترقبًا. ظهرت فادية ذات التسعة وخمسين عامًا وهي ترتدي قميصًا أبيض دون أكمامٍ، وشعرها الأبيض مقصوصًا، قصيرًا، ليحيط بوجهها المحتفظ بجمال أسرة جدتها السائد. كان صوتها حازمًا جادًا وجُملها قصيرةً باترةً تلقي بالرهبة في قلب من يتعامل معها. لكن أسِنات كانت تعرف أن خلف الصرامة البادية يوجد قلب يتسع لكل من يريد المرور، لا أثر به للأنانية.

-أهلًا أسِنات. تعالي.

ألقت أسِنات بنفسها في حضن المرأة دون تحفظٍ ودخلت بحقيبتها قائلةً:

-أوحشتني يا فادية، ها قد جئت أخيرًا لتنغيص وحدتكِ وتكدير صفوكِ. هل تمانعين؟

لم تكن المرأة من هواة المشاهد العاطفية فابتسمت وأدخلت الفتاة بهدوءٍ قائلةً:

-نسيت كم أنت طويلة. عيب أن تكون الفتاة بهذا الطول. شعرك، هذه أول مرة أراك ترسلينه حرًا دون أن تعقصيه أو تضفريه. فما الذي حدث؟

t.me/qurssan

ابتسمت أسِنات التي قامت بحل شعرها فور نزولها من سيارة الأجرة أمام الشارع وقالت:

- تركت البيت أخيرًا. هذا ماحدث. لا أظنك تخافين عليَّ من طول شعري كأبي؟

جلست فادية واضعةً ساقًا فوق أخرى وقالت:

-لا. قد يكون شعرك ملفتًا للنظر أو حتى مستفزًا في مدينتكم، لكن أنتِ هنا ذرة رمل في بحر ولن يلتفت إليكِ أحد. لا أقصد هذا بالمعنى السيء طبعًا. أنتِ جميلة يا أسِنات.

قالتها بلهجةٍ تقريرية.

-كيف حال أبيكِ؟ ألا يزال عصبيًا يتشاجر مع الجميع لأتفه الأسباب؟

-لا تسخري من طبع أبي كأنك في وداعةٍ الحمام. في الواقع أنا أرى شبهًا عجيبًا بينكما مع فارق النشأة. أنتِ نسخة أرستقراطية من أبي الذي عاش معظم حياته طبيبًا في الأقاليم يتعامل مع الطبقة الوسطى والفلاحين.

أشعلت فادية سيجارةً وهي تقول ببساطة اعتادتها وأحبتها أسِنات:

-لهذا أمك هي الزوجة المثالية له، كالساتر الرملي القادر على الصمود أمام أمواج البحر. إنها تصاريف الله بعيدة النظر.

ثم كأنها تذكرت شيئًا قامت بإطفاء السيجارة قائلةً:

-لقد وعدت نفسي ألا أدخن أمامكِ. لا أريد أن أكون أنا من يضع الفكرة في رأسك فتلعنني أملكِ وتقوم بالدعاء عليَّ. أعرف أنها صاحبة اقتراح إقامتكِ هنا وليس أبيكِ.

-يمكنك أن تكوني على راحتكِ تمامًا ولا تخشي مني تقليدك. فأنا أكره رائحة السجائر ولا يوجد ما يغريني بتجربتها.

-أنتِ فتاة طيبة يا أسِنات حقًا. قالتها بالفرنسية بتأثرٍ مشعلةً سيجارةً أخرى بارتياحٍ. لقد أعددت لك الحجرة الكبرى المطلة على الشارع لتتسلي

t.me/qurssan

بالجلوس في شرفتها. الفرش بها جديد وكذلك الدولاب، باقي الأثاث أصبح من الأنتيكات كما ترين، ولم يدخل التليفزيون هنا أبدًا. هل تحبين سماع شيءٍ على الجرامافون؟ ما زال بحالةٍ جيدة.

كانت تعلم الإجابة مسبقًا فنهضت ووضعت أسطوانة لموتسارت بينما أسِنات تلتهم بعينيها كل ما في الشقة من آثارٍ حقيقية. كلها ثقة أن ما من شقةٍ أخرى بالبيت محتفظة بأثاثها الذي يزيد عمره عن السبعين عامًا. صدحت النغمات الملائمة تمامًا للديكور الثلاثيني، وأسِنات تتلقفها انفعالات شتى، مابين نشوة المغامرة واختبار الحرية، وتجربة الإقامة مع شخصية بثراء فادية أستاذة البيانو. مَثلها الأعلى الوحيد بين البشر الحقيقيين الأحياء.

كانتا جالستين في الصالة الكبيرة ذات الكنب التقليدي المرتفع، إلى يمين الباب تستقر غرفة الضيوف ذات الباب الآخر على السلم، والتي تضم الصالون الأنيق المنجد بالقماش الأحمر الداكن والمحاط بالزخارف الخشبية، وإلى جوارها غرفة النوم الرئيسية، وكلتاهما تطلان على الشارع بشرفتين صغيرتين، وإلى يسار باب الشقة، بعيدًا، تقع الصالة الأصغر المعتمة التي تحوي السفرة والنيش ويحيط بها ثلاث غرف، وفي منتصف الصالة الرئيسية مدخل حيث يقبع المطبخ والحمامان. كل الحوائط لا زالت مطلية بالجير الأصفر لم تعرف الزيت قط والنجفة الكبيرة من النحاس الذي فقد بريقه دون هيبته.

أشارت أسِنات برأسها في اتجاه الصالة الصغرى على يسارها وهي تقول:

-وماذا عن الغرفة التي هناك؟ هل هي مغلقة؟

كانت كلتاهما تعلمان أنها تقصد الغرفة الوسطى التي تواجه الداخل إلى الصالة، قالت فادية ببساطةٍ:

-لا. لم تكن مغلقةً في يوم من الأيام.

t.me/qurssan

-وتلك الأشياء التي كانت تحدث، هل توقفت؟

-لا يوجد شيء غير طبيعي هنا، على الأقل لم يحدث شيء منذ أتيت لأبقى مع خالتي قبل وفاتها. كانت تقيم فيها منذ وفاة جدكِ كما تعرفين.

دون أن تقول شيئًا نهضت أسِنات واتجهت بثباتٍ نحو الغرفة، فتحت الباب ونظرت دون أن تدخل. رائحة القدم المعتقة نفسها المنبعثة من جدران البيت كله. لايوجد أي مظهر مميز. سرير متوسط الحجم من الخشب، دولاب مكتنز مخصص لفتاةٍ، ومنضدة، وكرسيان، وشرفة مغلقة مسدل عليها ستائر من القطيفة الخضراء التي تغير لونها واهترأت في بعض المواضع. هتفت فجأةً بفادية قائلةً:

-لماذا لا نجرب أن ننام فيها معًا؟ أريد أن أصل إلى إجابة عن السؤال الذي راودني منذ ثمانية عشر عامًا، عندما عرفت بالقصة. ما الذي سيحدث لو قضيت ليلة بها؟

نفضت فادية رماد سيجارتها قائلةً:

-لكن جدتك بقت فيها أعوامًا طويلةً وحدها دون أن تنوه بحدوث شيءٍ غريبٍ أو شاذٍ بها.

-ربما ملت العفاريت طول البقاء دون تأثيرٍ يذكر في أصحاب المكان. قالت مازحةً. أخبرني أبي أنهم عقب تلك الليلة كانوا يرون الأشياء تتطاير عبر الغرفة كأن هناك من يقوم بقذفها على سبيل اللعب، وأنهم اعتادوا ذلك مع الوقت، ربما كان ما قاموا بتحضيره على سبيل الخطأ أرواح أطفال.

-وربما كان أحدهم يداعبهم دعابةً سمجةً مستغلًا قلقهم. أنا لا أذكر سوى صورٍ غامضة لا يمكن الركون إليها، ولخيال الأطفال دور لا بأس به في الموضوع.

-ماالذي تذكرينه تحديدًا؟

-لكنكِ تعرفين القصة يا أسِنات!

t.me/qurssan

-سماعها الآن سيختلف بالتأكيد عن سماعها في سن العاشرة.
-حسنًا، لقد كنت أنا في السادسة وأبوكِ في السابعة، وقد اعتاد أن يأتي هنا لقضاء الأجازة الصيفية مع خالتي بينما يبقى جدكِ في عمله. وفي يومٍ خرجت أمي وجدتي وخالتي لسبب لا أذكره وتركونا مع الخادمة نلعب في هدوءٍ. كان أبوكِ هادئًا وقتها، وعاد جدي من الخارج بصحبة رجلين، وقد بدت عليه الحماسة الشديدة. كان جدي إسطفانوس على شيءٍ من غرابة الأطوار، لكنه بدا جادًا بخلاف عادته. كان أحد القادمين يحمل في يده لفافةً. عرفت فيما بعد أنها تضم كتابًا، وقال لجدي:
-لماذا لم تخبرني أنه يوجد هنا طفل؟ إن هذا يسهل الأمور كثيرًا ويضمن النجاح -وأشار لأبيكِ- سيكون عليه أن يحضر معنا ليتحدث إليهم، إنهم يفضلون الحديث مع الأطفال. هذا غريب! *توقفت فادية لوهلةٍ.* أرى وأسمع الآن ما أحكيه لك بوضوحٍ كأنه حدث بالأمس! أبدى جدي ممانعةً شديدةً موضحًا أنه لم يكن يتوقع وجود أحدٍ بالبيت، لكن الرجل راح يصر على اقتراحه وهو يؤكد بيقين أنه ما من أذًى يمكن أن يلحق بالطفل وأنه يضمن ذلك بحياته. لم يجد جدي في النهاية مفرًا من الخضوع لإرادة الرجل لرغبته العارمة في إتمام ما هم بصدده. كان ذلك واضحًا في نظراته وأنفاسه المتسارعة، وأخيرًا نادى رفقة الخادمة وطلب منها أن تأخذني للنزهة لمدة ساعتين، وأعطاها نقودًا لتشتري لي ما أطلبه بينما بقي أبوكِ حزينًا لعدم مرافقته لي في الخروج.
عندما عدنا من الخارج كان حال البيت قد انقلب. كانت جدتي تتشاجر مع جدي متهمةً إياه بمخالفة الدين، وكانت أمي عابسةً صامتةً وأمرتني بالدخول إلى الغرفة التي تنام بها خالتي. كانت هي وأبيك جالسين على الفراش وقد اختفى تقريبًا داخل حضنها كأنها تخشى أن ينتزعه منها أحد. وما أن رأتني حتى هتفت بي أن أقترب وراحت تعانقني بشدةٍ أيضًا. كم كانت

t.me/qurssan

رقيقةً! سألته بصوتٍ لا يكاد يُسمع :"ماذا حدث؟" لكنه لم يجبني . فقط في الليل بعد أن انشغل عنا الكبار قليلًا اقترب مني وقال لي"لقد جاء ملاك للغرفة!" . ثم قال أن جدي والرجلين دخلوا به إلى الغرفة وأخبروه أنه سيحضر حدثًا شديد الخطورة لا يحضره سوى قلةٍ نادرةٍ من البشر، وذلك يُعد تكريمًا وإكبارًا له، والمطلوب منه أن يصمت تمامًا ولا يعلق على ما قد يراه أو يسمعه، وأن يتكلم فقط عندما يوجه إليه الحديث مباشرةً سواء منهم أو ممن قد يحضر إليهم. لم يفهم طبعًا ماالمقصود بـ "من قد يحضر إليهم". أخرج الرجل من اللفافة كتابًا ذا غلافٍ أحمرٍ داكنٍ، وبدأ يقرأ منه بينما مساعده يحرق البخور ويضيء الشموع. فكر عوني أن ذلك الرجل يصلي لأنه يردد كلامًا مما يسمعه يُتلى بالصلاة، عرفنا بعدها أنها المزامير، ولكن ما حدث بعد ذلك لم يحدث في أي صلاةٍ أخرى. لقد سمع صوتًا يشبه رفرفة الأجنحة لكنه لم يرَ شيئًا. رأى فقط القارئ يضطرب ويتململ طالبًا ممن حضر الحديث إلى الطفل وإجابة أسئلته. قال له الرجل: "اسألْ يا عوني. هل كامل موجود في الفردوس أم في الجحيم؟ هل هو مستريح أم مُعذب؟!". وما أن ردد أبوكِ السؤال حتى اشتدت الرفرفة وفوجئوا جميعًا بالقارئ يصرخ دافعًا عن نفسه صفعات قوية راحت تنهال على وجهه دون أن يرى أحد مصدرها، ودوى صوت مهيب صارم: "لا تعد لفعل هذا ثانية!". ثم توقف الأمر سريعًا ولم يعد هناك أي صوتٍ سوى اللهاث وهمسات الذعر. نهض المضروب بوجهٍ أحمر اللون وخرج مسرعًا غير مبالٍ بمطالبة جدي له بالبقاء وإنهاء ما بدأه. الغريب أن أباكِ لم يشعر بأي خوفٍ، وحكى عليّ ما حدث بلهجةٍ محايدةٍ كأنه يحكي فيلمًا. راح يؤكد لي أن الملاك لم يكن ليؤذيه قط، لكن ما أدراه أن ما حضر كان ملاكًا؟

-ربما لأنه عاقب الرجل على استخدام دلال المزامير لما في ذلك من حرمانية .

t.me/qurssan

-وهل لدلال المزامير قدرة فعلية على استحضار الملائكة؟ هذا يجزم بوجود قدرةٍ خارقةٍ أبعد من النطاق الروحي، وهذاما لا أعتقد فيه.
-لابد من وجود تفسيرٍ ما لما حدث. لكن جدكِ، هل أقلع عن محاولة الاتصال بالعالم الآخر أم لا؟
-لاأعرف. لو فعل لما عرف أحد بهذا البيت بعد الثورة العارمة التي قوبل بها من جدتي. ألن تسألي عن السبب الذي دفعه للقلق بشأن مصير ابنه بعد أعوام من وفاته؟
-ماذا؟
-لقد حلم به. رأى كاملًا جالسًا بحجرة هيلانة يشكو من وجعٍ بجسده كله ويطلب المساعدة! وكانت هذه أول مرة يتحدث إليه. لأنه حلم به من قبل دون أن يتكلم بكلماتٍ واضحةٍ مفهومةٍ هكذا. فظن أنه يستغيث به!
لقد قص الحلم على جدتي وأمي وكاهن الكنيسة وأصدقائه، ويبدو أن صديقًا كاثوليكيًا أقنعه أن كاملًا في المطهر ولهذا يشكو من العذاب.
-هل أنتِ جادة؟
-بالطبع. وفي مثل هذه الحالات تقام القداسات من أجل روح المتوفى، عند الكاثوليك طبعًا. المهم أن الرجل أصابه الفزع من الفكرة، وبدلًا من إقامة الصلوات أو حتى توزيع الصدقات لجأ إلى هذا الأسلوب الشاذ ليتأكد من الحقيقة.
-خليطٌ عجيب من الإيمان بما بعد الموت واستخدام وسائل محرمة من أجل اليقين.
-أو هي ببساطةٍ المعاناة في استخدام قدراتٍ قاصرةٍ بطبيعتها لبلوغ المعرفة. أسِنات، لو أردتِ المبيت بالغرفة انتظري حتى تأتي الخادمة لتنظيفها غدًا. الغبار المتراكم والهواء المكتوم أخطر في نظري من الملائكة الغاضبة.

t.me/qurssan

ذهبت أسِنات في اليوم التالي لاستلام عملها الجديد في الصيدلية الشهيرة. مر يومها سريعًا محمومًا دون أن تشعر أنها جائعة. ولما خرجت من باب الصيدلية قرصتها معدتها الخاوية. فكرت في الاتصال بفادية لتسألها عن طلبها للغداء. بما أنها لا تقرب الطهي أبدًا فمن غير المحتمل أن يكون فى البيت طعامًا جاهزًا.

-كيف حالكِ يا فادية؟ سأشتري طعام الغداء، فماذا تريدين؟

-أي شيءٍ، لكني لن أعود قبل ساعةٍ أخرى.

-سأنتظرك.

وبينما تعبر على أسماء محلات الطعام الأمريكية التي تتصدر صف من المطاعم وجدت نفسها تتساءل: *كانت هناك محلات طعام أوروبية في مصر منذ مائة عامٍ، كما توجد الأمريكية الآن، فلماذا بدت تلك أصيلةً بينما تبدو هذه مبتذلةً رغم أن كليهما أجنبي؟*

***

وضعت نسختها الجديدة من المفتاح في باب الشقة، وهي سعيدة للتواجد بها وحيدةً لأول مرة. راحت تفتح النوافذ والأبواب وتدندن مقطوعة "قضية عم أحمد" بصوتٍ عالٍ قبل أن تضع ما اشترته من طعامٍ على المائدة. خرجت إلى الشرفة المطلة على الشارع المزدحم. كان بوسعها منذ أعوامٍ بعيدةٍ سماع صوت الترام المار بشارع شبرا قبل إزالته واستبداله بمترو الأنفاق. تذكرت أنها سيتوجب عليها الخروج في نهاية الأسبوع لشراء كتبٍ جديدةٍ؛ فحقيبة الملابس لم تتسع لتأخذ ما تحتاجه للقراءة. تجولت بين الغرف وطالعت الصور حائلة اللون لساكني البيت الراحلين؛ صورًا خالية من الابتسامات المصطنعة ويغلب عليها النظرة الرصينة أو الحالمة حسب موضة العصر.

بمنتهى الحذر فتحت دولاب الفضيات الذي يذكرها بزيارتها لمتحف قصر عابدين. فقط لتلمس القطع العتيقة بخشوعٍ ويزداد إحساسها بالوجود في

t.me/qurssan

مزارٍ حقيقي. مزار يزيد من طرافته ارتباط ماضيه الحافل بتاريخها الشخصي ولو من بعيد، فجينات من مروا بالمكان ساكنة وفاعلة في جسدها وعقلها.

استدعت صورًا لماضٍ لم تعشه، لكن تشبعت برواياته منذ أن أدركت وفهمت. هذه جدتها تعرض عليها بفخر أطباق الصيني الفرنسية، والفناجين المماثلة لتلك التي استخدمها جياكومو جروبي، واعدةً إياها أن تدعها تشرب فيها القهوة يومًا ما، عندما تكبر لأن القهوة هي مزاج العباقرة، بينما تشرح لها في الوقت نفسه لماذا تجد رواية الحرافيش أعظم ما كُتِب بالعربية!

وجدت نفسها تتجه إلى الغرفة مثار اللغط لتفتحها. فتحت الشرفة والنافذة لجلب الهواء وجلست على الفراش متجاهلةً التراب المرئي. كان الدهان قد تساقط من مواضعَ متفرقةٍ من السقف المرتفع. هناك حصان من السعف الجاف معلق أمام الفراش بجواره صليب خشبي تعلم أن جدتها أتت به من القدس. تحت الصليب منضدة للكتابة، يمكن فتحها وغلقها. لم ترَ مثلها سوى في أحد أفلام فاتن حمامة، حيث كانت تكتب عليها خطابًا ثم تغلق عليه وتخفيه وهي ترتدي روب من الحرير الأبيض الذى يهفهف حول كمالها كهالات الملائكة. أمام المنضدة كان يوجد مقعد خشبي مكسو بقماشٍ أحمر ذي ورود ذهبية باهتة تمت استعارته من الصالون. وسط الغرفة كرسي آخر هزاز، فقد أحد مسندي الذراعين، وتسريحة ذات مرآة مستديرة لم يتلف طلاؤها، سطحها خالٍ من أدوات التجميل التي ربما زحمته في الماضي.

***

لماذا لم يهتم أحد ببيع هذا الأثاث لهواة الأنتيكات أو لموردي الأثاث القديم للسينما؟ هو حسن حظي قطعًا.

t.me/qurssan

اتجهت إلى المنضدة وحاولت رفع غطائها ففاجأها أنها مغلقة مع وجود ثقب مفتاح بها !

من الذى أغلقها؟ لماذا؟ هل تعرف فادية بذلك؟

راحت تبحث في كل ركنٍ محتملٍ عن المفتاح دون جدوى، ومع بحثها أخذ يتكشف لها ما بالبيت من تداعٍ لم تلحظه عيناها المغشاتان بالحنين في يومها الأول، فانقبض قلبها بالأسى وأخذها هاجس الرعب من الفناء.

ما الذي يثبت وجود من كانوا هنا سوى بقاء ما تركوه وراءهم قاصدين أو غافلين؟ لن يبقى من نجيب عبد المسيح ذكرى؛ بما أنه لم يحظ بأحفادٍ ذكور. لن يذكر الحديقة ويبكيها سواي. وأنا، أي أثر سأتركه.

في درج التسريحة الواسع وجدت أسطوانات! أذهلها أن تجدها سليمةً غير مخدوشة في أغلفتها الملونة التي تحمل اسم شركة كايروفون. يا لها من ثروة! هل تركها أبوها لفادية كإيماءة عرفانٍ لبقاءها مع أمه في أيامها الأخيرة؟ أمسكت بأول واحدة واتجهت إلى الجرامافون وهي شبه موقنة من أنها لن تعمل، وبعد أن وضعتها بكل ما لديها من حرصٍ مقلدةً خطوات فادية فوجئت بالصوت الصادر عنها، واضحًا، رنانًا، مخدرًا. كان عبد الوهاب يغني "مضناك جفاه مرقده وبكاه ورحم عوده."

عادت إلى الغرفة وجلست على الكرسي الهزاز، فأصدر صريرًا خافتًا لم يمنعه من التأرجح. أغمضت عيناها وراحت الكلمات المتشحة باللحن الموجع تتلاعب بأعصابها وترخي من سيطرتها على أفكارها.

أسِنات عوني نجيب. ما معنى اسمك يا بنت؟ ماذا؟ اسمك أسماء أم سناء؟ لم أسمع في حياتي بهذا الاسم. هل هو اسم يوناني أم فارسي؟ هلاَّ أعدتِ نطقه ثانيةً ببطءٍ من فضلكِ؟ كيف يُكتب؟

طوال حياتها واجهتها هذه الأسئلة، في كل مكانٍ، وعلى كل لسانٍ. كانت في طفولتها تخجل من غرابة اسمها ونظرات التعجب على وجه من يسمعه، ثم

t.me/qurssan

حولته فخرًا لها؛ أن تحمل اسمًا يكاد يكون فريدًا وشاذًا وغير متداولٍ حتى بين المسيحيين، فقلة منهم يتذكرون أين ورد بالعهد القديم .

" مضناكَ جفاهُ مرقدهُ وبكاه ورحّم عوّده "

***

أسِنات هي ابنة الكاهن الفرعوني فوطي فارع يا سادة. هي المصرية التي تزوجت من يوسف ابن يعقوب وأنجبت له منسى وإفرايم، أي أنها صارت من أمهات الأسباط رغم انتمائها الأممي. كيف يرى اليهود ذلك يا ترى؟ تلك العلاقة المشتبكة بين المصاهرة والعداء والتعالي المتبادل، فاليهود يحتقرون الغُلُف عابدي الأوثان والمصريون يحتقرون رعاة الأغنام ساكني الخيام.

ها هي ترى نفسها في زي فرعوني أبيض وعلى صدرها طوق ذهبي عريض، تبحث باسمةً عن يوسف:أين أنت؟

يوسف... كم فتنتها قصة يوسف ذي الأحلام؛ يوسف الرقيق المظلوم الذي غفر لإخوته، يوسف رائع الجمال الذي ذهب بعقل زوجة فوطيفار. أليست سلطة الجمال فائقةً أحيانًا على النفوذ والذهب وأجلب منهما للمتاعب والضغائن؟

"ويقول : تكاد تجنُّ به فأَقول: وأُوشِكُ أَعْبُده"

تثاءبت وقد تحالف عليها الوهن والجوع وهدهدة الكرسي والموسيقى، وقبل أن تدري غطت في نومٍ عميقٍ.

ها هي تجلس إلى منضدة الكتابة منهمكةً في التدوين. شعرها يغطي ظهرها بالكامل. متى وجدت المفتاح؟ ماذا تكتب؟ ما هذا الصوت الصادر عنها؟ هل تبكي أم تكتم ضحكة؟ تغلق ما يشبه أجندات هدايا العام الجديد بلونٍ بني ثم تقوم بإغلاق نصف المنضدة الدائري فوقه وتدير مفتاحًا في فتحته ثم تضعه بجيبها وتنهض. الآن فقط ترى وجهها مع استدارتها، فتدرك أنها ليست هي. إنها لا ترى نفسها. هاتان العينان ليستا عينيها. عينان رماديتان

t.me/qurssan

كبيرتان متألقتان بعبراتٍ تختفي ما أن تغمضهما لثوانٍ ثم تفتحهما وتبتسم، كأنها تخشى أن يعرف أحد بحزنها. تتجه إلى الشرفة نصف المفتوحة وتنظر من خصاصها. الغرفة تبدو جديدةً، نظيفةً، سليمة الطلاء. هناك أشياء لم ترها من قبل؛ شماعة طويلة معلق عليها روب أزرق، كمودينو يعلوه صفين من الكتب. أرادت أن تنادي الفتاة التي تشبهها كثيرًا لكنها لم تجد صوتًا. إنه حلم، لكن فجأة التفتت إليها الفتاة كأنما شعرت بها. حدقت فيها مباشرةً مثيرةً فيها رعدةً وشهقةً كادت تخرج من صدرها. للحظات، لا تزال تنظر إليه. إنها تتحرك وتقترب ببطءٍ شديدٍ كأنها تخشى شيئًا. فُتِح فمها ولا تقول شيئًا. تضع يدها في جيبها وتخرج المفتاح وتظل قابضةً عليه ثم تسرع إلى الدولاب وتنحني لتضعه بمكان ما في قاعه قبل أن تسرع بالخروج من الغرفة.

***

-أسِنات!

من يناديها هنا؟ الصوت قادم من الصالة البعيدة. صوت الجرامافون يعلو بأغنية عبد الوهاب. فيضيء إدراكها بومضةٍ خاطفةٍ. هيلانة!

-أسِنات، استيقظي. تناولي طعامكِ ثم نامي.

فتحت عينيها لتجد فاديةً أمامها، فلبثت كالذاهلة لثوانٍ لا تجد ما تقوله. أردفت المرأة قائلةً:

-ماذا بكِ؟ قومي لتأكلي. لماذا لاتتكلمين؟

- أ... أظن أنني ... حلمت لتوي ... حلمًا غريبًا... حقًا.

قامت وذهبت إلى الدولاب وفتحته وراحت تعيد النظر فيه لعلها تكتشف جديدًا. لكن لم يكن هناك أي شيءٍ غريبٍ أو لافتٍ للنظر.

-يبدو أنني تلقيت زيارةً من هيلانة إسطفانوس في شكل حلمٍ. فادية، أريد أن أفتح هذه المنضدة. أريد أن أرى ما تحويه.

t.me/qurssan

-لكننا بحثنا عن مفتاحها، أنا وأبوكِ، ولم نجده، ثم تخلى عوني عن الأمر كله مكتفيًا بما وجده. إذا أردتِ فتحها سنستعين بفاتح أقفالٍ.

في اليوم التالي بحثت أسِنات عن المساعدة المنشودة. أحضرت أحدهم حيث قام بفتح المنضدة بصعوبةٍ بما أنها طلبت منه عدم كسرها أو إصابتها بخدشٍ. ما أن صار محتواها مكشوفًا حتى تملك منها ومن فادية معًا قشعريرة باردة. كان هناك دفتر بني اللون يشبه ما رأته أسِنات في الحلم.

جلستا بالصالة بعد أن صار الهواء بالغرفة محملًا بالطاقة، ثقيلًا على أعصابهما. استقر الدفتر على حجر أسِنات وقد صار يزن طنًا. مدت فادية يدها تلمس سطحه العتيق ووجهها محمل بالتساؤل. قالت دون أن تبعد عينيها عنه:

-لم يتصور عوني أنه خَلَّف وراءه شيئًا يخص جدتكِ. كان هناك كتب وأجندات ودفاتر. لماذا تركت هذا تحديدًا مغلقًا ومخبأً بتلك الصورة؟ كيف وجدته أنتِ؟ بدأ هذا يصبح مخيفًا.

تنفست أسِنات بصوتٍ مسموعٍ قائلةً:

-أعرف تلك الكتب ورأيت تلك الأجندات. كتب أدبية بالعربية والفرنسية، وكتابات لها تتنوع بين الخواطر والترانيم. كانت تكتب ترانيم كما تعرفين، لكن...

فتحت الدفتر وقلبت صفحاته الصفراء الملتصقة ببعضها البعض في مواضع كثيرةٍ. تسارع نبضها، والحقيقة تتكشف لها. نظرت إلى فادية هامسةً :

-إنها مذكرات. أتصدقين هذا؟ مذكرات جدتي. ماذا أفعل؟

-هل تسألين حقًا؟!

-هل تقرأينها معي؟

t.me/qurssan

-لكن خالتي لم تزرني أنا في حلمٍ لتخبرني بمكانها، رغم إقامتي هنا منذ مرضها الأخير ورحيلها. لم تتحدث في لحظاتها الأخيرة إلا عن جدكِ وعنكِ! أظنها تركتها لكِ وحدكِ. لو فكرتِ بالأمر. لو أرادت لأبيكِ حتى أن يقرأها لتركتها مع باقي أشيائها. أنتِ لم تأتِ هنا منذ وفاتها. أنتِ حفيدتها الوحيدة ، و تشبهينها كتوأم. الأمر منطقي رغم كل شيءٍ. لقد كانت تنتظر مجيئكِ يا أسِنات!

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الختم الثالث

t.me/qurssan

الآن بات نجيب يعرف ما الذي يحمل البشر على تجاهل غموض مصائرهم. ما الذي يحدو بهم إلى الالتهاء عن غياب القصد والمنطق والجدوى، بل والرضا القانع بأنصاف كل شيءٍ. لا يعد ذلك حماقة أبدًا إن كان لديك هيلانة.

إن كان في عالمك هيلانة ستنتظر انتهاء الحرب آملًا ألا تكون هي موقعة هرمجدون. ستتوقف عن الانزعاج العقيم للمصائب المحيقة ببني آدم . ستنتظر أن تهبط القناعة بردًا على نفوس البشر ليدركوا حقارة مساعيهم الدنيوية رافعين رؤوسهم للتطلع إلى المنتهى. أضحت هيلانة هي المنتهى. لابد للجميع من هيلانة.

لثلاثة أسابيعٍ متتالية حضر القداس ليراها، وتبعها مبكرًا في شارع شبرا بطريقها إلى المدرسة. لم يزاوله التعجب منها ومن نفسه.

كيف لشخصٍ لا يعرف حتى بوجودكِ ولم تبادله لفظًا ولا لفتةً، شخص بهذه الهشاشة، أن يكون له هذا الأثر الدامغ على روحك!

كيف ظن يومًا أنه حي؟ كان أقرب لله من أي وقتٍ سبق، شاكرًا جوده متسائلًا: لماذا تحرقه الرغبة في معرفة سبب بكائها أثناء الصلاة؟ هل هي محض صدفة أن يرشحها الكاهن لأبيه؟ كل ما عليه الآن هو التقدم لخطبتها والوصول إليها من أيسر الطرق، فلماذا لا يشفي ذلك لهفته؟ لماذا يتوق حتى المرض لمعرفتها أولًا وقبلًا وبعد؟

لم يجرؤ على إطلاع أي كان علي ذلك. كان هذا جديرًا بجعله محطًا للاستنكار أو التعجب في أفضل الأحوال. ربما يفهمه يوسف. هو فقط قد لا يحتاج إلى شرحٍ، سيستمع إليه باسمًا، برفقٍ، مدركًا تمامًا كيف يكون بمقدوره التقدم للزواج من فتاةٍ يهيم بها، لكنه يحجم عن ذلك لرغبةٍ مضنيةٍ في استكشافها أولًا!

t.me/qurssan

ومع ذلك فالكلمات تبدو باردةً واللغة تتجلى تافهةً بائسةً إذا ما تعلق الأمر بشرح ما يشعر به وما يرومه.

لماذا يرعبني أن أخطو نحوها؟ لماذا أكتفي بالتطلع إليها من مسافةٍ ثابتةٍ؟ كأنني أخشى أن تتلاشى إذا ما دنوت منها. أخشى أن تكون صليبي. من أجدر منها بذلك!

راح عقله يبني الخطط ليلًا ويهدمها صباحًا. سيتبعها في طريقها إلى المدرسة ويلفق سببًا لسؤالها عن أي شيءٍ. سيستوقفها وهي عائدة إلى البيت. سيتظاهر بزيارة أحد القاطنين بعمارتهم. سيطلب من أبونا جورجيوس مساعدته.

لماذا تبدو أفكاره كلها حمقاء سخيفة عند الشروع في تنفيذها؟ لماذا يبدو شيء بريء بسيط كالحديث مع فتاةٍ أصعب من دخول سرايا عابدين أو إجلاء الإنجليز؟ ومع ذلك، مجرد الانتظار له وهج. وهج لا يريد له أن يخبو. يلتذ ألمه. فهو لم ينتظر شيئًا حقًا من قبل.

تمت الدعوة لانتخاباتٍ جديدةٍ لتشكيل مجلس نوابٍ بديلٍ. تحمس أبوه متنبئًا بالنجاح الكاسح للوفد، مؤيدًا ظنه بما حدث من انفراجةٍ في أزمة التموين وأسعار القطن على يد مكرم باشا وزير المالية والتموين، وظل هو على عدم اكتراثه. مجلس وفدي أو سعدي أو دستوري، وقد يجدون الجيش الألماني بالقاهرة بين عشية وضحاها، ما الفرق حقًا؟ ربما لو عنى كل ذلك شيئًا لها لاكتسب حينئذٍ ثقلًا معنويًا ما. العجيب أن أبيه لم يعاود ذكر الزواج كأنه نسي الأمر برمته. أراحه ذلك كي لا يضطر لاتخاذ إجراءٍ متعجلٍ لا يميل إليه.

في إحدى الليالي مر بالصيدلية حيث يعمل نسيم بحي عابدين. قام بتحية الصيدلي المخضرم ذي الشارب الكث والوجه الصارم الطيب. نظر يعقوب أرتينيان إلى الساعة الفضية المعلقة بجيبه قبل أن يقول لنسيم باقتضابٍ:

t.me/qurssan

-يمكنك الانصراف الآن يا نسيم. مواعيدك مضبوطة يا نجيب أفندي. هل ستقابلان يوسف؟

أجابه نجيب:

-على حد علمي، يوسف مشغول بالدراسة هذه الأيام.

هز الرجل رأسه راضيًا قبل أن يقول:

-جيد. جيد. آمل أن يستمر على هذا المنوال حتى انتهاء الامتحانات على الأقل، صاحب بالين كاذب. لا أمانع أن يرفه عن نفسه طبعًا، لكن مقابلة الأصدقاء غير الرقص والغناء. هل سمعتما قبلًا عن طبيبٍ يرقص؟! كيف سيحترمه المرضى؟

أسرَّ إليهما بالسؤال الاستنكاري بصوتٍ هامسٍ كأنه يخشى أن يسمعه أحد، وإن كانا يعرفان أنه ليس حقًّا غاضبًا على ولده بالقدر الذي يظهره.

قام الشابان بتحيته قبل أن يخرجا كابتين رغبتهما المزدوجة في الدفاع عن صديقهما والتضامن مع أبيه في الوقت ذاته؛ فيوسف لم يعانِ من أي كبوةٍ دراسيةٍ من قبل حتى يتحامل أبوه على هواياته، كما أنهما ليسا واثقين من أنه لن يفاجئهما هابطًا عليهما بالمقهى رغم اعتذاره المسبق.

-هناك وجاهة فيما يقوله الدكتور يعقوب رغم كل شيءٍ. *صرح نسيم.* إذا كان يحب الموسيقى إلى هذا الحد فلماذا لا يلتحق بخورس الكنيسة؟ لن ينتقص هذا من احترام الناس له وسيرضي ميله في الوقت نفسه، لكني أعتقد أن يوسف لا يكترث أصلًا برأي أحدٍ فيه. لا أفهم هذه الجرأة وأشفق عليه أيضًا.

-وأنا أُجلها فيه وأغبطه عليها.

وفكر في نفسه: *لم يكن ليعاني ما أعانيه الآن من تخبط على الأرجح.*

-مهلًا. نحن الآن قريبان من المكان الذي يقضي فيه مسيو دانيال وقته. أتحب أن تراه؟

t.me/qurssan

تساءل نجيب مندهشًا:

-تقصد والد مراد؟

-نعم. إنه مقهى الحاشية الملكية والباشوات والإنجليز. مقهى الحرية.

سارا الهُوَيْنَى حتى بلغا موضع المقهى. أبهةٌ مختالة لاقتهما دون أن يتخطيا موقفهما على الرصيف المقابل، فمن مقاعد تم استيرادها خصيصًا للمكان إلى سجاجيد وثيرة ومرايا تغطي الجدران وتعكس أنوار الثريات الباذخة وخدم يونانيين يرتدون الحلل السوداء والمناشف البيضاء على الأذرع. لم يسمعا صوتًا لأحد الجالسين يطلب أو ينادي كأنما اتفقوا جميعًا على الهمس. بدا المكان بعيد النوال ومبهرًا إلى حدٍ غير واقعي. تساءل نجيب: *إذا كان مقهى الحاشية يبدو هكذا فكيف يبدو القصر أو نادي السيارات مثلًا؟*

وإذا بسيارةٍ فارهةٍ سوداء تقف أمام المقهى ليترجل منها صديقهما مراد. راحا يحدقان فيه غير مصدقين لهذه الصدفة. لم يرهما لوقوفهما خارج مجال إضاءة الشارع. فتح الباب لتهبط فتاةٌ متوسطة الجمال، متوسطة الأناقة. تبدو في حركتها المتململة السريعة كأنها في عجلةٍ من أمرها لا تحتمل صبرًا. أخبرها مراد أن تنتظره ودخل مسرعًا إلى داخل المقهى ليغيب دقيقة واحدة ويخرج باسمًا مشرئب العنق كأنه بلغ هدفًا عزيزًا، وبدلًا من أن يركبا السيارة مجددًا، تأبطت الفتاة ذراعه وشرعا يمشيان باديا السرور.

تبادل نسيم ونجيب النظر حائرين في فهم ما حدث، ثم ما لبثا أن استأنفا سيرهما أيضًا متجهين إلى الملتقى الدائم.

غمغم نسيم مطرقًا برأسه متفكرًا:

-يُخيل إليَّ أحيانًا أن لكل من يوسف ومراد حياة نائية بعيدة يخرجان منها للقيانا ثم يعودان إليها مجددًا. مع خصوصية عالم كل منهما على حدة، لكن أيهما لا يشبه في شيء عالمنا. أنا وأنت يا نجيب.

-عما تتحدث بالضبط؟!

t.me/qurssan

-لا أريدك أن تسيء فهمي. أنا أحب يوسف ومراد حبًا غير مشروط، لكني لا أستطيع، بعد تأمل حواراتنا، إلا أن أشعر بشيءٍ من الغربة.

لم يندهش نجيب من مصارحة صاحبه التي طالما استشعرها طفيفًا دون دليلٍ ظاهرٍ.

أردف نسيم قائلًا وهو لا يكف عن الإشارة بيديه:

-كلاهما مثلًا نشأ على الاختلاط مع فتيات طائفته. الرقص معهن، اصطحابهن إلى السينما والمسرح. إنني أرى هذا طبيعيًا تمامًا ما دام بعيدًا عن أسرتي ولا تراه أخواتي البنات أو يطالبن بمثله. أتعرف أن صديق يوسف الألصق من الأخ لا يجد غضاضةً في مرافقة فتاةٍ إنجليزيةٍ؟

-أي صديق ليوسف؟ لم تأتِ على ذكره من قبل!

-لأن يوسف نفسه لم يأت على ذكره أمامنا. هو رسام أرمني. لقد تربيا معًا منذ أن فقد الأخير والديه في صغره وتولى دكتور أرتينيان مسئوليته. إنهم يفاخرون دائمًا بموهبته وصيته الذائع بين كبار المسئولين الإنجليز. الحق أنه لا يحتك ولا يختلط بأحدٍ لا بصورةٍ طيبةٍ ولا سيئةٍ، لكن ما أن ذاعت علاقته تلك حتى صار فجأةً محط اهتمام كل من يعرفونه وأصبح من شأن جاليته كلها. فهم يزورون "ولي أمره" بالصيدلية ويشكون له الإساءة التي يتسبب لهم فيها ربيبه بإظهارهم بمظهر المحبين لقوات الإحتلال التي يمقتها المصريون.

-لكن حكومتنا نفسها تعتبر وجود الإنجليز جزءًا من الواقع وتتعامل معه، فلماذا المزايدة على الأفراد؟ ثم أنه ليس مصريًا ولا يلزمه حبنا أو كرهنا لأحدهم بشيءٍ.

-ربما لهذا لم يُعَرِّفنا يوسف به، حتى لا يذكرنا أنه ليس مصريًا. ومع ذلك لا أملك الإدعاء بأن حياتنا، كأقباطٍ، خالية من المآخذ والنقائض، أو أننا من الوعي بحيث نُصيب دائمًا في أولوياتنا. لقد غرق المتعلمون منا حتى العنق في

t.me/qurssan

مستنقع السياسة حتى صار منتهى أملنا بالحياة زيادة عدد النواب الأقباط بالمجلس القادم كأننا وُجِدنا في العالم لهذا الهدف، كأن الحرب التي تأكل الأرض كلها ليست كافيةً لتذكيرنا أن النهاية قد تدق الأبواب ولها ينبغي الاستعداد وليس للانتخابات. ألم يخطر بذهنك قط أن هذه هي المعركة الأخيرة وأن الأمر لايحتاج سوى توصل الألمان أخيرًا لسر القنبلة الذرية لتُفني الحياة؟ وماذا بعد أن نتقلد المناصب الرسمية أو حتى نتولى الحكم؟ هل سيجعلنا هذا ملح الأرض فعلًا؟ نحن بمسيس الحاجة إلى قديسين، وليس إلى سياسيين، من أجل كنيسةٍ راسخة الإيمان تعيش في بحر العالم دون الغرق فيه.

-الملح الذي تتكلم عنه مع ذلك يجب أن يذوب في الطعام حتى يظهر أثره. كيف سنؤثر في أرض تحكمها السياسة دون أن نعمل بها؟

أدرك نجيب المفارقة في قوله. هو الذي لم يذهب لاختيار نائب عن دائرته قط ولم يخرج في مظاهرةٍ احتجاجيةٍ في ألعن ظروف أوجبت التظاهر، وها هو يتشدق بأهمية الفاعلية السياسية للأقباط.

قال نسيم:

-أما يوسف فله شأن آخر. لا يمكن لأي شخصٍ ألا يحبه. مخلوق رائع. لا أملك مقاومة ذلك الطنين الدائم في رأسي "لو أنجبت لما وافقت على أن يرقص أبنائي ويغنون علانيةً مثلما يفعل". فلماذا أجدني مشدوهًا طروب القلب إذا غنى راغبًا في الاستزادة؟ ولماذا لا أشعر بالملل من رؤيته يتدرب على الرقص كأنه روح من فرط خفته؟ لماذا أعجز تمامًا عن رد أي سؤالٍ له مهما بدا مستهجنًا! هو أقرب لي على كل حالٍ من مراد وأظنك تشعر بذلك، فالشيوعية التي يدعو إليها مراد مطمئنًا، طبعا لأنهم لن يقبضوا على الشيوعيين بينما إنجلترا متحالفة معهم، ليست منسوجةً بشكلٍ مطلقٍ من مبادئ المساواة المثالية وضمان الخير للجميع، هناك دائمًا ما لا يفصح عنه

t.me/qurssan

أمام الرجعيين أمثالنا من خيوط سوداء لا يمكنك أن تتظاهر بعدم وجودها. أتعرف مثلًا أنهم يعتبرون الزواج قيدًا عفا عليه الزمن؟ لم يعد أحد يعقد زواجه في الكنيسة في روسيا، بل لم تعد هناك كنائس أصلًا. لقد تم تحويلها إلى مستشفيات ومدارس. لقدأخبرني بهذا أحد زبائن الصيدلية وكان يعيش في روسيا قبل أن يفر منها مع من فروا. لا أعرف من الأجدر بلقب المسيح الدجال، لينين أم ستالين أم هتلر؟ مهلًا. دعك من ثرثرتي. ماذا جد بشأن مشروع زواجك؟

-لزواجي قصة معقدة لا أريد حكيها الآن. هل وجدت راهبك المختفي أم لا؟

أخبره نسيم أنه عثر على مقر أبينا مينا الجديد بكنيسة العذراء في بابليون بمصر القديمة. لم يخبره نجيب عن هيلانة، لكنه قرر أن يجرب ويسأل الراهب، عسى أن تأتيه إشارةٌ لا ينتظرها.

وصلا إلى مقهى الملتقى ليجدا أنهما أول من أتى. أعقبهما مراد وقد بدا عليه رضا وحبور جعلاهما يتساءلان عن الباعث الخفي.

-قضيت وقتًا ممتعًا مع صحبةٍ ممتعةٍ. هذا كل ما في الأمر.

شرح لهما مراد بثقةٍ، فعاجله نجيب متخابثًا بلهجةٍ تمثيليةٍ:

-هل كانت الصحبة ترتدي فستانًا أبيض و قبعةً بيضاء؟

ضاقت عينا مراد وقد فهم أنهما لمحاه مع صاحبته. وما لبث أن أضاء وجهه قائلًا:

-آآآه. لقد مررنا بالقرب من الصيدلية في عابدين، حتما رأيتمانا هناك.

ضحك نجيب قائلًا:

-أما ينبغي أن تقدمنا لها باعتبارنا أصدقاء العمر الأوفياء؟ أم أنك تتلافى المنافسة الواردة؟

لم يجبه مراد فورًا وطلب قهوته أولًا، ثم قال بهدوءٍ:

t.me/qurssan

-لا يمكن بحالٍ أن تكون هناك منافسة. ما يجمعني بليليان ليس مجرد جاذبيةٍ جسديةٍ. إننا رفيقان في جبهةٍ واحدةٍ.

سأله نسيم متوجسًا:

-ماذا تعني بجبهةٍ واحدةٍ؟ فكريًا أم تنظيميًا؟

-الاثنين. نحن عضوان فاعلان في لجنة الطلبة والعمال. هي أشد مني تطرفًا ولا تؤمن بصداقة بين مناضل ورجعي. أنتما في خندق الأعداء بالنسبة لها. ستجن حتمًا لو عرفت بما أفصح لكما عنه وقد تشكوني للقيادة، لكني أثق فيكما ثقةً لا أوليها لأبي نفسه.

-لماذا اصطحبتها معك وأنت ذاهب لمقابلته؟

-إنها قصة طريفة جدًا. لقد ذهب أبي للجلوس بمقهى الحرية كعادته وأرسل السائق للڤيلا ليأتيه بشيءٍ نسيه هناك. كنت أنا بالڤيلا عندما عاد السائق ليلتقط الغرض المطلوب ويعود لاصطحاب أبي، وهالني ما رأيته من مرضٍ بادٍ عليه حتى أنه يتصبب عرقًا وبالكاد يقدر على الوقوف. سألته لمَ لمْ يطلب الحصول على أجازة، فأخبرني أن أبي لم يوافق متعللًا بالحاجةِ الشديدةِ إليه! فما كان مني إلا أنني أعطيته الأجازة عي مسئوليتي ومنحته ما يحتاجه للصرف على العلاج اللازم، ثم أخذت منه مفتاح السيارة و أوصلته حيث منزله، ثم قدتها إلى حيث كانت ليليان تنتظرني. وقبل أن تحتج طبعًا على قيادتي هذه السيارة الباذخة التي قام بتصنيعها على الأرجح العمال المقهورون، شرحت لها ما فعلته وما أوشك على فعله، فاتجهنا حيث مقهى الحرية ودخلت إلى أبي لأعطيه المفتاح واللفافة المنتظرة، وأخبره أن السائق حصل على أجازة، وأن عليه أن يقود سيارته بنفسه إلى البيت ولمدة أسبوعٍ تالٍ كذلك.

وبينما راح نجيب ونسيم يضربان كفًا بكفٍ تعجبًا واستنكارًا، إذا بمقعدٍ رابعٍ يُقحم وسطهم ليجلس عليه دون إنذارٍ يوسف.

t.me/qurssan

-ليلتكم سعيدة يا أفندية. قال يوسف متهللًا.
هتف نسيم مصدومًا:
-ما الذي أتى بك؟ ألم تقل أنك بصدد امتحاناتٍ قريبةٍ ينبغي الاستعداد لها؟
وبدلًا من أن يجيب أخرج من أسفل المنضدة رفيقًا لم يقابلوه من قبل، عودًا بلون العسل الذهبي، كأنه صُنع لملائمة عينيه. قالوا في اللحظة ذاتها:
-ماهذا؟!
-هذا ما أخرجني من عزلتي. كنت قد أخبرت أستاذي أنني سأتخلف عن درس العود ثم فوجئ الرجل بي أهبط عليه مثلما هبطت عليكم الآن. صدقوني كنت أنوي جادًا الشروع في المذاكرة، ثم لم أستطع، إلا درس العود! هذا فوق طاقتي.
قال مراد فاحصًا العود:
- هذا عود مميز وجميل يا يوسف، ويبدو غاليًا أيضًا.
انتفش يوسف فخورًا وهو يقول:
-صدقت. أنت تجيد تقييم التحف يا أستاذ مراد بميراثك من صفات أبيك الجواهرجي. هذا العود من صنع خليل الجوهري نفسه. وهذا اسم صاحبه الذي صُنع لأجله منقوش عليه. انظروا!
مالوا لينظروا الاسم المنقوش على الخشب (حسني). ثم عقب يوسف قائلًا:
لقد اشتراه أستاذي من صاحبه بثمنٍ غالٍ، ثم أهداه إليَّ.
هز نجيب رأسه قائلًا:
-آه لو يعلم دكتور أرتينيان ما أنت فاعله. كيف استطعت أن تخفي عنه دروس العود؟
-لأنني دائمًا ما أترك العود لدى أستاذي. آخذه للتدريب لدى أصحابي، في المقاهي، في الحدائق، ثم أعيده لمنزله آمنًا.

t.me/qurssan

سأله مراد:

-فما الذي حدث اليوم حتى جرجرته معك وأقلقت راحته؟

-اليوم أتممت عزف أول مقطوعة كاملة ومن ثم صممت أن أوليكم شرف سماعها.

وقبل أن ينتهزوا الفرصة للمزاح وإلقاء النكات أشار لهم بيديه أن يصمتوا وقد علت لأول مرة سمات الجد ملامحه، ودون كلمةٍ أخرى منه أو منهم شرع يوسف في العزف.

عزف يوسف أغنية "أنا هويت" لسيد درويش. عزف بجملته حسًا وروحًا، كما يفعل وهو يغني. لم يرفع بصره لأي منهم كأنه لا يتوجه لأحدٍ بعزفه وكأن وجودهم مصادفة بحتة. بدا في انحنائه على العود وقد أغمض عينيه وزم شفتيه من شدة التركيز كأنما ينوء بحملٍ ثقيل لا يسعه التخفف منه سوى الضرب على الأوتار. ساور نجيب شعورٌ غامض بأن صلة ما تشده إلى يوسف في هذه الآونة لم توجد من قبل، كأن وترًا سحريًا غير مرئي امتد من جسد العود في حضن صاحبه وتوجه نحو قلبه ليربطه ويغله ولكن بغير قسوة، فكل ضربةٍ من يد يوسف كانت تهز ذلك الوتر العاصر فى قلبه بقوةٍ حانيةٍ مغيبةٍ. لا إراديًا رأى هيلانة تتمايل بخفةٍ وشجنٍ على اللحن المثير للأسى، لو أنه يعزف لها وعيناه بعينيها لما عسر عليها أن تفهم ما تثيره فيه من هذيان، ولأعطته حينها ردًا. هل هو مستعد لهذا الرد؟

انتهى العزف وارتفع التصفيق المعجب وهتاف "أحسنت" من كل ناحيةٍ. قال مراد:

-ألست مشتت الجهد يا بني؟ كان ينبغي أن ترياه عندما رقص في الحفل. يعجبني في فنكم يا يوسف أنه يعني بتاريخكم النضالي في الحقب المختلفة، لا يقتصر على التهافت العاطفي الأجوف الذي نراه في الفن المصري.

t.me/qurssan

عقد يوسف حاجبيه استنكارًا لتصريح مرادٍ الذي ارتدى عباءة النقد الفني وراح يُنظِّر للمدارس الفنية بثقةٍ غريزيةٍ لا تفارقه، لكنه لم يعبس طويلًا وابتسم كعادته قائلًا:

-شكرًا يا مراد لأنك الوحيد، ونظر إلى صاحبيه بلومٍ، الذي لبى دعوتي وأتى إلى العرض، لكن ما قلته يعني ببساطة أنك لم تستمع قط لأغاني سيد درويش الوطنية أو المعبرة عن حياة العمال. هل هذا ممكن؟

ظل كل من نسيم ونجيب صامتين حرجًا من تخلفهما عن الحضور؛ الأول خجل أن يسأل إن كان الحضور بتذاكر، ولم يرغب في المخاطرة بدفع ثمنها من ميزانيته التي لا تحتمل هذه الرفاهية، والثاني نسي الأمر برمته. من جملة ما نسي في حمى هيلانة. لم يتذكره إلا اللحظة.

-لا طبعًا. أعرف ماتريد قوله وأوافقك على أهمية تراث الرجل. لقد كان إرهاصةً ثورية لم يمهلها الزمن لتكتمل أو تنضج. لكن ماذا قدم في الواقع سوى حث المظلومين على إلقاء شكواهم أمام قوى غيبية والاتكال عليها للتعويض بدلًا من البحث عن حقوقهم المسلوبة والعمل على استردادها؟ هل هناك تيار فني قائم الآن يحمل هذه الرسالة؟ أشك. سائر الفنانين يستجدون رضا الملك في كل مناسبة، بمن فيهم معبودك عبد الوهاب.

لم يجب يوسف وصمت قليلًا، فحسبوا أنه يستسلم لصحة رأي مراد نابذًا الجدل، وما أن بدأوا في استئناف الحديث في نطاقٍ آخر حتى فاجأهم صوت يوسف صادحًا:

يا دنيا يا غرامي يا دمعي يا ابتسامي
مهما زادت آلامي قلبي يحبك يا دنيا
يا دنيا إيه جرالي وأنا اللي كنت خالي
مهما غيرت حالي قلبي يحبك يا دنيا

t.me/qurssan

أُسْقِطَ في يدي مراد كعادته عاجزًا عن مجابهة يوسف بردٍ عقلاني، وشارك نجيب ونسيم في التطلع إليه غير خالٍ من الإعجاب. أدرك أن صاحبه يواجه نظريته الثورية في الفن برد عملي يعضد فكرته هو عن كفاية أن يكون الفن جميلًا فحسب. انتظر حتى انتهى ثم عقب قائلًا:

-أسمعهما شيئًا أرمنيًا يا يوسف.

لأول مرة بدا التردد على يوسف وهو يجول ببصره بينهم ضامًا عوده إلى صدره، وهز رأسه قائلًا:

-لا،لا. هذا سيجعلهما، *مشيرًا إلى نسيم ونجيب*، يُقدران الحضور للحفل القادم. لقد حفظت مؤخرًا أغاني إيطالية ويونانية وتركية. فأية لغة تريدوني أن أغني؟ هيا والفرصة سانحة، لأني سأتوقف مؤقتًا عن المشاركة بالغناء والرقص في أي حفلٍ لانشغالي بالمذاكرة. سأفعل صدقوني . لا أريد أن أرى وجه أبي حانقًا ومنتصرًا وهو يقول لي: "لقد أخبرتك أن هذا سيحدث". سأنجح بأي ثمنٍ.

قال نسيم وقد بدا عليه التبجيل:

-والدك لا يحب أحدًا في العالم أكثر منك. إنه يعيش لأجلك. ينبغي أن تكون شاكرًا لذلك.

بدا الخجل على وجه يوسف مما ظهر في كلام نسيم كأنه دفاع عن والده، فأسرع يقول:

-أعرف. أعرف. أفكر أحيانًا ما إذا كان هذا صوابًا أو كافيًا أن تعيش من أجل أحدٍ.

لمس سؤاله موطنًا حساسًا في قلب نجيب، فراح الأخير يتطلع إلى عينيه اللامعتين كأنه يبحث فيهما عن حلٍ لمعضلته هو، وقال بصوتٍ خافتٍ:

-من أجل ماذا إذًا يجدر العيش يا يوسف؟

t.me/qurssan

للحظةٍ عابرةٍ تبادلا النظر ، كأنهما يتبادلان الاعتراف، قاطع هذا التبادل رد مراد القائل:

-ماذا عن فرض القواعد اللازمة لقيام أفضل العوالم الممكنة لكافة البشر؟

قال نسيم بشكٍ واضح:

-هل هذا ممكن؟ لقد وضع العالم في الشرير. أظن كلنا نتفق على هذا.

أجابه مراد منفعلًا:

-يمكن تغيير العالم إن تخلَ البشر عن أنانيتهم؛ لو تنازل كل فرد عن رغبته العقيمة في التملك. لو انتهت مثلًا التيارات القومية التي ترث القبلية في الشعوب ليحل محلها أممية ثورية تساوي بين كل الأجناس والأعراق ولا يوجد داخلها عصبية عرقية أو دينية.

قال يوسف:

-هذا رائع عندما يقتنع به الناس جميعًا في الوقت نفسه، وإن كنت لا أرى التيارات القومية شرًا خالصًا، هي بحاجة للتنقية من الشوفينية فقط، ولكن أن يتم ذلك إجباريًا ولو بالإرهاب فهذا شيء آخر. ما أنقى أهدافك يامراد! لو أنك فقط منفتحًا أكثر بشأن الوسائل.

-هل تظن أن نظام العبودية في أمريكا كان ليُلغى لو تُرك الأمر للاقتناع الشخصي لمالكي العبيد؟ لابد من حربٍ مبررةٍ أحيانًا.

قال نسيم مستنكرًا:

-حرب أخرى! على هذا المنوال سيتقدم كل من يعتقد أن لديه الحق الأوحد والسبيل المطلق للخير لشن الحرب ضد باقي البشر من أجل معتقده. لقد كانت حياة الشركة في أيام الرُسل مثاليةً، عندما باع الجميع ما لديهم من ممتلكات وتشاركوا معًا كل شيء، لكن المثالية هنا تكمن في أن أحدًا لم يطلب منهم ذلك ولم يرغمهم عليه.

اعترض نجيب:

t.me/qurssan

-ومن اشترى منهم الأرض وأعطاهم المال الذى تم توزيعه، هل هو الملعون في هذه القصة؟ هيا نصبح جميعًا فقراء! ليس هناك منطق في هذا. إلغاء التفاوت بين الطبقات كليةً مستحيل.

قال مراد:

-لكنه تحقق في روسيا. لا أمل في سلامٍ دائمٍ ما دامت الأطماع المادية أو الصراعات الدينية أو العرقية هي الحاكمة للشعوب.

-حسنًا، هذا يكفي لليلة. من سيعود معي إلى شبرا؟

كان يوسف هو من قال هذا وقد نهض واقفًا وهو يخرج ماله ليحاسب على المشروبات التي لم يطلب منها شيئًا. تعجب نجيب متسائلًا:

-وما الذي سيذهب بك إلى شبرا؟

-أستاذي هناك. لابد أن أعيد العود لمقره بمنزله وإلا فأين سأذهب به الآن؟

خطر ببال نجيب على الفور أن يصحبه ويخبره في الطريق في سكون الليل بما تكاد جوانحه تتفتق عنه، عساه يجد راحةً. قاطع أفكاره صوت يوسف سائلًا مراد:

-هل استمتعت ليليان بالعرض؟

لم يعنه رد مراد وراح عقله يحتج. لم يعد راغبًا الآن في إطلاع يوسف بشأن هيلانة. يوسف الذي قد يضعها في خياله تحت التصنيف نفسه مع ليليان، والتي تجمعها على الأرجح علاقة غير أفلاطونية بالمرة مع مراد.

لا، قد لا يفهم مدى التباين الشاسع بين هيلانة وليليان، وبيني وبين مراد. لن أخبره شيئًا.

انتهى به الأمر أن تملص من العودة إلى شبرا معه بينما اصطحبه مراد.

قرر أن يذهب وحده لزيارة الأب مينا في مصر القديمة حتى تتسنى له حرية السؤال، حائرًا راح يعيد التفكير. *ما الذي تتوقع أن يقوله لك؟ إنه راهب وليس محرر بريد القلوب. سيقول لك كفى عبثًا وتقدمْ لخطبتها. كم أنت*

t.me/qurssan

محظوظ يا مراد. لا أحد يؤاخذك على التجول علنًا بصحبة فتاتك. كم نحسدك حسد العجائز العاجزين!

والظلام لا يزال باقٍ خرج نجيب فجر اليوم التالي طالبًا الكنيسة المنشودة. أراد أن يصل مع بدء القداس عملًا بنصيحة نسيم السابقة. مشى مسرعًا ليتدفأ، متحسرًا على تفويت صباحٍ دون رؤية هيلانة وهي تنزل من بيتها. لابد أنها لا زالت نائمةً في مثل هذه الساعة. أيدري من يعيشون معها كم هم محسودون على هذه النعمة؟ طوبي للبيت الذي يأويها والألسن التي تخاطبها والأيدي التي تصافحها.

لم يخرج في هذا الفجر الضبابي سوى الباعة القادمين من الريف القريب قاصدين الأسواق لبيع ما يحملونه من خضر وطيور وجبن. ها هو أحدهم يجر خلفه عربةً خشبيةً وقد تَغطَّى حملها بملاءةٍ مهترئةٍ لا لون لها حفظًا له من الرطوبة. ظهره مائل وملابسه تحوي من الرقع أكثر مما تحوي من قماشٍ أصلي. ولكن، لاحظ نجيب تناقضًا لافتًا بين ملابس الرجل المزرية والحذاء الذي يبدو جديدًا في قدميه! ربما أعطاه له أحدهم صدقةً.

بدا أن بسطاء الباعة وطالبو الرزق ليسوا وحدهم من بكر في الخروج، فعلى الجهة الأخرى من الطريق كان هناك جنديان قد خرجا لتوهما من البار اليوناني القائم بالشارع. سرَّع نجيب من خطاه راغبًا في مغادرة المنطقة بأكملها. من يعرف ما الذي يمكن أن يحدث؟ لقد تمثل مرارًا سيناريو الشجار الدامي مع جنود الحلفاء الذي سيدمر مستقبله من كثرة ما شاع من قصص مشابهة. هو قادر على ابتلاع السرقة التي تكون عادةً الدافع الأول للتحرش. سينزل لهم عن المال لو طلبوه، لكن الكارثة ستقع لا محالة لو أنهم أهانوه. لو حاولوا ضربه أو إذلاله سيقتلهم. ليست لديه أدنى فكرة عن كيفية فعل هذا لكنه سيقتلهم. سيوقع بهم أكبر أذى يستطيعه.

t.me/qurssan

وستكون هذه نهاية حياته الغالية جدًا عليه. لذلك كله تقتضي الحكمة أن يغادر المسرح المحتمل للمأساة قبل أن تقع.

أصبح الجنديان خلفه بعدةٍ أمتار عندما لاحظ شيئًا غريبًا. مر بشابٍ يقف ثابتًا لا يتحرك في مدخل عمارةٍ مطلةٍ على البار. نظرته ثاقبة ومحددة الهدف، ألا وهو باب الحانة. للحظةٍ عابرةٍ التقت نظراتهما دون أن يجفل أو يرمش.

ما الذي يفعله هذا هنا في هذه الساعة؟

تقدم قليلًا بخطواتٍ عادية ثم أجبرته قوة قاهرة على الإلتفات والنظر، ليرى الشاب وقد خرج من مكمنه ويده تحمل مسدسًا بعد أن كانت مختفية في جيبه!

توقف عن التنفس للحظةٍ. شعر أن العالم قد تحول بغتةً إلى شريط سينما تدور بكرته ببطءٍ رهيبٍ. بطء يتيح له إمكانية التدخل ويمنعه في الوقت نفسه من عمل أي شيءٍ سوى الفرجة. وقف هناك متجمدًا يرى الشاب وهو يتحرك من مخبأه شاهرًا سلاحه. سيصوبه بلا شك نحو الجنديين، أي هدفٍ آخر قد يقصده؟ عرف أنه يستطيع الصياح لتنبيههما أو إخافة المهاجم، وأنه يمكن أن يجري خلفه لمحاولة منعه، لكن، هل يريد أن يفعل؟ ما أن قرر أنه لن يتحرك من موقعه حتى تبدلت سرعة الشريط ليحدث كل شيءٍ بسرعة البرق! جرى الشاب عابرًا الطريق، مقتربًا من الهدف ليطلق رصاصات مسدسه كلها في الجنديين، ثم يفر هاربًا باتجاه نجيب الذي توارى ليتركه يمر بجواره تلقائيًا.

وقف هناك يلهث دون أن يحرك عضلةً. رغبة مؤلمة في الاطلاع جعلته يجر قدميه جرًا، خطوة واحدة في كل مرة، حتى يصل إلى موقع الحادث. وهناك أمام البار اليوناني حيث تجمع السكارى الذين هرعوا على إثر الصوت المرعب إلى الخارج، استلقى أحد الجنديين ميتًا بلا حراك، بينما راح الآخر

t.me/qurssan

يئن ويبكي طالبًا المساعدة. نظر سكان الشارع من النوافذ وأعادوا غلقها سريعًا عندما أدركوا ما حدث. أما زبائن البار فسرعان ما تفرقوا، كلٌ إلى طريقه قبل وصول السلطات. ما أن وجد صاحب البار أنه بقي وحيدًا في هذا المشهد العبثي حتى أغلق المحل ووضع القفل وفلَّ هاربًا. لم يستغرق كل هذا سوى دقيقةٍ ليحدث، وليجد نجيب نفسه بمفرده في الشارع مع جثة جنديٍ إنجليزي وآخر على وشك أن يصبح كذلك.

كان شابًا في أوائل العشرينات لا يكبر نجيب كثيرًا. بدت رأسه صغيرةً جدًا في البيريه الأصفر، وقد ابتلت بدموع الألم والرعب. ظل يقول بالإنجليزية أنه يتألم وبحاجةٍ للمساعدة. أخذ نجيب ينظر حوله ملتاعًا طالبًا من يخبره بما يجب عليه فعله، ثم أعاد النظر للفتى الممسك بجنبه المصاب وقد تغطت يداه والأرض تحته بالدماء. كم من الدماء يملك ليسفك كل هذا على الأرض؟ هل يساعده؟ هل يملك الآن دفع الموت عنه بعد أن أفسح له الطريق ليصل إليه؟

-ماذا تريد؟ انحنى عليه نجيب سائلًا بالإنجليزية بصوتٍ منخفض كأنه يخشى أن يسمعه أحد. ظل الفتى يقول لاهثًا:

-ساعدني! ساعدني!

-كيف أساعدك؟

سأله متحاشيًا لمسه رهبةً من الدم، وقد بدأ يشعر بالغثيان وبحساسية موقفه في آنٍ واحدٍ، فلو أن البوليس حضر قد يؤخذ مشتبهًا به، هم لا يملكون سواه لتحميله المسئولية، أو شاهدًا في أفضل الظروف، ولو رآه أحد الموتورين لاعتبره خائنًا لمجرد أنه لم يجهز على الجريح لقتله، ومع ذلك فهو عاجز تمامًا عن اختلاق الكراهية الواجبة تجاه ذلك الجندي إن لم يكن مشفقًا عليه!

t.me/qurssan

أخرجته من رفاهيته الذهنية يد الفتى الدامية التي امتدت تمسك بيده كأنه ينبهه لوجوده، ثم صوته الآخذ في الذبول هامسًا:

-أخبر أمي أن مايكل بريء. لقد قام بحمايتي وأنا خنته. أخبر أمي. لا تتركني أموت!

استمرت دائرة الدم في الاتساع، ونجيب يزداد هلعًا والجندي يزداد شحوبًا. *كيف أستطيع إنقاذه بأي حالٍ؟ لن ينجو. لا يمكن أن يفقد كل هذا الدم ويعيش.* وتناهى إلى مسمعه صوتُ جرسٍ قادمٍ من بعيد لا يستطيع القطع بمصدره. هل هو خاص بالبوليس أم بالإسعاف أم أنه مجرد خيالات؟ كم بقي في مكانه حتى يتسنى لأحدهم الإبلاغ ويتسنى لهم الاستجابة؟ نهض واقفًا وقد اتخذ قرارًا بالفرار. صرخ الجندي بقوةٍ لا يعلم نجيب مصدرها:

-لا تتركني لأموت هنا أيها الحقير! أيها الدنيء البارد عديم الشعور! عليك اللعنة! بلاد قذرة! عليكم اللعنة جميعًا! اللعنة!

كأنما أمدته ثورة الفتى المفاجئة بقوةٍ على الحركة. انطلق نجيب مباغتًا بهلعٍ يتنامى في قلبه ليستولي عليه. ظل يجري دون أن ينظر خلفه وقد اختلط صراخ المحتضر بالأجراس. لم يتوقف عن الجري إلا وهو موشك على السقوط إعياءً وقلبه يكاد ينفجر. راح يلهث لدقيقةٍ متلفتًا حوله قبل أن يدرك أن يمناه ملوثة بالدم الجاف من أثر مسكة الجندي. مذعورًا أخرج منديله وراح يفرك يده دون جدوى. أخذ يردد كالفتى، اللعنة.

محاولًا تخفيف ذعره بحث بعينيه عن أي مصدرٍ للمياه ليغسل يده، ثم اضطر لوضعها مؤقتًا في جيبه إلى أن يجد ذلك المصدر. لقد بدأ يومه بالموت والدم، أمَا يجدر به الاكتفاء بهذا القدر من الشؤم والرجوع إلى البيت؟ كم كان عمر ذلك الفتى؟

أكمل طريقه إلى مصر العتيقة خائر القوة والعزم، يده اللزجة التي تكاد أصابعها تلتصق لا تغادر جيبه. وجه الفتى الباكي ولعنته، هذا كل ما راح

t.me/qurssan

ينبض في صدره ورأسه باعثًا على الكآبة والضيق. أراد للحظةٍ أن يعرف مصير الفتى. هل نجا؟ الحظ السيء وحده هو ما جعل ذلك الشاب يولد في إنجلترا أو نيوزيلاندا ويكبر بين ذويه طفلًا ثم فتى، وربما عرف فتاةً أو لم يعرف، قبل أن يُجَند في الجيش ويُرسل إلى الجهة الأخرى من العالم ليموت هناك، في الشارع، على باب خَمَّارةٍ! ليس في معركة ولا حتى شاهرًا للسلاح أو متوقعًا الموت. العجيب أنه لا يذكر شكل الجندي الميت بينما كل ما يسيطر على عقله وجه الجندي الموشك على الموت مستنجدًا به. *لكنني لست الله لأنقذك أيها الأحمق!*

هل يجيبه أبونا مينا لو سأله عن مصير الفتى ليعرف إن كان سيذهب إلى الجحيم أم لا؟ سيريحه ويقلل من اضطرابه أن يعلم أنه لن يتعذب وسيغدو مرتاحًا سعيدًا، يكفيه أنه ذهب مبكرًا قبل استكناه الحياة. لم يكن قد فكر كثيرًا في هذا السؤال. أين يذهب الآخرون بعد الموت؟ يندرج تحت "الآخرين" هذه كل من هو ليس بمسيحيٍ أرثوذكسيٍ مُعْمَّدٍ حسب الطقس السليم. لا يعرف بدقةٍ ما الذي ينبغي أن يمارسه المرء بعد المعمودية ليظل جديرًا بالسماء، لكن خليق بالراهب أن يملك الإجابة. لابد أن الله يخبر أصفياءه بما يضن به من إجابات علينا نحن "العامة". إنه توزيع عادل للنعم.

في كنيسة السيدة العذراء ببابليون الدرج وجد نجيب الناس يغادرون بعد انتهاء القداس! أسرع ليلحق بالأب الراهب قبل إغلاق الباب وهو يفكر أنه يجب أن يغسل يديه أولًا؛ قبل أن يدخل الكنيسة هرع إلى الحمام، استغرق وقتًا بدا كالأبد لعدم وجود صابون، ثم خرج أخيرًا وهو يفرك يده بالمنديل الأبيض الذي يحمله دائمًا معه. في الداخل كانت الكنيسة خاليةً، لا زالت عابقةً ببقيةٍ من البخور، بينما خادم شاب يرتدي الجلباب آخذٌ في إطفاء الشموع ورفعها وإغلاق أبواب الهياكل. أمعن نظره في الهيكل الرئيسي عله

t.me/qurssan

يجد الراهب خارجًا منه، لكنه انتظر عبثًا. رآه الخادم واقفًا لا يصلي ولا يلوي على شيءٍ، فبادره سائلًا:

-أتريد شيئًا يا أفندي؟

-أبونا مينا، أريد مقابلته.

-لكنه غادر للتو. كيف لم تره؟

-متى غادر؟

-منذ لحظةٍ واحدةٍ. كيف فاتك وأنت داخل؟!

الغيظ يتمدد مخلوطًا بلوعة الفرصة الضائعة. سيطر بالكاد على غضبه وهو يسأل بهدوءٍ:

-متى سيعود؟

-لقد ذهب إلى الدير في وادي النطرون. أظنه سيغيب لفترةٍ. انتظرْ. خذ هذا على سبيل البركة إلى أن يعود.

وناوله الخادم بطاقةً صغيرةً تشبه بطاقات المحامين ولكنها تحمل بدلًا من الاسم والعنوان، صليبًا، وتحت الصليب كُتبت الآية: "ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟".

وقف يحدق في البطاقة وقد تنازعته مشاعر شتى. غضب لا يملك دفعه. نقمة على نسيم والجندي والراهب وقانون المصادفات اللعينة التي تأبى إلا أن تتضافر ضده هو تحديدًا، وحزن يشبه خيبة المرفوض من كشف الهيئة. سيعود خالي الوفاض، بلا أي إجابةٍ. تمامًا كما كان طوال الوقت.

أعاد النظر للآية باحثًا عن معنى يخصه وحده. كيف يكون هذا كاشفًا له هو عن أي شيءٍ؟ ما الذي يفترض به أن يفهمه منها ومن ثم يتصرف بناءً على قاعدته؟ ما أشد عمومية المعنى والمغزى، كأن يخبره أحدهم بأن الدنيا فانية. حسنًا. الكل يدرك هذا إلى حد الرعب. ماذا ينبغي أن نفعل؟

t.me/qurssan

عندما عاد إلى شبرا كان الوقت متأخرًا على أن يأمل في رؤية هيلانة. لابد أنها في المدرسة بالفعل منذ ساعتين، مع ذلك تعمد المرور من شارع الأمير أمام المنزل رقم ٧، والوقوف أمام البيت رافعًا بصره لمسح الشرفات، ربما تقرر أختها أو أمها الخروج للشرفة فيعرف أيها هي شقتها. بدلًا من أن يحدث هذا رأى رجلًا أنيقًا يخرج من الباب الفسيح وهو يثبت الطربوش على رأسه ويعدل المنديل البارز من جيب البدلة ويحمل بيده عود يوسف عسلي اللون ذا النقش المميز للجوهري!

t.me/qurssan

مخطوط هيلانة ١

قضت أسِنات يوم أجازتها الأول في الأوبرا مع فادية. وجدت كل التفاصيل عسيرة التصديق؛ أن تجلس في الصف الأول لتشاهد عرض باليه، أن تتمكن من ولوج الكواليس والتعرف إلى الراقصين، أن تكون الآلات العازفة قريبةً منها لدرجة شعورها بالموسيقى في مجري الدماء بجسدها وفي الكهرباء الصادرة بأطراف خلاياها العصبية جميعًا. عادت إلى الشقة وهي منفصلة عن كل شيءٍ حولها. كانت حرفيًا تمشي على غيمةٍ.

-يمكنني أن أفهم تمامًا لماذا رفضت الزواج. أي حمقاء قد تهجر هذا العالم لتغير الحفاضات وتطهو وتغسل الصحون!

-أسِنات، الاختيار لم يكن بهذه السهولة. الأعمال التي ذكرتها لازمة للحياة كالفن بالضبط، لكن...

بدت حائرةً في التعبير عما تريد، فعاجلتها أسِنات قائلةً:

-لم تحبي أحدًا بما يكفي. أليس كذلك؟

-كفي عن وضع الكلمات على لساني وإلا تركتك ونمت. لن أناقش حياتي العاطفية معكِ.

-لا تغضبي. لن أسأل في هذا الشأن ثانيةً. أظن رغبتي الشديدة في الحكي هي ما تدفعني إلى سماع كل أنواع القصص.

-حسنًا. أنصحك، لكي تبدأي في حكي شيءٍ عليكِ أن تبادري بفعلٍ ما.

-أفعل ماذا؟

-إن كنت تنوين أن تكتبي يومًا ما قبل قيام الساعة خذي خطوةً فعليةً؛ اشتركي في ورشةٍ لتعليم الكتابة، دورةٍ، كورسٍ، لا أعرف. أتحبين أن أبحث لكِ عن مكانٍ مناسبٍ للبدء؟

t.me/qurssan

ظلت أسِنات صامتةً وهي تنظر إلى فادية بقلقٍ. بعد وهلةٍ قصيرةٍ قالت بتباطؤٍ:

-ماذا لو فعلت ثم فشلت تمامًا في أن أصنع شيئًا ذا قيمةٍ؟ لو اتضح في النهاية أني لا أصلح إلا للتلقي والإستهلاك دون الإبتكار؟ ماذا سأفعل بتلك الصيدلانية الموشكة على العنوسة والحياة الخالية من الاحتمالات؟ الآن على الأقل ما زال هناك غموض مريح يكتنف ما هو قادم، ولست مستعدةً بعد للتخلي عن سرابي الأثير. أتعرفين؟ كان الأمر سهلًا حين كنت طفلةً. كنت أنسج القصص يومًا على منوال ألف ليلة. عالم سحري بلا قواعد، ثم أتصور أني كبرت فأضع نفسي في قالب جين إير أو إليزابيث بينيت وأنطلق منه مغيرةً الأحداث، حتى أنني كتبت عن مراهقةٍ تحيا في أمريكا في التسعينيات رغم أني لم أزرها سوى في الأفلام! والآن لم يعد بوسعي التقمص والتظاهر مثلما يفعل كل الأطفال سواء كتبوا أو اكتفوا باللعب. ليس لدي البديل بعد.

بعد أن خلدت فادية إلى النوم تسللت أسِنات إلى حجرة جدتها. التقطت الأجندة من المنضدة وعادت مسرعةً إلى غرفتها. منذ ذلك الحلم الذي يشبه الرؤيا وهى تخاف. إن لم تكن الحجرة مسكونةً بأشباحٍ أو ملائكةٍ فهي بالتأكيد قادرة على الإيحاء لقاطنيها بالذكريات السحيقة لسكانها السابقين.

أضاءت المصباح المجاور لفراشها واستلقت كعادتها عندما تقرأ. قررت أن تقرأ بضع صفحاتٍ فقط قبل النوم. الصفحات مكتوبة بقلم حبر أزرق، وفي مطلع كل صفحة التاريخ الميلادي محاط بزركشةٍ يدويةٍ. بدأت الأجندة بتاريخ ١٨ أكتوبر ١٩٤١، بخطٍ منمقٍ كتبت هيلانة إسطفانوس:

بالأمس ماتت مي. ذهبت وحيدةً تمامًا. لم يشفع لها نبوغها وسمو حياتها. لم يبقَ في رصيدها لدى الناس شيء يُذكر. أهكذا تذهبين؟! سحقًا لهذا القدر الذي يأبى إلا أن يغتال النجوم المضيئة ويهوي بها من الفلك الأعلى إلى

t.me/qurssan

السفح الأسفل. لم أصدق ما رأيته داخل الكنيسة المارونية، هل هذا تأبين مي؟ هي التي كانت نموذجًا للعقول الجبارة والقلوب الجسورة تموت حزنًا ووحدةً وتُشَيّع جنازتها غير متبوعةٍ إلا بثلة أفراد. ما أغبى من يطمئن لمستقبله مستدلًا بحاضره! وما أحقرها حياة تلك التي نتهافت على عسلها وهو للسم أقرب. عسى العالم السماوي يكون أرفق وأرحب!

لن أنساكِ يا مي، يا شقيقة روحي، إلى أن نلتقي في رحابةٍ صافيةٍ بعيدةً عن هذا العالم الشقي، الذي لم يكن يومًا مستحقًا لكِ.

٢٠ أكتوبر ١٩٤١

لا يصيبنى الملل أبدًا فى تبادل الحديث مع كاملٍ. هو الأقرب لي في هذا النطاق الضيق الذي حصرني فيه القدر مؤقتًا حتى أخرج إلى رحب الجامعة. هناك سأجد عقولًا تدرك بسهولةٍ ما يحيق بنا في مصر من معركة وجود. ما نستلزمه من جهدٍ جمعي في المجالات الفكرية والعلمية والفنية. لن أواجه ما أكابده في البيت من تسطيحٍ لأفكاري واستخفافٍ باهتماماتي. أشكر أبي أحيانًا أنه يكتفي بدور الحياد في صداماتي مع أمي غير مساندٍ لها ضدي، ولكن الأسى يتملكني في أحيانٍ أخرى لعدم دفاعه عني مع يقيني من تأييده لما أطرحه من آراء. أمي لا تزال أسيرة الماضي، لا تملك الحد الأدنى من المرونة للتعاطي مع متغيرات الواقع (التعليم بعد التوجيهية مضيعة لفرص الزواج ومجلبة للعنوسة. الكتب غير المقررة بالمدرسة مضيعة للوقت وتودي بعقلي للشطط. لن يفيدني انشغالي بالثقافة في حياتي المستقبلية التي لن تخرج عن نطاق تربية الأطفال).

ما أحسبه لأمى فقط هو أنها أنجبت كاملًا قبلي. ماذا كنت سأفعل من دونك يا كامل؟ تمضي الساعات ونحن بغرفتي أو غرفته نتبادل الحديث دون مللٍ. نتناقش في الكتب ونحلل الأحداث حولنا. أقرأ عليه ما أكتبه من

t.me/qurssan

مقالات ويطلعني على خواطره التي تتدفق بقوةٍ ورقةٍ معًا كنهر. ما أن يرانا أبي مجتمعين حتى يضحك قائلًا:

-لقد شرعا في الخلوة. ولا غرو، فإننا لا نشعر بشيءٍ خارج حدود مجلسنا.

تَفهَّم كامل حزني على مي زيادة وشاركني بكائها، في حين نعتتني أمي بالجنون. يشتري من أجلي الكتب التي لا أستطيع الحصول عليها من مصروفي. يجلبها لى من سور حديقة الأزبكية، ويعطيها لي دون أن تراها أمي. لا أتصور هذا البيت دونه؛ فأبي رغم رقة شمائله لا يحمل نفسه مشقة التدخل الإيجابي في أي شأن من شئوننا، متعللًا بأن المرأة هي المختصة بتسيير المنزل لا الرجل، وأنه خليق بإفساد جهودها بدلًا من تعزيزها، وتفرغ هو لممارسة هواياته الموسيقية، تلك التي كانت باعثًا رئيسيًا لمغادرة ميراثه بالصعيد إلى العاصمة، تاركًا إدارة أرضه لأخيه هناك كما ترك إدارتنا نحن لزوجته.

وجود أبي محسوس ما دام صوت العود يتردد في جنبات البيت. لم يلحن شيئًا في حياته، أو هكذا أظن، لكنه يقنع بمصادقة الملحنين وصحبتهم. حدث مرة وقبل مشاركة صديقٍ له فى العزف مع التخت الذي يملكه، لأنه رأى فيه مهارةً وعشقًا أصيلًا للموسيقى، ولكن تم وأد هذه المشاركة بعد أن أقامت أمي الدنيا ولم تُقعدها. كانت المرة الأولى التي نسمع فيها صوتها يضج صارخًا، متغاضية عما تسميه هي آداب السيدات في الكلام، ورغم أن الغرفة كانت مغلقةً إلا أننا سمعنا كل شيءٍ:

-هل تريد أن تفضحنا الفضيحة التي لا دواء لها؟ تريد أن تصبح آلاتي يا ابن المقدس ميخائيل؟ يا عين أعيان أسيوط؟ ستلعن البيت وتبور البنتان، ويهزأ منا القريب والبعيد. ألا يكفيك السهر كل يومٍ في المسارح والمقاهي ومعك العود ملتصقًا بيدك باديًا بمظهر العازف الأجير؟ وتريد الآن أن تكون واحدًا منهم فعلًا؟

t.me/qurssan

كان كامل منقسمًا، مشفقًا على أبي. يريده أن يسعد بتحقيق شغفه، ومشفقًا علينا، أنا وتريزة، من مستقبلٍ مظلمٍ إن تحقق ظن أمي ولم يتقدم أحد للزواج منا. كان هذا جديرًا بأن يجعلني في الحقيقة أشجع أبي ما دام سينقذني من كابوس الزواج الذي يلوح في أفق الفتاة رغم أنفها.

٢٥ أكتوبر ١٩٤١

اليوم رجع كامل مكفهرًا من الكلية بعد أن دخل المشرحة للمرةِ الأولى. ظل عازفًا عن الكلام أثناء تناول الطعام ولم يجب على أسئلتنا سوى بكلماتٍ مقتضبةٍ. حذرتنا أمي من تناول سيرة الموت أثناء الأكل فصمتنا مرغمين.

في غرفته، ونحن بمفردنا، سألته:

-ماذا بك ياحبيبي؟

فانفجر باكيًا. لم أدر إلا وأخي الأكبر الحنون الذي يحتويني دائمًا ملقيًا بنفسه بين ذراعي! اعتصرت قلبي قبضةٌ حديدية ورحت أحتضنه بشدةٍ ملهوفةٍ وقد سالت دموعي معه دون إبطاءٍ. لم يتكلم إلا بعد هدوء رجفة البكاء واستعادته لانتظام أنفاسه، قال:

-أتوا لنا بجثةٍ طازجةٍ. أخبرونا أن هذا من حسن طالعنا؛ فلم تمتد إليها بعد مشارط تفسدها، ولم تغيرها بعد محاليل الحفظ. كانت الجثة لفتاةٍ. تصاعدت حولي على استحياءٍ أصوات مازحة تحاول إزالة الرهبة والكآبة بالنكات والضحكات المفتعلة، لكني وقفت جامدًا لا أستطيع إبعاد عيني عن وجهها وغير قادرٍ على النظر إلى جسدها العاري. أنا أعرف هذا الوجه. لا أذكر أين رأيته حيًا لكني أعرفه. أكاد أرى الفم يتحرك مبتسمًا. ربما لم أرها قبلًا. ربما أهذي، لكني أرى ذلك الوجه ضاحكًا باكيًا. أعرف أن لون العينين المغلقتين الآن بني داكن. الشعر الخشن كان يُغطى دائمًا بوشاحٍ أخضر. كيف رأيت كل هذا ونحن لا نزال متململين منتظرين الدكتور تشارلز ليبدأ

t.me/qurssan

الشرح. لاأعرف، لكني لم أحتمل رؤية تمزيق ذلك الجسد ذو الوجه المسكين الذي لا يحمل أي جمالٍ أو تميزٍ . ما أتعسها نهاية!

سألته:

-هل غادرت المحاضرة؟

أجابني:

-لم أستطع. كان ذلك سيحرض دكتور تشارلز ضدي وربما أدى بي إلى الرسوب في مادته. لقد وقفت هناك فحسب شاهدًا على تقديم الذبيحة. تركت الآخرين يتقدموني وتخلفت. حسدت زميلةً لنا فقدت وعيها مع أول ضربة مشرط. "شحاذة أم عاهرة؟"، سمعت السؤال يُطرح خلفي دون أن أعرف طارحه. بما أنها آلت إلى المشرحة ولم يُعرف لها أهل فهي إحدى ثلاث؛ متشردة أقامت بالشارع وماتت فيه، أو عاهرة أُلْقِي بها إلى الطريق بعد الاستهلاك، وربما قضت على المشنقة تنفيذًا للقضاء. الغصة التي أمضتني في تلك اللحظة لم تغادرني إلى الآن ، أنظر باحتقارٍ عظيمٍ للبشر، للقسوة والغرور والضحالة والغباء ، وأشفق أيضا علي هشاشتهم وعجزهم تحت سطوة الألم.

باغتتني الصورة الكئيبة التي رسمتها كلماته فلم أجد ما أقوله إلا بعد لأْي.

قلت له:

-ولكنك لهذا التحقت بالطب، أليس كذلك؟ أنت راغب تحديدًا في التورط بشأن أولئك العاجزين تمامًا تحت سطوة الألم.

نظر إلي نظرةً حائرةً لم أرها على وجهه قط. عهدي به آملًا، واثقًا، لذلك لم أفهم ما يقصده بالسؤال التالي:

-أتظنين هذا؟

أيعني: أأظن أن هذه هي نيته الحقيقية؟ أم يعني: ما هو مدى قدرته على تحقيق هذا الهدف؟

t.me/qurssan

لكني أجبته بنعم لكلا السؤالين. نعم أظن أنه اختار الطب لإحداث أكبر فارقٍ ممكنٍ في الحياة على الأرض التي اختارها له الله مقامًا. نعم أعتقد أن ما من أحد مؤهل للقيام بتلك المهمة خير منه، بذلك النقاء وتلك العاطفة وهذا الضمير. لماذا اهتز إيمانك الآن ولمَ شكك يا كامل؟

قاطعتنا تريزة لتدعونا بحماسٍ إلى شرب الشاي المسائي مع والدينا، لنتذوق الكعك الذي قامت بصنعه بنفسها! كم هي رقيقة! تحدوني نحوها بعض الشفقة أحيانًا لفرط سذاجتها وبساطة قلبها، وأتعجب من مسببات السعادة التي تتناقض بين كل فردٍ وآخر مهما تشابهت منابتهم، فمدى ما بيني وبينها من اختلافٍ يساوي ما بيني وبين كامل من تشابه، ونحن الثلاثة في النهاية إخوة!

٢٧ أكتوبر ١٩٤١

انتهيت من قراءة الرواية الرهيبة التي أعطتني إياها أديل، الجزء الأول من "في البحث عن الزمن المفقود" لمارسيل بروست. لم تُتَرجم بعد إلى العربية، وأخشى أن يترجمها من يُفقدها نكهتها الخاصة، ربما أفعلها يومًا وأترجمها كما أحسها، أي عبقريةٍ وأي رهافةٍ وأي عذابٍ هذا!

٢٨ أكتوبر ١٩٤١

انتظرت كاملًا اليوم طويلًا لأقرأ عليه تأملًا مفصلًا كتبته في سفر الرؤيا، وعندما مللت الانتظار تركت دفتري تحت وسادته ليجده عند عودته. ما أن غادرت غرفته حتى وجدته داخلًا من باب الشقة مُسلِّما طربوشه للخادمة بوجهه الباش الوسيم. أسرعت إليه مرحبةً سائلةً عن سبب تأخره فأجابني بأنه كان بمصر العتيقة! عندما رأى الدهشة والعجب على ملامحي أخذني جانبًا ليُسرَّ إليَّ بما في طويَّته. لقد ذهب مع رهطٍ من زملائه في زيارةٍ عجيبةٍ

t.me/qurssan

فريدةٍ لم تخطر له ببالٍ؛ إذ أنه في ذلك الموضع وفي طاحونة أثرية كانت إلى وقتٍ قريبٍ مجرد طللٍ، يقيم راهبٌ ناسك من المتوحدين الذين لم نسمع عنهم إلا في السنكسار. هذا الراهب عُرِف بالورع والشفافية حتى أنه صار قبلةً لطالبي البركة وشد الأزر. وهذا هو نص ما قاله واصفًا انطباعه الخاص:

-قطعًا ليس بشخصٍ عادي. لا أذكر أن هذا الإحساس انتابني منذ قبلت يد أبونا لأول مرةٍ في طفولتي، عندما غشيتني رائحة البخور والقربان العالقتين براحته وملابسه، فظننتها رائحة السماء ورحت أستزيد منها ملء صدري حتى تصحبني إلى البيت. هذا تمامًا ما اختبرته اليوم. لم أكن مستعدًا لذلك أبدًا، لهذا فلابد أنه هو السبب. لا يمكن أن يكون مجرد إيحاءٍ. لقد لازمتني القشعريرة طوال مكوثي هناك. يجب أن تذهبي بنفسكِ لتعرفي يا هيلانة. لا أكاد أصدق أني قابلت قديسًا ولامست يده. في الواقع لقد هممت بتقبيلها فسحبها بسرعةٍ واضعًا الصليب بدلًا منها أسفل شفتي. كم بدا كل شيءٍ، أعني كل شيءٍ، مبتذلًا وتافهًا خارج هذه الطاحونة الضيقة! لم تغادرني كآبة يوم المشرحة إلا ساعة مقابلته. لا، ليس عاديًا يا هيلانة.

ما دام كامل يقول أنه قديس وليس شخصًا عاديًا فلابد أنه كذلك. العجيب أنه لا يتذكر إجابةً ما على سؤالٍ أو حكمةٍ فذةٍ يمكن أن تسهم في ذلك الانطباع، بل إن حديثه على حد قوله كان موجزًا بسيطًا، لا ذكاء خاص فيه ولا عبقرية، ومع ذلك فكلماته القليلة وسمت قلوب سامعيه بأثرٍ لا يُمحى من الراحة والاطمئنان، بمن فيهم من مثقفين متحذلقين في العادة.

أهم أثر صنعه ذلك الرجل الجليل في نظري هو إعادة الشرارة إلى قلب أخي الخابي، وهذا أسمى من أي معجزةٍ أخرى قد يصنعها. لقد رجع كامل من محضره وقد عاودته الروح الوثابة الآملة نابذًا اليأس والروح المنكسرة.

t.me/qurssan

١ نوفمبر ١٩٤١

اليوم ذهبنا إلى مدام ريتا. اخترت أنا وتريزة ثلاثة أقمشة مختلفة لتفصل لكل منا فستانًا من كل لونٍ. راحت كعادتها تطري جمالنا تمسحًا بأمي الميالة للنقد والتدقيق المفرط. أجد تريزة هي الجديرة بيننا بالإطراء؛ وجهها ملائكي ليس به حدة ملامحي، مما يضفي رقةً على العينين الزجاجيتين اللتين ورثناهما عن أمي، وأجدهما مخيفتين في الواقع وليستا جذابتين بالمرة. أتمنى لو كان لي عيني كامل السوداوتين. ما أعمق نظرتهما وما أبلغهما! أشفق على قلب الفتاة التي سيُسلط عليها سحر الدفء الغامر في عيني أخي. كيف لم يحب بعد وهو يضطرم أبدًا بتلك النار في جوانحه؟! لم يذكر يومًا اسم زميلةٍ أو رفيقةٍ مصحوبًا ببسمةٍ خاصةٍ أو تنهيدةٍ شاردةٍ. تُرَى متى وجدت حبك سأبقى عندئذٍ أثيرةً لديك أم أتوارى في ظلال النسيان والتلهي؟ سيؤلمني ذلك ألمًا يهون دونه ألم الاحتضار، لأن شطرًا من روحي سيفارقني فعلًا. ومع ذلك لا أملك إلا أن أتمنى له أن يعشق. لا أتصور الوجود مكتملًا دون شقين، الخلق والحب، أعتقد أننا هكذا جُبلنا وصُنعنا، دائمو التوق لخلق شيءٍ من العدم ودائمو البحث عن قسمٍ ضائعٍ من روحنا وُضِع في آخر. أجدني واقعةً طوال الوقت تحت سلطان ذلك التوق. دائمًا لدي ما أكتبه ويؤرقني إلى أن يجد منفذًا للخروج من عقلي ونفسي. ينصحني كامل بأن أركز في نوعٍ واحدٍ من الكتابة لأتقنه؛ الأدب أو المقال أو الأبحاث الدينية، في حين لا يمارس هو هذا التخصص محتجًا بأنه سيعمل بالنهاية طبيبًا لا كاتبًا، فلا ضرورة هنالك تلزمه بالإتقان والخضوع للتصنيف. ومع ذلك فقد بلغت جودة ما كتبه من شعرٍ أنه قُبل ونُشِر في جريدة "المقتطف". أنا ما زلت أخطو خطواتى الأولى مقارنةً به رغم مباهاته دومًا بما يسميه مواهبي الغزيرة.

t.me/qurssan

٥ نوفمبر ١٩٤١

صوم الميلاد يقترب. صومٌ مفرح ليس به أسى التقشف وعقاب النفس. إنه استعداد وحسب، نحن نعد أنفسنا لحلوله فينا وبيننا. لا موضع هناك لندمٍ أو لحسرةٍ، بل هو تهلل وتفاؤل. كيف يتأتى الاحتفال بهكذا نعمة وبخلاص هذا مقداره بينما العالم كله يحارب نفسه؟ كيف نستقبل الملك الوليد بجثث الأطفال المحترقة؟ كان هذا ديدن الأرض الملوثة منذ البداية. ألم تقابل الميلاد الإلهي بذبيحةٍ وثنيةٍ من أطفال بيت لحم؟ لم تغلق تلك الأرض الملعونة فاهها منذ فتحته لاستقبال جثمان هابيل، فمتى تزول اللعنة ويجف الدم؟

يحب أبي أن يعزف لنا مدائح كيهك في هذا الشهر البهيج، وهي المناسبة الوحيدة التي تفتخر فيها أمي بقدرة أبي المذمومة على العزف؛ فهي لم تكن راغبةً في تذكير الجيران حولنا بأن أبي يتجول حاملًا عودًا من صنع الجوهري. "هناك فارق كبير بين كونك ثريًا يُسري عن نفسه بالموسيقى، وبين كونك محترفًا. عزفك لمدائح العذراء ينفي عنك شبهة الاحتراف". كأن هناك قانون كنسي يمنع الموسِيقِيّ المحترف من عزف التراث القبطي لو شاء! وأنا وإن أحببت مدائح كيهك طبعًا إلا أنني أجد الترانيم الغربية الخاصة بالميلاد، والتي تحتفي بصاحب العيد نفسه،أجمل وأقرب لبلوغ الهدف.

استغل كامل انشغال أمي مع رفقة الخادمة بالمطبخ وطفق يهمس لأبي قائلًا:

-لدي مريد يرغب في التتلمذ على يديك، فهل لديك استعداد؟

فوجيء أبي بما يطرحه كاملٌ عليه:

- من هذا وكيف يعرفني؟

سأل أبي ملهوفًا كالطفل، فأجابه أخي بأن زميلًا له بالكلية اعتاد عزف البيانو وآلة أرمنية مشابهة للعود لكنه اضطر للتوقف منذ فترةٍ طويلةٍ

t.me/qurssan

بسبب ممانعة والده. إنه مهووس بالعود تحديدًا وراغب باستماتةٍ في تعلمه سرًا. تعجب والدي من نقطة "سرًا" هذه، فضحك كامل قائلًا أن والد زميله يؤمن أن ولعه بالموسيقى سيفسد التزامه الدراسي، فلا ينهي كلية الطب أبدًا، ومع هذا فهو لا يمنعه مثلًا من الغناء والرقص الأرمني، ربما يعتبره منحًى وطنيًا يستحق التضحية للحفاظ على الهوية. هذا ديدنهم.

هنا أصدر أبي آهة فهمٍ طويلةٍ وقد أعاد رأسه للخلف، أعقبها بجملة:

-هو أرمني إذًا؟ لم أعرف أن لك زميلًا أرمنيًا. عمومًا لا مانع لدي طبعًا. كيف لم يخطر لي قبلًا أن أعلم أحدهم؟ إنها الفكرة الأروع على الإطلاق. وأنت، ألا ترغب في التعلم كذلك؟

تعجبت أنا الأخرى من أنه لم يخبرني قبلًا عن أي أرمني بالكلية. هل علاقتهما من السطحية بحيث لا يأتي على ذكرها منذ دخل الجامعة؟ تُرى أي تفاصيل أخرى تخفي عني؟ هل هناك فتاة لا يذكرها أيضًا ولكن حرصًا وكتمانًا؟

١٠ نوفمبر ١٩٤١

حسنًا، يجب أن أهدأ لأرتب أفكاري. أمر غريب. شخص غريب. ماذا حدث بالضبط؟

لقد سمعت جرس الباب، وأمي وتريزة بالخارج لحضور العشية وكذلك رفقة بأجازتها، فذهبت أنا وفتحت، ثم... من هذا؟ كل ما فعلته أني فتحت الباب وإذا بي أتحول إلى علامة استفهامٍ ضخمة: من أنت؟ ولماذا أنت هنا؟ ماالغريب بشأنك حتى أقف هكذا؟

كل ما قلته هو:

-نعم؟

-إسطفانوس بيه موجود؟

t.me/qurssan

هذا ما قاله. أخبرت أبي بكلماتٍ مبهمةٍ أن أحدهم يريده، فأخبرني سعيدًا أنه ينتظره وأن هذا هو الموعد. تواريت في غرفتي، أنظر من فرجة الباب لأراه يرحب به متحمسًا:

-أهلًا، أهلًا يوسف. تفضل! أدخل!

يوسف من؟ بدا عليه الخجل والسرور من حرارة أبي. جلس معه في الصالة الكبرى مطرقًا برأسه. نادى أبي قائلًا:

-هيلانة.

اللعنة. أنا بملابس البيت. لماذا لم أدرك هذا إلا لحظتها؟ هل هذا هو زميل كامل؟ لماذا لم ينتظر حضوره بالبيت؟

هرعت إلى الدولاب أنتزع أول فستان يصادف يدي لأضعه على جسدي. نادى ثانية فكدت أمزقه وأنا أرتديه. جريت إلى الصالة وأنا ألهث كأني خارجةً من مضمار السبق. لم يرفع رأسه تجاهي، رأسٌ مُغطى بشعرٍ بني وذهبي تحت نور الثريا. طلب أبي أن أصنع قهوةً مضبوطةً من أجل يوسف. أردت أن تنشق الأرض لأختفي. كيف يصنعون القهوة المضبوطة؟ هل هذا هو يوم الامتحان العظيم؟ هل أتى اليوم الذي سأعرف فيه أخيرًا قيمة ما تستطيع كل من تريزة ورفقة عمله وهما مغمضتان العينين؟ اضحكي يا أمي أينما كنتِ، فكل الكتب التي قرأتها لن تفيدني الآن أو تنقذني من صنع أسوأ قهوة عرفها التاريخ. ذهبت إلى المطبخ وأنا أتمنى أن يبدأ الألمان قصفهم اليوم مبكرًا وأن يغيروا على شبرا. لابد أنهم يضعون بالكنكة البن والسكر ولكن بأي مقدارٍ؟ قررت أن أصنع القهوة بنفس مقادير الشاي، ملعقتان سكر وملعقة بن وليكن ما يكون. أظنها لا يجب أن تفور لكنها فارت على كل حالٍ. أخرجتها على أفضل صينيةٍ لدينا مع كوب ماءٍ . وعندما وضعت الصينية أمامه صامتةً، نظر إليَّ...

t.me/qurssan

١١ نوفمبر ١٩٤١

لم أستطع الاستمرار في الكتابة بالأمس ولا أعرف لماذا أفعل الآن. تملكني انفعالٌ غريب لم يعترني من قبل ولم يغادرني. قادرة على تسجيله ولكنى لست قادرةً على فهمه. لم يحدث لي قط أن أصبت بهذا الاضطراب؛ الخجل المهين، الارتباك، الدهشة، الجمود، الحرارة، وكل هذا على إثر نظرةٍ لم تطل إلا لثلاث ثوانٍ. أستعيد تلك اللحظة مرارًا فأتأكد أنها لم تتعدَ ثلاث ثوانٍ، فلماذا؟ أعود وأتساءل: ماالغريب بشأنه؟ ما الذي يستوقف العين عنده على هذا النحو؟ هو قطعًا لا يشبه أي طرازٍ من البشر أعرفه. لم أرَ شبيهًا له بين المدرسين، ولا البائعين، ولا العابرين بالشوارع، وراكبي الترام، ومرتادي الكنيسة، ولا حتى الممثلين بإعلانات السينما، العرب منهم والأجانب. لماذا لا يشبه أحدًا؟! هل أصفه بشكلٍ موضوعي؟ لا أجدني قادرةً على وصفه، لا بشكلٍ موضوعي ولا متحيز، لأنني ببساطة لا أتذكر ملامحه بدقةٍ، كأني رأيته منذ أعوامٍ خلت وليس ساعاتٍ. كل ما تستدعيه ذاكرتي هو رأسًا ذهبيًا يتألق في النور. سأجن رغبةً في سؤال أخي عنه ولا أعرف كيف أدفعه للحديث. سأجرب وأخبره بما حدث لأرى ماسيقوله بشأنه.

*****

لا أدري ما الذي جرى لكلينا، لم يحدث هذا أبدًا بيني وبين كامل، لأول مرة أبطن غير ما أظهر بأسئلتي له. لأول مرة أشعر به يفكر قبل أن يجيب كأنه يقرر ما الذي يجب قوله وماذا يجب حجبه. لم ينظر في عيني مباشرةً وراح يتلهى بقلم حبر كنت قد أهديته إياه في العام المنصرم:

-يوسف لم يكن ألصق أصدقائي، هو زميل للجميع لكن لا تربطه علاقة حميمة بأحدٍ. لا أحد يعرف السبب لكن هناك اتفاق عام على اعتباره أيقونة دفعتنا. الكل يبتسم عند دخوله المدرج ملقيًا التحية. الكل يصمت ليسمع تعليقه على الأغاني والأفلام الجديدة. الكل ينتظر ليرى هل يضحك

t.me/qurssan

على النكتة التي قيلت ليعرفوا إن كانت نكتةً جيدةً أم سخيفةً. هو من يسأل أن يمثلنا لدى الأساتذة في أي التماس أو استفسار. أعتقد أن الأساتذة أنفسهم، حتى شديدي الصرامة منهم، لا يستطيعون توبيخه معتبرين تجاوزه في المرح أحيانًا مجرد هنات طفولية لا تستحق العقاب حينما الأفعال نفسها قد تلقى ردًا عنيفًا لو صدرت عن سواه. الفتيات إما يتجنبنه تمامًا ويعتبرنه شبحًا لا يجب النظر إليه وإما يحاولن استدراجه إلى أي حوارٍ ولو من باب فض الغموض وإزالة السحر، لأنه لايبدي تعلقًا خاصًا بأحدٍ ولو بالنظر.

سكت ليأخذ نفسًا عميقًا فتنفست أنا الأخرى. سألته إن كان شخصًا كهذا يثير غيرة الآخرين وحقدهم فابتسم قائلًا:

-ولكن هذه إحدى غرائب يوسف، حتى الشخصيات المقيتة بطبعها لا تستطيع كرهه، تجدينهم ناقمين شاكين متذمرين، فإذا حضر وتكلم وضحك زال عبوسهم وأقبلوا يتطلعون إليه باشين .

لم أتمالك نفسي وقلت:

-وكل هذا لم تجده جديرًا بالحكي من قبل! هل لديك عليه مأخذ؟

ندمتُ بعد هذا الإلحاح لكنه وقع وانتهى. ترك القلم ونظر إليّ مباشرةً كأنه وصل إلى النقطة الأساسية في اعترافٍ:

-لم أرد الحديث عنه لأسبابٍ قد تبدو غبية تمامًا لذلك لن أعلنها الآن، لكني لم يكن لي كذلك تماس حميم معه إلا قريبًا جدًا. أتذكرين يوم المشرحة؟ لقد انتهى الدرس يومها وبي ما بي وخرجت دون أن أكلم أحدًا راغبًا في المغادرة بأسرع ما يمكن، لكنه لحق بي في الشارع بعد مسافةٍ كبيرةٍ كأنه تتبعني خصيصًا ليتحدث إليَّ، استوقفني ووضع يده على كتفي ونظر إليَّ مطولًا بجديةٍ ثم قال بهدوءٍ:

t.me/qurssan

-أنت تتألم يا كامل. ستتألم دائمًا وستحيا. لاتخفْ وابكِ واطلبْ المعجزة مثلما فعل المسيح عند قبر لعازر. اعتصر كتفي بيمناه بشدةٍ ثم تركني ومضى. لكني لم أبكِ إلا هنا عندما سألتني عما بي. بعدها بأيامٍ بادأته أنا بالحديث كأني أبحث لديه عن مزيدٍ من شيءٍ لا أعرفه، لكنه لم يتطرق أبدًا ليوم المشرحة ولا حديث الألم والبكاء. عاد لمزاحه وطرحه الساخر لسائر الأمور كأنه لا يكترث لشأنٍ ولا يثمن اهتمام. سرنا وحدنا فراح يحدثني عن شغفه بالموسيقى وممارسته للرقص أحيانًا، فأطلعته على مشابهته لأبي في هذا المضمار. أثار هذا فضوله بشدةٍ لكني لم أستفض في الكلام. رحت أطلعه على هوايتي للأدب والشعر فسُر وطلب رؤية بعض ما كتبته ووعدته أن أفعل. لا أعرف ما السبب فيما فعلته بعد ذلك سوى الفضول ربما، لقد أعطيته شيئًا مما كتبته مصحوبًا بشيءٍ مما كتبته أنتِ.

تسابقت دقات قلبي حتى كادت تتعثر في خطوها. لقد قرأ شيئًا كتبته! لم يلمس دفاتري قبلًا سوى كاملٍ، والآن هو، "أي شيءٍ كتبته قد قرأه؟"، هذا ما أردت معرفته.

-تأملاتك في سفر الرؤيا. أعطيتها له مع الشعر الذي نُشر لي من قبل. حسنًا، لقد أعجبه شعري جدًا ووجده مختلفًا عن الأسلوب السائد ومبشرًا بمستقبلٍ أدبي. ثم أخبرني أن ما قرأه عن سفر الرؤيا جعله شغوفًا بقراءة السفر نفسه للمرة الأولى، وسألني:

ولكن من كتب هذه الخواطر المفرطة في عمقها وإثارتها للصدمة؟ إنه ليس خطك بالتأكيد.

وهكذا عرف أن لي أختًا قارئة ومفكرة وغبطني عليها. لا تسأليني لماذا أعطيته دفتركِ. كان أقرب ما يكون للهاجس. عندما تطرقنا للحديث عن الموسيقى مجددًا، فوجئت به يسألني إن كان ممكنًا أن يعلمه أبي عزف العود، مؤكدًا أنه سيتعلم بسرعةٍ لأنه لعب على آلة مشابهة من قبل. بعد أن أخبرت أبي

t.me/qurssan

ووافق رتبت بينهما لقاءً في جروبي ليتفقا على القواعد التي سينتهجانها. لقد اندمجا سريعًا وطالت المقدمات اللازمة للتعارف بينهما حتى اضطررت لتركهما قبل تحديد أول موعدٍ ومكان الدرس، ولم أعلم أنه سيكون هنا. كان يجب أن أتوقع هذا على كل حال.

***

يومًا ما سأفيد من هذه المذكرات المفصلة في كتابة روايةٍ كبرى كالبحث عن الزمن المفقود. هذا هو حلمي الأهم. رواية واحدة لا يزول أثرها بتاريخ الأدب ويقاس عليها وبها.

***

١٧ نوفمبر ١٩٤١

اليوم كان درس العود الثاني. كنت مستعدةً هذه المرة فلم أفتح الباب بثياب المنزل. أمي وتريزة في العشية بالكنيسة كعادتهما ورفقة بالمطبخ، شكرًا لوجودها حتى لا أضطر لصنع القهوة، ولكن أين ذهب كامل؟ لا أعرف.

ظننت أني سأتغلب اليوم على ما سبق من خجلٍ وارتباكٍ، لكن يبدو أن الأمر أعقد مما تخيلت. هناك أمام باب شقتنا حضر ذلك الطارئ المدعو يوسف، كأنني أراه للمرة الأولى، كأنني لم أشهد قبلًا ذلك الوجه العجيب وعليه تلك الانعكاسات الشمسية. اللون الذهبي متكسر على الشعر والرموش. يبدو في الحقيقة بأكمله كشعاعٍ هاربٍ متخفٍ في بدلته الرمادية التي لا يرتدي لها ربطة عنق أبدًا.

ابتسم وقال:

-بونسوار!

ما الغريب في ذلك حتى أسجله؟ ها أنا أعود لتلك الحالة المقيتة من فقدان التركيز والهدف. ما الذي أريد قوله تحديدًا ولماذا أصفه؟ ربما صرت الآن، بعد أسبوعٍ تامٍ، قادرةً على تفسير ما أصابني من دهشةٍ إزاء وجوده المرة

t.me/qurssan

الماضية. لن أعقد ما هو بديهي أو ما أعرف الآن فقط بداهته. لقد أصابتني حالةً مؤقتةً من الجمود العقلي إثر التعرض لصدمة هذا الجمال الذي لم أعرف أبدًا أنه يوجد في الحقيقة .
أي سفسطة وأي تحذلق هذا؟ صمتًا أيتها الحمقاء!

٢٩ نوفمبر ١٩٤١

كيف يكون الجمال في ذاته مؤلمًا لهذه الدرجة؟!
لا أصدق كيف كنت بهذا الجهل أو العمى! ليس عمى بالضبط، كنت جنينًا لم يفتح عينيه ولم يرَ سوى ظلمة الرحم ثم تم إخراجه ووضعه بوجه شمس الظهيرة. إنه النور المبهر لدرجةٍ تغشي البصر ولو لبرهةٍ. النور الذي تتضاءل وتفقد المعنى إزاءه شروح الفلسفة وجزيل الكلام.
إنه الفن الإلهي الذي يُزري بكل الفنون المخترعة والمصطنعة. الكمال وقد تجلى، ليحرق بناره ما يدنو منه من شوائبٍ زائفةٍ. وجوده يفسر اعتناق الإغريق لعقيدةٍ تنكر الآلهة في هيئاتٍ بشريةٍ. لماذا أتعرض أنا المخلوقة الفانية لهذا التأثير الفادح؟ كيف يفترض بي تحمله؟
أراه فأتلاشى... تهرب روحي من الاحتراق بقربه لتتناسخ في عروس نشيد لم يُكتب من قبل...
ها أنا أكتب أولى آيات بشارتي المفرحة، فلماذا أبكي؟
إلهي كم يبلغ جمالك إن كان هذا الجمال المُعطل للعقل والمنطق وُجِد بكلمةٍ من فيك؟ كم يبلغ نورك وشعاع صنيعتك يُعمي البصر؟
هل خلقته تسبيحةً حيةً أم لتجربة البشر؟ إن كان تسبيحةً، سوف أرددها مع كل نفس ، وإن كان تجربةً أسألك أن تدخلني فيها وتنجيني من الشرير.
أسبحك على عظمة خليقتك...
على الشمس والقمر والكواكب،

t.me/qurssan

على الرياح والأمطار والثلوج،
على المياه والأشجار وكل نفسٍ حية،
على قلبي وأغواره وسعته،
على يوسف، يوسف، يوسف.

****

قامت أسِنات بفر صفحات الدفتر وضربات قلبها تكاد تحدث شقًّا بصدرها. لاحظت أن تدوين التواريخ قد توقف وأن الكتابة تستمر في الانسياب دون تأريخٍ بعد ذلك. أغمضت عينيها لتهدئ من نفسها، ثم نهضت وسارت حافيةً كي لا تحدث صوتًا، وإلى غرفة هيلانة توجهت. فارقها الخوف الذي تملكها بعد الحلم وتبدل بتوتر الاستكشاف الذي يدنو من الفرح! أغلقت خلفها الباب وأضاءت النور الأصفر الهادئ وجلست على الكرسي الهزاز وأعادت فتح الدفتر لتستأنف القراءة.

****

لقد أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية دخولها الحرب. إنهم يتصارعون الآن على ملكية المحيط. هذا ما يحتاجه العالم بالضبط. المزيد من الأسباب القاهرة للحرب حتى الفناء. يبقى فقط سؤال: أي بقعة ستفنى أولًا؟

****

أجده مبتسمًا خلف الباب. أتنحى ليدخل. يقبل الفرح معه إلى بيتنا. لون العسل بعينيه يسيل على لساني وقلبي. شعيرات قليلة من الذهب بالكاد نابتة حول شفتيه المنفرجتين تشي بإهماله الحلاقة ليومين، ياقة القميص البيضاء تحتضن عنقه الأكثر بياضًا. أرى تفاحة آدم وأكاد أتأوه... لماذا أتعذب بكل هذه التفاصيل؟
عبر باب غرفتي الموارب أراه وأسمعه. كيف يتأتى له الجمع بين هذا البهاء وتلك الموهبة؟ صوته إذ يغني يذهب بما تبقى من شتات عقلي. وها هو

t.me/qurssan

مسرع في تعلم تلك الآلة التي يأخذها. طوباها في حضنه. وقع أبي العزيز تحت سطوة تأثيره ونزل له عن عوده الأثير من صنع الجوهري ليتدرب عليه دونًا عن أعواده الأخرى. لماذا تخليت الآن عني يا كامل؟ كأنك ألقيت به في طريقي ثم فررت هاربًا. ولم أعد قادرةً على البوح لك مثلما فعلت دائمًا. يمحقني الخجل محقًا. باتت أوراقي المسكينة هي مصب الحمم السائلة من صدري. صرت وحيدةً تمامًا مع لذتي وعذابي.

****

لم يعد بي ميل لتفسير المزيد من سفر الرؤيا، اكتفيت بما أنجزته منه حتى الآن، ربما أبدأ في نشيد الأنشاد الذي نُصحت مرارًا أن أتجنبه لصعوبة محتواه على الفهم والتفسير.

فنجان القهوة الذي شربه اليوم لم يعد إلى المطبخ بل اتجه إلى علبةٍ في دولابي!! لم أتخلص من البن الذي لامس شفتيه وتركته ملتصقًا بجدران الفنجان الذي رحت أقبله وأرتجف. بت أشرب القهوة كل يوم منذ أسبوع. مجرد عبور رائحتها يصيبني بالنشوة كأني أشم رائحة وجوده.

****

حبيبي معلم بين ربوة. كالأرز والنرجس. خطواته لا تمس سوى الجبال ولا تطأ إلا المرتفعات. كيف أهبط به إليَّ؟ كيف أحده في حجالي وهو لا يحد؟ كيف يقع سائر البشر في الحب وليس هناك سوى يوسف واحد؟!

اسمك صلاة. أرددها تلاوةً وترنيمًا.

يوسف. يوساب. جوزيي. جوزيف.

****

-لماذا لا تبقى بالبيت أبدًا في موعد درس يوسف؟

نظر إليَّ بحنوٍ كاد يبكيني. صرت أبكي بسهولة على كل حالٍ. أجلسني بجواره وأمسك بيدي، وبأقصى رقةٍ ممكنةٍ قال:

t.me/qurssan

-ماذا تريدين يا هيلانة؟

لا زلت مغتاظةً من نفسي لحد الجنون. لقد انفجرت في البكاء حتى تقطعت أنفاسي وغص حلقي فعجزت عن النطق بحرفٍ. جاء دوره ليحتضني ويمسد ظهري بكفه وهو يهدهدني بصوته الحاني.

-اهدأي ياحبيبتي... اهدأي... لا أصدق... لم أكن أعتقد أني بهذه العبقرية وتلك البصيرة... لا تغضبي... أنا لاأضحك منكِ، لا يمكن أن أضحك منكِ. كنت أنتظر منكِ إشارةً فحسب لأخبرك... لقد حدث فقط بسرعةٍ شديدةٍ... ماالفرق؟ أتعرفين... لقد رأيتكِ تحبين يوسف منذ... لا... لا أستطيع تحديد ساعةٍ... كان خيالًا يتنامى ببطءٍ مع معرفتي له كل يومٍ ككأسٍ تضيفين إليها كل صباحٍ نقطةً واحدةً، ثم في نهارٍ واحدٍ إذا بفيض يُصب إليه ليمتلئ مرةً واحدةً... لقد فاض يوم حديثه إلي بعد المشرحة، لهذا ألقيت بدوري بحجر اختبارٍ في هذه المياه... أعطيته دفترك... وكانت هذه النقطة الأولى في كأسه هو... عندما توسطت في أمر الدرس لم أكن متيقنًا كيف سينتهي كل هذا... منذ يومين طلب مني استعادة دفتركِ لأنه يريد قراءة تحليلك لسفر الرؤيا مجددًا. بدا متوترًا غير واثقٍ كما لم أره مطلقًا، كأنه يخشى افتضاح أمره، أشك أنه سيبكي لو ألححت عليه مثلكِ. آآه يا هيلانة... كنت أعرف... لا أحد مثله ليستحقكِ... أراكما كاملين ومتلائمين وجميلين... بقدر ما أردت لهذا أن يحدث بقدر ما ساوفت لتأجيله... كنسرٍ أحمق يخشى تعليم صغاره الطيران إشفاقًا على نفسه من الوحدة. سامحي أثرتي وغبائي.

-هل تقول أنه... ماذا يعني إن طلب دفتري؟ هذا لا يدل على شيءٍ، هذا ما تأمله أنت... لماذا تقول ذلك يا كامل؟ لكنه لا يحدثني أبدًا. ليست هناك فرصة لذلك لكن... لماذا لا يقول شيئًا رغم ذلك؟ كامل أشعر أني سأجن هنا... كف عن قول ذلك، لا تقل أنه...

لم أجسر على لفظ الكلمة كأنها ستغادر فمي مع آخر نفسٍ لي.

t.me/qurssan

-حبيبتي، أنا لم أقل شيئًا... أستطيع قراءة وجهه المحمر كالأطفال والمرتبك بالذنب أمامي كلما تحدثنا عنك، كأنه يخشى الإساءة إليَّ لو كشفت أمره، هي سذاجة منه لكني لن أريحه على الفور. سأتأكد منه أولًا .أعتقد أني متأكد على كل حالٍ.

هل توقف قلبي وأنا الآن ميتة؟ وإلا فكيف احتملت تصريحات كامل التي تزف إلى السماء؟ وكيف أحتمل يومًا، لو حدث، تصريحه هو بالحب؟ من شفتيه، شفتيه الأروع، من عينيه. يا إلهي أعوذ بك من الموت الآن أو الجنون! ليس و هناك فرصة أو احتمال أن... أناله... حاشا... يوسف ليس موضع امتلاك ليتم نيله، يوسف كالحياة، يتنازل ويرق للمخلوقات الضعيفة ولا يضن عليها بالشفاء. هل يمكن أن يشفيني؟

تصاغرت وتصرفت اليوم كالأطفال، لم أفتح الباب كما تعودت وتركته لرفقة. لم أجرؤ على النظر إليه بعد كلام كامل وما أحمله من ظن في ميله. اختبأت خلف باب غرفتي أراقب كل لفتةٍ ونظرةٍ، لم يبتسم كعادته وجلس منتظرًا أبي بعينين متفقدتين تبحثان... للآن لا أصدق... هل كان يبحث عني ويتساءل عن سر اختفائي؟ هل رأيته حقًا كاسف البال مطرقًا؟ لكني لا أستحق أن تحني من أجلي رأسك، رأسك الجدير بالاتكاء على أذرع الملائكة، فليصبني الحزن ألف مرة إن كنت قد أحزنتك.

لم أتحمل أن أراه كئيبًا، كان عاجزًا تمامًا عن التظاهر بالمرح مع أبي الذي لم يفته ما به من تبدل وزيغان. لململت شجاعتي وأمسكت بروحي حتى لا تغادر جسدي وخرجت من غرفتي متوجهةً إلى أبي قبل أن أجبن.

-أبي، سأنزل لشراء دفترٍ جديدٍ، أتريد شيئًا لأجلبه لك معي؟

لاأذكر إجابة أبي، أذكر ما رأيته لثانيةٍ واحدةٍ عندما اختطفت نظرةً إليه، ذلك الفرح بعينيه، الفرح الذي انفلت من أسره إلى شفتيه فجعلهما تنفرجان دون مداراةٍ، لا مكان للشك هنا، أيتها الأرض الفانية،أيتها السماء

t.me/qurssan

الباقية، إنه يبتسم لي، يبتسم لي، يوسف... يتطلع، مبتسمًا بفرحٍ... من أجلي أنا!

وقفت طويلًا أسفل سلم بيتنا أجمع أجزائي المبعثرة من فرط الانفعال وأحاول السيطرة على صدري حتى يتذكر كيفية التنفس، وعلى قدمي لتتوقفا عن الدوران والقفز. هل سأقف هنا كآدم المطرود من الفردوس نائيةً عن الملاك الذي يحرس بيتنا؟ ذكرني بهذا الهواء الشتوي البارد. أجمل بذلك الشتاء وذاك البرد . إننا بأجازة نصف العام. سأطلب من كامل اصطحابي كعادته للخروج، على أن يتصادف خروجنا إلى مكان يعرف هو بوجوده فيه. هل أجرؤ أن أطلب ذلك؟ اليوم فقط بت أجرؤ.

ومع ذلك فلم أظنني قبلًا بهذه الأَثَرة، كنت في ماضي أكاد أنصهر في آلام الغير، معذبةً بفقر الفقراء وسقم المرضى ووجع المضطهدين، كنت لأقايض بسرورٍ راحتي الشخصية ورخائي براحة البشرية التعيسة ورخائها.

لو أن الملاريا التي بدأت للتو في أقاصي الصعيد انتشرت منذ ستة أشهرٍ فقط لاستولى ذلك الخطب على مجمع تعاطفي واهتمامي، ولكرست له جُلَّ صلاتي ونذوري ودموعي. ولكني الآن أتراجع خطوةً حين يصل الأمر للأولويات. صار لدي ما أعجز عن مقايضته بحلول الشفاء الأبدي لأسقام الأرض كلها، لو أن الأمر ممكنًا... لو أن التضحية بيوسف وحده مثلًا هي السبيل الأوحد لإنقاذ العالم من الفوضى والمرض والأسى... فلن أفعلها! لن أضحي به. سأضحي بفرصة العالم قائلةً: على البشر أن يعثروا لأنفسهم على طريقٍ آخر للخلاص.

هل هذه الأثرة جزء من غريزة البقاء؟ أم أنها نقص طبيعي مقصود في تصميم الإنسان؟ لابد أن الملائكة كلها تضحك من غروري الآن: "كنت تظنين أن هناك آدمي قادر على بذل نفسه من أجل الآخرين؟! الآدمي الأوحد الذي استطاع فعلها كان إلهًا أيتها الساذجة".

t.me/qurssan

بات يوسف موجودًا في كل ما أكتبه حتى لو كان ترنيمةً!
هل أنال معاملة المذنب أم أن الله يعامل العشاق معاملة المجانين الذين ليس عليهم حرج؟

***

أنا وكامل في مسرح الأزبكية صباحًا نشاهد تدريبات فرقة الرقص الأرمني.
لم يكن أخي مازحًا عندما أخبرني، رأيته بنفسي. تمايز ببريقه المستمد من أمه الفرنسية عن رؤوس الأرمن النقية سوداء الشعر المحيطة به، لم ينظر إلى المتفرجين قط كأن لا أحد هناك. مرةً واحدةً أفلتت منه نظرةً خاصةً إليَّ. أعقبها بابتسامته التي لا يقدر أبدًا على كبحها، ولا أستطيع أبدًا الصمود هادئةً أمامها. ابتسمت أنا أيضًا. بقي كامل بجواري صامتًا ساكنًا كأنه يشفق من خدش الهالة التي امتدت واصلةً بيني وبينه، عازلةً إيانا عما يحيط بنا من بشرٍ وحجرٍ.
كيف أحكم فنيًا على شيءٍ تورطت فيه عاطفيًا من قمة رأسي وحتى قاع قلبي السحيق؟ الملابس... هل هي جميلة التصميم أم أنها استمدت روعتها من احتضان تفاصيله؟ الرقص لطيف وممتع أم هامته ارتقت به لمصاف البدع السينمائية؟ لا أظن أن داود كان أبهى أو أنقى في رقصه أمام تابوت العهد. لو عرفت أمي ما أفكر فيه لاتهمتني بالهرطقة. وها أنا سادرة في غيي لا أنوي توبةً. مشاهدته راقصًا كانت أروع وأكمل فن اختبرته بحياتي!
انتهى التدريب بسرعةٍ شديدةٍ، لم يتجاوز الساعة والنصف، ثم أتى إلينا مرتديًا بدلته الرمادية، أرسلت عيناه قبلةً حانيةً إلى عينيَّ، ومد يده إلى يديَّ مصافحًا، يده طويلة الأصابع، يده الدافئة، يده الرهيفة التي تدب منها الحياة في العود وفي روحي وفي العالم، يده وكفى.
كيف أدون ماحدث؟ أفضل استرجاعه مئات المرات على محاولة وصفه، هل سار ثلاثتنا إلى الحديقة وقد توسطنا كامل؟ هل كنت أختلس النظر

t.me/qurssan

لحذائه ويديه لعجزي عن رفع عينيّ إليه؟ هل تحدث كاملٌ عن نيتي دخول كلية الآداب وإنشاء جمعيةً لمقاومة الفقر والجهل على أن أترك له هو محاربة المرض؟ هل ابتسم متعجبًا من التوأمة الروحية بيننا والتي لا تتوفر عادةً بين أخٍ وأخته؟ لماذا بقيت صامتةً طوال الطريق وأنا المعروفة بطلاقة اللسان؟

ها أنا أدون وحيي من كل حرفٍ جاد به مرطبًا نفسي الظامئة حد التشقق إليه:

-لا يختار معظم الطلبة الكليات التي ينتسبون إليها وفي أذهانهم إنقاذ العالم وتبديله، هم يختارون غالبًا ما يوفر لهم احتمالات أعلى للعمل برواتب أكبر ووظائف أوجه، أو ما يفضله الأهل ويتباهون به، وربما جاءت رغبة الشخص الفعلية في امتهان عملٍ محدد في ذيل الأسباب.

كان يتحدث ردًا على كامل بينما بصره مثبت على يديّ المتشابكتين فوق حجري، جلسنا وكامل أيضًا وسطنا وهنا جرؤت على التطلع إلي وجهه الذي أرى لأول مرة نوره الساطع مناطحًا الشمس.

-هيلانة تتأسّى في ميلها الأدبي بطه حسين وترنو إلى كل ما يقوله ويكتبه بالإكبار والتقديس، أما قناعاتها أو شطحاتها الدينية فهي ذاتية نوعًا، غير خاضعة لمدرسة آبائية معروفة، يمكنك أن تشرحي نفسك أفضل مني .

نظرا إليَّ بتوقعٍ بينما تلاشى كل ما أعرفه من ذهني، لم أعد أذكر كيف أثرت مدرسة طه حسين النقدية التي لا تعترف بالمقدس علي نظرتي للمقدسات، إذ لم يحتمل عقلي وطأة نظرته المباشرة فأصابته البلادة والفزع تاركًا قياده لقلبي، قلبي الذي ارتد للطفولة راقصًا مبتهجًا لا يحمل همًا ولا فكرًا. لم أكن لأنبس بحرفٍ لولا... لولا أنه تدخل لينقذني، ابتسم قائلًا برقةٍ:

t.me/qurssan

-أعرف أن تلخيص قناعات المرء، ودون استعدادٍ، أمر عسير، لكن تخمينها من الإبداع الناتج عنها ليس كذلك، مثلما خمنتها أنا من آرائك عن سفر الرؤيا، كنت أتوق لمناقشتها معكِ، فهل أثقل عليكِ بذلك؟

هززت رأسي نافيةً منتظرةً ما سيلي ذلك وكيف سينتهي هذا اليوم العجيب!

-أنتِ ترين أن السبع كنائس التي توجه لها الإنذارات والوعود ليست إلا مراحل تاريخ الكنيسة المذهبية، وقد خصصتِ الكنيسة الكاثوليكية بالإدانة القصوى، هل لي أن أعرف السبب؟

-حسنًا، إحمم، أعتقد أنه بما أن الشجرة الجيدة لا تطرح ثمرًا رديئًا، وأن الأنبياء الكذبة يُعْرَفون من ثمارهم، فلا شك أن أسوأ ثمار المسيحية،إن جاز هذا النسب، انبثقت من شجرة الإكليروس الروماني. لن أقبل أبدًا أن تقام الحروب المقدسة التي يُسفك فيها دم بشري بطبيعة الحال باسم المسيح، وأن يُشترى الغفران وتَقْصُر فترة المطهر، وهو بالمنطق غير موجودٍ أصلًا، بمقابلٍ مادي، وأن يتم تعذيب الناس بأبشع الوسائل وحرقهم وسلخهم دفاعًا عن إلهٍ سادي لا يوجد سوى في خيال نفسٍ مريضة. لقد ارتكب بابوات وأساقفة روما من الجرائم ما يجعل هتلر وموسوليني ساذجين في طور اللهو القاسي. كيف يحدث هذا إن كان الروح القدس عاملًا في تلك الكنيسة؟ في حين أن ما فعله البروتستانت اقتصر على إلغاء الطقوس والأسرار، وبما أن السَّبْتُ قد جُعِلَ لأجل الإنسان وليس العكس فما فعلوه لا يرقى لمرتبة الجريمة التي تستأهل اللعنة. ما أقوله لا ينطبق بالضرورة على رعايا الكنائس السابقين أو الحاليين، فهم علي قلة من الإدراك أو التعصب أو اللامبالاة ليتبعوا ما تبعه آباؤهم دون تفكيرٍ وربما دون جريرةٍ. أتعرف أن باب النبوات مقسم سبع أقسام أيضًا كالسبع كنائس بالسفر؟ وبالمناسبة الباب عليه رمز الصليب المعقوف، شعار النازية، في أحد أقسامه والذي يفترض أنه يمثل الحقبة الحالية.

t.me/qurssan

رفع حاجبيه متسائلًا:

-ما هو باب النبوات؟

قال كامل:

-إنه باب الهيكل الرئيسي في كنيسة السيدة العذراء بدير السريان، هل تعرف وادي النطرون بالصحراء الغربية؟ هذا الباب صُنع منذ ما يقرب من الألف عامٍ ويُظَن أن الرسوم المنقوشة عليه ترمز لمراحل تاريخ المسيحية والعالم. تحققت كل الحقب عليه وباقي من الرموز مرحلتان فحسب بعد مرحلة الصليب المعقوف.

-هنا أبرق خاطر مفاجئ بذهني فسألته قلقةً:

-مهلًا... هل أنت... كاثوليكي؟

تجاهل سؤالي وقال دون أن تفارقه بسمته:

-إذًا لن تقبلي إلا كنيسةً سماوية خالية من الضعفات.

-أعتقد أن كل المذاهب بها بذرة الخلاص، وأن الله يتعامل مع تخبطنا الشديد بتسامح أعظم بكثير من ذاك الذي نقابل به بعضنا. قد يعتقد أحد البسطاء أن لمسه لأجساد القديسين وتشفعه بالعذراء سيمنحه أفضلية عند تضرعه لأجل شيءٍ ما، لن يخذل الله ذلك البسيط حتى لا يفنى إيمانه. الرجل الذي يعتقد أن إيمانه بالمسيح وحده والتصرف في حياته اليومية كتابعٍ له هو ما يضمن له الخلاص دون سر المعمودية... سيخلص. الله لا يتصيدنا ليهلكنا. لماذا كان إذًا كل هذا العناء في التجسد والألم والصلب؟ لينتقي منا في النهاية من يتبع كتيب الإرشادات الصحيح لينجو؟ مع العلم أنه لا توجد وسيلة إنسانية للجزم بمعاني تلك الإرشادات قطعيًا، مع ما مُنحناه من عقلٍ قاصر بطبيعته يميل للشك في الشك نفسه!

-سأتذكر هذا في كل مرةٍ أتناول فيها الجسد والدم في كنيسة أبي الأرثوذكسية وأعترف لدى كاهن كنيسة أمي الكاثوليكية. لماذا اندهشتما؟

t.me/qurssan

نعم أحضر الصلاة بالكنيستين، لا أعرف في أيهما تم تعميدي، لأن أبي "المستنير" الذي لا يجد فارقًا جوهريًا بينهما رفض إخباري، تاركًا لي حرية الاختيار التي أعطاها لنفسه، فمن النادر أن يتزوج الأرمن من خارج جنسهم، ناهيك عن خلاف مذهبهم.

سأله كامل:

- لابد أنه أحبها حقًا ليتقبل من أجلها الاستنكار المحتمل من جاليته.

-صعب ألا يحبها. أمي قُدَّت من الشفقة والحب، لا تستطيع أن تكره أو تعادي أحدًا، تقضي وقتها بين جمعيات رعاية الطفولة المشردة وتعليم الموسيقى لغير القادرين. كان أبي مفتونًا بالموسيقى في شبابه، عزف البيانو هو ما جمعهما مبدئيًا، فقد كانت مُعلمةً للموسيقى كجدتي وكخالتي المتزوجة بسوريا، لكنه يكتفي الآن بالاستماع في حفلات أيام الآحاد بالنادي الأرمني. أمي جعلتني أعزف البيانو منذ استطعت استخدام يدي، علمتني كذلك الغناء الأوروبي الكلاسيكي.

ضحك فجأةً وصمت كأنه تذكر شيئًا، فقلت بترددٍ:

-ماذا يضحكك؟

-كثيرًا ما ينظر لي أبي متنهدًا ثم يقول: جيد أنك ورثت جمال أمك وقلبها، لكن أرجوك لاتتمسك بنصيبك من عقلها؛ فهو يعتقد أن النساء غير قادرات على امتهان الطب، والطب هو المهنة الوحيدة التي يراني ممارسًا لها، هذه هي هَنة أبي الوحيدة.

-وأنت؟ ما هو الذي تراك ممارسًا له؟

-الطب. لا ينبغي لأحدٍ امتهان الموسيقى إلا إذا كان سيد درويش أو موتسارت. ولا ينبغي لأحد العمل بالرقص إلا إذا كان مثل أنَّا باڤلوڤا. هل أخبرتك يا كامل أنني تقدمت للغناء في الإذاعة قبل دخول الجامعة؟ أردت التأكد من أن الموسيقى لن تكون وظيفتي. لقد رُفِضت بالقسم العربي لأني

t.me/qurssan

أبدو أجنبيًا جدًا، أقرب إلى الإنجليز ببشرتي الشاحبة، مما يجعل الغناء العربي غير مقبولٍ مني، كيف كان المستمعون ليرونني وأنا أغني في الراديو؟! لكني لم أكن لأتخفى للأبد على أي حال.

قلت وأنا أذوب إشفاقًا:

-لو غنيت بالأرمنية أو الفرنسية لتيسر الأمر لك وغنيت بالقسم الأوروبي.

-لكني أردت أن أكون مغنيًا مصريًا. أنا أحب بالمصري فيجب أن أغني بالمصري، أليس كذلك؟ عمومًا أنا أغني الآن بكل اللغات انتقامًا لنفسي.

ياربي! كم بدا بريئًا، وهو يقتلني بمنتهى السلاسة، قبل أن يتراجع خجلًا من تهوره مطأطئ الرأس، لا يجب السماح له بتصويب كافة سهامه على هذه الصورة الخالية من المسئولية، "أنا أحب بالمصري"، هذا ليس عادلًا! يجب أن يُعْلمه أحد بما يمثله من خطر على أفئدة ذوات الدم الحار مثلي، أين كان يفترض بي أن أختفي من أمامه بوجهي الملتهب؟

شكرًا لأخي العزيز الذي شعر بي فاقترح أن نتمشى حتى محل حلوى قريب لشراء بعضها، علق هو قائلًا:

-جيد،أحب الحلوى الشامية. هل ستتخصصين في الأدب أم الفلسفة؟

-كليهما ربما! لدي نهم معرفي للفرعين، لكن الهدف المرجو في النهاية هو كتابة الرواية. كلما قرأت روايةً جيدةً كلما تأكدت أن كتابة ما يشبهها هو الشيء الوحيد القادر على منحي التحقق والشبع.

أمسكت بذراع كامل بكلتا يدي كأنني أتثبت به على الأرض خشية الطيران لو تركته، بينما راحا يتفقان على أن نذهب في الأسبوع القادم لمشاهدة فيلم "ممنوع الحب" معًا. رحت أوزع تحياتي القلبية الممتنة على البيوت والمصابيح والأشجار والأرصفة، وردتها هي لي باسمةً متواطئةً، ما أروع القاهرة. أفهم تمامًا ما يقصده عندما يتمسك بمصريته شغوفًا واعيًا مختارًا، محتفظًا بأصل منبته طي إهابه، فمصر محج ومستقر للوافدين

t.me/qurssan

من كل عرقٍ ولونٍ ولسانٍ، ومهرب المضطهدين الخائفين، والقاهرة هي أورشليم الثقافة والفن. وها نحن نزور شوارعها الأبهى والأعظم حنوًا متبركين مطمئنين. لا يفسد هذه اللوحة المثالية سوى مرأى سيارات الدوريات الإنجليزية وهي تجوب بيننا مُشيعةً القلق والتوجس وذكرى الحرب الكئيبة.

أفقت من خواطري على صوت كاملٍ قائلًا:

-لقد وصلنا، هل ترغبان في أخذ الحلوى للبيت أم أكلها هنا؟ يوجد لديهم مكان هادئ بالداخل.

قال يوسف:

-فلنأكل هنا، ثم سآخذ بعضها معي من أجل أنوش.

صمت قليلا ثم أردف شاردًا:

-أفهم ما تقولينه عن الرواية لأنني اختبرته مرةً منذ ثلاثة أعوامٍ، عندما حضرت عرضا بالأوبرا... غير فكرتي التقليدية عن الموسيقى وأثرها على النفس، لا زلت أقشعر كلما تذكرت ما فعلته بي تلك الليلة، وأحلم أن أنتج ما يشبهها يومًا.

حدقت به كما أشتهي سائلةً:

-أي عرضٍ؟

-كنتاتة كارمينا بورانا، أشعار من العصور الوسطى باللاتينية وألحان الموسيقار الألماني كارل أورف. عمل مستقل بذاته لا تنطبق عليه سوى قواعده هو.

-كيف لم أسمع قبلًا بهذا الاسم؟

-على الأرجح لن تسمعي أيضًا؛ كارل أورف محسوب على الثقافة النازية ولن تُعرض موسيقاه في دولٍ حليفة، وهكذا فما تم عزفه بتلقائيةٍ في القاهرة منذ ثلاثة أعوامٍ فقط صار من المستحيل طرحه الآن. لا أعتقد طبعًا أن

t.me/qurssan

سماع موسيقى معينة قد يغير قناعاتك لتؤيدي فكرًا رفضته مسبقًا، فتتحولي مثلًا من مؤيدةٍ للشيوعية إلى محاربةٍ في صف الرأسمالية. هذا سخف! لكنك ستحملين تعاطفًا لا شعوريًا مع الشخص، وبالتالي الثقافة الحاضنة لهذا الشخص الذي ترك بصمته على عواطفك، لن تكوني متحمسةً لمقاتلته في أسوأ الأحوال، ستكونين قد تم تحييدكِ طالما حاز إعجابكِ وتقديركِ. والحياد غير مقبولٍ في زمن الحرب.

-وهل هذا سيء جدًا؟ أتعرف أن ما تقوله يجعلني أفكر بشكلٍ جديد؟ ماذا لو عمدنا لنشر هذا الحياد في زمن الحرب بالذات؟ لابد أن أستمع يومًا لكارمينا بورانا بأي وسيلةٍ.

-لدي النوتة الخاصة بها، ربما أستطيع تسجيلها يومًا لأجلكِ.

ذهبا معًا لشراء الحلوى وجلست أفكر في أمرٍ لا علاقة له بنقاشنا عن دور الفن في البروباجندا، تسلل السؤال التافه لمقدمة اهتماماتي مجنبًا أي مثيرٍ آخر للفضول: من هي أنوش؟!

هو اسم فتاة، وأعرف أن لا أخت له، فمن تكون حتى يبتاع لها الحلوى؟ تمنيت أن يكون من هواة القطط التي تحب الحلويات الشامية، وراح الفضول يتلاعب بي وأنا جالسة وحيدة بانتظارهما. عندما عادا أخذت أتطلع إلى اللفافة الموضوعة على المقعد الشاغر بينما رُصت أمامنا أطباقنا الجاهزة للأكل. حاولت أن أخمن من حجمها إن كانت كمية تكفي شخصًا واحدً أم أسرةً، كان هو سعيدًا خالي البال يلقي الطرفة تلو الأخرى، فراح بصري الملهوف يتردد حائرًا بين وجهه الذي أروم الشبع منه وبين اللفافة الغامضة التي صارت أهم من أسرار الرايخ الثالث بالنسبة لي.

قال كامل بسرورٍ كأنه يجد وجومي مسليًا جدًا:

-ما لك صامتة يا هيلانة؟ لا أسكت الله لكِ حسًا؟

t.me/qurssan

لا زلت لا أصدق أني انحدرت لمستوى ما سأقوله تاليًا، كيف كنت بهذا الابتذال؟

-أفكر في أصل اسم أنوش، لقد سمعته في المدرسة من قبل ولا أذكر إن كانت صاحبته أرمنية أم فرنسية.

لن أنسى ما حييت ذلك التتابع السريع كالبرق للتعبيرات على وجهه.

دهشة، شك، فهم، دهشة، سرور عارم لحد الانتشاء يتجلى في تلك الابتسامة العريضة التي تثير فيَّ شيئًا بخلاف الحب للمرة الأولى ، الغيظ . كان جليًا لكل ذي إدراكٍ أنني غيور وراغبة لدرجة الجنون في كشف اللثام عن الشخصية الغامضة الحائزة على اهتمام وكرم يوسف. لا أعرف لمَ احمرَّت وجنتاه عقب ذلك؟ لكن هذا زاده فتنةً. تكلم وهو آخذ في تقليب محتوى طبقه بالشوكة الذهبية بسعادةٍ واضحةٍ:

-هو اسم أرمني شائع، وصاحبته مقيمة بالشقة الواقعة أسفل شقتنا، وهي لا تستطيع النوم قبل أن تراني، لذلك اعتدت أن أمر بها كل يومٍ مصطحبًا شيئًا ما، زهور، شيكولاتة... هي تحب أي هدية كالأطفال. أحيانًا ترفض أخذ أي شيء وتكتفي بأن أتناول معها الطعام، أفعل ما تريد لأني أتجنب إغضابها تجنبي للمرض، هذا دأبي منذ كنت طفلًا أراها ببيتنا دون أن أفهم صلة القرابة بيننا بدقةٍ. حسنًا، هي تحديدًا ابنة عم جدي، جاءت مصر منذ ستة وعشرون عامًا إلى القريب الوحيد لها الباقي في قيد الحياة، أبي. أظنها في السبعين من عمرها على الأقل.

لن أستطرد في هذه الناحية لقلة رغبتي في استعادة تلك اللحظات المحرجة، عادا للنقاش بشأن استغلال الثقافة للدعاية السياسية ومدى قدرة الفن على البقاء "نقيًا" كما ينبغي.

كرر يوسف دعوتنا، مع باقي أفراد أسرتنا، لحضور الحفل بعد أسبوعين:

t.me/qurssan

-ستكون مقاعدكم في الصف الأمامي، ربما تجلس أنوش بجانبك، فهي لا تفوت أي حدثٍ أشارك فيه.

كانت الجملة الأخيرة موجهةً لي أنا. ابتسمت رغمًا عني ورحت أتلهّى بالنظر في محتويات طبقي وتقليبها، عندها صرح كامل بأنه من الأرجح أن أبي سيحضر بكل سرورٍ بينما ستمتنع أمي لعدم ميلها لارتياد المسارح عمومًا. هز رأسه متفهمًا مكتفيًا بالوعد المبطن بحضور ثلاثتنا، أنا وكامل وأبي.

آآآه، كيف أصف ما تلى ذلك؟ نهض كامل لشراء حلوى للبيت فإذا به ينظر إليّ كما لم يفعل من قبل. بلهفةٍ، بتوقٍ، بتوترٍ مؤلمٍ، وشفتاه نصف مفتوحتين على وشك بوحٍ مستعصٍ، وأنفاسه تتسابق مع أنفاسي المبهورة، أرسلت عيناه ومضات من لهبٍ مذيب إلى عينيَّ. خرجت من صدره زفرةً حارقةً مع اسمي، لم يقل سوى "هيلانة"، كأن اسمي جمرة أُلقي بها خارج جوفه كي لا يحترق. كانت أول مرة ينطقه، وأول مرة أختبر اختطافًا صوفيًا، فهل كانت تلك النهاية؟

لقد مدَّ أصابعه فوق الطاولة، وبأرق ما يمكن لكائنٍ من لحمٍ ودمٍ، إن كان حقًا من لحمٍ ودمٍ، لمس رؤوس أصابعي فقط، لكني شعرت بها كطاقةٍ مرسلة لصدري، صدري الذي كان قبلًا من تراب وأرسل هو فيه أنفاسه ليحيا. ولا زلت أرتجف إلى الآن من اختبار الشروع في الوجود للمرة الأولي، أغمض عيني وأستمع لموسيقى قادمة من كواكب تدور بمجرةٍ نائيةٍ مررت بها وأنا أهبط للأرض، وأستعيد للمرة الألف ذلك الملمس لأصابعه على أصابعي، أصابعي التي لن ترى فسادًا، ولن تعرف سوءًا ولا شرًا بعد أن تطهرت به.

***

t.me/qurssan

اليوم بكيت بالقداس.

كنت أصلي متطلعةً إلى الصليب وأغبط المجدلية الواقفة عند قدميه للأبد ثم تذكرت يديه، لا أعرف لماذا لكنني، كما أدمجه لا إراديًا بكل هواجسي وسوانحي، تخيلت يدي يوسف مسمرتين على الخشبة!

كاد الألم الذي دهمني لمجرد تخيل عذابه يقتلني، شهقت مفزوعةً وأنا أحدق بالمصلوب. دائمًا يا رب ما كنت أتطلع إلى الصليب شاكرةً خجلةً مع لمسة حزنٍ طفيفةٍ، لكني أبدًا لم أتألم كما ينبغي لمن يحب إزاء عذاب من يحبه، وها ضعف وتفاهة حبي لك يظهران الآن بصورةٍ قاسية فاضحة! كم كنت مخدوعةً في نفسي وفي مقدار حبي لك، فهل أرسلته لي فقط حتى تكشف لي نفسي الضحلة؟ لتقول لي: هناك من يمكن بسهولة أن يأخذ موضعي في قلبك فلا أصبح أنا الأول والأخير، البداية والنهاية؟

مع وضوح الفكرة راحت دموع الخزى تنهال على خدي دون أن أملك لها ضبطًا. بكيت معتذرةً، خائفةً. يلوح لي الفقد عقابًا عادلًا قد أتجنبه بحياتي ذاتها، صار لسان حالي يردد مع الصلاة:

-سامحني يا رب إن أحببته أكثر مما ينبغي، إن شغفت بعطيتك بدلًا منك، لا أعرف البتة كيف أعوض عن هذا ولا كيف أصلحه، وكيف تقبل أنت غير المحدود الكامل حبنا المحدود الناقص، لكن أرجوك ألا تسلبني إياه، لا تعاملني بما أستحق وارحمني.

***

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الختم الرابع

t.me/qurssan

الجهل التام أفضل مائة مرةٍ من نصف المعرفة؛ نصف المعرفة قد يدفع بك إلى الجنون.

هكذا راح نجيب يؤكد لنفسه، في المقهى المقابل لشارع الأمير حيث يحتسي الشاي، وهو يزداد سخطًا وخوفًا. عرف من الصبي العامل بالمقهى أن إسطفانوس بيه هو الذي يتجول دائمًا بصحبة عودٍ، وأن ابنته الكبرى لا زالت تذهب إلى المدرسة بينما تصطحب الأم دائمًا الابنة الصغرى في جولاتها بعد انقطاعها عن الدراسة. أما الابن البكر كامل، والذي يعرف بوجوده للمرة الأولى، فهو طالب بكلية الطب، وكثيرًا ما يخرج بصحبة أخته التلميذة في الأجازات .

إذًا يوسف زميل شقيقها وتلميذ أبيها. يوسف يدخل بيتها وربما يراها ويعرفها. يوسف أقرب إليها مني. فهل يُثَمِّن هذا القرب أم لا يعنيه البتة؟ هل يعرف كيف هي وكيف تتكلم وماذا تحب وتكره؟ هل يعرفها؟ وهي، هل ترى يوسف أم تَعبر عنه لاهية؟

هل يسأل يوسف عنها؟ كيف صارت حياته فجأةً متوقفةً على ما يقوله يوسف عن هيلانة؟ لو أنه رافقه في تلك الليلة إلى بيت أبيها لإعادة العود، ما الذي كان سيكتشفه؟ أية مصادفةٍ وأية سخريةٍ وأي شؤمٍ يلحقه!

القسم الأوروبي بالراديو يذيع أنباء الحرب بالإنجليزية: سلاح الطيران الملكي البريطاني يقصف بنغازي للمرة العاشرة، والفيلق الثلاثون يدافع عن الحدود المصرية، الطيران البريطاني يخترق مجال ألمانيا الجوي لانهماك الأخيرة في الجبهة السوفييتية.

يُمناه الممسكة بكوب الشاي ترتجف رجفةً طفيفةً. تتعاقب على خياله صورٌ متنافرة تتراوح بين الدماء على يده والجندي القتيل، ويوسف يعزف العود وهيلانة تستمع إليه منتشيةً على دوي القنابل، ويوسف مضرج في دمه بدلًا من الجندي الإنجليزي. انتقلت الرجفة من يده إلى أعمق موضعٍ بقلبه على

t.me/qurssan

إثر اصطناع خياله للمشهد الأخير، هالته إمكانية الشر الخفية في نفسه، كيف واتته القدرة على رؤية أحب أصدقائه على هذه الصورة؟ هل يمكن أن يفضل تلاشي يوسف من الوجود على أن يفقد هيلانة؟ هل هناك احتمال أصلًا أن يفقد هيلانة؟ مع تنامي الفكرة برأسه تقلصت معدته ممتلئةً بالحمض حتى كادت تفيض بما شربه من شاي قيئًا.

نهض مسرعًا يروم الهرب. أوى إلى بيته وقصد غرفته بعد أن أعاد غسل يده ثلاث مراتٍ للتأكد من زوال أثر الدم. أخرج من ملابسه البطاقة التي أخذها من خادم الكنيسة واندس بين الأغطية بفراشه.

ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه.

لماذا يريد أن يبكي؟ لماذا قُدِّر له أن يراها بالمقام الأول؟ لماذا قُدِّر ليوسف أن يكون صديقه؟ ما من سببٍ معقولٍ لهذه الكآبة. ما من دليلٍ لديه على وجود تلك المأساة التي تَخُطُّ نفسها بعقله. إن تغاضى عن هذا البرد الممض الذي يُلم بجسده وذلك الألم بمعدته فالحل الأوفق هو النوم. شكرًا على هبة النوم.

***

-أسِنات! أسِنات! انهضي ياحبيبتي، بماذا حلمتِ هذه المرة؟

حدقت أسِنات بفادية مدهوشةً ودارت بعينيها في أنحاء الغرفة كأنما تتساءل كيف انتهى بها الأمر فيها وقد باتت الشمس في كبد السماء وملأت أشعتها المكان.

-لقد نمت! جئت هنا بالأمس للقراءة ويبدو أنني لم أستطع الصمود يَقِظةً طويلًا. لكني لم أحلم مجددًا. ما قرأته يفوق أي حلمٍ في الشطط والهذيان.

-حسنًا. لقد أثرتِ فضولي. تكلمي!

-فادية، هل عرفتِ أي أرمن في حياتك؟

t.me/qurssan

-أستاذتي للبيانو في الكونسِرڤتوار كانت أرمنية، وإحدى زميلاتي كذلك. هل تحوي مذكرات جدتكِ شيئًا عن الأرمن؟

-شيئًا عن الأرمن، وكارمينا بورانا، وسفر الرؤيا وباب النبؤات والبابا كيرلس.

-البابا كيرلس السادس؟!

-نعم، عندما كان أبونا مينا المتوحد. هل تعرفين من هو يوسف؟ هو طبيب أرمني على الأرجح.

-هل يفترض بي معرفته؟

تطلعت أسِنات بحيرةٍ إلى قريبتها وقد تملكها التردد، ثم قالت بوجومٍ:

-لا. لا يفترض بأحدٍ معرفة شيءٍ مما ورد بهذا الدفتر. لا أعرف لما تركته أصلًا بهذا المكان سهل الكشف دون المفتاح حتى. لم أقرأ قط شيئًا يشبه هذا. لقد كانت تغني وتحترق. سأستخدم تعبيرها شخصيًا فأقول: تكتب بشارتها. كيف لم تحترف جدتي الكتابة واكتفت بكتابة الترانيم للكنيسة؟ أريد أن أعرف كل شيءٍ عن الأرمن في الأربعينيات عامةً وعن هذا الشخص تحديدًا، فمن أين أبدأ؟

-ستبدأين بعمل بحثٍ على الإنترنت عما تريدين من معلومات قبل أن تحددي أدق المصادر التي يجب اللجوء إليها. وهناك النوادي الأرمنية لو أردتِ شهاداتٍ حيةً، وإن كنت أشك في وجود أحياءٍ من تلك الحقبة. هل تأثرت بالمذكرات حقًا إلى هذا الحد؟ آخر ما كنت أتوقعه أن تدور تلك المذكرات حول غرام خالتي في صباها!

-إنها تثبت لي على الأقل وجود جينات الأدب في تركيبتى. لدي رغبة ملحة في الكتابة دون أدنى فكرة عما ينبغي عليَّ كتابته. أحقد فقط على هيلانة لذلك الإلهام المجاني الذي صادفته فى أولى صفحاتها. وهناك أمرٌ آخر، أوراقها ودفاترها التي أخذها أبي من هنا. أحتاج للإطلاع عليها. سأضطر للعودة إلى البيت في أول أجازةٍ قادمة.

t.me/qurssan

***

أبدي نسيم الدهشة والسرور لظهور نجيب غير المتوقع بالصيدلية. انصرفا معًا وقد أعلن نجيب رغبته في الذهاب إلى مقهى جديد لا يُنْتَظر أن يقابلا فيه يوسف أو مراد بالصدفة.

-قبل أن تشرح لي أسباب عزوفك عن مقابلة يوسف ومراد الليلة لدي ما أخبرك به، لقد التحقت بالكلية الإكليريكية.

حدق نجيب بصاحبه غير واثقٍ من صحة سمعه. أعاد الكلام كأنما يسجله بصحيفةٍ:

-التحقت بالكلية الاكليريكية بمهمشة؟ تلك التي أنشأها حبيب جرجس؟ لماذا؟!

-تبدو مصدومًا بشكلٍ مضحك. يمكن لأي كان الالتحاق بالإكليريكية. لقد أردتُ دائمًا المزيد من التعلم ومنعتني ظروفي التي تعرفها أنت، لكن الدراسة بالإكليريكية ليست فقط مجانيةً ولا تشترط الحضور طوال أيام الأسبوع، لكنها تتيح من العلم ما لا توفره أي دراسةٍ أخرى، كاللغة القبطية مثلًا. من المثير للخجل أن تندثر لغتنا الأصلية التي أُجْبِرنا على تركها بتعريب الدواوين الحكومية، وتاريخ الكنيسة الممتد لألفي عامٍ، ماذا تعرف عنه؟ هذا عدا الدراسة المدققة العميقة للكتاب المقدس طبعًا. في رأيي أن منهج الكلية الإكليريكية يجب تعميمه على الشعب القبطي بأكمله. ألا يثير غيرتك ما يحرص عليه الأرمن من حفاظٍ على لغتهم وموسيقاهم وتراثهم بينما هم محكوم عليهم بالشتات منفيين من وطنهم؟ وكانوا أَوْلَى بالانصهار في الشعوب التي حلوا ضيوفًا عليها لتيسير حياتهم، بينما جذورنا المتأصلة في بلادنا منذ آلاف السنين لا تُذْكي فينا حمية حفظ الهوية الحقيقية لنا. يجب أن نكون أقباطًا أولًا وأخيرًا.

t.me/qurssan

-أعترف لك يا نسيم أني متأثر جدًا بحماستك ومقدرًا لها أيما تقدير، لكن أرجوك، أرجوك أن تنصت إليّ.

نظر نسيم له بقلقٍ سائلًا:

-ماذا بك يا نجيب؟ ماذا حدث؟

اِحْمَرَّ وجه نجيب واضطرب. تساءل فى نفسه عما يجب أن يقصه أولًا؛ حادث إطلاق النار الذي عاينه أم...؟ حسم أمره وقال بسرعةٍ قبل أن يجبن:

-أنا أحب فتاةً. كان يفترض بي التقدم لها للزواج لكني أحجمت لسببٍ لا يعلمه إلا الله، ولا يمكنني أن أفعل الآن بسبب شكوكٍ تعتمل في نفسي. قد تكون حماقةً مني ومحض خيالٍ، لكني عاجز تمامًا عن إسقاطها من حسابي.

-أنا لا أفهم فعلًا.

-باختصارٍ شديد هي ابنة الرجل الذي يُعلم يوسف العزف على العود.

-وهل يرضى المقدس بمصاهرة عازفٍ للعود؟

-أنت لم تفهم. إنه ليس عازفًا. هو رجل متيسر يتخذ عزف العود هوايةً. أنت تبتعد تمامًا عن الشق المهم في الموضوع. أخشى أنني أشعر أن هناك شيئًا ما بين يوسفَ والفتاةِ، على الأقل من جهته.

-وكيف استنتجت هذا بالله عليك؟

-لا يمكنني أن أشرح لك هذا. إنه إحساسٌ غامضٌ تمامًا ولا يمكن تجاهله في الوقت نفسه. أتذكر تلك الليلة التي جلسنا فيها معًا بالمقهى وراح يوسف يغني "جفنه علم الغزل"؟ أدركتُ حينها بشبه يقينٍ أنه يحب. ارْبُطْ ذلك بطريقة حديثه عن درس العود وحرصه عليه. هناك الكثير مما نجهله عن حياة يوسف. إنه حدس وحسب، ثم لا يمكن أن يراها ولا يحبها. أنت لم ترَ هيلانة فلن تفهم.

t.me/qurssan

-أنت تهذي يا نجيب. تصنع من افتراضاتك الخيالية واقعًا. هل نسيت أن الأرمن لا يتزوجون من خارج طائفتهم؟

-يوسف نفسه استثناء لهذه القاعدة، قد ينتهج نهج أبيه ويتزوج أيضًا من فتاةٍ غير أرمنية.

-تبدو مهووسًا بفكرتك لدرجة انعدام جدوى النقاش. لماذا لا تخبر يوسف أنك تعرفت إلى معلمه الخاص وأن كاهن الكنيسة رشح لك إحدى ابنتيه للزواج لترى رد فعله؟ لا تعلمه أنك رأيتها، كأن الأمر ليس جديًا بالنسبة لك.

-حسنًا. لا بأس. أتمنى فقط أن أستطيع تمثيل اللامبالاة المطلوبة. لم أعهدك بهذا المكر يا نسيم. متى أنفذ هذه الخطة؟ الليلة؟

-كيف سترى يوسف الليلة يا نجيب، هل نسيت أنه منقطعٌ للدراسة هذه الأيام؟

-لو أنني معتاد على زيارته ببيته لزرته الآن وانتهيت. لن تخمن أبدًا ما بي من اضطرابٍ.

-في هذا أنت مخطئ. الاضطراب متجسد في ملامحك بشكلٍ فاضح. حمدًا لله أنك لا تزوره ببيته. انتظرْ حتى تقابله بشكلٍ طبيعي وإلا شكَّ في دوافعك. هل تحدثت إليها يا نجيب؟

بدا كأن الإجابة تؤلمه وهو يهز رأسه نافيًا. طالعه صديقه مشفقًا وقال بأقصى ما استطاع من لطفٍ:

-كم تبلغ أهمية هذا الأمر بالنسبة لك؟ أعنى ما الذي قد تضحي به من أجل الفوز بها؟

راح نجيب يرمقه بعينين ساهمتين وقد تملكه الخرس، يداه متكورتان في تشنجٍ وشفتاه منطبقتان، مر قرنٌ من الصمت قبل أن يجيب بصوتٍ مكتوم بارد:

t.me/qurssan

-لو أنها تحبه، لن أستطيع رؤيته ثانيةً ما حييت. لن أحتمل وجوده في حياتي بعدئذٍ، لكن لو أنه هو من يحبها دون أن تدري سأتزوجها.

-أي أنك في كل الأحوال مستعد للتضحية بيوسف. أعرف أنك لا تختار هذا بملء إرادتك، لكني لا أتمالك نفسي من الحزن مع ذلك. ما أغلاك عندي يا نجيب. وما أحب يوسف إليّ. ما أقسى هذا كله! لا أظنني قادرًا على اتخاذ قرارٍ مماثل. لأصدقائي دائمًا المكانة الأولى ولا أتخيل أن تحوز أية فتاةٍ هذه الأهمية في نظري.

في اليومين التاليين بحث نجيب عن خبر مقتل الجنديين في كافة الجرائد العربية والأجنبية ولكن دون جدوى. أَمَضَّهُ ذلك وأثار ضيقه فراح يلعن الرقابة على النشر والتعتيم. أراد أن يذكر غيره الحادث ويقصه بحياديةٍ حتى يفقد إطاره شديد الخصوصية ويتحول إلى حدثٍ عام لا يخصه وحده. الآن يبدو كأن النار أُطلقت عليهما فقط حتى يراهما ويتورط بأمرهما بشكلٍ ما ثم يذكرهما تاليًا للأبد!

مر ببيت هيلانة كالعادة في الصباح مُعذبًا ومستعذِبًا رؤيتها متوجهةً إلى المدرسة، ثم ذهب إلى عمله حيث عرف أن حركة التنقلات الجديدة بوزارة الأشغال قد أرسلته إلى مديرية المنوفية للعمل بمصلحة الري هناك.

كانت تلك إشارةً من السماء، هكذا اعتقد المقدس عبد المسيح، فالمئات بالفعل قد هجروا دورهم في القاهرة والإسكندرية إلى الأرياف هربًا من القصف المتنامي من قوات المحور. الأخبار تتوالى عن فشل بريطانيا في صد الألمان. الناس يستمعون الآن إلى إذاعة برلين وباريس استقاءً للأخبار. روميل بات أسطورةً والهيبة الإنجليزية في تدهورٍ.

-ستكون هناك آمنًا. لا تصدق ذلك الهراء بشأن جعل القاهرة مدينةً مفتوحةً لا يتم الاعتداء عليها، سبق ونقض هتلر معاهدته مع السوفييت، ثم أن المؤن والأسلحة لا تصل للجيوش البريطانية في الصحراء إلا عن طريق

t.me/qurssan

القطارات القادمة من قناة السويس والقاهرة، فما الذي سيثنيهم عن دكها دكًا؟

-ولكن، ماذا سأفعل هناك وحدي؟ ثم... ألم تشر عليّ منذ فترةٍ يسيرة بالزواج؟

كان يتشبث مذعورًا بأي أملٍ طفيف كأن والده يملك تأجيل أو منع نقله لو شاء أو اقتنع بوجاهة السبب. والحقيقة أن الرجل كان قاطعًا في أمرين؛ أولهما أنه لن يغادر مع ابنه إلى مقر عمله الجديد، فهو ليس بسنٍ تسمح له بتغيير عاداته وأصحابه والبدء من الصفر في مكانٍ غير مألوفٍ له، أما الأمر الثاني فهو أن مشروع الزواج بات الآن مؤجلًا حتى يستقر في مسكنٍ ملائم يليق بتأسيس عائلةٍ، فلا يمكنه اختطاف بنات الأُسر إلى المجهول، إلا إذا غير رأيه ورضي بالزواج من إحدى القريبات بالصعيد؛ إذ أن الممانعة من جانب أهل الفتاة حينها ستتلاشى إزاء أواصر القربى.

-لكني أعتقد أنك لن تغير رأيك، بل أتمادى وأقول... أشعر أن هناك قرار مستتب في قلبك منذ زمن، لكنك زاهد في إطلاعي عليه، لا بأس، لا أريد معرفة شيءٍ قبل أوانه، عندما تكون واثقًا ومرتاحًا تمامًا أخبرني.

إذًا ما التالي؟ سيصطحب بباوي معه لخدمته حتى يجد هناك البديل المناسب الذي يسمح بعودة الخادم لسيده بالقاهرة.

-من نافلة القول طبعًا أن البديل المناسب يجب أن يكون رجلًا لا امرأةً مهما كبرت في السن.

هكذا ردد أبوه محذرًا.

لو يعلم الرجل كم بت منيعًا ضد كل صنوف الإغراء في العالم، وكيف صارت حواسي مواتًا إلا إزائها.

-أمرٌ أخير أود أن نفعله معًا قبل أن تنفذ النقل، نذر قمت بنذره منذ زمن ولم أوفه، فهَلاَّ صحبتني للتخفف منه؟

t.me/qurssan

رنا نجيب إلى أبيه متوجسًا من غرابة الطلب؛ لم يطلب الرجل منه مصاحبته لأي مكانٍ ولا سيما في تسديد النذور ، فلماذا هذه المرة؟

-لا تقلق هكذا، سأقوم باستئجار السيارة والسائق ولن تفعل شيئًا سوى الركوب معي في الذهاب والعودة.

-أين سنذهب يا مقدس؟

-وادي النطرون، أتعرفه؟ تقريبًا بمنتصف الطريق الصحراوي بين القاهرة والإسكندرية. ربما لا تعرف ذلك لكن توجد هناك ثلاثة أديرةٍ يرجع تاريخها لبدء انتشار الرهبنة في مصر.

طبعًا يعرف وادي النطرون،ألم يأتِ منه الراهب العجيب ذو الكرامات والذي لم يره إلا في الحلم ويأبى مقابلته في اليقظة؟ ها هو ماضٍ في طريقه للمرة الثالثة، أي صدفةٍ وأي عجبٍ وأي تيهٍ هذا!

ومتى سيعرف إن كان ملعونًا أم أنَّ كل الأشياء تعمل معًا للخير على نحوٍ ما في نهايةٍ ما.

بدأ الربيع يعلن عن قدومه بخجلٍ، ارتفعت درجة حرارة النهار دون أن تختفي برودة الليل تمامًا، لم تعد الغيوم المكفهرة مسيطرةً على السماء وتخلت عن موضعها لأشعة الشمس، لقد انتهى الشتاء. واحتفالًا بهذا الموسم البهيج قرر صاحب المقام الرفيع النَّحَّاس باشا أن تقوم رحلة نيلية من روض الفرج وحتى القناطر الخيرية، غرضها الترفيه عن الجنود البريطانيين المصابين أو الناقهين، وذلك إسهامًا في تخفيف مشاق الحرب القاسية عن المحاربين ببسالةٍ من أجل الديموقراطية .

تعجب نجيب من أمرين؛ أولًا من التناقضات المضحكة في ديباجة الخبر والتي تجعل الجيش المحتل للبلاد محاربًا في سبيل الديموقراطية وحرية الإنسانية، وثانيًا من شجاعة النَّحَّاس الذي يؤازر علنًا جيشًا بات في حكم المغلوب بنظر الكثيرين، فكيف يأمن على نفسه من انتقام الحكم المحوري

t.me/qurssan

متى تمكن من البلاد؟ لكن لن يدهشه أن يستطيع التعامل مع الألمان متى دخلوا القاهرة، ولن تكون حكومة الوفد أقل حبًا للحياة من حكومة فيشي الفرنسية مثلًا.

عرف مراد ونسيم بقرار نقل نجيب، فقرر الأول الاحتفاء به قبل السفر، على مقهاهم الأثير جلسوا وأفضى مراد بخطته إليهم:

-لقد قررت الطبقة المخملية الحاكمة للبلاد منافسة النَّحَّاس في مسعاه للترفيه عن الحلفاء المساكين. بناءً عليه تقرر إقامة حفلٍ كبير بتمويلٍ سخي من الباشوات والأمراء، ومنهم أبي طبعًا، وبحضور صفوة الفنانين المحليين وبعض الأجانب منهم لتسلية الضباط الذين ندين لهم بحريتنا وبقاءنا. فهل تحبان أن تحضرا هذا الحدث المثير؟

قال نسيم مترددًا:

-هل لي أن أسأل فيم سخريتك المريرة؟ من المنطقي أن تنحاز لجانب الحلفاء ضد النازية التي تستهدف قومك علنًا، فلماذا تبدو غاضبًا؟

ضحك مراد ضحكةً مبتورةً عصبيةً قبل أن يقول:

-لست غاضبًا أبدًا، وأعضد الحلفاء، مؤقتًا، حتى زوال النازية ثم أحاربهم حتى سقوط الإمبريالية والرأسمالية. المشكلة تكمن في أن الترفيه الحربي نفسه طبقي لأبعد الحدود؛ فالحفلات التي تتكلف مئات الجنيهات للضباط المنتمين للطبقة الأرستقراطية والبرجوازية، بينما فقراء الجنود الذين يتعرضون للخطر الأكبر لا ينالون إلا النصيب المتواضع، وماذا عن الجنود المصريين؟ ألا يشاركون في هذه الحرب مرغمين؟ ألا يعاونون الجيش البريطاني؟ لا ذكر لهم مطلقًا في مسألة الترفيه هذه، فجلهم من فقراء الفلاحين الذين لم يتلقوا في حياتهم شكرًا أو مكافأةً.

تطلع إليه نجيب مغتاظًا وقال:

-إذًا لماذا تريد حضور الحفل؟

t.me/qurssan

-ديليزيا يا صديقي، ديليزيا! *قالها بالفرنسية*. صوت أحلام شبابي المبكر، لقد حضرت فقط لمساندة الحلفاء ولن تغني في مصر سوى في حفلاتهم. يبدو لكم السبب تافهًا لكن لا يمكن أن أفوت فرصة سماعها بما لنا من تاريخ مشترك! سأحضر وأريد منكم أن تأتوا حتى لا أكون وحيدًا تمامًا وسأخبر يوسف أيضًا، لن يرفض أبدًا سماع ديليزيا .

قرر نجيب أن يحسم الأمر في تلك الليلة. كانت تلك المرة الأولى لكل من نجيب ونسيم في كل شيءٍ. أول مرة يختلفان إلى باخرةٍ نيلية بالزمالك، يحتكان عن قرب بالجنود والضباط البريطانيين لدرجة شم رائحة الكولونيا التي يضعونها، يريان مجندات يرقصن على أنغام فرقة غربية تعزف الجاز وقد بدون لاهيات كأنهن آمنات بوطنهن.

كانت هناك قوة من البوليس المصري مرابضةً عند المرسى للتأمين، تقوم بتفتيش من يثير ريبتها من القادمين، وهم ليسوا كثرًا بطبيعة الحال إذ أن أغلبهم ممن قاموا بتمويل الحفل. كان التوتر مشتركًا بين أفراد البوليس والرفاق الثلاثة، فكلا الجماعتين لم تتوقع الأخرى، وعندما هَمَّ ضابطٌ مصري بتفتيشهم انبرى مراد للاعتراض بحدةٍ وبمرافعةٍ طويلة عن العنصرية التي يعامل بها المصريون بعضهم البعض والتي لا يحتاجون معها إلى محتلٍ ليسيء معاملتهم، كاد الضابط المسئول يبطش بمراد لولا أنه تردد تجاه مظهره الواثق الأنيق ثم تراجع بالكامل عندما أشار نسيم بسرعةٍ إلى والد مراد الذي دعاهم ولن يرضى عن هذا الموقف. عاين الضابط الدعوات ثم تركهم. بينما يدخلون أبدى مراد اعتراضه لنسيم:

-لماذا لجأت لاسم أبي؟ لم نرتكب جرمًا حتى يصيبك الهلع وتستنجد بمكانته.

لم يُخفِ نسيم حنقه، وهو أمر نادر الحدوث، وهو يتوقف عن السير ليجيبه:

t.me/qurssan

-أولًا نحن هنا بالفعل بفضل أبيك مهما أنكرت ذلك أو لم يعجبك، ثانيًا لم يكن الموقف بحاجةٍ لكل تلك الخطابة عن العنصرية والاضطهاد، نحن بمحفلٍ إنجليزي، فمن تتوقع أن يتخوفوا منه ويفتشوه؟ الجنود الإنجليز؟ الأمراء والباشوات؟ لو أن أحدهم قرر أن يغتال شخصًا هنا أو يفجر الباخرة فغالبًا سيكون شابًا مصريًا، لقد كان يقوم بعمله فحسب.

تملك الضيق من مراد الذي لم يجد ما يتفوه به ردًا، كاد نجيب يتدخل مازحًا لتخفيف التوتر عندما باغتهم صوت يوسف من خلفهم صائحًا بهم أن ينتظروه.

التفتوا يستقبلون رابعهم الذي أقبل عليهم باسمًا محتفلًا مضيئًا.

-دعني أخمن يا يوسف، لم يقم الضابط بالخارج بتفتيشك، أليس كذلك؟

كان مراد هو السائل بنبرةٍ تحمل نوعًا من التسليم، أجال يوسف بصره بينهم بدهشةٍ قائلًا:

-هل يقومون بالتفتيش هنا؟

ضحك نسيم خابطًا كفًا بكفٍ ووقف نجيب شاخصًا إلى الفتى لا يميل عنه.

لن أستطيع أبدًا أن أكرهه، الآن فقط أعرف هذا.

لكن مراد قال بسرعةٍ:

-توقعت هذا، أتحمل معك الجواز الفرنسي؟

ابتسم يوسف محرجًا كمن ضُبِط وهو يغش في اللعب، تهدلت كتفاه قليلًا ولم يجب، فاكتفى مراد بذلك الصمت معتبرًا إياه دليلًا على صحة زعمه.

تقدموا معًا للقاعة المضاءة والمزينة بذوقٍ رقيق، حيث رصت الموائد المستديرة البيضاء وعليها باقات الورد والشموع، وانتشر الخدم ببزاتهم البيضاء من جروبي، واحتشدت الأقدام الراقصة والوجوه الوردية من فرط الحركة، بينما جلس الناقهون الذين لا يمكنهم الحركة مكتفين بالمشاهدة وتناول الشراب. بوغت نجيب بمنظر أولئك الملفوفين بالأربطة أو

t.me/qurssan

الذين فقدوا بعض أطرافهم، ندم على الحضور وقد رأى فيهم جميعًا الجريح الذي خلَّفه وراءه على قارعة الطريق. ولم يستطع منع نفسه من فحص وجوههم كل بضع دقائق للتأكد من عدم وجود جنديه بينهم، متعجبًا من ذلك التحول في إحساسه السابق دائمًا بالقلق والتوجس والنفور في وجودهم إلى ذلك الشعور بالشفقة والذنب معًا.

كان تأثير الموسيقى الحية على يوسف فوريًا، سرعان ما راح يؤدي بعض الحركات راقصًا بمفرده ولكن بأناقةٍ بالغةٍ، فما كان من إحدى المجندات الواقفات بعيدًا إلا أن قصدته طالبةً منه أن يراقصها. أجابها بالموافقة بالإنجليزية حانيًا رأسه في تأدبٍ واصطحبها راقصًا دائرًا بأنحاء القاعة.

نظر مراد لصاحبيه، الذين جلسا باسترخاءٍ، قائلًا:

-هل ستجلسان للفرجة فقط؟ لن تحظيا بعروضٍ كيوسف، يجب أن تتقدما أنتما للفتيات.

قال نجيب شاردًا واجمًا:

- لا تقلق، لا ننتظر أي عروضٍ. كلانا لا يستطيع الرقص أساسًا، لكن لماذا لم تأتِ بليليان معك؟

-ليليان متوحدة مع مبادئها أكثر مني ولا تعاني من ضعفاتي الصغيرة، هي لن تحضر حفلًا مماثلًا يضم الطبقة النفعية الفاسدة لتستمع لأساطين الفن البرجوازي، لذلك لم أخبرها بالحفل أصلًا. أما أنا فأعترف بما لا يزال عالقًا بي من شوائب من ماضيَّ الساذج لم تتم تنقيتها تمامًا. أراكما فيما بعد. ربما نجحت في تجنيد إحدى هؤلاء الفتيات للدفاع عن قضية البروليتاريا فلا تكون الليلة مضيعةً تامةً للوقت.

وتركهما ليشرع في الرقص بدوره مع إحدى المجندات. لاحظ نجيب بأسى أن الفتيات رحن يتعاقبن على يوسف باسمات ناضحات بالبهجة، تأمل في وجه صاحبه وقامته واعترف لنفسه بأنه كفيل بإدخال البهجة على أي نفسٍ بأي

t.me/qurssan

ذائقةٍ، فلماذا تختلف هيلانة، والتي لا يعرفها إطلاقًا، عن هؤلاء الفتيات؟ هيلانة الكنيسة، وهيلانة الذاهبة إلى المدرسة، كيف هي هيلانة العاشقة؟

-هل هذا توفيق باشا دوس؟ والجالس بجواره... هل هو عبود باشا؟

سأل نسيم صديقه وهو يكاد لا يصدق عينيه، وأردف قائلًا:

-لو أن أمي أو أخواتي يرين ما أراه، نبدو غريبين هنا ياصاحبي، بخلاف مراد ويوسف طبعًا.

نظر نجيب بغضبٍ إلى نسيم وقد أثاره للغاية ما بكلامه من صغر نفسٍ، عقب بحدةٍ:

-لمجرد أننا لم نتعلم الرقص فهذا لا يعني أن نكون غرباء في أي محفلٍ راقٍ، هذه بلادنا بالأساس والغالبية الساحقة من المصريين لا يعرفون من الرقص سوى رقص العوالم في الأفراح.

بان الحرج علي وجه نسيم وهو يقول هادئًا:

-نعم، هذا تحديدًا ما قلته وقصدته.

ثم صمت لبرهةٍ متشاغلًا بمشاهدة ما حوله. دفن نجيب وجهه بين يديه يائسًا وتأوه قائلًا:

-ها قد صرت غبيًا بالإضافة إلى الجبن الذي أتمتع فيه بمركز الصدارة، وأفرغ غضبي عليك بينما لم أتوجه بذرة لومٍ ليوسف.

تلاشى لدى نسيم ما كان قد بدأ يعتمل بقلبه من إشفاقٍ على الذات، وركز على مساعدة صديقه الذي بدا بلا حول ولا قوة كطفلٍ ضخم.

-لأي سببٍ تريد لوم يوسف؟! لا أعرف لمَ تذكرت الآن تلك الآية: القلب أخدع من كل شيءٍ وهو نجيس، من يعرفه؟

ضحك نجيب رغمًا عنه وتطلع إلى وجه نسيم الصادق قائلًا:

-هل تجد المكان هنا مناسبًا لتذكر الآيات والتباحث فيها؟

t.me/qurssan

لم يجب نسيم لأن يوسف حط رحاله بينهما لاهثًا متوردًا يبغي التقاط أنفاسه والراحة من دورات الرقص المتتالية. رحب به نسيم ضاحكًا:

-لم أعرف من قبل أنك بهذه الشهامة يا يوسف، لم ترد طلب فتاةٍ واحدةٍ من الموجودات هنا. يا لها من تضحيةٍ يجلها فيك المرء.

بادله يوسف الضحك متنهدًا:

-افعلْ الخير ما دام في مقدورك. الموسيقى والرقص، دعهما يمتدان إلى ما لانهاية وستكون تلك الجنة بالنسبة لي إلا قليلًا.

سأله نجيب:

-ماذا تعني بـ"إلا قليلًا"؟ ماذا ينقصك حتى تصير الجنة كاملةً؟

ضحك يوسف بعصبيةٍ هذه المرة وراح يمر بيديه في شعره عاجزًا عن إخفاء سعادةٍ متدفقةٍ من كل مسامٍ بجسده وكل حنيةٍ بنفسه. تسارعت دقات قلب نجيب وهو ما انفك يفكر "سيقول الآن، سيقول الآن"، رفع يوسف كتفيه وقد انفتحت شفتاه كأنما علقت الكلمات بحلقه، وبعد ثوانٍ طويلة قال:

-أنتم طبعًا، لا يمكن أن تكتمل سعادتي في غيابكم.

هنا، ولدهشته العارمة، انفجر نجيب :

-دعك من هذا الهراء، هناك شيئًا تخفيه بإصرارٍ لكنه شديد الوضوح، لقد كنت دائمًا ومنذ عرفناك مرحًا راضيًا عن الحياة، لا أنكر ذلك، ولكن تلك السعادة البلهاء وذلك اللمعان بعينيك والنبرة الراقصة دومًا بصوتك، كل ذلك يشي بك دون أن تدري، إن لم تكن عاشقًا يا يوسف فأنا إذًا أغبى حمارٍ على وجه البسيطة!

ظل فم يوسف مفتوحًا وهو يستمع مذهولًا للطلقات الصادرة عن نجيب بينما الأخير يكاد يغص حلقه من الانفعال. أسرع نسيم يقول متداركًا:

t.me/qurssan

-هل عرفت أن نجيب قد نُقِل لمديرية المنوفية وأن مراد قد جمعنا اليوم لوداعه؟ لذلك تراه متعجلًا الاطمئنان على أحوالنا قبل أن يسافر، كان يراهن منذ فترةٍ على هذه المسألة، أعني كونك تحب، ولم يعد هناك وقت لترك الأمر حتى يتكشف وحده. تعرف طبعًا كم يحبك نجيب ويهتم لأمرك.

هز يوسف رأسه موافقًا وهو يعاود الابتسام بترددٍ كأنه لا يعرف إن كان ما قاله نسيم مبررًا كافيًا لنفاذ صبر نجيب على هذه الصورة، إلا أن حسن الظن الفطري لديه تغلب على شكه فقال بعد برهةٍ وجيزة:

-أعرف أني محظوظ بكم جميعًا، لا يمكن أن يأمل المرء في أصدقاء أفضل وأطيب. كل ما هنالك أني جديد تمامًا في هذاالمضمار، ووصف مشاعري ليس أمرًا يسيرًا عليّ، ربما لذلك أحب الغناء والموسيقى والرقص إلى هذا الحد، لأنهم يوفرون عليَّ مشقة الحديث حتى أنني... لم أقل لها مرةً واحدةً للآن إني...أحبها.

توقفت الموسيقى الراقصة بغتةً وتنامى إلى مسامع الحاضرين ضجيج من ناحية المدخل على إثر الإعلان عن وصول قائد سلاح الطيران الملكي مع لفيفٍ من الباشوات والوزراء ما أدى إلى عزف الفرقة للسلام الوطني لبريطانيا "حفظ الله الملك". في تلك الأثناء انتهز الثلاثة الفرصة لتجنب الحديث مؤقتًا كأنما يستجمعون ذخيرتهم من الأفكار. ما أن عاودوا الجلوس حتى بادره يوسف قائلًا:

-ستسافر الآن وأنت ناعم بكسب رهانك، ولكن متى سنراك ثانيةً ومتى ينتهي هذا الانتداب؟ لحظةً واحدةً، هناك من أعرفه وسط القادمين، سأذهب لتحيته.

غادرهما وشاهداه يذهب لمصافحة شابٍ شديد الأناقة لدرجة ارتداء قفازات وحمل عصًى لامعةً سوداء. كانا ليخطئاه بسهولةٍ كمسئولٍ بريطاني

t.me/qurssan

لولا الطربوش الذي يعلو رأسه. لم يطل وقوف يوسف معه وعاد مسرعًا لصاحبيه.
كان الشحوب قد تملك من نجيب الذي صارع للحفاظ على رباطة جأشه، قال دون أن ينظر مباشرةً لصاحبه:
-يبدو لي السفر مخيفًا وأنا لا أعرف حقيقة متى سأعود للقاهرة أو متى سأراكم جميعًا مرةً أخرى، هذه ليلتنا الخاصة إذًا... ألن تخبرنا من هي يا يوسف؟
ابتسم يوسف وقد بدا خجلًا كفتى غر، أمسى مظهره البريء معذبًا لنجيب الذي انشق بداخله لشطرين، أحدهما يحمل الذكرى القريبة لتوقير ذلك الجمال وقد راح يستمرئ كعادته النظر لوجهه ويديه بامتنانٍ، بينما الآخر ينظر له نظرته لسارقٍ خبيث في براعة وجمال الملائكة الذين تبعوا الشيطان.
-لا أستطيع أن أنطق اسمها، أردده طوال الوقت لنفسي لكني لا أجدني في حلٍ من ذكره لأحد. لكنها... عسير عليَّ أن أصفها كذلك، هي مستحيلة تقريبًا، غريب أن تكون موجودة حقًا، الأغرب أن هذه الأعجوبة، جمال فريد وذكاء ورقة وثقافة ونبوغ وشفافية و... أجدني سخيفًا تمامًا وأنا أصف ما لا يمكن وصفه، لكن أتصدقون أن هذه المعجزة تنازلت وتعطفت وأحبتني أنا، وليست لديَّ أي فكرة عن السبب.
راح نسيم ينقل بصره بين الغريمين وقد تعلق بأملٍ أخير فقال:
-هل هي أرمنية يا يوسف؟
كأنما أسعده هذا السؤال بالذات فقال بابتسامةٍ واسعةٍ:
-كلا، كان يجب أن تكون مصريةً، إنها تجسيد لعبقرية السلالة الفرعونية، لكما أن تفخرا بأن الحاضر المصري لم يبخل على البشرية بإسهاماته، يمكنك أن ترى سحر نفرتاري وكليوباترا مجتمعًا فيها.

t.me/qurssan

-كليوباترا لم تكن مصرية.

علق نجيب واجمًا كأنه يصحح خطأً في النطق لطفلٍ صغير، سأله يوسف:

-ماذا؟!

-كليوباترا كانت يونانية من البطالمة ولم تكن مصرية.

-حقًا؟ يالها من مصادفة، لقد أخبرني كامل مرةً أن أمهما لها جذور يونانية بعيدة وهي التي أورثتهن لون العينين ذاك، معذرةً... كامل هو أخوها، وهو صديقي أيضًا.

أظلمت القاعة، وتسلط الضوء على المسرح الصغير، عُزِفت الموسيقى لدقيقةٍ قبل أن تظهر المغنية الفرنسية الشهيرة في دائرة الضوء على إيقاع التصفيق وتشرع في الغناء.

حل الصمت على الجمع حتى لم يعد هناك ما يشي بوجود متفرجين، كان الصوت الصادح الرنان للمرأة بمثابة تميمةٍ خاصة بكل واحدٍ من المستمعين إليها، تهويدة ترسل متلقيها إلى الحنين القاسي العذب؛ إلى الماضي أو المستقبل، لشبابه الضائع أو المصير المجهول، الوطن المفقود أو المهدد بالفقد،الحب الذي انتهى أو لم يأتِ بعد. نبش الغناء في كل فردٍ على حدة مكامن الوجد ومخابئ اللوعة في نفسه، وانفعل به كما تلقته روحه لا عقله، فكثر من الموجودين لم يفهم الفرنسية بالأصل!

نهض نجيب في الظلمة وسار متمهلًا بين الموائد حتى بلغ بابًا مؤديًا إلى سطح الباخرة. وما أن اطمأن لوحدته شاخصًا لسطح النيل الأسود حتى انفجر باكيًا كما لم يفعل منذ وفاة أمه.

وضع يده على فمه يكتم شهقاته وقد راعه ما بصدره من وجعٍ مادي ملموس يكاد يبطش بصوابه، الغناء والليل والأمواج المظلمة والقصور البعيدة على الضفة الأخرى بأنوارها الضئيلة، كلها أذكت شعورًا قاتمًا بالوحدة والفقد والانفصال عن الكون، سيتذكر ما حيا صوت الأكورديون في تلك الأغنية

t.me/qurssan

كمرثاةٍ جنائزية،أنىَّ له بموضعٍ ينأى فيه عن كل من يعرفه؟ كيف يغادر الآن دون أن يبحث عنه أحد؟

ترامت لأذنيه أصواتٌ قريبة تنبئ بخروج أحدهم إلى السطح مثله، لجأ إلى زاويةٍ مختبئًا حتى لا يُرى، كتم أنفاسه وهو ينتظر ليرى من القادم، لكنه لم يكن أحد أصحابه، كانا اثنين من ذوي الحيثيات في الحكومة الوفدية الحديثة، وقد تسللا فيما يبدو لتبادل الحديث بعيدًا عن برنامج الحفل الذي لم يحز اهتمامهما. كانا يدخنان وقد استندا إلى حاجز الباخرة ووصل صوتهما بالكاد لأذني نجيب الذي لا يدركان وجوده.

-ولكن هل هذا هو الثمن الذي نتلقاه لمؤازرتهم في هذه الحرب اللعينة؟ هل ندفع نحن ضريبة فشلهم في دحر الألمان؟

-إنها سياسة الأرض المحروقة التي اتبعها السوفييت، إلا أن الروس هم من أحرقوا أرضهم بأيديهم حتى لا ينعم بها هتلر، أما هنا فالهدف الأوحد هو منع جيش المحور من الوصول إلى قناة السويس، وتحديدًا دبابات البانزر الألمانية.

-وكيف ينوون إغراق الدلتا في المقام الأول؟ بتفجير القناطر الخيرية مثلًا؟

-النَّحَّاس يحاول انتزاع وعد من لامبسون بالعدول عن الفكرة، وفي أسوأ الأحوال التعهد بإغراق الأرض بالمياه العذبة لا المالحة حتى تصلح للزراعة في المستقبل. عمومًا لن يحدث أي شيءٍ إلا في حالة الهزيمة وانسحابهم النهائي من مصر، صار علينا الآن أن ندعو الله أن ينصر بريطانيا حتى لا نغرق نحن قبل موعد الفيضان.

-سأدعو على الألمان في الجامع وأنت في الكنيسة، هكذا تكون الوحدة الوطنية!

t.me/qurssan

لبث نجيب في الظلام ساكنًا كاتمًا أنفاسه حتى عاد الرجلان أدراجهما إلى الداخل. سمع التصفيق إثر انتهاء فقرة الغناء الفرنسي وكان يهم بالمغادرة عندما بدأت الفقرة التالية فتسمر في موضعه مأخوذًا.

أسرع لإحدى النوافذ ليتأكد بعينيه مما سمعه، كان مراد هناك ممسكًا بمكبر الصوت متحدثًا بالإنجليزية داعيًا الجميع للاستماع إلى فقرةٍ ليست مدرجةً بالبرنامج، شارحًا أنه من العار أن يخلو الحفل من عرضٍ مصري رغم أنه مقام على أرض مصر وبأموالٍ مصرية، أعقب تلك المقدمة بالتنحي جانبًا ليصعد يوسف مكانه وقد علت جدية المحترفين وجهه مع ابتسامةٍ مختصرة. وما أن بدأ في الغناء حتى بدأت الرؤوس تقترب من بعضها متهامسةً ولا سيما بين المصريين والمجندات البريطانيات.

غنى يوسف لعبد الوهاب كدأبه، كان حضوره طاغيًا على المسرح كأنما تضاعف طوله وعرضه مرتين، شعر نجيب بما يشبه الجنون والحريق معًا يتصاعدان في رأسه وصدره على التوالي، الآن بإمكانه أن يتجسد في عقلها ليراها،حقيقةً لا خيالًا، تستمع إليه بولهٍ واشتهاءٍ، وعينيه مشتبكتين مع عينيها، عينيها اللتين يعرف أصولهما مثله تمامًا لكنه يتفوق عليه بأنه يملك حاضرهما ويرقد مطمئنًا في مستقبلهما.

-نجيب!

التفت مضطربًا على إثر نداء مراد له.

-ماذا تفعل هنا في الظلام؟ لقد أخبرني نسيم أنك انصرفت لكني لم أصدق، وها قد صح ظني. يجب أن ترى رد فعل الحضور على غناء يوسف عن قربٍ، تعالَ معي، ما رأيك فيما فعلته؟

ابتلع نجيب غصته قائلًا:

-أحببتَ دائمًا أن تصدم الآخرين وغالبًا ما نجحت في ذلك.

t.me/qurssan

-الأمر ليس مجرد رغبةٍ طفولية في إثارة الصدمة، لقد فرضنا شروطنا على المكان، إنهم يستمعون إلينا الآن رغمًا عنهم.
بهدوءٍ شديد قال نجيب:
-لقد تُرِكت لتفعل ما فعلت بفضل أبيك الجالس بالداخل في المقاعد الأمامية مع كبار الزوار، لماذا لم تدعنا لتحيته بالمناسبة؟ لا أجد ذلك لائقًا.
-ما بالكما أنت ونسيم الليلة شديدا الامتنان لوالدي؟ ثقْ أنه لا رغبة لديه الآن في الظهور معي ولن يتضايق إن أعفيته من تحية أصحابي. لابد أنه مغتاظ مما قلته عن الأرض والأموال المصرية. لقد قلت ذلك بالإنجليزية عامدًا.
-حتى يشهد لك الجميع بالشجاعة، ولماذا تشركنا معك بقولك "شروطنا"؟ على من تعود النون هنا؟ ماذا يعني لنا أن يغني يوسف أمام الحاضرين أو أن تغيظ والدك؟ أليس الفن المصري الذي فرضته عليهم هذا هو ذاته الفن الذي نكب به "العاطفية الجوفاء" على حد قولك؟ لقد حضرنا جميعًا لأسبابٍ مختلفة بحيث لا يصح أن توحد بيننا في الهدف... أنت أتيت لتتحدى أباك، ونسيم أتى ليتفرج على السيرك مجانًا، يوسف حضر ليرقص ويغني ويبهر البشر كعادته وأنا... أتيت كي لا أضطر للتفكير فيما يجب أن أفعله... أو لأنه ليس لدي ما أفعله حقًا.
كان مراد ينظر لصاحبه معقود الحاجبين، يداه بجيبي سرواله، فمه مزموم والضيق مستعلن على ملامحه.
-حسنًا،أعتقد أنك لم تشرب شيئًا حتى أعزو إليه ما انتابك الآن من نوبة مصارحة، فهل لسفرك المفاجئ شأن بهذا أم أن الأمر أعمق سببًا؟
-كنت أتساءل فقط لمَ أتيت بنا؟ لمَ تصادقنا من الأساس؟ لا أحد منا يرقى إلى مستواك الفكري أو يؤمن بحكم البروليتاريا، ولا نشاطرك ذوقك في الفن ولا الملبس ولا طريقة الحياة ولا الاعتقاد الديني، بل إنك في الواقع لم

t.me/qurssan

يعد لديك"اعتقاد ديني". ليس هذا مهمًا... أخبرني... ماذا ستفعل لو أصابت هذه البلاد مصيبةً ما؟ هذه البلاد التي تدافع عن فقرائها وتريد تخليصها من الاستعمار والملكية وكل شرور العالم كما تراها، لو غرقت في الصباح... هل ستظل فيها محاربًا من أجلها أم ستنجو بنفسك؟ ألن تصحب والدك إلى الخارج لو حكمها هتلر؟ لن نملك نحن المغادرة لأي مكان، ولن يجد يوسف مشكلةً في أي عصرٍ ومع أي حكمٍ، لن يعتبره الألمان جنسًا أدنى حتى لو لم يكن آريًا، لن يعدم من يحبه ويرق له ويحميه... عليك اللعنة يا يوسف!

انفجر صارخًا بالجملة الأخيرة كأن وتدًا قد غُرِز بجسده، ودق بقبضة يده على السياج بعنفٍ كأنه يقصد تحطيمه، كان ذلك عندما وقعت يده بكامل اندفاعها على حلقةٍ حديدية بارزة لم يرها. صرخ موجوعًا وقد بدأ يشعر بنتيجة فعلته فورًا، وقف مراد ينظر إليه لاهثًا غير مصدقٍ ثم قال:

-قد تكون كسرتها؛ سأرى إن كان هناك طبيب بالداخل ليراها. لا تذهب إلى أي مكانٍ، سأعود فورًا.

لم يتحرك نجيب من مكانه مغمورًا في العار والخجل، سقط جالسًا على الأرض غير عابئٍ بمظهره. هب الهواء باردًا مثيرًا فيه رجفةً عميقةً، أسند رأسه إلى ذراعيه متحاشيًا لمس يده المصابة، وعندما سمع مراد عائدًا بصحبة أحدهم لم يرغب في رفع رأسه، أراد أن يختفي ويتلاشى وأن تنتهي هذه الليلة بأي ثمنٍ.

كان الطبيب إنجليزيًا يرتدي زي الجيش، فحص يده بتمهلٍ قبل أن يطلب منه مرافقته لغرفةٍ خاصةٍ بالإسعاف على الباخرة، هبط ثلاثتهم إلى غرفةٍ صغيرةٍ نظيفةٍ بالطابق السفلي تحت القاعة، وهناك قام الطبيب بتطهير الجلد الذي كُشِط في بعض المواضع قبل أن يضع يده كلها بين قربتين من الماء المُثلج. صنع له جبيرةً مؤقتةً وأخبره أن يذهب إلى المستشفى لفحص العظام في اليوم التالي للتأكد من عدم وجود شرخٍ يستوجب التثبيت.

t.me/qurssan

غادرهما الطبيب عائدًا إلى السطح تاركًا الغرفة لتصرفهما. لبث الصديقان صامتين لا ينظر أحدهما للآخر. لم يجد أيهما ما يقوله دون أن يكون سخيفًا مصطنعًا، تحررا من ثقل وحدتهما معًا، قال نجيب بصوتٍ متحشرج:

-أريد أن أخرج من هنا.

كانت الأسئلة تكاد تقفز من عيني مراد الصامت، لكنه كبتها مرغمًا واكتفى بهز رأسه موافقةً، ثم قال باقتضابٍ:

-هل أصحبك أنا أم تريد نسيم معك؟

-أريد الذهاب وحدي دون مقابلة أحدٍ.

-كان هذا ممكنًا لو أنك لم تجن وتحطم يدك، يجب أن يصحبك أحد إلى البيت، وبما أنك لست مغرمًا الآن بي أو بيوسف فالمرجح لهذه المهمة هو نسيم، ابقَ هنا وسآتي به إليك. لقد بدا قلقًا كأنه كان يعرف ما سيحدث.

-انتظرْ يا مراد.

هتف نجيب بصاحبه وهو على وشك المغادرة فتوقف الأخير ملتفتًا إليه، ابتلع ريقه قبل أن يهمهم منكس الرأس:

-لم أقصد ما... قلته بالأعلى عنك، لا تذكرْ ما تفوهت به ولا تكترث له، أرجوك أن تنساه، وإلا... لن أقدر أن أراك ثانيةً، وأنا أريد أن أراك ثانيةً، حقًا. هلا سامحتني؟

لم يجد مراد في نفسه متسعًا من الكرم لنسيان الأمر برمته، ظل هناك جزءًا موغرًا بصدره لا يملك الغفران التام لكل النقد الذي كيل له، لذلك لم يزد على قوله باقتضابٍ "حسنًا"، قبل أن يسرع بالذهاب تاركًا نجيب وحده.

أيمكن أن تزداد الحياة قتامةً وعبوسًا؟ في ليلةٍ واحدةٍ فقط فقدت صديقين و... تلك التي لم أعد قادرًا على ذكر اسمها حتى سرًا. يدك مجروحة، اليد

t.me/qurssan

نفسها التي تغطت بدم غريبٍ مسفوك، وأنت بصدد التغرب بذلك الموقع النائي في حين سيبقى هو، الفرنسي الأرمني، بالقاهرة قربها كيفما يشاء!

سيشهد، من موقعه هناك، مياه النيل المحجوزة خلف القناطر وهي تفيض على الضفتين. هل يخبر أحدًا بما سمعه أم يكتفي بتمني زوال الخطر مثلما فعل الموظفان الخطيران؟ هل يتمنى زوال الخطر؟!

لقد ظن في وقت ما أن الله قد وضعها في طريقه ليقترب ويفهم، أما الآن فما أبعده عن الاقتراب والفهم، وما أقسى التعلم! كل شيء إلى منتهى، وكل ما تعلمه هو كيف يكون الألم والزهد في الوجود!

اندفع نسيم إلى داخل الغرفة مذعورًا وعيناه تسبقانه إلى يد نجيب المصابة، راح يمطره بالنظرات اللائمة دون أن يقول شيئًا، شكر له نجيب صمته في نفسه، إلا أن هذا الصمت المتواطئ لم يمر دون أن يثير ريبة مراد الذي كان يتبع نسيم، وقف ينظر إليهما مندهشًا قبل أن يقول:

-هكذا إذًا؟! لن تصرخ متسائلًا متعجبًا عما حدا به إلى هذه الفعلة الحمقاء؟ هناك بالتالي سببًا منطقيًا تعرفه يا نسيم قد يؤدي به لانفعالٍ غاشم، يجعله يؤذي نفسه بسهولةٍ. سببًا لا يعرفه سواكما، هل أنا محق؟

تأكد ظنه عندما لم يجبه أحدهما بكلمةٍ، هز رأسه قائلًا:

-انتظرا هنا فقط حتى أدبر لكما سيارة... لا أريد اعتراضًا، حافظا على صمتكما للنهاية من فضلكما.

وذهب قبل أن يعترض أيهما، وهنا فتح نسيم فاهه صائحًا:

-لقد فقدت عقلك كليةً، أنت تتصرف كطفلٍ أُخِذت لعبته، تعامل مع الأمر كرجلٍ واقبل الواقع، اعتبرها لم توجد قط، ستجد سواها وتتزوجها وستخجل مما تفعله الآن. هي ليست مقدرةً لك .

كانت نظرات نجيب لصاحبه تملؤها اللوم والحنق، ندم على أنه أخبر نسيم، بدا له كطبيبٍ عاجزٍ تمامًا عن شفاء مريضٍ لكنه آخذ في توبيخه

t.me/qurssan

على الشعور بالوجع طالبًا إليه أن يكف عن الصراخ، وأن يتحمل البتر بجَلَدٍ كرجلٍ. ها هو ثالث أصدقائه يتركه وحيدًا في ظلمته دون عونٍ أو مواساةٍ.

بينما يصعدان إلى سطح الباخرة للمغادرة في السيارة التابعة لمراد وصل لمسامعهم صوت يوسف مترنمًا بالأرمنية، توقف نجيب والتفت لمراد سائلًا:

-ألم ينتهِ بعد؟ أيغني بالأرمنية أيضًا؟!

أجابه مراد بنبرةٍ محايدة:

-وغنى بالفرنسية منذ قليلٍ، يوسف يقدم عرضًا كوزموبوليتانيًا.

وقف نجيب ينصت مقهورًا بدافعٍ غير مفهومٍ، لكزه نسيم يذكره بأن السيارة تنتظرهم لكنه لم يتحرك، أنهى يوسف أغنيته الأرمنية ثم قال بعد انتهاء التصفيق بصوتٍ غريبٍ:

-هناك أغنية واحدة بعد... سأعزفها لأنني أحفظ نوتتها، الكلمات لاتينية لكن ذلك ليس عائقًا أمام الموسيقى.

هنا توجه مراد إلى الباب ليرى إن كان يوسف سيفعل حقًا ما يقوله، وما أن بدأ العزف على البيانو حتى هتف:

-لقد جُن تمامًا، لا بل سكر سكرًا شديدًا.

انضم نجيب ونسيم إلى مراد لدى الباب غير مدركين سبب القلق البادي عليه، سأله نسيم:

-لماذا تعتقد أنه سكران؟

-لا يوجد شخص بكامل إدراكه يعزف ويغني كارمينا بورانا أمام جنود الحلفاء. لقد ظننته يهذر عندما قال أنه سيفعلها يومًا، وليس اليوم على أية حالٍ، أتمنى فقط أن يكون الإنجليز قد سكروا بدورهم فلا يفطنوا إلى كنه ما يسمعونه. يوسف، أيها الأحمق!

t.me/qurssan

راحت ذبذبات غامضة تسري إلى جسد نجيب متصاعدةً مع صوت يوسف واللحن المعزوف، كانت أول مرة يسمع غناءً أوبراليًا، أو يعرف أن يوسف قادرًا عليه، وأول مرة تثير فيه موسيقى ذلك التوتر، توتر يفتت أعصابه بتؤدةٍ ويعيد تركيبها، صار بكليته تحت رحمة الأغنية، لم يعد هناك غضب ولا وجع ولا قلق، لم يعد هناك ما يحتل وجدانه سوى تلك المقطوعة وتلك اللحظة، هذا هو الختام الأمثل، كأن اختباره لتلك الموسيقى سببًا كافيًا وموجزًا لكل شيءٍ مر به منذ رأى يوسف أول مرة وحتى الآن، إنها تعلن عصر اضمحلاله.

بدأ اللحن منخفضًا هامسًا كأنه يبث إشاراتٍ سريةً لتنويمٍ جماعي رتيب مُصِر، واثق، مولد قشعريرة ثم...

أرعدت الموسيقى قاصفةً، وصوت يوسف معها عميقًا جهوريًا، بالغين الذروة، ذروة السخط والتمرد على تقلبات القدر وسخريته من أي إحساس بالأمان، لا أحد يحتاج لترجمة معنى الكلمات، إنها أنّات البشر منذ سقط آدم إلى الأرض ومخاض الخليقة، لعنات المقهورين المغبونين وغضبة وهياج الثائرين. أغنية الوجود الملوث بالألم منذ البدء وبعد النهاية.

عندما انتهت الأغنية فجأةً خلّفت فراغًا صاخبًا في الأثير لا يرغب أحد في خدشه بتصفيقٍ أو همسٍ، حتى نهض يوسف متمهلًا وأزاح كرسيه محدثًا صريرًا خافتًا زاعقًا، وترك البيانو والمسرح، فتذكر الجمع أنهم يجب أن يصفقوا، ففعلوا.

جرى يوسف جريًا إلى أصحابه الواقفين لدى الباب ووجهه يحمل تعبير طفلٍ منتصرٍ.

-هل رأيتم ذلك؟ كنت واثقًا أن كارمينا بورانا ستسحرهم حتى من دون الأوركسترا، مع أني أجريت عليها تعديلاتٍ طفيفةً لتناسب البيانو.

t.me/qurssan

جذبه مراد من ذراعه مخرجًا إياه من القاعة، وبجوار السياج الذي لاكمه نجيب وقف يوبخه:

-هل أنت مستاء لأنهم لم يتعرفوا المقطوعة ويفتكوا بك حتى تصر على إذاعة اسمها جهرًا؟ هل جننت يا يوسف؟

ضحك يوسف قائلًا:

-بل أنت مستاء لأنهم أحبوها في الواقع كما توقعت أنا ولم يرفضوها لمجرد أن موسيقاها ألمانية.

-لأن أحدًا لم يتعرف إليها أيها الساذج، أتظن أن أحدًا من هؤلاء الضباط بالداخل من مرتادي الأوبرا أو المطلعين على الإصدارات العالمية أولًا بأول؟ قد تتحقق نظريتك الرومانسية في الحارات والجمعيات الخيرية، لكن هنا والآن لن تعتبر سوى عميلٍ للنازية أو متعاطفٍ معها في أفضل الأحوال. هل تجرؤ دار الأوبرا على دعوة كارل أورف الآن؟

قال نسيم بفضولٍ:

-عن أي نظريةٍ تتحدثان؟

صمت يوسف وسرح بنظره بعيدًا، فقال مراد بمللٍ:

-يوسف يعتقد أن إطلاع الشعوب على الإرث الفني لبعضها البعض، كما حاول أن يفعل هو منذ قليل، جديرٌ بمنع الكراهية القائمة على الجهل! أنا لا أرفض جوهر الفكرة ولكني أعتقد بعدم جدواها في حالة وجود الحرب فعليًا. لن تترك عدوك يقتلك أو يتحكم بمقدراتك لأنك تستمتع بأغانيه ورقصاته، هذا سخف. هل كان الأتراك سيعفون عن قومك لو أنهم حضروا ما يكفي من عروض فنية أرمنية؟ هل كان التبادل الثقافي ليحول دون إبادة الأوروبيين للهنود الحمر؟

تطلع يوسف إليه بهدوءٍ شديدٍ قبل أن يقول وهو يهز كتفيه:

-لا أعرف، ربما.

t.me/qurssan

ثم حول بصره نحو نجيب قائلًا وقد رأى إصابته:

-ماذا حدث ليدك؟!

وجد نجيب نفسه محاصرًا بين إلحاح يوسف ونظرات الإدانة بعيني مراد الصامت وتنصل نسيم، فقال دون ترددٍ:

-سيغرق البريطانيون الدلتا حتى لا تستطيع القوات الألمانية عبورها إلى القناة.

حدق فيه الثلاثة متراوحين بين الذعر وعدم التصديق، ثم كأنما اتفقوا معًا قرروا مغادرة الباخرة قبل استئناف الحديث.

على الكورنيش الهادئ بالزمالك ساروا تاركين سيارة مراد في انتظارهم. راحوا يعتصرون نجيب من أجل التفاصيل واعتبر مراد ذلك الاكتشاف مبررًا لما اعترى نجيب من غضب رابطًا بينه وبين ما قاله عن هروبه إذا ما غرقت البلاد.

-إن النهاية أقرب مما نتمنى، علينا الاستعداد، أحببنا ذلك أم لم نحب.

كان نسيم هو من قال هذا بنبرةٍ كئيبة واقعية بينما تساءل مراد مطرقًا برأسه:

-هل يعقل ألا يعرف أبي بهذا؟ أم يحجب عني ما يعرفه؟ أيعقل أن يكون الوضع بهذا السوء ثم يقيموا الحفلات؟

ألقى نجيب بسؤالٍ لم يتبادر لذهنه إلا في هذه اللحظة على مراد:

-هل أخبرك والدك شيئًا عن إطلاق النار على اثنين من الجنود الإنجليز أمام البار اليوناني بشارع سليم باشا؟

-ماذا؟ لا، لم يفعل ولم أسمع قبلًا به... متى حدث وكيف عرفت به؟

-أتذكر يوم رأيناك مع ليليان أمام مقهى الحرية؟ حدث هذا في فجر اليوم التالي. كنت هناك وشهدت موتهما عن قرب، لكني لم أعرف من أطلق النار.

في سابقةٍ نادرة الحدوث تملك الضيق والغضب يوسف وهو يقول مستنكرًا:

t.me/qurssan

-من الغباء والغدر معًا أن يتم ارتكاب مثل هذه الأفعال غير المجدية، وفي هذا التوقيت... هل تتعجلون جلاء الإنجليز الآن؟ انتظروا حتى تروا حكم الألمان فتترحمون على أيام الإنجليز متمنين رجوعها.

اندفع نسيم قائلًا:

-أنا لا أبارك الاغتيالات كطريقٍ للتحرر، من أخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ. ألم نتعلم ذلك بعد من الحرب القائمة والحروب المنصرمة؟ كما أننا لسنا في حالة حرب مع بريطانيا لنبرر لأنفسنا قتلهم.

أجابه نجيب:

-أنت تتحدث عن اعتقادك الخاص يا نسيم، وربما رفاقك في الإكليريكية، وبعض المسالمين الذين ينفرون من العنف بالفطرة، لكن نطاق واسع من الشباب لا يجد غضاضةً في هذا الطريق وقد لا يرى سواه. من فعل هذا يعتبر نفسه بطلًا للكفاح الوطني.

هنا قال مراد:

-لابد أن الحادث قد تم التكتم بشأنه حرصًا على الروح المعنوية للجيش، تخيلوا إحساس الجنود لو عرفوا أنهم مستهدفون للقتل وغير آمنين أثناء سيرهم في الشوارع التي يفترض بها أن تحالفهم،"الألمان أمامنا والمصريون خلفنا"، أي يأسٍ قد يخلفه هذا المعتقد؟

أما يوسف فقال بتوجسٍ متفكرًا:

-هل ستكون القاهرة آمنةً؟ لو انسحب البريطانيون فعلًا.

ألقى عليه نجيبٌ نظرةً قاتلة وهو يقول غير مكترثٍ بإثارة رعبه:

-فيما عدا السكك الحديدية التي ستدمر ومخازن السلاح والمؤن التي لن يتركها البريطانيون غنيمةً للألمان.

قال نسيم:

t.me/qurssan

-سيكون بوسعك العودة إلى الصعيد يا نجيب، فلديكم أملاك هناك ولا أعتقد أن جيوش المحور ستتوغل لهذا العمق، لكن أنت يامراد، سيكون وضعك حرجًا، لابد من مفرٍ .

-عما تتحدث؟ لن أفر من هنا. سنشكل جبهةً لمقاومة النازيين مثلما يفعل الأحرار في كل مكان. لن نترك لهم العالم لقمةً سائغة.

استند يوسف إلى سور الكورنيش قائلًا بإحباط:

-العالم المنحوس بالفعل لقمة سائغة، أتساءل أين يقع الجنس الأرمني على مقياس الآريين للتحضر، هل نحن قبل أم بعد البولنديين والروس؟ أترى ما بيننا من قاسمٍ مشترك يا مراد؟ كلانا ينتمي إلى عنصرٍ لُعِن بالشتات وغموض المصير إلى الأبد.

امتعض مراد من تعليقه فأجابه:

- أي شتاتٍ وأي عنصرٍ هذا الذي تتحدث عنه؟! لقد ولد كلانا على هذه الأرض، نحن مصريان بالمولد كأبوينا ولا وطن آخر لنا حتى يتحد العالم كله في دولةٍ واحدةٍ في مستقبلٍ بعيدٍ لن يراه إلا أولادنا على الأرجح. لكنه سيحدث يومًا ولن يبقى أثر للتباكي على الإرث المفقود والماضي الزائل وتلك الخزعبلات. في الوقت الحالي مصيرنا لن يختلف عن مصير أي فردٍ بالبلد.

اعتدل يوسف وعلى وجهه ابتسامته المعتادة التي يخاطب بها من يظنه مخطئًا وقال :

-هذا هو الفارق الجوهري بيننا،أنا مدركٌ تمامًا للواقع وأتقبله وأتعايش معه بكل أريحيةٍ ممكنة وسلامٍ. أما أنت فتتجاهله تمامًا كأن تجاهلك له سيمحي وجوده.

-ما الذي تتحدث عنه وأي واقعٍ تقصد؟

-أننا أقليات في هذا البلد. مصريون بقبعةٍ أو بشرطةٍ. السلام الذي نعيش فيه مرهون بالظروف والزمن، وفي أي لحظةٍ قد يتحول الوضع إلى عكسه

t.me/qurssan

ويقرر الأغلبية الانقلاب علينا لسببٍ أو آخر. مثلما حدث معنا في الدولة العثمانية وحدث معكم في ألمانيا، وقد نكون كبش الفداء أحيانًا في الكوارث و الملمات. مثلما كان يحدث في الماضي في المجاعات و الأوبئة ويحدث الآن مع إرهاصات التحرر الوطني وكراهية كل ما هو أجنبي أو ما يبدو مثله.

قال مراد مقتضبًا، مندهشًا:

-لن يحدث هذا في مصر!

-لكنه حدث فعلًا يا مراد، هل سمعت عن قتلى الأرمن في ثورة ١٩١٩؟ هل علمت قبلًا أن ستين أرمنيًا لقوا حتفهم على يد المصريين في أنحاء البلاد؟ بسبب إشاعات موتورة عن إطلاق النار على الثوار من قبل الأجانب عامةً والأرمن خاصةً. لقد أقام أبي أيامها في معسكرٍ كبير شيده الإنجليز لحمايتنا من الغوغاء التي أصبحت ترانا في غمضة عينٍ عدوًا يجب استئصاله وإلا تهدد وجودهم. في لحظةٍ معينة تفقد الجموع كل واعزٍ إنساني عاشت يومًا بمقتضاه مسوقةً برغبةٍ بدائيةٍ في الانتقام، متفقةً على تشيؤ محط الغضب ونزع الآدمية وما يتبعها من حقوقٍ عنه . أبي نفسه لم يخبرني أبدًا حرصًا على شعوري بالأمان والانتماء، لكن أنوش هي من أخبرتني، أنت تعرفها يا نسيم، لقد فرت بابنها من المذابح العثمانية إلى مصر باحثةً عن أبي الذي استضافها. ظنت أنها قد وجدت الملجأ الأمثل لأربعة أعوامٍ، لكن لا يوجد "ملجأ أمثل". ما أن تفهم ذلك حتى يمسي كل شيءٍ أسهل قبولًا. لقد فقدت ابنها في اعتداءات ١٩١٩، وفقدت عقلها معه منذ ذلك الحين، تعتبرني هو تحايلًا على الموت معظم الوقت عدا يقظاتٍ نادرة تعتريها فتتذكر كل شيءٍ وتبكي وتقص ما حدث من جديد.

لم يكن أي من الثلاثة قد سمع عما صرح به يوسف من قبل. الدهشة العارمة مع الشفقة المغموسة في الضيق والخجل صارت هي القاسم المشترك بينهم الآن. ليس تاريخهم الحديث، بل والقريب جدًا، بهذه النصاعة

t.me/qurssan

إذًا! لابد من لطخاتٍ سوداء على صفحات ظنوها مثاليةً نقيةً في الهدف والوسيلة. لم تكن ثورتهم سلمية للدرجة التي اعتقدوها، ولم يكن وجود الأرمن في مصر مقبولًا بتلك الأريحية دائمًا. لم يعرف أحدهم عن ذلك التاريخ سوى تيسير سعد زغلول لإقامة الأرمن ومؤازرته لهم، واحتضان كافة الطبقات الشعبية لهم إثر المذبحة العثمانية، فإذا بالواقع يتكشف عن خبايا داعيةً للخزى ومغريةً بالتنصل.

أخذ يوسف نفسًا عميقًا قبل أن يزفر قائلًا:

-أنا لا أسير حاملًا عقدةً من الغضب أو الخوف، ولا أريد أن أعيش في مكانٍ آخر. لكني لن أقاتل من أجل جلاء البريطانيين وسيان عندي أن يحكم البلاد ملك أو رئيس وزراء أو سفير، برلمان ليبرالي أو رجعي أو حتى شيوعي، ما يهمني هو أن يظل هناك بلد لا يسلبني أحدٌ إياه، وأن أظل علي قيد الحياة ما استطعت، متمتعًا بالناس كافةً، نعم، الناس هم مصدر المتعة لو تفكرتم بالأمر، هم من نحبهم ومن نعمل من أجلهم فيبررون وجودنا،الناس هم من يؤلفون الموسيقى والروايات ويرسمون الجداريات والمنمنمات، ويشيدون القصور والكباري ويزرعون الحدائق، الناس والأطفال، جميعًا، بالأهمية نفسها والجدوى والقدرة على الإيذاء والتأذي، بيضًا كانوا أم سودًا أم حمرًا، مسلمين أو يهودًا أو بوذيين، صدقًا... ليحظى الجميع بالفرص نفسها لنيل النصيب نفسه من السعادة والحزن والتحقق والفقد، لماذا يكون هذا أحيانًا معقدًا وبعيد المنال؟!

ضمتهم سيارة مراد في رحلة العودة إلى بيوتهم وهم منهوكو العقول والأفئدة، آثروا الصمت معظم الطريق، بالقرب من بيت نجيب سأله يوسف:

-أتعتقد أن إصابة يدك ستؤجل تنفيذك للنقل؟

ارتعب نجيب من أن يقترح لقاءً آخر قبل السفر هو زاهد فيه كل الزهد، قال له بسرعةٍ:

t.me/qurssan

-لا أعرف، في كل الأحوال سأكون منشغلًا مع أبي برحلةٍ يصر على القيام بها معي، هذه آخر مرة نلتقي بها على الأرجح.
-أين ستذهبان؟ لمسقط رأسك بالصعيد؟
لم يجد داعيًا للكذب فقال:
-لا، سنزور أديرة وادي النطرون .
وإذا به يُفاجأ بما لم يتوقعه، يوسف يتحول إليه كليةً فاغرًا فاهه مشدوهًا سائلًا:
-وادي النطرون؟؟ أليس هذا حيث يوجد دير السريان؟
رمقه نجيب بشكٍ وتوجسٍ مما أصابه من حماسٍ، بترددٍ أجابه:
-نعم... لماذا تسأل؟
هنا أمسك يوسف بيده السليمة وراح يعتصرها راجيًا بلهجةٍ مستعطفة:
-هل يمكنني الذهاب معكما؟ أرجوك يا نجيب،أعرف أن هذا سيكون تطفلًا مني على والدك لكني مستعد لأن أرجوه بنفسي، سأشكر لك هذا الصنيع ما حييت، من فضلك يا نجيب، من فضلك!
أُسْقِطَ في يد نجيب الذي راح يجذب يده من يوسف الذي صار أشبه بالمهووس، قال له بلهجة من يُسكت طفلًا مزعجًا:
-سأسأله لكني لا أعدك بشيءٍ، لو رفض لن ألح عليه... هو عنيد ولا يغير رأيه بسهولةٍ.
ابتسم يوسف راضيًا بما أحرزه فسكت مستريحًا هانئًا بشكلٍ استفز نجيب وأثار ضيقه، حاول أن يمنع نفسه من السؤال لكنه لم يستطع:
-لماذا تريد الذهاب إلى دير السريان؟ هل تعرف أحدًا هناك؟
بلهجةٍ حالمةٍ زادت من سخطه أجابه:
-لا ، أعرف هناك باب!
-باب؟! هل قلت بابًا؟

t.me/qurssan

-نعم، باب النبوات، لابد أنك تعرفه، ألا يعرفه كل الأقباط؟ إنه...

قاطعه نجيب بعصبيةٍ:

-لا أريد أن أعرف. لا يهم. حمدًا لله لقد وصلنا.

وقبل أن يهبط من السيارة عاجله يوسف بالتعليق التالي ليجهز على قوة احتماله:

-لم أعرف من قبل أنك تسكن هنا يا نجيب، أتعرف أن أستاذي في العود يسكن في الشارع الموازي لك؟ أتعرف ما يعنيه هذا؟ كل هذه المدة وأنا أزور جيرتك دون أن نعلم.

أسرع نجيب يودع الجميع مغادرًا السيارة دون أن يلتفت وراءه، صعد الدرجات المؤدية إلى باب الشقة حيث وقف يبحث عن المفتاح في جيبه بيسراه السليمة. وما أن وجد المفتاح حتى باغته صوت يوسف من خلفه:

-لم تقل متى ستخبرني برد أبيك وكيف.

سقط المفتاح من يده بسبب الانخضاض. لاحظ يوسف ذلك، فانحنى مسرعًا يلتقط له المفتاح ويناوله إياه وهو لا يَنِي يعتذر عن إرعابه له فإذا بباب الشقة يُفتح والمقدس عبد المسيح يقف به بملابسه التقليدية وشاربه المهيب. لم يصدق نجيب نفسه، لم يحدث قط أن وجد أباه بانتظاره خلف الباب في ساعةٍ متأخرة كهذه، فلماذا الليلة؟ أي مصيبةٍ تالية يجب أن يتوقعها؟

جاءته المصيبة بأسرع مما يعتقد؛ فيوسف الذي اندفع لتحية الرجل بحرارةٍ ودماثة، وقع على الفور موقعًا رائعًا من نفسه، فرحب به الأخير داعيًا إياه للدخول، إلا أنه اعتذر متعللًا بعدم ملاءمة الوقت وراح يتودد إليه محرزًا في ذلك ما يريده من نجاحٍ.

هذا ما ينقصني بالضبط، تفضل واخلبْ لب أبي واستولِ عليه هو الآخر، لماذا لا تأخذ غرفتي من الآن؟

t.me/qurssan

ترددت الأفكار الحانقة السوداء في رأسه دون أن ينطق بحرفٍ. وقف مخفيًا يمناه بجيبه ينتظر بشجاعةٍ واستسلامٍ الضربة القاضية، ولم يُخيب القدر توقعه. طبعًا انتهز يوسف الفرصة وسأل المقدس إن كان سيضايقه أن يرافقهما إلى الأديرة المزمع زيارتها، إذا لم يكن يمانع، وطبعًا أبدى الرجل ترحيبه به اعتقادًا في حرمانية منع البركة عمن يسعى إليها، وقبل أن ينصرف يوسف مظفرًا سأله المقدس مترددًا:

-معذرةً لأني أسألك يا بني، هذا لا دخل له بزيارتك للدير طبعًا، لكن لأعرف فقط... أنت أرثوذكسي، غالبية الأرمن هكذا، أليس كذلك؟

بابتسامةٍ واسعة ملء الوجه أجابه بثقةٍ:

- نعم، قطعًا!

***

t.me/qurssan

الختم الخامس

t.me/qurssan

يومًا بعد يوم صارت أسِنات فى احتياجٍ مضنٍ للتدوين. مرات عديدة تكتب وتمزق ما تكتبه. نصحتها فادية بتجربة الكتابة باستخدام الكمبيوتر ما دامت ستضطر لذلك في النهاية، من أجل النشر، فلا توجد دار نشر تقبل أعمالًا مكتوبةً على الورق هذه الأيام.

رغم أنها استبعدت تمامًا الجانب المتعلق بالنشر إلا أنها رأت الفكرة منطقيةً، فقامت بشراء "لابتوب استعمال الخارج" حتى يساعدها في إجراء أبحاثها المزمعة على الإنترنت، ثم قررت، بعد تفكيرٍ قصير، أن تكتب قصةً عن حقبة الأربعينيات التي عاش بها كل من جديها، نجيب عبد المسيح وهيلانة إسطفانوس. كل ما كان عالقًا برأسها هو فقط البداية، دون أي تصورٍ عن مسار القصة بعد ذلك ولا كيف سيتقابلان.

ستكتب الأحداث بعيني نجيب الشاب الذي لم تره أبدًا ولا تعرف سماته، فقد توفي قبل أن يتزوج أبواها، لذلك ستختلق هي ماهيته كما يعن لها محتفظةً ببعض الملامح الأصلية من ذكريات أبيها النادرة عنه. هل تجعله وفديًا كحال معظم المصريين آنذاك؟ أم وجوديًا عدميًا؟ كيف ستبدأ شخصيته وكيف ستتطور؟ ما تعرفه مبدئيًا أنه سيكون شغوفًا بغير هدفٍ، مؤمنًا دون تقوى، وطنيًا بغير نضال. أهذه سماته أم سماتها هي؟!

أين سيكون موضع يوسف بالقصة؟

وهل يجب أن يُدرج يوسف في القصة؟! ما الذي تعرفه عنه بأي حال؟ هو حتى الآن يفوق ما تعرفه عن جدها الذي اختارته بطلًا للأحداث، ومع ذلك فهناك هاجس يحثها على تركه هناك في مذكرات جدتها دون أن يعرف أحد سواها بوجوده. يوسف رائع جدًا ليكون شخصيةً روائيةً، سيبدو كمبالغةٍ عاطفية لا ككيانٍ واقعي. سيتواجد مع ذلك بطريقةٍ ما عندما تذكر مسرح الأزبكية أو تتحدث عن باب النبؤات.

ما يجب أن تتثبت منه قبل كل شيءٍ هو عما تكتب؟!

t.me/qurssan

عن الحياة والموت؟ عن الصداقة؟عن الحب؟ عن الإيمان وفقده؟ أم عن القدر والاختيار؟

ستكتشف ذلك وهي تكتب على الأرجح!

انتقلت للإقامة في غرفة جدتها يصحبها دفتر المذكرات وجهازها الجديد وإرهاصاتها. وشرعت في الكتابة.

***

حمل نجيب حقيبة أبيه الحاوية أموال النذر وتبعه هابطًا الدرج بقلبٍ مثقلٍ، خرجا من باب العمارة ليجدا الباعث على هذا التثقل متجسدًا بشحمه ولحمه إلى جوار السيارة .

كان يوسف بانتظارهما باشًا طَلْق الأسارير،أسرع لتحية الرجل العجوز الذي أبدى سرورًا لتبكيره بالموعد المحدد. وعندما تحول لمساعدة نجيب في حمل الحقيبة تركها له الأخير دون ممانعةٍ ودون أن يتطلع بوجهه. وقبل أن يتم توزيع أماكن الركوب بادر نجيب باحتلال المقعد المجاور للسائق حتى يتجنب الجلوس بجوار صاحبه متظاهرًا بالتنازل باختياره ذلك المكان.

انطلقت السيارة والشوارع لا تزال خاليةً من المارة، ألقى نجيب نظرةً خاطفةً على شارع الأمير ليرى يوسف في المرآة متطلعًا هو الآخر إلى الشارع بابتسامةٍ غير ملحوظةٍ تقريبًا. آلمه ذلك كما لو كان يراهما متعانقين بينما هو متطفل لا يشعر أحد بوجوده، وتساءل إن كانت تعرف بهذه الرحلة أم لا.

بدأ المقدس حوارًا مع يوسف عن الكنائس الأرمنية وطبيعة الصلوات والقداسات وانتخابات المجلس الملي لديهم، والتي كانت عادةً ما ترد بالأخبار لما تتضمنه من صراعاتٍ سياسية تصل أحيانًا إلى الاعتداءات المتبادلة بين ممثلي الأطراف المتنافسة.

t.me/qurssan

أبدى يوسف استعدادًا كريمًا لسرد التفاصيل الكافية لإرواء فضول الرجل، وراح يشرح بتبسيطٍ غير مخل الفارق بين الأحزاب الأرمنية وخلفية تقاتلها على ما يشبه حكومة المنفى، ما يراه هو شخصيًا حماقةً لا طائل من ورائها ولا منفعة.

-الأجدى من وجهة نظري هو السعي الدؤوب لحصول كافة الأرمن على الجنسية المصرية لتقنين أوضاعهم بدلًا من النزاع العبثي لحكم طائفةٍ أرضها محتلة بالأساس من السوفييت.

-لا أفهم... ماذا تعني بالحصول على الجنسية المصرية؟ ألا يُحصل عليها تلقائيًا بالمولد؟ ألم تولد أنت في مصر؟

-بلى، ولكن هذا غير كافٍ، أبي حضر إلى مصر منذ أربعين عامًا أيضًا ولا يحمل سوى الجنسية العثمانية. كل أرمني على أرض مصر هو مواطن عثماني بالأساس، لأننا ببساطة لا نحمل جنسية أرمنية ووزارة الداخلية لا توافق على منحنا الجنسية المصرية، حصلت قلة منا على الجنسية في ١٩٢٩ ثم تم إغلاق الباب منذ ذلك الحين، لا يهم إن أثبتنا أننا مولودن ومقيمون هنا وبلا موطن بديل لنا. في وضعي أنا المشكلة مضاعفة؛ فأمي فرنسية، وأبي رفض دفع الرشوة التي طُلِبت منه لتحقيق مراده فتم التعسف معه، هكذا أجدني أبعد ما أكون عن بلوغ الحلم المنشود.

مرةً أخرى يضبط نجيب نفسه متلبسًا بالشفقة عليه، مع الغضب الذي لا يزول ولا يهدأ. وهناك ذلك الشطر الضئيل خافت الصوت يردد من حفرةٍ عميقة بقلبه وذهنه معًا: *هناك أمل بعيد أن تحول جنسيته دون الزواج منها*. ذلك الشطر دُفن تمامًا تحت القنوط والكبرياء الذين لا يقبلان بأنصاف الأشياء. *كان لابد أن تحبني... ما دامت لم ولن تفعل فليذهب الكل إلى الجحيم الدامي كما يقول الإنجليز.*

t.me/qurssan

صحراء لا يشوبها عمران على طريق القاهرة الإسكندرية الصحراوي. عندما تركوا الطريق الممهد بعد أكثر من مائة كيلومتر وشرعوا في السير على الرمال في مسارات جانبية، بدأ المنخفض في الكشف عن ملامحه لهم، شب كل من يوسف ونجيب برأسيهما من نافذتي السيارة مشدوهين من مرأى البحيرات الملونة التي تمتد أمام ناظريهما كأنها كريستالات عملاقة تحلل ضوء الشمس لألوان قوس قزح. قال عبدالمسيح:

-إنه ملح النطرون، كان الفراعنة يستخدمونه في التحنيط.

كانت هذه أولى علامات الانتقال إلى بعدٍ آخر والتورط فيه بكامل حواسهم، رؤيةً وشمًا وتذوقًا ولمسًا وسمعًا، بحيرات الملح الملون ورائحة الهواء المشبع بها وطعمه على ألسنتهم ولفحه لوجوههم وصوت الرمال أسفل العجلات. ولا زالت البقية تأتي.

قضى المقدس وقتًا لا بأس به يقص على يوسف تاريخ برية شيهيت أو ميزان القلوب. كيف بدأت الرهبنة بذلك الموقع ومن هم أشهر القديسين الذين لا زالت رفاتهم باقيًا بالأديرة يصنع المعجزات، أجسادهم لا تتحلل أبدًا ولا تفسد، وكيف واجه الرهبان هجمات البربر ببناء الحصون أحيانًا وبالتقدم للاستشهاد أحيانًا أخرى.

-لهذا سُميت ببرية شيهيت، وهي كلمة قبطية طبعًا، لأنها تجربة قادرة على أن تزن قلبك لتعرف أين يميل، إلى العالم والجسد أم إلى السماء والروح، فهنا قبل أن تكون معرضًا لمجابهة الموت الصريح أنت مطالب بالموت عن كل رغبات الحياة الطبيعية، امتلاك المال، الزواج، الإنجاب، الجاه والمنصب، الراحة وحب البقاء، لتستبدل بكل هذا... المسيح فقط.

هز يوسف رأسه موافقًا مُبديًا تقديرًا عظيمًا وفهمًا لما يسمعه دون أن يجد بنفسه أي تحمسٍ صادق، واثقًا أن نجيب، صديقه الذي يبدو واجمًا لسببٍ غامض، يشاركه الشعور نفسه إزاء فكرة التنازل عن كافة مسرات الحياة

t.me/qurssan

مقابل الإنزواء بالصحراء حتى الموت. ميزان القلوب حتمًا كان سيميل بقلبيهما معًا حتى أثقل درجات التعلق بالحياة لو أنهما خضعا لذلك الاختبار غير المرغوب فيه.

كان دير الأنبا بيشوي هو مقصدهم الأول بين ثلاثة أديرة يفترض بهم زيارتها، الأنبا بيشوي والسريان والبراموس. فتح لهم الباب راهبٌ شاب متعجل عازف عن الحديث متعللًا بأن القداس لا يزال دائرًا ولا أحد هناك خارج الكنيسة. تبعوا الراهب المسرع إلى الكنيسة حيث حضروا القداس للنهاية.

قبيل التناول استدار الراهب الذي صلى القداس موجهًا إليهم التنبيه التالي:

-لا يتقدم للتناول من ليس له أب اعتراف أو لم يعترف خلال عامٍ على الأكثر أو بينه وبين أحد خصام أو ضغينة.

فوجئ نجيب باستعداد يوسف للتقدم للتناول خلف أبيه، اقترب منه هامسًا:

-هل تعترف يا يوسف؟!

التفت له يوسف متعجبًا من دهشته:

-نعم، لماذا تجد ذلك غريبًا؟

-ألم تخبرني قبلًا أنك لا تعرف بأي كنيسة تعمدت؟

-أي فارقٍ يصنعه هذا؟

لم يزد على ذلك وتقدم بثقةٍ للتناول. لم يتقدم نجيب للتناول لا خشية من لوم أبيه الذى لن يتركه دون توبيخ، ولكن هو لا يشعر بأدنى استحقاق لهذا السر المقدس، فهو طول الوقت، كل ما يفكر فيه أثناء الصلاة هو: كيف يُشفى؟

تقدموا للشرب بعد التناول فأبدى نجيب امتعاضه من طعم الماء الغريب بينما احتفظ يوسف برصانته دون تعليقٍ على الأمر. أجابه والده:

-إنها مياه آبار. أتظن ماء النيل يصل إلى هنا؟

t.me/qurssan

حاول نجيب أن يشرب ويشرب حتى أيقن أنه لا فارق في كمية المياه التي تتناولها، ستظل مضنىً بعدم الإرتواء والشبع.

كيف يعيشون حياتهم بكاملها على هذا الماء فقط؟

رحب بهم راهبٌ عجوز ينوب عن رئيس الدير في استقبال الزوار، واصطحبهم للمضيفة حيث تناولوا إفطارًا مكونًا من فولٍ وزيتونٍ وخبزٍ.

وعندما أظهر المقدس رغبته في مقابلة رئيس الدير أو المسئول عن النذور أخبره الراهب أنه سيفعل بعد تناول الشاي.

كان المنوط به تقديم الشاي علمانيًا وليس راهبًا، جاء يحمل الصينية بخفةٍ باسم الوجه، وما أن تطلع نجيب إلى وجهه حتى هتف قائلًا:

-أنت... ألم أرك في بيت مدارس الأحد في فبراير الماضي؟

أجابه الشاب بمرحٍ:

-هل ظننتني لا أغادر مدارس الأحد؟ أنا أوجد في كل مكانٍ كالآباء السواح.

-ولكن هل سترهبن بعد التوجيهية فقط؟ لا زلت صغيرًا .

-أنا هنا في خلوةٍ فقط. سأنتظم في كلية الآداب مع نهاية الصيف.

-معذرةً يا أبي، هذا نظير أفندي، خادم بمدارس الأحد وطالب بالإكليريكية. هذا والدي المقدس عبد المسيح شحاتة، هذا صديقي دكتور يوسف أرتينيان، طالب بكلية الطب. هل تذكر اسمي؟

-أستاذ نجيب، أنا لا أنسى الأسماء ولا الوجوه.

-هل تعرف نسيم غبريال؟ لقد التحق بالإكليريكية هذا العام.

-نعم، نعم، إنسان لطيف جدًا. هل دخلتم الحصن؟ وبئر الشهداء، هل رأيتموه؟ سآخذكم في جولةٍ لو شئتم.

قرر المقدس أن يذهب مع الراهب ليسدد النذر منفردًا، بينما ذهب نجيب ويوسف مع الشاب. مروا أولًا ببئرٍ عتيق، تتمثل أهميته في أن البربر قد غسلوا في مياهه سيوفهم بعد أن ذبحوا رهبان الدير. قال يوسف متعجبًا:

t.me/qurssan

-ومع ذلك فقد أتى آخرون للرهبنة بالمكان نفسه. هذا سعي دؤوب للموت لا شك فيه. أراهن أن أخبار الحرب لاتقلقهم هنا.

أجابه نظير:

-لم يكن الموت يومًا مصدرًا للرعب بالنسبة للأقباط، ولم يروا فيه إلا معبرًا للحياة الباقية. بالنسبة للأخبار هي تصل متأخرةً طبعًا لكن المحصلة واحدة،الصلاة دائمًا من أجل السلام ونجاة البشر جميعًا من الموت الجسدي، والروحي طبعًا.

تساءل نجيب:

-ما داموا لا يرون في الموت شرًا فلماذا يطلبون نجاة العالم منه؟ لماذا لا يطلبون التعجيل بالنهاية السعيدة للجميع؟ ستكون القنبلة الذرية لو تم صنعها هي الحل الأمثل... الفناء السريع والانتقال إلى الأبدية المريحة.

كانوا يسيرون أثناء الحديث، فتوقف نظير متمليًا من وجه نجيب الذي لا يعكس سوى شذرةٍ ضئيلة من مرارته. ابتسم صامتًا قبل أن يقول:

-لكننا نطلب مجيء المسيح طوال الوقت، أن ينتهي كل هذا الألم، المعاناة،الظلمة التي صنعها رئيس العالم، أليس هذا ما ننتظره جميعًا دون حتى أن نشعر؟ ولكن هذا لا يعني أن ننهي حياتنا بأنفسنا للتعجيل بالأبدية، حتى آخر لحظة اعملْ بأقصى طاقتك لرخاء الآخرين ومنع الظلم، كن سراجًا منيرًا لأنك لا تعرف متى تكون الخاتمة، ولا أحد يريد أن تسوء الحياة عما هي عليه بالفعل إلى أجلٍ غير مسمى، فقط عندما لا يكون هناك مفر من الموت لا تخف... إنه نوم لا أكثر، تصحو منه لتبقى في الأبد.

رنا كل من نجيب ويوسف للفتى بصمتٍ متعجب، وللمرة الثانية يتساءل نجيب في نفسه إن كان يعني فعلًا ما يقول. *كيف يملك تلك اليقينية في ذلك السن الصغير؟* تحرك أمامهما مسرعًا وهو يقول:

-هيا إلى الحصن!

t.me/qurssan

صعدوا سلمًا يقود إلى جسرٍ خشبي يقود للطابق الثاني من الحصن، لاحظ نجيب دفترًا صغيرًا يبرز من سترة يوسف لم يره من قبل، سأله:

-ما هذا؟ هل ستكتب وصفًا للدير؟

مال عليه يوسف هامسًا:

-إنه دفترها! هي من كتبت به تفسيرًا لسفر الرؤية. أتيت به معي لسببٍ معين سأخبرك به ونحن بمفردنا.

هنا قال نظير شارحًا:

-في العصور الغابرة لم يكن هذا الجسر مثبتًا، كان يمكن رفعه بعد دخول الرهبان للحصن إثر أي هجومٍ، بالداخل طبعًا كان يوجد كل ما يلزم للحياة، حبوب للطعام، مياه، شموع وقناديل، كتب مقدسة، كنيسة ومكتبة، دير مصغر.

كانت الممرات الداخلية في شدة الضيق، رائحة الزمن هي السائدة، الغرف صغيرة جدًا ومعتمة،أحس يوسف بالضيق ولم يعد قادرا على التنفس، لذلك اعتذر وأخبرهما أنه سينتظرهما بالخارج. توغل نجيب إلى النهاية وهبط إلى الطابق الأرضي، قبل أن يعود إلى الطابق العلوي ويستقر بالكنيسة الصغيرة على الأرض. دنا منه مرشده بهدوءٍ شديد وجلس قبالته على الأرض. لبثا ساكنين لوهلةٍ قبل أن يقول نجيب:

-أتعلم أن الموت، هنا في هذا المكان فقط، لا يبدو سيئًا أو مخيفًا جدًا؟ لا شيء في الواقع مما يبدو مرعبًا هناك بالخارج يملك السطوة نفسها هنا، كأنه يتحول إلى حلمٍ سخيفٍ لا أكثر. في الواقع... أنا أخشى الألم... أكثر مما أخشى الموت، ربما لهذا لا ألوم الله على الموت بقدر ما ألومه على سماحه بالمعاناة. الآن أعرف أن خيبة الأمل تلك حالت دائمًا بيني وبين تصديق أنه يكترث لي بالدرجة التي يراد مني تصديقها.

أجابه الشاب بهدوءٍ:

t.me/qurssan

-تبدو لي كمن لا أب اعتراف له، ينبغي لك الحصول على واحد لو أردت رأيي.

-سأسألك شيئًا، لو أنك خُيرت بين الفهم والراحة، المعرفة أو السعادة، فأيهما ستختار؟

رفع الشاب حاجبيه مندهشًا مستنكرًا وقال:

-كيف لا تعرف هذا؟ الفهم هو السبيل الوحيد للراحة، والمعرفة هي شرط السعادة. إن كنت متعبًا تعيسًا فهذا لأنك لم تفهم شيئًا بعد ولا عرفت، حتى لو ظننت العكس! اسمعْ، لا أملك ما أقوله الآن سوى التالي: الألم لم يُخلق! وُجد الألم عندما فارق الإنسان الله فأصبح، بإرادته، تحت رحمة تحالف الشيطان مع قوانين الطبيعة... فكرْ في الأمر... لو أنك لا تملك شهوات البتة، لا رغبة لك في شيءٍ يوجعك فقده، لتسلطت على الطبيعة نفسها، ولما صار لها سلطان عليك البتة.

بالخارج وجد أبيه وقد انضم ليوسف، ودعوا الراهب الذي صاحبهم ونظير جيد ليتوجهوا إلى البوابة مغادرين، خرج يوسف والمقدس وتأخر نجيب ليعود مرةً أخرى إلى الشاب سائلًا إياه عن شيءٍ أخير:

-هل تعرف أبانا مينا البراموسي أو المتوحد؟

-لا، لا أعرف آباء دير البراموس.

-حسنًا، ربما أقابله بنفسي في البراموس... لو أنه لم يغادر قبل وصولي بساعةٍ!

طوال الطريق إلى السريان لم يخفت وَجِيب قلب نجيب، هناك شيء ما يتبدل أو يتشكل داخله ببطءٍ ونعومةٍ، لا يدرك ماهيته لكن يغلب عليه ذلك الاستسلام الذي تصل إليه الدجاجة المذبوحة بعد التخبط طويلًا في دمائها فيجعلها تستلقي منتظرةً الموت في هدوءٍ.

t.me/qurssan

ما أن وصلوا هناك حتى بادر يوسف بالسؤال عن باب النبوات. اصطحبهم راهب البوابة إلى الكنيسة الأثرية وطلب منهم أن ينالوا بركة المكان حتى يأتي الراهب المختص بالشرح!

أمام الباب وقفوا. الباب مكون من ستة أقسام، طولها يبلغ قرابة الثلاثة أمتار، موصولة بمفصلات، كل قسم مقسم بدوره إلى سبع إطاراتٍ خشبية مزخرفة بالعاج بأشكال متباينة للصليب. قشعريرة واحدة مرت بأجسادهم جميعًا، ذلك السكون الثقيل الذي تشعر أنك تخدشه بأنفاسك، المكان خالٍ، ومع ذلك تكاد تجزم بأن الهواء عامر بالأرواح التي سكنته. رغبة واحدة تملكت كل منهم في اللحظة ذاتها: كم هو مريح البقاء هنا!

كانت الكنيسة مبنيةً فوق مغارة صخرية لا تسع سوى شخصين على الأكثر في الوقت ذاته، تلك كانت مغارة الأنبا بيشوي. في سقفها كانت هناك طاقة صغيرة لإدخال النور، وفيها بروز كان يربط شعره إلى حبلٍ متدلٍ منه حتى متى سقط تعبًا في النوم آلمه شعره المشدود ونهض مستأنفًا الصلاة طوال الليل.

تحاشى يوسف الدخول للمغارة، همس مبررًا لنجيب:

-لا أحب الأماكن الضيقة المعتمة، أشعر أني أدلف إلى قبرٍ يطبق على صدري. ليس هناك فارق كبير على أي حالٍ بين القبر ومغارة الناسك. ألا تُصلي صلاة الجناز على الراهب يوم سيامته؟

أخرج الدفتر من سترته وجلس أمام الباب، ومن جيبه أخرج قلمًا وراح يرسم. منقادًا بوسواسه جلس نجيب بجواره محاولًا التقاط شيءٍ من المكتوب، ومحدقًا بيده المتحركة على الورق بدقةٍ وسرعة اكتسبهما من رسوم مادة التشريح فيما يبدو.

-لماذا ترسم الباب؟!

t.me/qurssan

-لأنه مذكور في الدفتر. هي شبهت السبعة أقسام التاريخية بالباب بالسبع كنائس المذكورة في رؤيا يوحنا. وعندما أخبرتها بقدومي إلى هنا طلبت مني رسمًا للباب بمثابة تتمةٍ لمقالها، ليظل هذا الدفتر دائمًا حاويًا لجزءٍ منها مع جزءٍ مني.

قال الجملة الأخيرة وهو مطأطئ الرأس باسمًا مرتعش الصوت، عقد نجيب حاجبيه بشدةٍ عاجزًا هذه المرة عن ابتلاع الشوكة بحلقه. عاوده الألم بيده التي أصابها الشرخ وتمنى الوجود في أي مكانٍ آخر، ثم راحت بقعة خبيثة برأسه تبث الوجع والدوار في تنامٍ مطردٍ حتى ألفى نفسه بالنهاية عاجزًا عن الحركة أو فتح عينيه. عندما انتهى يوسف من الرسم رفع رأسه ليراه ويفزع من الإعياء الموشوم على وجهه.

-ماذا بك يا نجيب؟ هل يؤلمك شيء؟

أمسك نجيب رأسه بكلتا يديه وهمس دائخًا:

-رأسي... كأن مطرقة تنهال على رأسي.

لم تكن هناك أدوية متوفرة بالدير، جعله الرهبان ينام بإحدى القلايات القريبة من الكنيسة وقدموا له شراب التمر الهندي!

سألهم يوسف بشكٍ:

-ما جدوى التمر الهندي في الصداع؟

جعلوه يرى بنفسه، أشاروا له في الفناء بالقرب منهم إلى شجرة تمر هندي ضخمة تغطي ظلال فروعها مساحة خمسة أمتار مربعة. كانت الأوراق والأزهار المتراوحة ما بين الصفرة والحمرة تزركش الأرض في مشهد مبهج، ومع ذلك لم يرَ يوسف شيئًا غريبًا يفسر حرصهم على تناول نجيب لنتاج الشجرة.

-عمر هذه الشجرة يربو على الستة عشر قرنًا، وهي لم تكن شجرةً بالأساس! ربما لا تعرف القديس مار إفرام السرياني، هو قديس عظيم، كان

t.me/qurssan

يتوكأ على عكازٍ خشبي لكبر سنه وظنه بعض الرهبان راغبًا في كرامة الشيوخ والآباء. لذلك عندما ترك عكازه مغروسًا بالأرض ليدخل الكنيسة أراد الله أن يظهر ما له من كرامة حقيقية، فخرج الجميع من الكنيسة ليجدوا العكاز قد أورق وأزهر متحولًا إلى شجرةٍ! هكذا يتكلم الله مدافعًا عمن يقف صامتًا تجاه الظلم أو المهانة الشخصية مثلما فعل مع هارون في الماضي البعيد.

وقف يوسف واضعًا يديه بجيبيه ناظرًا للشجرة بارتباكٍ واضح، قال للراهب بحيرةٍ:

-أشعر أني سافرت إلى قارةٍ أخرى وليس لمسافة مائة كيلو من القاهرة!

انتظر حتى خرج المقدس بصحبة الرهبان من القلاية ليكلم السائق ويدفع النذر الثاني واقترب من نجيب هامسًا:

-نجيب، هل أنت أفضل الآن؟ هل قَلَّت وطأة الصداع؟

دون أن يفتح عينيه همهم نجيب:

-أشعر أني بحاجة لنوم لا أنهض منه.

-حسنًا، معي دواء قد يناسبك لو أن ما تشعر به الآن هو مجرد انهاك .

تطلع إليه نجيب بدهشةٍ قائلًا:

-ماذا تعني؟

أخرج يوسف من جيبه أنبوبًا معدنيًا، فتحه وأخرج منه قرصًا صغيرًا وناوله إياه ثم أعاد الأنبوب لجيبه. راح نجيب ينظر للقرص بيده بينما يوسف يعطيه ما تبقى بكوب التمر موضحًا:

-خذ هذا مع ذاك حتى تجني الفائدتين، الأرضية والسماوية. اعتدت أن أحمل معي هذا الدواء دائمًا احترازًا، وهذا هو القرص الأخير منه وقد نزلت لك عنه بطيب خاطر.

-ما هذا الدواء بالضبط؟

t.me/qurssan

سأله وهو يتناوله.

-لن تفهم شيئًا من تركيبه الكيميائي لو أخبرتك، لكنه مضاد للإرهاق والنوم ومنشط ومولد للطاقة، هو قادر ببساطةٍ على مضاعفة يومك والقضاء على أي إجهادٍ ينتابك. لك أن تتخيل مدى منفعته في أيام الامتحانات مثلًا، عندما تكون بحاجة لكل دقيقةٍ من اليقظة، بفضله استطعت الانتقال من مدرج الكلية إلى تدريبات الرقص وإلى درس العود وإلى المذاكرة لساعات!

أحس نجيب أنه يرى يوسفَ جديدًا لم يتعرف إليه من قبل، خالٍ من هالة السحر التي طالما أحاطت به مثيرةً فيه الافتتان، كأنه إزاء بطله السينمائي المفضل وقد اتضح أنه يستخدم بديلًا له في المشاهد الخطرة. لم يعجبه ذلك.

-لم تخبرني، هل حضَّره والدك؟

-لقد حصلت عليه من مصدرٍ خاصٍ. رفض أبي أن يمدني به عندما طلبته. لا أكذبك أنه من الخطر استخدامه بصفةٍ منتظمةٍ، فهو في النهاية يمنح شعورًا زائفًا بالراحة والقوة لا ينعم الجسم بهما في الحقيقة، مما يصل بالشخص لأن يكون على حافة الانهيار دون أن يشعر، بينما الله خلق الألم والتعب لتنبيهنا إلى حاجتنا للعلاج أو للنوم.

-لماذا أعطيتني إياه إذًا؟!

-سيجعلك تستأنف اليوم الطويل الذي أنت مضطر لمجابهته، أين ستحصل على ما تحتاجه من نومٍ طبيعي هنا؟

-وهل تحمله معك للسبب نفسه؟

-لا تعرف أبدًا متى ستحتاج محفزًا صغيرًا، خاصةً عندما تبدأ يومك في الخامسة صباحًا ولا تعرف متى سينتهي.

-ولكن... هل أنت معتاد عليه؟ كيف ستحصل على غيره الآن؟

t.me/qurssan

-لم أكن أستخدمه إلا في الضرورة القصوى، لأني لا أحب أن أعتمد عليه ولست مغرمًا بآثار توقفه. لا أظنني سأحصل على المزيد منه.

عندما بدأ نجيب يشعر بالتحسن والتراجع في الصداع، نظر للدفتر بفضولٍ وقال:

-أيمكنك أن تخبرني بالمكتوب لديك؟ كان لدي دائمًا فضول غير مشبع حول سفر الرؤيا. وفكر في نفسه: *ربما أعرف أخيرًا لماذا كانت تبكي في القداس.*

فتح يوسف الدفتر كأنه كان ينتظر السؤال، وبصوتٍ وقور ورقيق قال:

-سأفعل ما هو أفضل، سأقرأه عليك. اسمع يا نجيب عبد المسيح:

-أنا هو الألف والياء، البداية والنهاية، يقول الرب الكائن والذي كان والذي يأتي والقادر علي كل شيءٍ.

وأصغى نجيب. في البداية رآها بوضوحٍ جالسةً تكتب، بالثوب الأزرق، الدفتر أمامها والكتاب المقدس مفتوح إلى يسارها، ولكن شيئًا فشيئًا شرعت تتوارى عن ناظريه، تبدل المنظر على مسرح خياله ليحتله ابن الإنسان المتمنطق بالذهب وسط السبع منابر، شعره في بياض الثلج ووجهه يضيء كالشمس وعيناه كلهيب نارٍ وصوته كصوت مياه كثيرة! راح ما يسمعه ينطبع بذاكرته كانطباع النقوش على معدنٍ في حالة انصهارٍ، كانطباع الجمرة بيد الملاك على لسان أشعياء النبي بالهيكل، كأنه يتوصل الآن لسببٍ من أسباب وجود هيلانة ووجوده هو الآخر، هي لتكتب وهو ليسمع ويفهم ما سطره يوحنا منذ ألفي عامٍ ثم اقتبسته متأملةً، كان من أجله هو كما كانت الأرض من أجل آدم وحده!

"لاتخف البتة مما أنت عتيدٌ أن تتألم به...

أنا عارف أعمالك، أن لك اسمًا، أنك حي وأنت ميت...

ها أنذا قد جعلت أمامك بابًا مفتوحًا ولا يستطيع أحد أن يغلقه...

t.me/qurssan

أنا أيضًا أحفظك من ساعة التجربة العتيدة أن تأتي على العالم كله لتجرب الساكنين على الأرض.

أنا عارف أعمالك، أنك لست باردًا ولا حارًا. ليتك كنت باردًا أو حارًا... لأنك تقول: إني أنا غني وقد استغنيت... ولست تعلم أنك أنت الشقي والبائس وفقير وأعمى وعريان.

من له أذن فليسمع ما يقوله الروح للكنائس."

بعد نصف ساعةٍ من القراءة كان نجيب يجلس منتصبًا مشدوهًا، رجفة تلو أخرى تعتريه، توقف يوسف ليتمتم بشيءٍ من الرهبة:

-أنت تمر الآن بما مررت أنا به. لم أصدق أنا أيضًا أن فتاةً لم تتعدَ السابعة عشرة يمكنها أن تفهم الآيات بهذا التبصر وتشرحها بتلك العاطفة!

التفت إليه نجيب متسائلًا:

-فتاة؟!

في تلك اللحظة لم يكن لهيلانة وجود، تعجب نجيب من نفسه لكنه لم يتكلم. أردف يوسف قائلًا:

-هناك فكرة تلح عليّ كلما قرأت هذا التفسير، ألا وهي تلحين سفر الرؤيا! أليست فكرةً أصيلةً تمامًا؟ لا أظن أن هناك عمل تم اقتباسه منها من قبل. لا أعرف بعد ما هو الإطار الأمثل، كنتاتة أم أوبرا، وبأي لغةٍ تكتب، أليس مشروعًا مذهلًا؟ أنت مندهش من حديثي عن التلحين، أليس كذلك؟ لكن ذلك هو هاجسي الأكثر إلحاحًا، لقد ألفت قصيد سيمفوني من قبل، تأتيني طوال الوقت تركيبات لحنية غريبة دون حتى أن أتعمد بذل مجهود في الأمر، أحيانًا وأنا أعزف أو أستمع لمقطع ما يحل عليّ فجأةً لحن آخر لا علاقة له بما أسمعه، كأنه اقتراح لما يمكن أن يكون عليه اللحن لو أنني صغته بنفسي! أليس هذا رائعًا ومخيفًا؟ لو أنني فعلت هذا لصار إنجازًا غير مسبوق!

t.me/qurssan

كانت المسافة لدير البراموس أبعد من مثيلتها بين ديري السريان والأنبا بيشوي، كانت في الطريق مرتفعات ومنخفضات متواليةً بشكلٍ فريد تجعل السيارة كأنها إحدى عربات قطار الملاهي التي تصعد وتهبط على قضبانٍ متعرجة. مر الوقت ونجيب ممسك بالدفتر يتأمل في رسم يوسف للباب الأثري معجبًا بدقته، لم يستوقفه كثيرًا ما أثاره بشأن النبوات الزمنية بالسفر والباب وكيف يستنتج منهما ما هم مقبلين عليه، لم يعد ذلك همًا مصيريًا مخيفًا، إن كانت النهاية قريبة أو بعيدة، ستشمله أم تبقي عليه، ما يشغله الآن هو: كيف يكف عن أن يكون ميتًا بينما يبدو حيًا؟

في نهاية الصفحات المكتوبة والتي قرأها للمرةٍ الثانية لاحظ توقيعًا مؤرخًا باليوم السابق باسم أسِنات! التفت خلفه ليسأل يوسف عن كنه الاسم المكتوب لكنه رأى أباه فتراجع، وتطلع حوله للكثبان والبراح متمنيًا أن يمتد هذا البراح إلى اللانهائية. مال على السائق قائلًا :

-هل المسافة بهذا الطول أم أننا ضللنا؟

وكردٍ سريع على تساؤله أو نبوءته أبطأت السيارة وراح السائق يمد عنقه كأنه يبحث عن علامة بالطريق! سأله المقدس:

-لماذا تتوقف ؟!

رأى نجيب على مسافة مائتي متر تقريبًا ما يشبه مستودعات مستطيلة الشكل وأسلاكًا محيطة بها على سبيل المنع من الدخول، كأن هناك من سيقطع هذه المسافة لهذا اللامكان فقط ليدخل هناك!

-يبدو أننا تهنا! ليس هذا طريق الدير الذي أعرفه، لم يكن هذا الشيء موجودًا هنا من قبل.

كان هذا آخر ما توقعوه في هذا اليوم الناجح حتى هذه اللحظة، راحوا جميعًا يتطلعون إلى الموضع المجهول بفضولٍ وقلقٍ. اقترح يوسف أن يذهبوا إلى القائمين على المكان للسؤال عن الطريق الصحيح.

t.me/qurssan

-هذا معسكر إنجليزي بالتأكيد. *قال والد نجيب مستنتجًا.* ليس من المستحب الاحتكاك بهم دون ضرورةٍ .

قال نجيب:

-وليس مستحبًا أن نطوف بالصحراء على غير هدى، ربما كان هذا هو الطريق الصحيح رغم كل شيءٍ، لن نعرف إلا إذا سألنا.

وافقه يوسف قائلًا:

-من الأسلم أن نذهب أنا ونجيب وحدنا لمحاولة الحديث إليهم على أن تبقيا هنا.

هبط الشابان من السيارة وقد ترك كل منهما سترته وترك نجيب طربوشه وشمرا قمصانهما من شدة الحرارة. سارا معًا بمظهرٍ هادئٍ واثقٍ لا يشي بما يعتمل بنفسيهما من توترٍ.

كانت هناك بوابة في السور الشائك ولكن لا أحد بجوارها، نظرا لبعضهما بتوجسٍ وعجبٍ، كيف يُترك المدخل الرئيسي دون حراسةٍ؟

راحا يحومان حول المكان محاولين التوصل لأي إجابةٍ، دون أن يقتربا أكثر مما يجب ودون أن يبدوا متطفلين. وقف يوسف فجأةً يصغي لوهلةٍ قبل أن يقول:

-هل تسمع ما أسمعه؟

لم يسمع نجيب شيئًا، اقترب يوسف من السور رغم تحذير صاحبه ثم هتف بانتصارٍ:

-إنهم بالداخل يلعبون. أنا أعرف ما أقول.

لم يكن هناك شيء مرئي لهما، فقط صوت لا يسمعه سوى يوسف.

-ماذا سنفعل إذًا؟ ننتظر حتى ينتهوا من اللعب؟

-لا طبعًا، نادِ معي بأعلى صوت، قل "مرحبًا" بالإنجليزية حتى يسمعنا أحدهم ويأتي.

t.me/qurssan

وشرع يوسف أولًا في النداء، ثم لحق به نجيب ونادى هو الآخر. لم يطل بهما الأمر حتى سمعا أولًا صوت خطوات قادمة بأحذية ثقيلة على الرمال قبل أن تظهر لهما أجسام الجنود ذات البزات الصفراء والأسلحة المشهرة. تم توجيه الأمر لهما أن يقفا في مكانيهما وأن يرفعا أذرعهما لتكون مرئية. أطاعا الأمر ووقفا ساكنين تمامًا بينما يتم تفتيشهما بحذرٍ والسلاح موجه إليهما، في الوقت نفسه اتجه جنديان نحو السيارة البعيدة للتأكد من خلوها من الممنوعات أو مصادر الخطر.

كان يوسف هو من تكلم أولًا بعد انتهاء التفتيش:

-لقد تهنا، نحن قادمون من القاهرة لزيارة الأديرة هنا، كنا لتونا في الدير الصغير، السيدة العذراء أو السريان، هل تعرفانه؟ نريد أن نعرف الطريق إلى دير البراموس قبل العودة إلى القاهرة، أيمكنكما المساعدة؟

أمرهما الجنديان أن يتقدما أمامهما لداخل المعسكر، أطاعا وسارا يسترقان النظرات للمكان للإلمام بأبعاده. قابلا جنودًا كانوا يلعبون كرة القدم وتوقفوا لمشاهدتهما، كانوا يتصببون عرقًا وقد تحول لونهم إلى البني المحمر مرتدين القُمصان الداخلية على السراويل القصيرة، كان يوسف محقًا!

وصلا لمبنى من طابقٍ واحد، يبدو أنه مقر للقيادة، قرع بابه أحد الجنديين وهو لا يحول بصره عنهما، جاءتهم الإجابة من الداخل، ففتح الجندي الباب وقادهما مع زميله.

ضابطٌ أشقر يجلس مادًا ساقيه على مكتبه وقد تجهم وجهه، في الثلاثينات من عمره، شعره مشعث لكن وجهه حليق، عيناه شبه مغمضتين، يستمع إلى راديو يذيع موسيقى راقصة ولا يبدو عليه الاستمتاع بها. لدى مثولهما أمامه فتح عينيه ونقل بصره بين الشابين لبرهةٍ قبل أن يتوجه بحديثه إلى يوسف:

t.me/qurssan

-أنت... ألم تكن حاضرًا بالحفل على الباخرة في الأسبوع الماضي؟ كنت تعزف وتغني بثلاث لغاتٍ بالإضافة إلى اللاتينية... من أين أنت؟ ما هي أصولك؟

أجابه يوسف بما يستطيع من لطفٍ:

-والدي أرمني ووالدتي فرنسية، لكني ولدت في مصر، لم أرَ أوروبا أبدًا، لذلك يمكنك أن تعتبرني مصريًا فحسب.

لم يعترِ تعبيره البارد أي تغييرٍ وتحول إلى نجيب سائلًا عن اسمه، دخل جندي آخر ليخبر الضابط بوجود شخصين آخرين في السيارة أحدهما على ما يبدو والده، مشيرًا لنجيب، والآخر سائق.

-إذًا، ماذا جئتم تفعلون هنا؟ كيف عثرتم على هذا المكان؟

تكلم نجيب هذه المرة بإنجليزيةٍ متعثرة :

-أردنا الذهاب إلى دير البراموس لكن السائق ضل، لا نعرف كيف نذهب من هنا، كنا نأمل أن تساعدونا لمعرفة الطريق.

تجاهل الضابط كلامه وراح يطيل النظر إلى يوسف فاحصًا وقال أخيرًا بهدوءٍ متسليًا:

-لقد عزفت لحنًا ألمانيًا إن لم أكن مخطئًا، لا أذكر اسمه لكني أعرفه وأعرف مؤلفه... سمعته مرتين في حياتي، مرةً في أوروبا قبل الحرب ومرةً على تلك الباخرة. كيف حفظت اللحن لتعزفه بهذه البراعة دون نوتة؟

هز يوسف كتفيه مبتسمًا دون أدنى شعورٍ بالخطر قبل أن يقول:

-أنا أحفظ غيبًا أي لحنٍ أسمعه لمرةٍ واحدة ما دام أعجبني، لكن أمي حصلت لي على نسخة من النوتة عندما عرضت بالأوبرا الخيدوية.

قاطعه الضابط معتدلًا في مجلسه:

-أمك الفرنسية، صحيح؟ السؤال هو... هل كان من الضروري جدًا أن تعزف تلك الموسيقى تحديدًا في تلك الليلة وفي ذلك الموضع؟

t.me/qurssan

تنامى القلق داخل نجيب وهو يرى يوسف وقد بدأت ملامحه تشي بالتوجس المتسلل إليه، أجاب بنبرةٍ محايدة:

-لقد ظننت أنها تنويع طريف يضاف إلى الحفل، لقد غنيت بالعربية والفرنسية والأرمنية، لا أرى ضررًا في ذلك بأي حالٍ!

زم الضابط حاجبيه وأغلق الراديو فجأةً. عاد يستند لمقعده وهو يقول:

-إذًا فهي مصادفة أن تحضر حفل ضباط بريطانيين، بينهم من سيذهب إلى الجبهة في غضون أيام، لتعزف لحنًا ألمانيًا، لتتواجد بعدها مصادفةً في مطارٍ عسكري لا يعلم أي مدني بوجوده ولم يصله أحد من قبل! هل يمكننا القول أن اللحن كان رسالةً من نوعٍ ما لأحدهم؟ ماذا يفترض بك أن تفعل بعد اكتشاف المكان؟

بينما الارتياع يظهر شيئًا فشيئًا على وجهي نجيب ويوسف من الافتراضات التي تُنسج أمامهما دخل جندي يؤدي التحية ويضع شيئًا على المكتب قائلًا:

- هذا ما وجدناه بالسيارة.

أمام الضابط رأى نجيب دفتر هيلانة وأنبوب الدواء الفارغ الخاص بيوسف.

أمسك الضابط بالأنبوب فاحصًا إياه بهدوءٍ، ثم فتح الدفتر ليفره مارًا على الكتابة العربية بعجلةٍ حتى توقف بغتةً عند الصفحة الأخيرة التي تحتوي على رسم الباب الأثري، أمسك بالدفتر وأداره ليواجههما به سائلًا بتؤدةٍ مخيفة:

-تشكيلة صلبان رائعة، أفترض أنك ترسم الصليب المعقوف على سبيل التنويع الطريف؟! لكني لم أرَ قبلًا شفرةً باللغة العربية!

صرخ غاضبًا وقد طرح عنه الهدوء البارد وتحول إلى هيئة الطيور الكاسرة أمام الجثث:

-بربك! هل أنت بهذا الغباء حقًا أم أن من جندك أرسلك لتسخر منا؟ لننهي هذه المسألة بسرعةٍ وبما نستطيع من كرامة على الأقل. تكلم يا فتى! ماذا

t.me/qurssan

جئت لتفعل؟ ومن يعطيك التعليمات المباشرة؟ أي نوعٍ من كتب الشفرات هذا؟ وممن تأتي بمعلوماتك ولمن توصلها؟

لو لم تكن يقظة حادة غير طبيعية مسيطرةً على نجيب لكان قد فقد رشده هلعًا، فوجئ بما صدر عنه من كلمات كما فوجئ يوسف تمامًا:

-هذا الدفتر لي، دونت فيه مقالًا عن سفر الرؤيا ويمكنني أن أخبرك بالمكتوب فيه ولكن بمساعدة مترجم، فإنجليزيتي لن تسعفني في هذا الأمر. هذا الرسم موجود على باب دير السريان، اذهب لتراه بنفسك. أبي بالخارج هو من اصطحبنا هنا لأجل... نقود أراد أن يدفعها للدير... لا أعرف ماذا تُسمى بالإنجليزية... أبي هو من أراد القدوم إلى هنا لا يوسف، أبي لا يتكلم أي لغةٍ غير العربية، هو من الصعيد، ليس لنا شأن بأي معلوماتٍ أو شفراتٍ.

كانت كلماته متعثرةً، عسيرةً وركيكةً، لكنها بدت بليغةً في صدقها. كان يوسف ينظر لصديقه الذي تطوع للدفاع عنه شاكرًا بائسًا مضعضع الأعصاب، تمتم كأنه يكلم نفسه:

-أي تجنيد تتحدث عنه وأنا لم أغادر مصر بحياتي! وأي جاسوسٍ هذا يسير حاملًا شفرته فضلًا عن التوجه بها حيث أعدائه؟

راح الضابط يرمقهما ساكنًا بنظراتٍ متفحصةٍ إلى أن أوشكا على القنوط. نهض على حين غرة وأصدر أمره بفصل الشابين عن بعضهما في محبسين منفردين والتحفظ على الأب والسائق في محبسٍ ثالث حتى يتسنى له التحقيق مع كل جانب منفردًا.

ألقى كل من الصديقين نظرة فزعٍ على الآخر كأنه يفقد الأمل في الخلاص مع ذلك الانفصال، كأن وقوع الأذى غير ممكنٍ بوجودهما معًا!

لم يرَ نجيبٌ أباه وأخذ القلق عليه ينهش قلبه. *كيف تتم معاملته؟*

t.me/qurssan

قد يتحمل بصبرٍ ومشقةٍ أي مصيرٍ يُفرض عليه ويتأقلم معه، ولكن أن يُمس أبيه بأذى، مادي أو معنوي، هذا ما يعجز تمامًا عن العيش معه، ولن يتورع عن قتل من آذاه أكثر من مرةٍ لو توفرت الفرصة. هل يندم الآن لشفقته على ذلك الجندي وعدم إجهازه عليه؟

على مر تاريخه أراد نجيب أن يصلي مرات عديدة ولم يعرف كيف يبدأ، وعلى أي أرضٍ يقف بل وماذا يطلب. مغلوب من الشعور بالبعد وانعدام الصلة والحق. ورغم أن معظم هذه العناصر لم تزل إلا أن الشعور بدنو الخطر جعل الغريزة التي تعمل عادةً للحفاظ على البقاء تعمل هذه المرة لإنقاذه من المجهول المطلق! متشبثًا بالآيات التي سمعها اليوم، لم يكترث لجدارته من عدمها، أغمض عينيه كأنما يحجب عنهما كل نقائصه والحجج القائمة ضده وتضرع كما لم يتضرع منذ وطأ الحياة.

سمعتك تحدثني اليوم، أعرف أنك كنت هناك تخاطبني، لم يكن هذا وهمًا من صنع حاجةٍ ملحة في رأسي، لذلك أتحدث إليك... لم أفهم قط طرقك ولم تجذبني أبدًا وسائل التقرب المألوفة منك، لا أعرف بأي دالةٍ أحاول الآن لكني أعرف أنك لن ترفضني، لم ترفضني قط! لماذا لم أرَ ذلك من قبل؟! أرجو ألا يكون الوقت متأخرًا، أردت دائمًا أن أفهم لأعرفك... الآن أريد بشدةٍ أن أراك... لم يعد شيء مهمًا بما يكفي، اختر ما تراه ملائمًا من وسائط، أرسل ملاكًا أو منقذًا، اظهرْ لي في حلم، حدثني مجددًا، فقط دعني أراك!

***

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الختم السادس

t.me/qurssan

عادت أسِنات إلى البيت. رحب بها والداها ترحيبًا فائق الحرارة كأنها قضت عامًا في بعثةٍ خارج البلاد ، واعتذر والدها عن الذهاب إلى عيادته المسائية حتى يطيل من الوقت المتاح لهما معًا. بينما راحت أمها تلومها على قصر أجازتها وتبكتها على قلة اتصالها بها وبأبيها كأنها سعيدة مستريحة لفراقهما. الحق أن أسِنات لم تتوقع أن تفتقد أبويها، القيد الذي كبلها دائمًا. أدهشها مقدار الفرح الذي اعتراها بمجرد وصولها لأطراف المدينة وكم اللهفة التي طالعت بها الشارع والبيت. فهمت ما أحسه الابن الضال لدى عودته من منفاه الاختياري. أرادت أن تتحدث إليهما بكافة التفاصيل غير المهمة عن يومها المتكرر في شبرا. أخبرتهما عن تجاربها الجديدة أو أغلبها وتغاضت عن ما تعتقده مثيرًا للتساؤل كحضورها لورشةٍ خاصة بالكتابة في وسط القاهرة.

كادت تنسى ما كان يكدرها بغرفتها بعد أن نامت نومًا طويلًا هادئًا، فقط لتستيقظ مع تباشير الصباح على صوت آلات البناء وخلاطات الأسمنت بموقع الحديقة. وجدت نفسها تتساءل بسذاجةٍ:

لماذا لم يسألنا أحد عن رأينا؟ لماذا لم يجروا استطلاعًا للرأي بين سكان الحي ليعرفوا إن كانوا يفضلون بقاء الحديقة أم يريدون مبنى للخدمات؟ لماذا كانت تلك اللهفة المستميتة على الشروع في البناء بمجرد شراء الكنيسة وحديقتها؟ لماذا يسير كل ما حولنا، بما في ذلك أدق ما يخص شئوننا، دون أن يكترث أحدهم لمعرفة ما نريد حقًا؟ لماذا كل ما يحدث كل يومٍ وفي كل اتجاهٍ يبدو كمشيئةٍ علوية لا سيطرة لنا عليها ولا حق لنا في الاعتراض؟

وجدت في درج أدواتها شريط الأقراص المضادة للاكتئاب الذي تعمدت تركه ورائها. أخذته دون ترددٍ وألقت به في القمامة، وتمتعت بالجلوس إلى مائدةٍ الإفطار لتنتظر ما ستضعه أمها من طعامٍ كما كانت تفعل قديمًا.

t.me/qurssan

ساعات من الثرثرة الضاحكة مرت وهما جالستان بالمطبخ تعدان طعام الغذاء، لم تخلُ من بعض التوجس من الأم لما أبدته أسِنات من انفتاحٍ على روافدٍ تبدو غامضةً بالنسبة لها، فهي لا تستطيع تخيل الأماكن التي تصفها ولا الناس الذين تقابلهم. ما هي ساقية الصاوي؟ وما هى سينما زاوية؟ ومن هم الذين يحضرون تلك الندوات والعروض؟ أبدت كذلك فضولًا مستترًا تجاه فادية. كيف تمضي وقتها؟ كيف تتكلم معها؟ ماذا ترتدي؟

مزيجٌ من الحسد الطفيف والانبهار صارع كي لا يظهر على الأم التي تعرف مدى إعجاب ابنتها بتلك المرأة بكل ما لديها من استقلاليةٍ وتميزٍ ونجاحٍ وثقةٍ، لكن ما مدى أهمية كل ذلك حقًا لو انتهى بها المطاف وحيدةً بلا زوج أو أبناء وأحفاد؟ هذا المصير قد تدفع حياتها ثمنًا لإقصائه عن أسِنات، أن تتزوج ابنتها، ولا يهم ما يتبع ذلك من أحداثٍ ثانوية كالسعادة والرضا، هو محطة الوصول بعد كل الرحلات والشريط القابع عند خط النهاية لكل السباقات!

-أمي، أين توجد دفاتر جدتي التي يحتفظ أبي بها؟ وجدت واحدًا في شبرا.

-فعلًا؟! ماذا يحوي؟

-ترانيم، *كذبت دون ترددٍ*، كأكثر ما كتبته. لدي رغبة في مطالعة كل شيءٍ كتبته. أفكر في إمكانية جمعه في كتابٍ وعرضه على دور النشر المسيحية. ألا تظنين أن هذا سيسعد أبي؟

لم ترَ الأم مانعًا في إطلاعها على مكان ذخيرة أبيها من الأوراق الموروثة، خاصةً أنه تصفحها كافةً أمامها من قبل دون أي تنويهٍ بسرية محتواها، فهي ليست إلا خواطر دينية!

-لكن ذلك لا يمنع أنه من الأفضل أن تنتظري عودته لتسأليه.

-أريني مكانها فحسب.

t.me/qurssan

في المكتبة الخشبية، التي تحتل نصف الجدار بغرفة والدها وتحوي كتبًا علمية في الأغلب، كانت هناك ضلفة مغلقة والمفتاح متروك في ثقبه دالًا على عدم حرص صاحبه على إخفاء ما به. فتحتها الأم وأشارت لأسِنات قائلةً:

-هنا يوجد كل ما يخص جديكِ.

أخرجت أسِنات كل ما يوجد بذلك الموضع من المكتبة، وعلى فراشها راحت ترص وترتب كل شيءٍ. وضعت الصور وحدها، والكتب وحدها، والدفاتر المكتوبة بخط اليد وحدها.

أغوتها الصور أولًا، صورة جدتها وسط زميلاتها وراهبات المدرسة فيما يبدو كلقطةٍ تذكارية لنهاية العام. لاحظت الشبه الذي يصل لحد التطابق بينها وبين هيلانة، فسرت قشعريرة خاطفة في ظهرها وقد تذكرت الرؤيا. صورة لهيلانة وتريزة وكامل مع والديهما وهم بعد أطفال. صورة فردية لكل من كامل وهيلانة وتريزة في شبابهم المبكر. صورة لزواج تريزة وقد بدت كعصفورةٍ رقيقة جوار زوجها فارع القامة عريض الكتفين. صورة لأبيها طفلًا وقد وقف فخورًا ببنطاله القصير إلى جوار فادية اللاهية بفستانها وقد ارتص خلفهما جمع العائلة كاملًا؛ هيلانة وتريزة وزوجها جبران واسطفانوس وزوجته. هنا قفزت لفكرها ملحوظتان؛ أولهما أن هذه الأسرة كانت تحب التقاط الصور، وثانيهما أن جدها غائب عنها جميعًا لغيابه في الأجازات الصيفية التي يبدو أنها كانت وقتهم المفضل للمثول أمام الكاميرا.

لكن أين صورة زفاف جديها، نجيب وهيلانة، في هذه المجموعة؟

نحَّت الصور جانبًا وفرزت الكتب. كتبٌ لمي زيادة والرافعي وطه حسين، أسعارها مدونة بالمليم. كتب لفيكتور هوجو ورامبو بالفرنسية، ولـ ت. س. إليوت وشكسبير بالإنجليزية. كلها بحالةٍ ممتازة تنبئ باهتمام وشغف من حافظ عليها. في هوامش تلك الكتب كانت هناك دائمًا ملاحظات كتبت بخطٍ

t.me/qurssan

دقيق منظم من قبيل التأمل. عرفت فيها خط كاتبة المذكرات عدا كتاب رامبو، فقد سُجِلت في نهاية صفحاته قطعة كاملة باللغة الفرنسية، ولم تتمكن طبعًا من تخمين صاحبها.

أخيرًا ظهرت الدفاتر، سبعة دفاتر، أربعة دفاتر زرقاء، دفتر بني مستطيل الشكل، واحد أحمر داكن، وآخر أسود اللون.

فتحت الدفاتر الزرقاء أولًا. كانت جميعًا بخط جدتها. خواطر وتأملات تفسر آيات وقصص من الكتاب المقدس، خاصةً نشيد الأنشاد، وترانيم لا حصر لها. لم يكن بينها تماجيد للقديسين ولا احتفاء بالمناسبات والأعياد، شعرت بأبياتٍ معينة تلمسها بعمقٍ وتلتصق بذهنها لتتكرر تلقائيًا دون استدعاءٍ، كأنها آيات نارية خطها إيليا أو مَراثٍ كتبها أرميا. أدهشها أن تجد بينهم ترنيمتين حفظتهما منذ طفولتها في مدارس الأحد وقد عُدتا من التراث دون أن تعرف أنهما من تأليف جدتها!

هل حقق لها ذلك الرضا الكافي؟ أن تسمع ما كتبته يُنشد في كنيستها دون انتشارٍ حقيقي أو شهرة عامة؟ أن يظل ما أنتجته حبيس صفحاتٍ صفراء مهددًا بالتلاشي مع الزمن! لماذا لم تسعَ لوضع تلك الترانيم، وهي على ذلك الثراء، بشرائط كاسيت تحمل اسمها وتقيها آفة الفناء؟

أمسكت بالدفتر البني وفتحته لتكتشف أنه مخصص لتدوين النُوَت الموسيقية! كان ممتلئًا بالكامل ومدونًا بالقلم الرصاص، وفي أعلى الصفحات كانت هناك جمل مكتوبة بالفرنسية كأنها وضعت لتُغنى مع الموسيقى. تصفحته وعلامة استفهام ضخمة تملأ رأسها. لم تستطع تخمين صاحبها ولا سبب وجوده بين مقتنيات جدتها.

الدفتر الأسود كان مسودًا باسكتشاتٍ مرسومة بقلم الفحم! وجوه كثيرة، وهناك رسوم متكررة لشاب راقص في حركاتٍ عديدة متتالية تكاد تشبه الرسوم المتحركة في تناغمها، بالفعل قامت بفرها بسرعةٍ فتراءى لها الشاب

t.me/qurssan

المرسوم وهو يتحرك برشاقةٍ، ثم مزيد من الوجوه. هذا رسام مسكون بالوجوه.

جاء الدفتر الأحمر كمفاجأةٍ أخيرة. كان مكتوبًا باليد بقلم حبر أزرق، حروفه متشابكة في خطٍ أرعن متسرع، وهو من بدايته لنهايته باللغة الفرنسية!

هل هذا خط جدتها بالفرنسية؟ لكنه يختلف عن ذلك الموجود في الدفترين الآخرين، ولماذا كتبت بهذا الدفتر تحديدًا بالفرنسية؟ لقد بدا اعتزازها بالأدب العربي جليًا في مذكراتها وإنتاجها الفني، فما الذي دفعها للكتابة بلغةٍ أخرى حتى لو أجادتها؟

أعادت الصور ودفتر الترانيم إلى المكتبة وتحينت الفرصة المناسبة للتحدث مع والدها. انتظرت طويلًا حتى عودته من عمله وانقضاء فترتي الغذاء والراحة قبل أن يجلس بمقعده الخاص بالشرفة لشرب الشاي. كان العمل بقواعد الخرسانة قد انتهى فارتفعت أمام أعينهما أعمدة الحديد المسلح الرمادية بالموضع نفسه الذي ارتفعت فيه قبلًا جذوع الأشجار الحية، عندها، بعد مقدمةٍ قصيرة وهي تتجنب النظر إلى الحديقة الحجرية، شرعت في طرح أسئلتها:

-كيف كانت جدتي في شبابها؟ هل كانت حريصةً على تعليمك الفرنسية؟

بينما يُلمِّع عدسات نظارته هز رأسه قائلًا:

-لا، لقد أفادها في الواقع جهلي بها؛ لأنها كانت تتحدث بها مع خالتي تريزة حين أجلس معهما بينما لا تريد لي فهم ما يقال. بالنسبة لشبابها فقد كانت دائمًا مشغولةً بشيءٍ ما؛ كانت تقضي فترة الصباح مثلًا في الكتابة بعد أن تعطيني واجبًا لأقوم بعمله أو قصةً لأقرأها حتى في الأجازات، كانت تقول لي: "لا تدع مخك يخمل لأن الدراسة انتهت"، وكانت لدينا خادمة تقوم بأعمال الطهي والتنظيف فكانت تراقب عملها طول الوقت. كانت تريد أن تتأكد

t.me/qurssan

دائمًا أن كل شيءٍ يتم بأقصى درجة ممكنةٍ من النظافة. ربما كانت متطرفةً نوعًا ما، في الفعل ورد الفعل على السواء. أذكر عشرات المرات، بل مئات المرات، التي راحت تقبلني فيها بلهفةٍ وهي تسألني: "هل تعرف كم أحبك؟ لن تتخيل أبدًا كم أحبك"، دون أن يكون هناك سبب معين لذلك. وفي مراتٍ أخرى كانت على النقيض تصرخ كأنها موشكة على الجنون لأن شيئًا ما لم يتم كما أرادته بالضبط، سواء كان هذا الشيء واجبي المدرسي أو طريقة غسيل الخادمة للملابس، أو قدراتي البائسة على تعلم الرقص!

-ماذا؟! الرقص؟

كان سعيدًا بإثارة فضولها فتنهد قائلًا:

-حسنًا. لقد كانت إحدي نزواتها، فقد حاولت إشراكي بفريق التمثيل بالمدرسة والكنيسة لكن مواهبي التمثيلية المعدومة أحبطتها، فكان مشروعها التالي هو تعليمي الرقص الأرمني.

قلبها الآن يهدر كمحرك سيارة سباقٍ، ألجمت نفسها حتى لا يظهر عليها ما يمور داخلها من أسئلةٍ وافتراضاتٍ، وتركته يستطرد في الشرح الضاحك لمزايا الرقص الأرمني من وجهة نظر أمه.

-أول ميزة هي أن النادي الأرمني كان قريبًا منا بحكم قضاءنا الأجازة الصيفية بشبرا، والثانية أنه يقوم غالبًا على الأداء الجماعي ومن ثم لن أعاني من تسليط الضوء عليّ.

-وماذا حدث؟

-لم أتعلم شيئًا بالطبع. كانت الحركات في غاية البساطة والسهولة، ومع ذلك، فقد لويت كاحلي في التدريب الثاني. أعتقد أن تلك كانت من أسعد الحوادث التي أصابتني. لا تتعجبي، كنت أشفق من مصارحتها بنفوري من فكرة الرقص إجمالًا حتى لا أزيد من خيبات أملها المتعددة فيّ. كان صعبًا عليها تقبل فكرة أني لست موهوبًا بأي مجالٍ فني. لقد حاولت تعليمي الرسم

t.me/qurssan

والموسيقى وشجعتني على القراءة الأدبية لعلّي أكون كاتبًا، لكني لم أفلح في أي من تلك المحاولات.

آلمها ذلك الضحك المرير الذي يقص به أبوها طفولته، كان صوته يقطر وجعًا، كأنه لا يزال طفلًا يشكو من عدم ارتقائه لتوقعات أمه فيعاقب نفسه بالسخرية منها.

-لابد أن ذلك وضع عبئًا على كاهلك، وماذا كان رأي جدي في هذا الموضوع؟

-لا شيء. لم يكن له أي رأي بشيءٍ تراه هي صائبًا. لا أذكر أنه عارضها يومًا فيما تفعله أو تقوله أو حتى عَقَّبَ عليه، كأنه لا يملك الحق لذلك. ظننت أن هذا هو الطبيعي حتى كبرت نوعًا ما وصرت أعرف ما يحدث في البيوت الأخرى ويناقض بالكامل ما يجري عندنا. أسخطني في مراهقتي أن أعرف ما الذي يوصف به من هم على شاكلة أبي، تعرفين تلك السمات المقررة سلفًا مثل الخنوع، ضعف الشخصية أو حتى انعدام الرجولة، لكن تلك لم تكن قناعتي، فلنقل أنها لم تبقَ كذلك طويلًا، لا يعدو الأمر أنه كان يحبها! حبٌ كذلك الذي نقرأ عنه ونتمناه ونحن نعلم أننا لن نجده، حب "مبالغ فيه " برأي البعض! فعلى عكس الشائع كان هو من يتحمل غضباتها بهدوءٍ وينتظرها حتى تسكن عاصفتها، ليتعامل بعدها كأن شيئًا لم يحدث... هل مللتِ؟

-أكملْ! *قالت حاسمة.*

-كانت تنتظر منه الكثير مثلي على ما أعتقد، سمعتهما يتحدثان مرارًا عن العودة للإقامة بالقاهرة واستئناف الحياة هناك، هي مناشدةٌ مطالبة وهو متنصلٌ رافض! كنت أتخذ جانب المساندة لأبي في هذه السجالات لعدم رغبتي في تغيير مقامي والابتعاد عن أصدقائي كسائر الأطفال، لكن الأجواء كانت تنقلب مكفهرةً دائمًا عقب الخوض بذلك النقاش. ولم أفهم أبدًا السبب في كراهية أبي للقاهرة، لكنها هي الأخرى لم تكن تتحمل حزنه طويلًا،

t.me/qurssan

ما أن يسير مطاطئ الرأس واجمًا حتى تجري كطفلةٍ مذنبة تقبل يده ورأسه وهي دامعة... هكذا كانت حياتنا، مليئة بالمفارقات المجهدة عاطفيًا إلى حد الإعياء. لذلك أردت أنا حياةً مختلفةً تمامًا لنفسي، بها أكبر قدر من الهدوء والرتابة إن أمكن.

أخذت نفسًا عميقًا وزفرته بقوةٍ، قالت:

-كيف كان هو إذًا؟

-كان يملك عددًا من الأصدقاء لا أظنه توفر لشخصٍ آخر. أنشأ معهم ما يشبه الصالون الثقافي لعزف الموسيقى وقراءة الشعر، وذهب معهم في رحلاتٍ غريبة مفاجئة يتراوح مداها بين الأقصر والإسكندرية. لم نعرف أبدًا متى ستكون الرحلة التالية وإلى متى ستطول، وذلك كان من أسباب بُعده عن اتخاذ القرارات لحياتنا اليومية في تفاصيلها، وجعل أمي عصبيةً متوترةً أغلب الوقت. كلما بدأ ترحاله مع شلته الخاصة من الحرافيش، على طريقة نجيب محفوظ. ترك مزرعته في رعاية صديقه، الأقرب على الإطلاق، علي مصطفي، جارنا الساكن بالبيت المقابل لنا.

نظرا معًا إلى البيت المقصود المطل كذلك على فناء الكنيسة قبل أن يستطرد:

-كان هو من اقترح فكرة التوسع في الحديقة القديمة، بعد أن كانت قاصرةً على بعض الخضر البسيطة التي تستخدمها الراهبات، وتولى هو وأبي تنفيذ الرؤية معًا. كل شجرةٍ وفسيلةٍ بتلك الحديقة كانت من غرس أيديهما. ظل المهندس علي يعتني بها بانتظام في الأجازات، وحين أقعدته ظروف السن عن ذلك أحضر للكنيسة بستانيًا من مدرسة الزراعة للقيام بدوره.

-لم تخبرني أبدًا أن المهندس علي كان مشاركًا لجدي في إنشاء الحديقة.

-ما الفارق؟ مع مرور الوقت لا يتذكر أحد من صنع ماذا رغم بقاء ما صنعه مؤثرًا وفاعلًا. ما علينا، نعود لجارنا عمو علي كما كنت أناديه، كانت ابنته

t.me/qurssan

تصغرني بعامين، بطة، أقصد فاطمة. كانت تحب أبي لحد الهوس، وتفضل الجلوس معه بصحبة أبيها على اللعب مع أطفال الشارع.

-أتقصد طنط فاطمة؟ أستاذة كلية صيدلة؟

-نعم، ألا تصدقين أنها كانت طفلةً كسائر البشر؟

-ليس هذا هو الصعب تصديقه، لكنها لا تبتسم أبدًا!

-لكنها لم تكن تبتسم بتلك الكثرة أيضًا فيما مضى، فقط عندما ترى أبي وتجري لتجلس في حجره. كنا جميعًا، أطفال الشارع والشارع المجاور، نتجمع للعب في الحديقة. اعتاد الكاهن الفرنسي راعي الكنيسة أن يوزع علينا الحلوى أحيانًا والفاكهة من الحديقة في أحيانٍ أخرى. كنا نناديه عندما نصل: "مون بير! مون بير!"، فيخرج بهداياه مُرحبًا. أما هي فإن وجدت أبي ببيتهم تظل ملتصقةً به عازفةً عن مشاركتنا. سألها والدها مرة عن سبب حبها الشديد لصديقه فأجابته ببراءةٍ:

-لأنه حلو!

تذكرت السؤال الذي ومض بذهنها سابقًا فقالت:

-لماذا لا توجد صور لجدي هنا أو في شبرا؟

-لم يحب التصوير أبدًا. كان هذا محل خلافٍ آخر بينه وبين أمي، حتى صورة الزفاف لم تتم. رفض استدعاء المصور إلى البيت وقت الفرح وأخبرهم أنه سيرحل بمجرد دخوله من الباب!

-ولكن، هل كان بهذا القبح؟ أم أنه كان مصاص دماءٍ يخشى انكشاف أمره؟

أضافت النكتة الأخيرة لتخفف من توترها.

-قبيح! لقد كان جميلًا. الآن أتأسف لعدم نجاحي في تعلم الرسم، وإلا لرسمته لأجلكِ حتى ترين بنفسكِ كم كان جميلًا، حتى بطاقته الشخصية التي تحوي صورته الوحيدة تَلِفَت منذ زمنٍ. أعتقد أنه كان صاحب خبرةٍ

t.me/qurssan

سيئة مع المصورين عامةً والأرمن منهم خاصةً! فقد كان المصور الخاص بأسرة أمي أرمنيًا.

حاولت ألا يظهر اضطرابها وتنفست عميقًا قبل أن تسأل:

-من صاحب الرسومات الموجودة بذلك الدفتر البني بالمكتبة إذًا؟جدتي أم جدي؟

-الدفتر كان لأبي لكنه لم يرسم تلك الرسوم، صديق له فعل، وصديق آخر هو من دون تلك الألحان بالنوتة الموسيقية. ألم أقل لكِ أن أصدقاءه كانوا بلا عدد؟

-والدفتر المكتوب بالفرنسية... لمن بالضبط؟

-لصديقٍ ثالث على ما أذكر، لكني لم أعرف أبدًا ترجمة المكتوب ولا محتواه. أحتفظ بتلك الأشياء لأنها كانت ذات قيمةٍ لأبي ولم يفرط بها، لكني لم أعرف يومًا أصحابها الحقيقيين. تُبدين اليوم فضولًا تجاه ماضي أسرتنا أعظم مما بدا منكِ بعمركِ كله.

-ماذا حدث بغرفة جدتي في تلك الجلسة، عندما كنت في السابعة؟

نظرا لبعضهما نظرةً مغايرةً عن كل ما تبادلاه من قبل، كأنهما يتصارحان بشيءٍ يعرفه كلاهما دون كلماتٍ ومرت ثوانٍ ثمينة محملة بالأسئلة. خلع أباها نظارته وهو يبتسم رافعًا رأسه للسماء، والشمس على وشك الذهاب تاركةً خلفها تلك العتمة البرتقالية، تنهد عوني قائلًا:

-لقد سألتُ دومًا عن كنه الشيء الذي ربما يكون قد حضر في تلك الليلة وتلقيت إجاباتٍ شتى؛ فالكاهن قال أن ما يحضر بتلك الجلسات لا يمكن أن يعدو كونه شيطانًا، وهناك خادم أخبرني أن الملاك قد يحضر فعلًا فقط لعقاب من يسحر بالمزامير، وهناك من قال أن روح خالي كامل نفسه هي من حضرت ولم نستطع نحن صرفها، فحاولتْ التواصل معنا في السنوات اللاحقة! الخلاصة أن هناك شيئًا حضر بالفعل وغيَّر تلك الغرفة.

t.me/qurssan

لم أصدق الآراء التي حاولت إقناعي بتوهمي للأمر برمته. من نافلة القول أن كلا من أبي وأمي قد مات فيها بعد ذلك.

-كيف مات فيها جدي؟ ألم يُتَوَفَّ هنا؟

-نعم. لم يتوف هنا... بعد ضغطٍ طويلٍ من أمي ذهب إلى القاهرة لحضور حفل تخرجي في كلية الطب. كان بخيرٍ، وإن بدا متضررًا للعمق مما لحق بالعاصمة من تبدلٍ وتشوهٍ، إلى أن دخل حرم الكلية حيث مكان الحفل وتسلم الشهادات، جلس واجمًا متسع العينين كمن يرى شيئًا مخيفًا. لم يتكلم كلمةً واحدةً طوال وجوده هناك، وبدت أمي نادمةً لأنها أجبرته على المجيء. كان هناك حفل عشاء بعدها لكنه اعتذر عن حضوره وعاد إلى الشقة بشبرا وحده متعللًا بصداعٍ. في تلك الليلة ظل هادئًا متنحيًا عن الحديث عدا تهنئةً عابرةً لي وابتسامةً مفتعلةً لأمي. كانت خالتي وزوجها وفادية حاضرين، وكذلك جدتي، لكن أحدهم لم يستطع استدراجه للتعليق على أي موضوعٍ، كان يجيل عينيه في كل ركنٍ بالشقة متحققًا منه إلى أن تثبتت عيناه على صورة خالي كامل، لاحظت جدتي ذلك فأنشأت تتحدث عن خالي وكيف كان سيصبح طبيبًا نابهًا لو عاش لذلك اليوم. وهنا اكفهرَّ أبي واصفرَّ وجهه وراح يرمقها مبهوتًا قبل أن يتمتم :"لم يكن مفترضًا به أن يموت"، ثم نهض ليخبرنا أنه يريد النوم، ومع توزيع الموجودين على الغرف المتاحة نام هو وأمي في غرفتها، وفي الصباح كان قد فارق الحياة.

ما تعجبت منه أسِنات هو رغبة جدتها في العودة إلى البقاء بتلك الغرفة التي مات فيها زوجها متنازلةً عن شقتها لابنها ليتزوج فيها! أين يفضل المرء قضاء سنواته الأخيرة؟ في المكان الذي شهد أفضل أم أسوأ ذكرياته؟

-لم تعد أمي بعدها للإقامة في المنوفية، ولم أرها فرحةً كسابق عهدها أبدًا. حتى يوم زواجي لم تُبدِ فيه السعادة المتوقعة. شيء واحد فقط تحمست له بقدرٍ هائل... مولدكِ أنتِ!

t.me/qurssan

-أنا؟
-هي من أعطتكِ اسم أسِنات في الواقع، أتعرفين هذا؟
***
عادت أسِنات إلى الشقة محملةً بما اعتبرته إرثها وحدها، وضعت الدفاتر السبعة داخل منضدة الكتابة وانتظرت عودة فادية متخيلةً وقع المفاجأة عليها. وفي تلك الأثناء فتحت اللابتوب لتقرأ ما كتبته في مشروع القصة. مسحت بضعة سطورٍ وجدتها مصطنعةً ثم عاد الهاجس المسمى يوسف إلى عقلها. تشابكت الأسئلة ما بين الحيرة والخجل، لقد ظلت جدتها تذكر الفتى الأرمني الراقص، حاولت تعليم ابنها أن يشبهه، بل شجعته على دخول الطب ، أم أن تلك مصادفة؟ ، ليكون طبيبًا مثله! كيف يتسق ذلك مع ما يصفه أبوها من شغفٍ متبادلٍ بين جديها؟ هل جمع قلبها بينهما، يوسف ونجيب؟ ماذا لو كان يوسف محض خيال؟! بطل لقصةٍ لم تحدث قط،ابن خيالها الأدبي الخصيب ونتاج الجوع العاطفي الذي عانته مراهقتها؟
راحت تنفي الأفكار اللامعقولة وهي تتذكر قصة "نادي القتال" والبطل الذي اتضح أنه مجرد وهم برأس البطل الآخر، لكن ما سبب حساسية جدها من الأرمن إذًا؟
وجدت فادية أمامها فجأةً فاضطربت، لم تسمع صوت دخولها إلى الشقة من فرط انهماكها بالتفكير.
-ما هذا الحماس؟ تعودين للعمل مباشرةً من السفر! هل حضر الإلهام؟
-انتظري حتى ترين ما عدت به.
جلستا على الفراش تتصفحان الدفاتر، اهتمت فادية بشكلٍ خاصٍ بالنوتة الموسيقية وراحت تدندن المكتوب فيها. سألتها أسِنات:
-جيدة جدًا! ممتازة! وإن كانت تبدو مألوفةً. أليس كذلك؟

t.me/qurssan

-إنها من أشهر مقطوعات عبد الوهاب في الأربعينيات. صعبٌ أن يتعرف عليها جيلكِ. لكن هذه الأبيات المصاحبة بالفرنسية، إنها أجزاء من نشيد الأنشاد! ما الذي جمعهما معًا؟

-رائع، هلا قرأتِ إذًا المكتوب هنا ما دمتِ تقرأين الفرنسية بتلك السهولة؟

أعطتها الدفتر الأحمر فراحت تتصفحه من أول لآخر صفحة دون أن يبدو عليها انفعال ما. نظرت للصفحة الأخيرة حيث التوقيع وقالت بصوتٍ واضح:

-آرام ديكران. إنها مذكرات أرمني آخر يا أسِنات.

ولجتا إلى عالم جوجل تبحثان عمن حمل اسم آرام ديكران، فعثرتا على ثلاثة أشخاصٍ؛ سياسي كردي، مغني أرمني، ورسام عاش في مصر!

"ولد آرام ديكران بالقاهرة سنة١٩٢٠ لأبوين من فقراء الأرمن. توفي والده بالسل الرئوي وهو في التاسعة ولحقت به زوجته بالمرض نفسه بعد عامٍ واحد ليتركا ابنهما يتيمًا دون أقرباء أو مصدر إعاشة وهو بعد في العاشرة. كان مصيره المفترض هو الانضمام إلى ملجأ أيتام الأرمن، لولا أن رجل أرمني متيسر، كان يعرف والديه، أشفق عليه وتكفل برعايته في منزله. عاش ديكران في بيت الصيدلي المحسن في غرفةٍ واسعة أعلى السطح، واختلف إلى المدارس الفرنسية بصحبة ولده الوحيد الذي يماثله في العمر. تكشفت موهبة آرام في الرسم مبكرًا فآثر ولي نعمته أن يرسله لدراسة الفن بأكاديمية جوليان بفرنسا. وبالفعل بقي هناك لشهورٍ عدة قبل أن تنشب الحرب العالمية الثانية فيعود إلى مصر خوفًا من نيران الحرب.

انتظم ديكران بمدرسة الفنون الجميلة بالقاهرة وشارك في صالون القاهرة السنوي للفنون، لفت نبوغه أنظار المهتمين بالفن فذاعت شهرته في زمنٍ قياسي بين جامعي اللوحات من الأثرياء المصريين والأجانب، تبع ذلك أنه لم يعد لمتابعة دروسه بل صار هو يعطي الدروس لمن يحتاجها. راح بعض الأساتذة يرجعون سبب نجاحه السريع وتفوقه عليهم لإعجاب الإنجليز به

t.me/qurssan

فقط، خاصةً السفير البريطاني المعجب بفنه والذي يفضله عن المصريين. لم يكن منه إلا أن قابل تلك الإشاعات بالتعالي والعدوانية الشديدة في الرد، لكنه في النهاية شعر بالضيق من الوسط الفني المعادي؛ بين الاتهامات بالرجعية في مدرسته الفنية والصداقة للإنجليز، ولم يخفف من غَلْوَاء تلك الحرب توظيفه لرسم صورٍ شخصية للعائلة الملكية نفسها، ويبدو أن الملك فاروق قد غضب منه لسببٍ غير معروفٍ، فعجل ذلك برحيله عن مصر نهائيًا بأوائل عام ١٩٤٣ واستقراره في بريطانيا إلى أن توفي هناك عن عمر يناهز الخمسين في عام ١٩٧٠.

ترك آرام ديكران خلفه لوحاتٍ عديدةً، توجد جميعها الآن بمتحف الفن الحديث بالقاهرة ويمكن لمن يشاهدها أن يدرك حجم موهبة ذلك الفنان بغض النظر عن أي لغطٍ أثير حوله."

-لقد توفي بنفس عام رحيل جدي!

قالت أسِنات مستنكرةً الصدفة.

تطلعت فادية لأسِنات قائلةً بلهجةٍ جادة:

-غدًا ستبدأ أجازتي السنوية، وسأجعل ترجمة تلك المذكرات هي مهمتي، وعندما ننتهي منها سنذهب معًا لرؤية أعمال ذلك الرجل بالمتحف، ما رأيكِ؟

-حسنًا، ستقرأين الترجمة وأنا سأدونها كتابةً على اللابتوب، فقد أتقنت استخدامه أخيرًا.

-فلنبدأ!

***

t.me/qurssan

مخطوط آرام ديكران

"جماعة الفن والحرية هي الصيحة والميزان الآن."

احترافيًا كان لابد لي من متابعة أعمالهم. أجدها طليعيةً للغاية، وأعتقد أنهم لا يكنون احترامًا كافيًا لفني البرجوازي المتخلف!

يوسف مثلي، لا يتقبل فرض الأيديولوجيا على الفن، لكنه يتفهم انعكاس العاطفة، الثورية كغيرها، على عمل الفنان، فقط لارتباط العاطفة بالفن ارتباطًا مشيميًا على حد قوله.

حاولنا أن نتناول بعض الأعمال الكلاسيكية بالتحليل الفرويدي من باب التمرين العقلي، وحاولتُ بيني وبين نفسي أن أطبق مقاييس فرويد عليّ وعلى الآخرين، فأصابني الهلع. واحدة كأنوش مثلًا سنستنتج أنها تشتهي يوسف في عقلها الباطن.

أنوش تقتات عليه حرفيًا، ما أن تسمع وقع أقدامه صاعدًا أو هابطًا السلم حتى تسرع بفتح بابها مستوقفةً إياه: "هوفان...كيف تجعلني أنتظرك كل هذا الوقت؟ تعالَ لتتناول عشاءك. هوفان، لقد ابتعت لك سترةً شتوية جديدة وأنت لم تجربها حتى الآن".

وهو يجيبها دائمًا كأن لديه كل الوقت في العالم، وكأنها أمه، لم أكن لأحتملها أسبوعًا واحدًا وهو يفعل ذلك منذ سنوات لا يذكر عددها. ابنها الذي مات نفسه لم يكن ليحتمل جنونها لكن هو يفعل، ربما لذلك لا أستحقه. آآآه يا يوسف! هلا ترأفت بي كما تترأف بجنون أنوش؟

أيام عديدة تمر دون أن أراه، بسبب تلك الكلية اللعينة وتدريبات الرقص؛ فأتذكر تاريخنا الخاص ليؤنسني، أتذكر ذلك الكائن اللطيف الذي أعطاني عربته الخشبية لألعب بها في أول ليلةٍ لي هنا، المرشد الذي اقتادني للعب مع صغار الحي مدافعًا عن صمتي ووجومي ضد سخريتهم وقسوتهم. كم أردت

t.me/qurssan

بشدةٍ أن يموت كل أصحابه حتى لا يبقى لديه سواي، لكني لم أستحق تلك المعجزة طبعًا!

أذكر بمنتهى اللذة تهلله لرؤية العصافير التي رسمتها، في تلك الحقبة لم أرسم سوى العصافير، ظل يقول لدكتور أرتينيان :"آرام فنان، آرام عبقري، يجب أن ترى رسومه يا أبي!". مضى يخبر كل من يقابله بموهبتي؛ والديه، المدرسين، أراخنة الكنيسة، وأنا صدقته. ربما صرت فنانًا لأنه أراد ذلك بشدة، كما وُجد العالم بعد النور،أنا لم أوجد إلا بعده. تكونت شيئًا فشيئًا من سماع صوته مغنيًا، تشكلت من رقة كلماته المشجعة والمصرحة بالحب.

هلا ظهرت الآن؟ لم أعهدك قاسيًا، أكان يجب أن تصير طبيبًا أيضًا؟ كنت على أتم استعداد لمصارحة أبيك بدلًا منك بعزوفك عن الطب، لكن ذلك كان كفيلًا بإغضابك، لذلك لم أفعله. غضبك عندي أهول شأنًا من غضب راسل باشا حكمدار العاصمة لعدم انهاء لوحته في موعدها.

غيابك الآن يعيد إليّ ذكرى باريس السوداء، الشهور التي قضيتها بعيدًا عنك. لم أتصور قط أنني يمكن أن أحنق من دكتور أرتينيان إلى أن أصر على إرسالي هناك، بت ألعن ثقل جميله المعلق برقبتي، كأنه بإصراره ذاك كان يقول: "لقد آويتك وأطعمتك وعلمتك، لذلك يحق لي الآن أن أسلب منك روحك". هل كان ليراني مختلًا لو عرف بدخيلتي؟ لو أني صارحته قائلًا: "سيدي، لا أستطيع الحياة بعيدًا عن يوسف"، ماذا كان ليستنتج سوى أنني أوسكار وايلد آخر بمهنة رسام؟ كيف سيفهم أني لا أشتهيك لكني أعيش بك؟

في حياةٍ سابقةٍ كنا شخصًا واحدًا يا يوسف، وفي هذه الحياة فُصِلنا، كل ما هو جميل ونقي وخَيِّر اجتمع فيك، وكل ما هو ناقص وبائس وشرير اجتمع فيّ. أترى أي مصيرٍ تافهٍ سأصيره من دونك؟

****

t.me/qurssan

أخيرًا ظهر!

انقضى الحفل الراقص بسلامٍ، وإلى أن يلوح حفل موسيقي وطني آخر في الأفق سيكون بوقته متسع للوجود معي.

كان جديرًا بقضاء وقته كله معي لو أن هناك إنصاف في هذه الحياة. كان أبوه سيدعه يمتهن الموسيقى كما يرغب،أنا أرسم وهو يغني ويعزف، نطأ كل الدروب ونفتح كل الأبواب معًا، كنا لنصبح عصبةً بوهيميةً لا تكترث أو تحتاج لشيءٍ أو أحدٍ، لكن وأسفاه، صرت مضطرًا لاختلاسه منذ انتظامه بتلك الدراسة التي لا ينتمي لها وأشعر أنها تقتله بهدوءٍ.

لدي الآن خطة، سأرسم له صورةً. لن يطاوعه قلبه على الرفض وسيختلق الوقت اللازم للجلوس أمامي حتى أعمل، ربما أستغرق شهرًا في النموذج الأولي ثم لا يعجبني فأتلفه وأبدأ من جديد! هذا غش لكني مجبر عليه لسلامي المعنوي.

***

تلك اللعنة المسلطة عليّ... كيف أنجو؟

جميلة هي كما ينبغي أن تكون التجربة! ويزيد من تعلقها بي أنها تظن تمنعي عنها خجلًا وحياءً.

صار لها الآن عشرة أيام تلاحقني وتعرض عليّ بسخاءٍ ما أريد تمامًا الحصول عليه، لم أعد قادرًا على الهرب، يجب أن أنالها وإلا جننتُ.

***

هي مرة ثانية وثالثة ورابعة، ألتذ بالهروب منها وأشتهي السقوط معها.

لو أني أجد يوسف لأحكي له! قد أستطيع المقاومة حينئذٍ.

***

t.me/qurssan

لا يعادل اشتهائي لها سوى اشمئزازي الشنيع منها ومني معًا! لا أصدق ما حدث؟ كل ما كان يثير قرفي، منذ سنواتٍ قليلة كصبي، لمجرد التفكير به تحول لمتعةٍ جنونية!!
ما أن انفردنا بتلك الشقة حتى اشتعلت بنا نارٌ آكلة، لم أكن أعرف أني سأكون عنيفًا معها على تلك الصورة، لكنها لدهشتي تحب ذلك!

***

نكاد نشبه قطط الشوارع عدا أنه لا موسم معين للتزاوج عندنا، فكل الأوقات مناسبة، ويكفي أن تنظر لي أو تلمسني لكي أشتعل وأنسى كل شيءٍ عدا الحصول عليها.

***

تلح ثانيةً كي تأتي إليّ في غرفتي وأرفض.
هي لا تفهم أني أسكن بمنزلٍ عائلي يسمع كل فرد به تحركات الآخرين بسهولةٍ، لكن هذه أتفه الأسباب. كيف تدخل هنا وتدوس مواطئ قدميه؟ بل كيف تنام عاريةً على الفراش الذي يستريح عليه وهو يقص عليّ حوادث يومه؟ هل كنت لأنقاد لها على تلك الصورة لو ظل على قربه مني؟
يرعبني أن أفكر في احتمال اكتشافه لما أقترفه بعيدًا عنه. منذ أعوامٍ خلت أمسك يدي اليمنى وقبلها قائلًا:
-إنني أُقَبّلُ العبقرية التي تبث الروح في الجماد وتحييه.
ماذا سيقول لو رأى ما تفعله هذه اليد بجسدٍ عارٍ منقادةً بالشهوة الحيوانية العمياء؟ سأقتل نفسي قبل أن أرى احتقاري في عينيه.

***

زار المعرض اليوم كلٌ من الوزير المفوض الأمريكي والسير لامبسون. اشترى الأخير لوحتي المفضلة وأبدى إعجابه بعملي.

t.me/qurssan

يوسف متحمس للغاية ويرى ذلك بمثابة بروباجندا من أجلي بين الجاليات الأجنبية كلها، خاصةً المتحالفة منها، كما أن المال لم يعد يشكل أزمةً بالنسبة لي، لكني لا أكترث، يكفيني أنه فخور بي.

***

تلك الحمقاء تريدني أن أرسمها عاريةً. أخبرتها صادقًا أني لم أرَ قط جمالًا في الجسد المجرد! الوجوه هي محور إلهامي والعيون هي فتنتي الكبرى. تعتقد بعقلها الحيواني الضئيل أن جسدها جميل ويستحق التخليد. هي لا تدرك أن اشتهائها، الذي أندم عليه بمجرد تركها، شيء وتقديسها برسمها شيء آخر تمامًا وبعيد عن نوالها. هل يرسم المرء طعامه وإفرازات جسده؟!

***

يبدو أني تورطت فيما يفوق قدراتي. ما الذي يحدد النسب المثالية التي تُعرِّف الجمال؟ ربما يعرف كل رسام في العالم الإجابة الخاصة به، لكني عاجز وساخط.

كيف، بحق كل ما هو مقدس، أضع هاتين العينين المسكونتين بالملائكة على قماشة؟ نظرته تلك تزري بموهبتي وابتسامته تتحداني بكل البراءة الباقية في العالم. أنظر إليه و أجده متواضعا أمامي في استسلامٍ متطلعًا إليّ برقةٍ، فأكاد أبكي طالبًا منه أن يحول عينيه النقيتين عني وألا ينظر إليّ.

***

لم يغضب عندما أخبرته أني أتلفت ما رسمته للمرة الثالثة. انقلب السحر على الساحر وما خططت لفعله متعمدًا فعلته رغمًا عني. لم أحقق حتى واحد على الألف مما تخيلته. بدا متعجبًا من لهجتي المحبطة القانطة فسألني:

-هل هذا يعني أننا سنبدأ من جديد أم أنك ستقلع عن المحاولة برمتها؟

أجبته صادقًا:

t.me/qurssan

-ربما يجب أن أؤجل محاولة رسمك حتى أصبح أعمق خبرةً، لا أعرف كيف أشرح هذا... وجهك يتغير في كل لحظةٍ وأعجز عن الإمساك به... ربما أكون قد حاولت مبكرًا جدًا.

لم أخبره أني ربما لم أكن نقيًا بما يكفي لأستطيع رسمه.

ضحك... لقد ضحك العزيز الغالي قائلًا:

-لا أفهم أبدًا شطحاتك هذه يا آرام.

لهذا أعشق الفرنسية، اللغة التي نتحدث بها معًا منذ كانت سيمون تقص بها حكايات إيسوب ثم تجعلنا نقصها مجددًا لتدريبنا عليها.

***

لا جديد.

***

قال إنني الوحيد الذي يُسْمِعه القصيد السيمفوني. طلبت منه أن يعيد عزفه مرة أخرى فأسعده استمتاعي. هذه المرة أخبرته بالضبط ما أشعر به:

-أنت تختارني أنا لأكون من يسمع لحنك الأول... هذا يعني لي أكثر من أي شيءٍ . هذه المكانة لي عندك لا يعادلها أي مغنمٍ آخر قد أحصل عليه، لا شهرة شخصية ولا نجاح مادي ولا صيت ذائع قد يعوضوني عن... علاقتنا، كلانا ضد العالم، الرسام والموسيقار، عذرًا لأني لن أراك طبيبًا أبدًا حتى لو صرت كبير أطباء القصر العيني.

ابتسم قائلًا:

-كم أنت رقيق يا آرام! دعك من هذه النظرة الدرامية بالله عليك.

كم أنت حبيب! أخجله تدفق مشاعري في الحديث، لو يعلم كم لا أستحقه وكم يتنازل عندما يصطفيني كأخيه، روحه البيضاء تمامًا لن تتخيل ما حاق بي من تلوثٍ.

***

t.me/qurssan

يا لطرافة سيد درويش معزوفًا بواسطة البيانو! لم أكن لأظن هذا لكنني استمتعت به، يوسف دائمًا محق، لكني لا زلت لا أحب عبد الوهاب.

***

لم أفهم اليوم نصف كلامه، فبداياته غير متصلة بنهاياته. إنه مندهش من كم الاستقطاب السائد في كل مكانٍ، فعلى حد قوله:

-عليك الآن لتكون موجودًا أن تنتقي خندقًا لتحتمي به؛ هذا الخندق قد يكون حزبًا أو فكرةً أو عقيدةً أو حتى جنسيةً معينة، تدريجيًا يصبح هو ماهيتك نفسها، ثم بعد ذلك تكرس كل قواك لكراهية ونفي وتحقير كل من لا يعجبه خندقك أو لا يتحمس له حتى الموت. لقد جن الجميع... أنت مكتفٍ بالرسم هنا ومنقطع عن الخارج وما يدور به... الوفديون يبادلون السعديين الكراهية، وكلاهما يكره الدستوريين الأحرار، الإخوان يمقتون الأجانب والشيوعيين، الشيوعيون منقسمون لأتباع تروتسكي وستالين، أتباع مصر الفُتاة يريدون وأد أي تبادلٍ حضاري طبيعي بشكلٍ أقرب للعنصرية، البريطانيون يحكمون الشعوب بالقوة ويسمونها بالتخلف ثم يطالبونها بالمحاربة في صفهم من أجل الديموقراطية، الألمان يحتقرون البولنديين والغجر واليهود، والروس يريدون إشعال الثورات والتخلص من الحكام بنصف الكرة الأرضية. ماذا يفترض بي أن أفعل؟ أختبئ حتى يزول الشر؟ ماذا لو جاءني زائرًا رغمًا عني؟ أبي يخبرني أن أصلي لأجل أعدائي، فهل يكفي هذا؟ أخبرني أنت... متى غيَّر القديسون العالم؟

أجبته دون تفكيرٍ:

-القديسون لا يغيرون العالم لأنهم لا يعيشون به. البؤساء والمقهورون يغيرون العالم، المجانين والانتحاريون ربما، لكنك لست بحاجة لأن تكون أحدهم لأن وجودك وحده يجعل الحياة أفضل.

t.me/qurssan

لم يبتسم كعادته، كان مشغول الفكر. اقترحت عليه أن نذهب للأوبرا لقضاء الأمسية فأجابني بأن يومه كان طويلًا جدًا وأنه مرهق كحصانٍ صعد جبلًا جارًا عربة. مدد جسده على الفراش ثم استطرد فجأةً:

-لقد تحدثت اليوم لأول مرةٍ مع زميلٍ لم تكن لي صلة به من قبل. أتعرف كيف يبدو أحدهم أكثر نضجًا من المحيطين به بشكلٍ لافت؟ هو دائمًا هادئ، يبتسم، لا يضحك إلا لمامًا. لا ينفعل بينما من حوله يشتعلون حماسةً أو غضبًا، كثيرًا ما يفتح دفتر المحاضرات ويأخذ في تدوين شيءٍ ما بسرعةٍ كأنه يمسك بتلابيب إلهام موشك على الهرب. أعتقد أنه يكتب، لا أعرف ماذا يكتب تحديدًا لكني متأكد أن ما يكتبه لا يتعلق بما ندرسه.

وأنا من كنت مطمئنًا لسطحية علاقاته بالكلية، من يكون هذا الذي حاز انتباه يوسف لتلك الدرجة؟

-فاجأني ما بدا على وجهه اليوم في المشرحة، لقد حافظتُ على تماسكي بإقناع نفسي أننا نشرح نموذجًا صناعيًا وليس جسدًا ميتًا. أما هو فكان في حالة صدمةٍ، هلعٍ، تخلى عنه وقاره المعتاد وهرب لونه حتى خفت أن يسقط مغشيًا عليه. لا أعرف كيف صمد للنهاية، لكن ما أن انتهى الدرس حتى انطلق هاربًا بالمعنى الحرفي، كأنه... كان يعرف صاحبة الجثة معرفةً شخصيةً، أو كأنه يشعر بذنبٍ ما. وجدت نفسي ألاحقه جاريًا في الشارع حتى أمسكت به. كان قاب قوسين أو أدنى من البكاء، أما ما قلته له فلم يكن بإعدادٍ سابق ولا أدري ما وضعه على لساني، كأن روحًا تلبستني لتتحدث إليه. قلت له أن يبكي كالمسيح وينتظر المعجزة. لماذا قلت ذلك؟ أتعرف أنه يشبه كثيرًا الصور الشرقية للمسيح؟ عيون سوداء كبيرة ووجه مرهف مسحوب وشعر ناعم داكن، جميل، أدرك ذلك الآن.

***

t.me/qurssan

ها أنا أحاول للمرة العاشرة وأفشل. قلت إني لن أراها مجددًا ثم فعلت. أقسمت أني لن أضعف ثانيةً، وسقطتُ.أما من نهايةٍ لتلك الآفة البغيضة بروحي؟ لماذا خُلِقت على تلك الشاكلة؟ لماذا لم أُمْنَح ما لدى يوسف من ترفعٍ واكتفاءٍ وجسدٍ لا يتلظى بالرغبات؟ لماذا أنا عاجز لتلك الدرجة عن مقاومتها رغم ما أكنه لنفسي من احتقارٍ عميقٍ بعد النوم معها؟ ولماذا، بحق الجحيم، أحلم بها في نومي؟

***

ها هو العقاب يأتيني دون تأخيرٍ. يوسف يتحدث مجددًا عن كامل، ياللسخرية المُرة في ذلك الاسم! كأن أبواه قد سمياه بهذا الاسم فقط لإغاظتي والتعريض بنقصي الفاضح.

***

لم أصدق حتى وجدتُ الأقراص بين يدي، تناول كل منا قرصًا وابتلعناه في اللحظة نفسها. مَرْآه على هذا النمط من التوتر والتحفز أثارني لدرجةٍ غير مسبوقةٍ. إننا نُجري تجربةً حيةً على جسدينا وننتظر النتيجة، سنعرف الليلة ما هو أثره، ولماذا يطلبه الكثير من الطلبة من والده في مواسم الامتحانات. لولا نسيم صديق يوسف لما استطاع الوصول إليه بهذه السهولة.

***

لابد أن أسجل هذا. لم أكن في حياتي بهذا الانتباه وتلك اليقظة. شعرت بقوةٍ هائلة وأردت شيئين متناقضين في اللحظة نفسها، أن أرسم يوسف ثم أضاجعها، على التوالي!

رحنا نرقص ونغني، أنا وهو، لساعتين متواصلتين، ورسمت وجوهًا مضحكةً فوق لوحاتٍ غير منتهيةٍ، ثم خرجنا والناس نيام وجرينا بالشارع كالأطفال، لم نجرِ بهذه السرعة ودون هدفٍ منذ كنا بالمدرسة. دخلنا حانةً

t.me/qurssan

يونانيةً لم نطأها من قبل ورحنا نشرب ونرقص، وصاحبنا في الرقص جنودًا نيوزيلنديين كانوا هناك وبعض المصريين المرتدين للجلباب. كانت الموسيقى يونانيةً، لكن كل شخصٍ رقص عليها كما اعتاد أن يرقص ببلده وليس كما تقتضي الموسيقى، حتى أن اثنين من المصريين مارسا ما يسمى بالتحطيب، رقصا بالعِصِيّ. كان أسعد وقت قضيته منذ أعوامٍ. صرخت فيه وسط الصخب قائلًا :

-سأرسمك الآن وإلا فلن أفعل أبدًا. إنني ممسك بها الآن.

وأطبقت قبضتي لأريه أني أعني ما أقول. ودون أن يسألني عن كنه ما أمسكت به هز رأسه وقادني للخروج والعودة إلى البيت، وهناك خلع معطفه وارتمى على المقعد قائلًا:

-هيا ارسمني الآن بينما لا زلت منتبهًا.

وضعت قماشةً سابقة الإعداد ومشدودة على الحامل، وأحضرت الأقلام والفُرَش والألوان وشرعت في الرسم.

في الظهيرة التالية داهمت سيمون الحجرة غاضبةً. كنا أشبه بجثتين تم سحبهما من أسفل القطار، مضعضعين بالكامل ونعاني من آلامٍ حادةٍ بكل موضعٍ بجسدينا. راحت تكيل لنا اللوم والتقريع وتؤنب يوسف الذي اضطرت للكذب على أبيه وإيهامه أنه نام بغرفته وغادر إلى كليته. تنفس يوسف الصعداء عندما غادرتْ، كان يخاف أن تكتشف آثار الدواء علينا. قلت أطمئنه:

-كيف سيحدث هذا؟ ما نعاني منه لا يختلف عما يحدث لأي شابٍ قضى ليلته في الشراب والرقص.

ثم قفزت من السرير، لا أذكر متى نمنا عليه كلانا متعاكسين. أبحث عن الصورة التي رسمتها في الفجر السابق، ولذهولي الشديد كانت أروع ما رسمته بحياتي!

t.me/qurssan

-يوسف، هذا الدواء يبرز أعمق وأخفى إمكانياتك للسطح. يا لها من حبوبٍ مباركة! يا للعبقرية الكيميائية! كيف لم يعطك والدك إياها بنفسه؟

وقف جواري يرمق نفسه في اللوحة مشدوهًا، لا أعرف إن كان السبب موهبتي الخارقة أم جماله الشخصي الذي لم يواجهه على هذه الصورة من قبل، بل لقد دمعت عيناه في تأثرٍ عميق، ثم قال لي بجديةٍ تامة:

-لن أرى نفسي بهذا الكمال الذي صنعته يداك أبدًا. أعدك يا آرام أن تكون هذه هي صورتي الأخيرة! لن يرسمني أو يلتقط صورتي غيرك، لأي ظرفٍ أو مناسبةٍ.

جعل نصف الأقراص معي وحمل معه نصفها، لن يدعها تغادر جيبه أبدًا .

***

يومٌ باهت عجيب، الرغبة في كل شيءٍ منعدمة، لم أتناول الطعام حتى حلول الظلام. لم أفعل شيئًا سوى الجلوس على الفراش والتطلع إلى صورة يوسف، لا أعرف هل جننت كبيجماليون؟ لقد صنع تمثالًا يجسد الجمال الأنثوي في أكمل صوره ثم حولته الآلهة إلى جسدٍ حي، أما أنا فقد حدث معي العكس، لأن اللوحات لا تتحول إلى بشرٍ في الواقع.

لاحظت بعد انصرافه أني كتبت بركن اللوحة الأيسر السفلي بخطٍ صغير جدًا "بورتريه شخصي"! ضحكت وحدي، ماذا؟ ذهبت للمرآة ووقفت أشاهد وجهي، أشبهه بقدر ما يشبه الجنود القياصرة، أشعر أني اكتملت وانتهيت.

***

هذه هي المرة الأولى التي أرفضها فيها. لا أعرف إن كنت سأتحلى بتلك القوة مرةً أخرى، أو إن كانت قوة أم مجرد شبعٍ مؤقت.

***

t.me/qurssan

لماذا يريد أن يتعلم العود؟ لم أسمع بحياتي عازف بيانو بمهارته ولا صوتًا بفخامة ورقة صوته، فما حاجته لتعلم آلة جديدة الآن؟ الموسيقى التي ألفها غربية كلاسيكية، فهل ينوي التطرق إلى التلحين الشرقي؟ لم أفهم سر هوسه بسيد درويش وعبد الوهاب ولا أعتقد أنه سيستطيع يومًا التلحين بالمقامات العربية، أظنها نزوة تنتابه، كإصراره على توطيد علاقاته بتلك الشلة من المصريين دون سببٍ واضحٍ، فلا يوجد بينهم من يضاهيه موهبةً أو تميزًا، لا أرى ما يجذبه إليهم البتة.

***

هو غاضب لأني لا أرسم. قال شيئًا غريبًا:

-أنت بحاجة لأن تحب يا آرام.

كدت أضحك من سذاجته المحببة، لكني خجلت. كيف لي أن أخبره بأني فقدت براءتي منذ زمنٍ وأني اختبرت ما هو بطور الأحلام بالنسبة له؟

***

كانت المرة الأولى التي أراها فيها حزينةً. روعني ذلك! كانت كئيبة لاقتراب عيد الميلاد وهي نائية عن كل ما يشكل لديها جوهر العيد. حاولت إبهاجها فحدثتها عن يوسف الذي يحتفل بعيدين للميلاد في بيته، واحد في الخامس والعشرين من ديسمبر حسب الكنيسة الفرنسية الكاثوليكية، والثاني في السابع من يناير حسب الكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية! بدلًا من أن تبتسم بكتْ!

لم أشعر أبدًا بمثقال ذرةٍ من الضعف بها، لهذا لم أكن مستعدًا لكل هذه الـ... ميلودراما والدموع والاحتياج... كان سهلًا أن أنبذها وهي صلبة شبقة ضاحكة، لكن في تلك الحالة... لم يكن ذلك عادلًا أبدًا. كان بمثابة تخديرٍ أو تنويمٍ، صارت أقدر على اختراق دفاعاتي بشكل لا يحتمل. دموع المرأة، يا لها من سلاحٍ قذر!

t.me/qurssan

***

ملخص مرتب للأحداث:

أولًا، هناك دفتران؛أحدهما لكامل والآخر لأخته!

ثانيًا، يتضح من قراءة الدفترين، وفقًا ليوسف لأني لا أجيد قراءة العربية مثله، أن كامل وأخته ليسا شخصين عاديين كما سبق واستشعر هو، بل إنه يرفعهما لمصاف الأنبياء كما كان يقول عن جبران.

ثالثًا، سيتلقى دروسًا بعزف العود لدى والد كامل هذا، ويبقى فقط أن يتزوج أخته حتى تتم سطور المأساة.

رابعًا، بات الآن يفكر في أغرب الأشياء بتحمسٍ عجيبٍ، يريد إنشاء فيلق الموهوبين:

-كل شخصٍ به مس من العبقرية الفنية، مثلك يا آرام ومثل كامل وأخته، لن أستثني النساء طبعًا، قد يكون مؤلفًا مسرحيًا، مَثَّالًا، عازفًا، ممثلًا، المهم ألا تكون لديه تحزبات أو عصبيات من شأنها طمس الفطرة النقية لرؤيته، وأن يدين بولائه الصادق للجمال في مطلقه والخير في وجوهه، أن يرغب بعمقٍ في إنقاذ الناس من تعاستهم المزمنة وقيودهم المصنوعة المختلقة، ألا يجدر بجماعة على تلك الشاكلة أن تُحدث ولو تغييرًا طفيفًا في خارطة البؤس من حولنا؟

أصابني الخوف من تلك النظرة المتألقة بعينيه، حِرت في الرد على ما قاله وأنا لم أستوعبه بعد. كان يجدر بي أن أخبره ألا يعتمد عليّ لأني لا أستحق أن أكون أحد حوارييه، فبينما يتمشى بين السُحُب في أعالي الجبال أزحف أنا عند السفح سائلًا الحجارة أن تتحول خبزًا من أجلي. ضحك بصفاءٍ من منظري المكفهر وظنه بسبب عدم اقتناعي بمعقولية فكرته، وربت على كتفي قائلًا:

t.me/qurssan

-لاتقلق هكذا، فأنا ما زلت بمرحلة بذر الفكرة ولن أسرع بالحصاد، سأتجه فقط لأنقياء القلب،القادرين تلقائيًا على استيعاب أهدافي... فكرْ فقط فيما أقوله. ألا تذكر عندما قلت لي أن المجانين والانتحاريين هم من يغيرون الواقع؟ هذا ما أود تجربته. لو أن كل من يحمل نورًا في كل بوصةٍ من سطح الأرض وظف مواهبه فقط لإزاحة مقدارٍ ضئيل من العتمة حوله! مثلك يا آرام، لا يملك من يرى لوحاتك إلا الإحساس بما في نفس راسمها من نورٍ وخيرٍ، بل والرغبة في القيام بدوره بحماية ذلك الخير ونقله لآخرين.

جاء دوري لأضحك، واجهته قائلًا:

-أنت عاجز عن رؤية الشر بمخلوقٍ حتى لو أخبرك بنفسه أنه زنديق متآمر لما صدقته.

-الأشرار الزنادقة الخالصون ضرورة فنية للأدب، لخلق الصراعات والعقد، لكنهم لا يوجدون على هذه الشاكلة في الواقع. هل قابلت بحياتك شخصًا بقتامة عم هاملت أو صديق عطيل؟ يتعاطى الشر للمتعة الخالصة دون وجود وجعٍ خاص يؤرقه؟ الأمر دائمًا معقد عندما يتعلق باختيارات الإنسان المفصلية.

لم أتمالك نفسي وصحت به:

-ربما لم أقابل أحدهم لكني عرفت بوجودهم، ولا أهتم البتة إن كانوا قد عانوا أم لا، جنكيز خان مثلًا ودقلديانوس والسلطان عبدالحميد، ولماذا نسيت تلك المجنونة بالدور الأول؟ من قتل ابنها؟ هل كان طيبًا مضللًا أو يعاني من صد حبيبته؟ الشر والموت يحيقان بكل تجمعٍ بشري ولو كان من شخصين، ولو كانا أخوين!

قال وقد فقد وجهه ما كان عليه من بهجةٍ:

t.me/qurssan

-أعرف أن الحاجة لدماءٍ نظيفة تُضَخ ضخًا في عروقنا الهالكة ماسةٌ وحرجةٌ، نحن بحاجة لتكاتف الطاقات الإيجابية ضد كل هذا الفساد. لقد أفلس البشر ولم يعد هناك أمل سوى بالفن.

سألته وقد استسلمت :

-ماذا تريد مني تحديدًا؟ أخبرني وسأفعله.

***

جلسنا في جروبي نتناول الشاي وأنا أحاول تحاشي الشمس قدر الإمكان؛ فعيناي اللتان اعتادتا لطف العتمة بغرفتي لم تتأقلما مع هذا التغيير المفاجئ.

بدا كامل، لدهشتي، لطيفًا دمثًا محببًا، لم أستطع الإبقاء على ضغينتي تجاهه حيةً، فليس ذنبه على أي حالٍ أنه يرتاد الكلية نفسها مع يوسف فيصحبه لأوقاتٍ أطول.

أخبرنا يوسف أننا الثلاثي الأول، وأننا بدورنا سنعمل تدريجيًا على ضم من نراه مناسبًا في المستقبل، وعلينا الآن أن نفعل الآتي:

-نبدأ بنشر تقدير الجمال، الجمال المجرد من أي تنظيرٍ، يجب أن تُعرض اللوحات لعموم الناس في الأحياء الفقيرة والمتوسطة، حفلات الموسيقى وإلقاء الشعر يجب أن تصل لمن لا يرتادون الأوبرا، لزبائن المقاهي وسكان الحارات، دون مقابلٍ. أنت يا آرام ستجمع زملاءك من الرسامين في معرضٍ شعبي سنرتبه بحي الظاهر ثم، فيما بعد، بالفجالة وشبرا، سيكون الدخول مجانيًا. وأنت يا كامل ستتولي الكتابة وترجمة أو نقل ما يَعِنُّ لك من أعمالٍ أدبية يتم إلقاؤها مبدئيًا في تلك المعارض حتى يسمعها الذين لا يجيدون القراءة. سأترك لك طبعًا تحديد ما تراه مناسبًا من الناحيتين الأخلاقية والجمالية. يجب تجنب كل ما من شأنه تغذية التحزب والعصبية أو بذر أي أفكارٍ ومشاعرٍ سلبية عمومًا. ربما نتجه فيما بعد للطبقات المثقفة

t.me/qurssan

والجاليات المختلفة في نواديها الخاصة، لن نروج لأي مذهبٍ ولن ندعم أي جانبٍ في الحرب. الحفلات الموسيقية ستكون أشبه بالفرق الجوالة، سأعزف فيها على البيانو وسأغني كل الأنماط التي لها روافد هنا، بالفرنسية والأرمنية واليونانية والإيطالية، بالعبرية والعربية والتركية. إسطفانوس بيه رحب بالعزف معنا على العود بمنتهى الكرم.

لم أجد ما يمكن الاعتراض عليه حتى تلك الكلمة الصغيرة البريئة التي تم لفظها عفوًا بين سواها،"التركية"!

تطلعت إليه حاجبًا بيدي ضوء الشمس الساطع خلفه عن عيني وسألته:

-هل قلت تركية؟ هل ستغني بالتركية؟

أجابني جادًا:

-طبعا... لا أجيد كل هذه اللغات، لهذا سأحفظ أغنيةً واحدة مؤقتًا بكل لغةٍ لا أعرفها. ستكون التركية أولهم، وستتم دعوة ذوي الأصول المختلفة كافةً لحضور هذه الحفلات. ستساعدنا أمي بما لها من صلات مع الأجانب والمصريين على حدٍ سواء، هل لديك أسئلة أخرى؟

-أنت لم تجب عن سؤالي الأول! لماذا التركية؟ وكيف؟

أخذ نفسًا عميقًا وقال بصوتٍ هادئ بشكلٍ تقريري:

-في المستقبل آمل أن ينضم إلينا موهوبون من جميع الجنسيات والعقائد، لكن قبل أن نشرع في العمل هناك قَسَم واحد سنقسم عليه معًا الآن وسيفعل كذلك كل من يضاف تباعًا... حتى لا نكون زائفين... سيتعهد كل منا بأن لا يحمل بقلبه حقدًا أو بغضًا، احتقارًا أو ازدراءً، انتقامًا أو غضبًا، نيةً شريرةً أو ذكرًى سيئةً تجاه أي مخلوقٍ آخر، نقاء الغاية والدافع والوسيلة هو الشرط الذي لا يمكن التهاون فيه، هل توافقان؟

جاءت "نعم" الصادرة بلهفةٍ عن كامل قبل أن ينتهي يوسف من لفظ السؤال وقبل أن أستوعب كل ما سمعته.

t.me/qurssan

لست مؤهلًا لهذا. إنه مخدوع أو يسكنه الأمل بشكل مفرط،أم أنه يعلم تمامًا مثلما علم المسيح مقدمًا بخذلان يهوذا ومع ذلك انتقاه؟ لم أتعرف على صوتي المختنق وهو يهمس بجبنٍ:

-نعم.

قلتها كاذبًا وأنا ألعن الأتراك سرًا، قلتها وأنا أحمل بقلبي ملء سعته حقدًا وبغضًا واحتقارًا، هل يعرف؟ هل يعرف؟

-آرام، أنت هنا؟ لهذا لم أجدك بمكاننا. ألن تقدمني؟

جاءتني تلك المصيبة بمثابة عقابٍ سريع جدًا على كذبي الوقح. رفعت رأسي لأجدها هناك واقفةً بيني وبين يوسف بزيها العسكري تنظر إلينا بسعادة من وقع على كنزٍ، وأمام صمتي المذعور ضحكتْ بسماجةٍ قائلةً:

-ماذا حدث لك آرام؟ ألا تعرفني بالنهار؟ أعرف أنك بومة بشرية لكني لم أرك أيضًا بهذا الوقت المبكر من قبل وتبدو مختلفًا نوعًا... سأقدم نفسي للسيدين المهذبين، أنا فيرجينيا سكوت، صديقة آرام، هل يمكنني الجلوس؟

تحدثتْ بعددٍ من الكلمات يفوق كل ما تفوهت به منذ عرفتها! راحت تقص عليهما كيف تقابلنا بأول معرض شاركت فيه، وكيف "لمست لوحاتي بقعةً منسيةً بقلبها"، وما تلى ذلك من تطورٍ لصداقتنا! ثم حكت كيف تطوعت بالجيش البريطاني وكيف جاءت لتقود الشاحنات وعربات الإسعاف بهذا الجو القائظ الذي لم تتخيل وجوده سوى بالهند. وبينما تتكلم وتروح عن نفسها بطلب الشاي والجاتوه كنت أعاني أسوأ كوابيسي قاطبةً، لم أجرؤ على التطلع إلى وجه يوسف لخوفي من رد فعله، ألقيت نظرةً مختلسةً على كامل فوجدته يبتسم بتهذيبٍ متململًا في مقعده كأنه محرج من الجلوس والانصراف على حدٍ سواء. كاد قلبي ينفجر كمدًا عندما تكلم يوسف أخيرًا فرفعت عيني إليه رغمًا عني.

t.me/qurssan

-لابد أنها معاناة رهيبة بالنسبة لشابةٍ مثلكِ، أن تكوني بهذا البعد عن عائلتكِ، بلا سندٍ معنوي كافٍ، كيف تتأقلمين مع هذا الوضع؟

كان صوته متعاطفًا، رحت أحدق به متحققًا من حدسي فوجدت وجهه ينطق بحزنٍ صعب الفهم! قالت بترويةٍ لم أعهدها فيها:

-حسنًا، يمكنك أن تخمن الدور الحيوي الذي يؤديه آرام بهذا الشأن. المرء لا يعيش سوى يومٍ واحد كل مرة، كل يوم تنامه يصبح الأخير إلى أن تستيقظ فتبدأ الحياة من جديد، قد تكون هذه هي فلسفة الحرب لا أكثر، لكني أعقل من زميلاتٍ كثيرات يعالجن خوفهن من الموت بالزواج! لكن... هل أنت فرنسي؟ لكنتك ليست مصرية، هذا السيد مصري، لا شك في هذا. قالت هذا مشيرةً إلى كامل الذي يبدو كتلميذٍ يجالس فتاةً للمرة الأولى في حياته.

-نصفي فرنسي ونصفي أرمني، وكلي مصري! أليست هذه مبالغة فاضحة لمجاملة كامل؟ هل تحبين حضور عرضٍ غنائي نُحَضر له؟ سيكون بمثابة طريقةٍ أخرى من طرق قضاء اليوم الأخير حتى يمر.

قبل أن أصرخ رافضًا كانت قد قالت:

-ماذا؟ أنتم عصبة فنانين إذًا؟ هناك حفلات موسيقية في كل مكانٍ هذه الأيام. أنا أعزف قليلًا على الترومبيت في الحقيقة، يمكنني المساهمة لو أنكم ترحبون بشيءٍ من الجاز؟

كيف لم أعرف قط أنها تعزف؟ كأنها غريبة أَتَعَرَّف عليها لتوي، تساءل كامل عن كنه الجاز فأخبره يوسف بأنها الموسيقى الأمريكية الأفريقية، من أحدث الإضافات للتراث العالمي الموسيقي.

-هذا رائع، بل أكثر، لم أعزف الجاز قط ويمكنك مساعدتي قطعًا، ها هي السماء تبارك مسعانا وترسل لنا الإمدادات، مسرورٌ جدًا للقائكِ يا فرجينيا.

t.me/qurssan

ضحكت بطريقةٍ لم أسمعها من قبل، ليس بها تصنع ولا قلق ولا تدلل. ضحكت، يا للغرابة، بسعادةٍ! بدأ قلقي يتهاوى شيئًا فشيئًا لسببٍ لا أفقهه. عندما انصرفت كانت قد طبعت قبلةً خاطفةً على خدي واتفقت معه على لقاءٍ آخر للتمرن على مقطوعةٍ من أجل الحفل. شعرت بمذاق اللطمة في تلك القبلة، لم أنطق بكلمةٍ أو أومئ حتى برأسي، وإذا بيوسف يضحك قائلًا:

-كم أنت متكتم يا آرام! بل إنك أشبه بالبصلة في الحقيقة، ما أن نكشف إحدى طبقاتك حتى نجد أخرى مختبئة. عاجلته مدافعًا عن نفسي:

-الأمر ليس كما تظنه.

نظر متعجبًا من موقفي، لكنه لم يصرح بشيءٍ تحرجًا من وجود كامل وغيَّر الموضوع برمته عودةً إلى ترتيب المعرض والحفل.

لم أره منذ ذلك الحين ولا أعرف ماذا سأخبره عندما ألقاه. هل أكذب؟ هل سيصدقني؟ سيراها مجددًا ولا أستطيع المخاطرة بالكذب، سيعرف كل شيءٍ.

***

لم تأتِ مع أني تركت لها رسالةً مع زميلتها بالغرفة، ماذا يحدث؟ لم تتخلف عن لقائي قط.

***

لا أستطيع النوم. لا أستطيع النوم.

***

طرقته المميزة على الباب! دخل حاملًا صينية العشاء ليتناوله معي، لم يفعلها منذ زمنٍ، كدت أبكي من الفرح. تحدث طويلًا عن جماعتنا الناشئة وخططه لها، ما ينتظرنا من عملٍ دؤوب، ثم تطرق للقائه مع فيرجينيا.

-شخصية نشيطة وسريعة التفاعل، لا تحب الشفقة على النفس بالتأكيد، منفتحة على كل شيءٍ، الثقافات، الأفكار والعقائد المختلفة. تريد تعلم

t.me/qurssan

اللغة العربية متى انتهت الحرب، لو استطاعت تحمل المزيد من هذا الحر القاتل على حد قولها. لماذا لم تأتِ على ذكرها قط يا آرام؟ لقد بدوت ذلك الصباح في جروبي كمذنبٍ أُمسِك في الفعل!

رحت أنظر لأطباق الطعام الفارغة باحثًا فيها عن جواب أو مساعدة، ثم رفعت رأسي مسلمًا وقلت بيأسٍ:

-لأننا لم نتفق على هذا.

بدا ذاهلًا من ردي عاجزًا عن الفهم، تمتم قائلًا باستنكارٍ:

-عم تتحدث وما هو الذي اتفقنا عليه؟

-ألا تذكر؟! عندما أحضر روبير تلك الصور في المدرسة وراح يشرح لنا ما يحدث بين الرجال والنساء وما يفعله هو شخصيًا مع فتيات الشارع... لقد أصابنا الغثيان نفسه، الرفض نفسه والإشمئزاز نفسه، عندها تعاهدنا، أنا وأنت، ألا يقوم أحدنا بشيءٍ مماثل أبدًا وأن ننتظر حتى نقع بالحب ونتزوج، لكني لم أفِ بعهدي يا يوسف، لقد أسقطتني دون مجهودٍ يذكر، وما ظننت باستحالة وقوعه حدث بطرفة عينٍ ودون تخطيطٍ مسبق، فقط حدث، هكذا... لذلك ... أنا أحتقر نفسي بما يكفينا نحن الاثنين. لا تعظني عن قذارتي الآن.

كانت نظرته إليّ غريبةً كأنه ينظر لمريضٍ جديرٍ بالشفقة، وجد صعوبةً بالغةً في الحديث وخرجت منه الكلمات حائرةً حد التيه.

-من أنا لأعظك؟ ولماذا جعلتني قاضيًا عليك؟ لم أدرك قبل الآن أن كبرياؤك المفرط هذا يكاد يصبح عاهةً لديك! وذلك العهد الذي تقدسه أكثر من حريتك، لست مدينًا به لأحدٍ سوى نفسك. وتلك المسكينة التي تجاهلتها تمامًا كأنك لا تعرفها، ما ذنبها؟ تقول أنها أسقطتك؟ يا لها من جريرة! لقد فعلت ما أردت فعله يا آرام ولم يُغَرَر بك، أنا صديقك، أتفهم هذه الكلمة؟

t.me/qurssan

مهما فعلت وكيفما تبدلت سأظل صديقك، أنا لست زوجتك بالله عليك حتى تخشى مساءلتي.

لم أصدق أن هذا كل ما يعتقده حقًا. رحت أتفحص وجهه بريبةٍ قبل أن أقول هامسًا:

-هل هذا يعني أني لا زلت عضوًا بالجماعة؟ كيف تراني الآن؟

أخذ نفسًا عميقًا، أمسك جبهته بيديه ونظر لي متعبًا، قال بصوتٍ جاد:

-الأمر الوحيد الذي يغضبني منك هو معاملتك للفتاة، كأنك تعاقبها على انجذابك لها، هذا نفاق لا يُغْتَفر، لكن لا شأن للجمعية بهذا طبعًا، الشيء الوحيد الذي يجعل عضويتك بالجمعية محل تساؤل هو القيام بعمل من أعمال الكراهية وليس الحب ، حتى لو كان حبًا متنكرًا في رداءٍ بائس مشوه.

-ما أفعله معها ليس له علاقة بالحب. صداقتنا أقرب للحب من علاقتي بها، لا أجدني جديرًا بأي نوعٍ منه الآن.

أمسكني من كتفي وهزني بقوةٍ قائلًا:

-آرام، أرجوك... أخرج من هذه الدائرة المتصلة من الذنب وتضخم الذات، أنت لست المركيز دي ساد في شره ولست دانيال في كماله، أنت إنسان طبيعي تكرر وجوده ملايين المرات لو أنك لا تدري، وسيوجد مثلك ملايين آخرون، لكن لا أحد مع ذلك سيحل بموضعك لدي ولا بعد مائة عامٍ، ستبقى أخي حتى الموت.

كم أتمنى أن يوجد إله يحبني مثلما يفعل يوسف. لن أعرف هذا أبدًا.

***

كانت تلك المرة الأولى التي أطرق فيها فعلًا باب غرفتها. شعرتُ بغرابةٍ وقلقٍ، ماذا سأقول لو فتحت لي زميلتها؟ وفرت عليّ عناء الموقف وفتحت بنفسها، كانت متفاجئةً تمامًا. انتظرتُ ريثما ارتدت ملابسها وخرجنا معًا. سرنا

t.me/qurssan

بجوار النيل رغم برودة الليل، بالنسبة لها هذا جو ربيعي جميل وليس شتاءً بالمرة.

ضحكت ساخرة وهي تقول:

-بت أعتقد أنك تملك شخصيتين بالفعل، مثل دكتور جيكل ومستر هايد، إحداهما تظهر ليلًا فقط حيث تكون مفعمًا بالطاقة والمرح والميل لاقتراف الحماقات الممتعة، بينما الأخرى تُقعي بالنهار راهبةً للفن لا تكترث لأحدٍ وباردةً بامتياز. ماذا كنت تتوقع بعد الطريقة التي عاملتني بها في ذلك اليوم؟ لقد تصرفت كأنني فتاة ليلٍ تريد منك أن تقدمها لزوجتك، ما تفسيرك لتصرفك؟ أريد الحقيقة لو سمحت.

لكني لم أملك الحقيقة حتى أمنحها لها. شعرت بالضياع التام. وقفت أرمقها عاجزًا، وهي لم تتعجلني، وقفت تنتظر فحسب فإذا بي أحتضنها. لا أصدق كيف نمت معها كل تلك المرات دون أن أعانقها أبدًا، وكيف بت متلهفًا الآن على هذا العناق دون غيره من طرق القُرب الجسدي! رحت أردد كالأحمق باكيًا:

-لا أعرف... لا أعرف.

لكن هذا كان كافيًا لها، أن أبكي في الشارع حاضنًا إياها كطفلٍ أعياه الذنب، ولم أظنها بهذا التسامح، كنت أقامر بحظوظي معها دون أن أفهم شيئًا عن نفسي، ما الذي قاله... الحب قد يتنكر بأرديةٍ بائسة مشوهة... ربما أكرهها كثيرًا لأني أحبها! لم أعد قادرًا على الابتعاد عنها، فقد يكون حبًا، قد يكون حبًا.

***

هل لها علاقة بما عُرِض عليّ؟

لا أنفك أفكر في هذا الخاطر الكئيب دون أن أقوى على قبوله أو ضحده. ألن تكون تلك مصادفة تعيسة؟ أن أكون صديقًا لمجندةٍ إنجليزية ثم يقوم

t.me/qurssan

أحد ضباطهم باقتراح وضعي بالقصر كرجلٍ لهم؟ سأعرف الآن بعد أن رفضتُ، هل ستحاول إقناعي بالقبول أم تنسحب من حياتي بهدوءٍ؟ ولكن لم يكن الرجل بحاجة لتلك المقدمات الطويلة حتى يطرح خطته. لقد جُن على أي حال، يريدني أن أتجسس على الملك والحاشية بينما أرسم صورهم! ومن سيحميني من الملك لو كُشفت على فرض موافقتي؟ فكرة حمقاء بائسة، ما أكتبه الآن يشكل خطرًا عليّ لو وُجِد، لكني عاجز عن التوقف!

***

الأب جريجوري يريد مني صورةً للمسيح المصلوب من أجل الكنيسة، فقط المسيح ويوحنا والعذراء. كان يمكن أن أخبره ببساطة أني لا أرسم صورًا دينية لو لم يقدم طلبه عن طريق دكتور أرتينيان، الشفاعة التي لا تُرد ولا تُرفض.

لا أجد بنفسي من العاطفة الدينية ما يكفي حتى أؤدي هذا العمل، لو أن النار التي تضطرم بقلبي عادةً وأنا أرسم كافة أنماط البشر تبلغ مقدار الشعلة الأوليمبية فليس لدي منها الآن ما يوازي حتى فتيلة مدخنة، ثم لماذا يجب أن يُخلد مشهد الصلب هذا تحديدًا وقد صُلِبت من بعده، تيمنًا به، أجيال وأجناس بأكملها؟ يجدر بالأب الموقر تعليق صور الأرمنيات العاريات على الصلبان على جدران الكنيسة وإيقاد البخور أمامها كل يومٍ، لو أنه يتوخى العدل!

رفعت القماشة البيضاء التي أحمي بها صورة يوسف من التراب ورحت أعيد التطلع لتحفتي الأثيرة، ربما... ربما لو جعلت من وجهه نموذجًا ليوحنا الحبيب مثلًا... نعم، الآن هذا هو الإلهام، الآن فقط بدأ الأمر يصبح مثيرًا. ها هو وجه آخر ليوسف الحبيب، قد يكون وجه المسيح هو أي وجه، ما أكثر المعذبين والمطعونين بالخيانة، سأجده بسهولةٍ لو وضعت الأمر نصب عيني. يبقى عائق صغير، لا أحب أن أرسم العذراء عند الصليب، أفضل أن

t.me/qurssan

أضع المجدلية بدلًا منها. المفارقة أن كلتيهما تسمتا بالاسم نفسه، مريم، لكن إحداهما هي القداسة المطلقة والأخرى هي البشرية المطلقة! الثانية هي الأجمل والأنبل بنظري، تلك التي تلبستها الشياطين السبعة ثم تبعته بالنهاية حتى الصليب. لقد ارتطمت بالحضيض ونهضت، بينما الأولى لم تلمس أهدابها الأرض. لو عرف الأب بأفكاري هذه لما أحب أبدًا أن يوكل إليّ العمل، لكن من ستكون المجدلية... أريدها جميلة، بما أنها نائبة عن الإنسانية وفي الوقت ذاته مثقلة بالذنب والرغبة في الخلاص.

***

ودعتني مسرعةً. تم تكليفها بقيادة إحدى الشاحنات إلى بورسعيد ولا تعرف متى ستعود.

***

الشيطان يضحك. اللعنة التي أستحقها، بل اللعنة التي عانقتها عاشقًا، اللعنة على كل الأحياء.

***

يوسف مذعور من حالتي التي لا أراها مروعةً للدرجة التي يصفها. ماذا لو لم أتحمس كما ينبغي لنجاح المعرض الشعبي والحفلة الغنائية؟ ماذا لو مللت الرسم؟ هذا يحدث للجميع... ماذا لو مللت الطعام والنوم والحديث؟ ما الفائدة الجمة في كل هذه الأنشطة الرتيبة المتكررة؟

"يصيبنى التدهور" هذا ما قاله، ضحكت من مبالغته حتى البكاء، الآن يريد أن يقدمني لأصدقائه المصريين، لا أعرف ما الذي ينتظره من ذلك. لم أصارحه برأيي في مسألة التمصر تلك التي تسيطر عليه حتى لا يغضب. شخص نصف أرمني ونصف فرنسي ويتظاهر بأنه مصري، ثم يصمني أنا بعدم الإتزان !

t.me/qurssan

يوسف، أنت ملجأي الأخير، لذلك مغفورة لك خطاياك، سامحني، بل خطاياي أنا.

***

سيمون مذعورة لقطع العلاقات المصرية مع حكومة فيشي. لا أحد خارج هذا البيت يعلم بولاء أختها التوأم المقيمة بسوريا طبعًا، فما سر اضطرابها؟ أجدها مضحكةً ككل الآخرين. الكل خائف ويريد استشراف المستقبل. ليذهب العالم كله إلى الجحيم!

***

لي النقمة ،أنا أجازي، يقول الرب. ماذا عن نقمتي أنا؟

***

دكتور أرتينيان يسألني عن اللوحة. تذكرت بصعوبةٍ ما يعنيه بعد أكثر من دقيقةٍ. لمَّح بمواربةٍ إلى رغبته في عدم إحراجه أمام الأب الموقر، ليذهبا معًا إلى...

***

رأينا من الشرفة العربات المدرعة تملأ ميدان عابدين والشوارع المؤدية إليه وصولًا لبوابات القصر. انتابتني نوبة ضحكٍ وراح كل من سيمون ودكتور يعقوب ينظران إلى مرحي باستنكارٍ. حاولت أن أصمت ففشلت. أردت مشاهدة نهاية هذا العرض لكن يوسف اقتادني من يدي وأنا أضحك إلى غرفتي وجلس معي ليسألني فجأةً عنها!

نظرت إليه صامتًا. نجح في إيقافي عن الضحك. تسلحت ضده بكل ما أملك من برودٍ ولم أجب بكلمةٍ، لم يكن هناك ما يقال على أي حال.

تنهد طويلًا قبل أن يقول:

-لك أن تلعن العالم بأسره إن شئت، لكن أرجوك لا تتوقف عن كونك أنت! لا يوجد آرام ديكران دون فرشاةٍ بيده، فهلا حاولت على الأقل؟ أعرف أنك

t.me/qurssan

غير متحمسٍ للوحة الكنيسة، لكن اعتبرها تدريب ليديك على العمل في فترة التوقف الطويلة تلك. أنت لم ترسم شيئًا منذ... تلك الصورة لي.
أرشدني دون أن يدري لحلٍ لم يخطر ببالي قبلًا ! لم أسأله إن كان قد تناول من الأقراص ثانيةً حتى لا أذكره بها. احتفظت بالقرار لنفسي.

***

قرصٌ واحد، تناولته بعد الغروب... خرجت وحدي وتوجهت إلى البار نفسه لكني لم أكن بنفس الرغبة السابقة في الرقص. رحت أغني بالأرمنية والتقطت إحداهن، لأول مرة أستأجر فتاةً مثلما يستأجرون الحنطور، ضحكت طويلًا ورحت أهذر بحديثٍ لا أذكره الآن، بعدما انتهيت منها دون أي استمتاعٍ عرفت أنها يهودية فخطرت لي فكرة! سألتها إن كانت تريد أن تُرسم. سخرت مني وقالت أن هذا لم يكن مجال عملها، لكنني أصررت، دفعت لها مقدمًا واصطحبتها معي إلى البيت. انتابتني نشوة غريبة وأنا أفعل ذلك، كأنني أنتصر على عدوٍ طال قهره لي!
لم أذكر بعدما استيقظت الجزء المتعلق بالرسم، تمامًا مثل المرة الماضية وجدت الصورة مرسومة كأنما بفعل السحر، إلا أن الفتاة كانت قد انصرفت بعد أن سرقت باقي النقود المتبقية بمحفظتي.
بينما أشاهد عملي مبتسمًا راضيًا دخل يوسف، بدا متجهمًا قبل أن يرى اللوحة فيبتسم صائحًا:
-مرحى! لقد عملت باللوحة أخيرًا ، هل هذه هي الفتاة التي جاءت معك ليلًا؟ لا تقلق، أنا فقط من شعر بكما، في الحقيقة كنت غاضبًا منك يا آرام، ظننت أنك تصحب فتاة ليلٍ للبيت، لكن آسف، أرى الآن أنها نموذج، هذه هي المجدلية أليس كذلك؟
كان انتصاري كاملًا وأنا أراه مأخوذًا بجمال الصورة، فلتهنأ تلك البلهاء، التي لا أذكر اسمها، بما سرقته، لن أخبره بحقيقتها إلا بعد انتهاء العمل كله.

t.me/qurssan

الآن لدي خطة جديدة للعمل. لن يكون يوسف هو نموذج التلميذ الحبيب، سيكون هذا سهلًا لدرجة البداهة، سأبحث عن نفسٍ ضالة مجهولة أخرى شرط أن يكون صاحبها ذا وجهٍ آسرٍ، سأصنع قداسته بالكامل مثلما فعلت بها، ها هو الساذج الرائع يستطرد قائلًا:

-لكنها رائعة آرام، يا لها من نموذجٍ مثالي، نظرات الوجع والفقد، إنه إرشاد إلهي لا شك.

لمحة عابرة من الشك طافت بملامحه سرعان ما تجاهلها، لابد أنه يسأل نفسه إن كنت قد تناولت من الدواء مجددًا، لكنه قرر أن يحتفظ لنفسه بالتساؤل.

***

المحزن حقًا أني لا زلت أحلم بها، أحلم أنها عادت وأني أبكي فرحًا مستمتعًا باشتياقها إليّ. تبقى الأحلام هي الوطن الشرعي للجنون.

***

قررت اليوم أن أخرج نهارًا، أن أحدق بنور الشمس. سرت على غير هدى إلى أن تذكرت أن يوسف لديه تدريبات لحفل رقص أرمني، فعرجت إليه. وصلتُ حديقة الأزبكية، هناك رأيت يوسف وكامل يخرجان من الحديقة تتوسطهما فتاة لم أرها من قبل.

هذه أخت كامل لا شك، لا يملكان الملامح نفسها لكن هناك شبه لا يفوت الناظر، كما أن عينيها مختلفتان، لونهما قططي مخيف نوعًا، لو أني رسمتها يومًا لاخترتها لتجسيد سالومي قاتلة المعمدان، فجمال كهذا لابد أن يكون جالبًا معه للموت، ويوسف الذي يسير جوارها سعيدًا هانئًا، لابد أنه مستغرق حتى الغيبوبة في حماقته!

هذه إذًا من كتبت تفسر سفر الرؤيا! لا أصدق أن هناك فتاة تهتم بشيءٍ أبعد من ذاتها. لو اهتمت بسفر الرؤيا فلابد أنها رأت نفسها بشكل ما به. لا

t.me/qurssan

أذكر آيةً واحدة من هذا السفر، أذكر بشكلٍ ضبابي عالمًا من الأحلام والكوابيس التي قد تُفسر على أي محملٍ، ملائكة يضربون بالأبواق، وجامات وأفراس ملونة، ومحيطات تشتعل، حروب وويلات، وشهداء ينتظرون الانتقام لدمائهم. لم أكن لأقرأه بكامل إرادتي، لكنه مادة خصبة للرسم لو كنت سلفادور دالي أو من أشياعه.

هذا هو سرك إذًا! هل كنت لتفتن بذكائها لو لم تكن بهذا الجمال؟ الحقيقة مسرحية مبتذلة يعرف الكل نهايتها من المشهد الأول!

***

هذه المرة تناولت قرصين، سأكتب غدًا كل ما سيحدث لو تذكرته.

***

أعاني من رعشةٍ طارئةٍ في يدي. عرق غزير. رغبة في القيء. نبض مؤلم برأسي. أشعر بالبرد. هذا كثيييييير!

أفضل قليلًا.

لن أموت. سأكون بخير.

لقد عدتُ.

كان هذا أعنف ما عانيته على الإطلاق. ظننت أني سأنتهي، كان هذا مؤلمًا، أن أرى الموت حاضرًا يستعد لاقتناص أنفاسي، وأنا وحيد بلا حول، تمنيت أن يباغتني يوسف بالحضور فقط حتى لا أموت مهجورًا كجوّالٍ متشردٍ. بوسعي أن أتفلسف الآن وقد نجوت، لكن الفنان في الأغلب جوال متشرد مهما كثر المحيطون به. الجرعة الزائدة لا تلائمني.

***

لكن ما تم إنجازه لا يصدق!

أنظرُ الآن ليوحنا الواقف مقابل المجدلية وبينهما الفراغ المتروك للصليب. شاب لملامحه جاذبية قاهرة، كيف أنتهي من الرسم بذلك الإتقان وتلك

t.me/qurssan

السرعة معًا؟ والأهم هذه المرة، من يكون هذا الفتي؟ أعتصر رأسي محاولًا تذكر ما حدث بعد تناولي الدواء، لكني لا أرى شيئًا، لا أين ذهبت ولا من قابلت، كأني كنت أسير وأتكلم في نومي، ودام ذلك لساعاتٍ طويلة كما يبدو، بدأ هذا يصيبني بالرعب!

لقد أحضرت إلى هنا، إلى بيتي، شخصًا لا أعرف عنه شيئًا بالمرة ورسمته، قد يأتي ثانيةً وقد لا يفعل، لا أريد القيام بذلك مرة أخرى. من مَرْآه يبدو إنجليزيًا، كيف استطعت اصطحابه إلى هنا بكل انعدام الأمان الذي يحملونه عادةً؟ لابد أنه كان غائبًا عن وعيه هو الآخر!

هل أخبرُ يوسف؟

***

طلب مني حضور الحفل بمسرح الأزبكية ليُعَرِّفني بشخصٍ مهم!

طبعًا يريد تقديمي إليها، سيعترف بشأنها أخيرًا. الغريب أنه عاد يُلح لأصحبه للقاء شلته المصرية، يوسف يريد دمج الدوائر المختلفة التي يحيا في نطاقها توفيرًا للوقت والمجهود. فهناك دائرتي أنا، أسرته والجالية، دائرة الكلية وكامل، دائرة المقهى ونسيم والاثنين الآخرين. أخت كامل طبعًا خارج أي دائرةٍ، ربما هي نواة الذرة الآن وكل شيءٍ آخر يدور على مسافةٍ تقترب أو تبتعد عنها.

أخبرته أني سأحضر الحفل، لكني لن أقابل أصحابه إلا بعد انتهائي من اللوحة، أراد أن يرى ما أضفته بها لكني رفضت متحججًا بأنها ستكون مفاجأة. شعر بالإثارة والتحمس وراح يتخيل كيف ستكون عندما تنتهي، لا يزال هو جمهوري الأهم، إعجاب الآخرين تحصيل حاصل.

***

t.me/qurssan

حلمت به، حلمت بيوحنا، هكذا أسميه مؤقتًا، جالسًا على كرسي بار مرتفع. كيف لم أفكر بهذا من قبل؟ سأزور البار لعلِّي أقابله هناك مصادفةً.

***

قضيت الليلة كلها هناك ولم أجده. عبث!

***

ذهبتُ إلى الحفل. في المقاعد الأمامية جلستْ أنوش كعادتها فتعمدت الابتعاد عنها حتى لا تراني. لمحت كامل وأخته ووالدهما الذي يشبه ابنه كثيرًا، كانت هي أجمل مما أذكر، لكن عيناها لا تزالان مخيفتين. عندما ظهر يوسف على المسرح أخرجتُ دفترًا أحضرته معي وقلم فحمٍ ورحت أتسلى برسمه، رسمت ما يقرب من خمسة عشر صورةٍ صغيرة لجسده في أوضاعٍ راقصة. عندما انتهى الحفل قبعت بمكاني أتفرج.

يوسف يحتفي بأستاذه في العود، ويرحب بصديقه وأخته بسعادةٍ لا يحاول حتى اخفاءها، ثم يقدم لهم جارته المجنونة ببساطةٍ لا يحملها سواه. مهلًا، هناك شاب لا أعرفه يتقدم منه ويصافحه مهنئًا، بل ويقدم له فتاةً بصحبته، من هذا؟ دفعني الفضول للنهوض من مخبأي والسير باتجاه تلك الصحبة السعيدة.

-آرام، لقد جئت... أقدم لكم آرام ديكران، أخي، الرسام العبقري وجارنا في بيتنا المتواضع. أقدم لك إسطفانوس بيه والد كامل، الآنسة هيلانة . أقسم أن صوته تهدج وهو ينطق اسمها. وهذا هو مراد دانيال، محامي المستقبل و... آنسة ليليان؟ ما رأيكم بالتوجه الآن، وقد تجمعنا، إلى شبرد للعشاء؟

كان منتشيًا تمامًا،أحسست بقلبي يتمزق شفقةً عليه، كأني أرى طفلًا يدخل غرفة العمليات الجراحية ظنًا منه أنها متجر ألعاب! أردت أن أحذره دون أن أعرف مم ينبغي التحذير. اعتذر مراد دانيال بأنه يجب أن يعيد ليليان إلى

t.me/qurssan

بيتها في الناحية الأخرى من المدينة بينما رحب والد كامل الذي يبدو مستعدًا لأي اقتراح يعد بالمرح ربما أكثر من ابنه بمراحل. وهكذا طابت خاتمة الليلة ليوسف العزيز.

أخذته جانبًا وأخبرته أني لن أذهب معهم لأن لدي عمل. أبدى تفهمه طبعًا، لأنه لم يكترث في تلك اللحظة سوى بوجودها وقضاء الليلة بجوارها. عدت إلى البيت سيرًا وحيدًا.

الآن قتامة عجيبة تكتنفني، أشعر أن يوسف أنأى مما كان في أي وقتٍ مضى، بل أشعر كأني فقدته للأبد بالفعل، وهذا يقتلني تقريبًا كما قتلني ذهابها! كم مرة يمكن للمرء أن يعاني الذبح؟

***

أصبحت كوابيسي جديرة بالتحليل النفسي، أراها جالسةً تشرب مع الفتى المجهول ضاحكةً واثقةً، هل يعود هذا إلى أنه إنجليزي مثلها أم أن هناك تفسير آخر؟

***

أخذت قرصًا واحدًا ولم يحدث شيء! بدلًا من أن تتلبسني طاقةٌ ملهمة كاسحة وتقودني إلى ما وراء قدراتي العادية سقطتُ في النوم العميق حتى الصباح.

ما يهم هو أني لم أرسم شيئًا هذه المرة. هذا سيء.

***

لا أدري إن كنت قادرًا على كتابة ما حدث، لأنه يفوق أعتى الأحلام والهلاوس شططًا. وأنا لست دستويفسكي.

لقد عادت!

عادت لي.

t.me/qurssan

قالت، وكنت أنظر لشفتيها معتقدًا أني أهذي، إنها أُرسِلت من بورسعيد إلى الإسكندرية دون راحةٍ، ودون إذنٍ بإطلاع أحد على مكانها. بقيت بالإسكندرية محاولةً الوصول لأخيها المجند هناك دون جدوى. قالت إنها كانت منهكةً تمامًا وتفتقدني حتى الجنون، وإنها اتصلت بالمعرض مرارًا وتركت رسائل لم أتلقاها لانقطاعي عن الذهاب، ولم تعرف لي بيتًا تراسلني عليه، لامتني على ذلك لسابق رفضي اصطحابها إلى البيت أو إخبارها بالعنوان، أثار ذهولي مشاعرها فراحت تقبلني كما لم تفعل من قبل. سألتها شاردًا معذبًا عن الضابط بالأمن الميداني، واقتراح استخدامي فبادلتني الذهول وضحكتْ، ما علاقتها هي بأمرٍ كهذا؟!

يا لسخافتي! هكذا أنا، آرام المضطرب الغاضب بلا سبب، وأنا من لعنها ولعن الخليقة كافةً وأراد إضرام الحرائق. اليوم أكتب معلنًا عودتي من المطهر، أنا حي، أمجد كل لحظةٍ سأنالها من الآن فصاعدًا، أدشن هذا اليوم وأذكره للأبد، لذلك كان يجب أن تأتي هنا.

هذه الليلة شهدت دخولها غرفتي متخفيةً بالظلام حافيةً من حذائها حتى لا يسمع أحد وقع قدميها. أجلستها على الأريكة بجوار النافذة المفتوحة ورحت أنفض التراب الذي علق بباطن قدميها، طلبت مني أن أضيء النور بسرعةٍ لأنها تريد أن تراني بوضوحٍ وضوء القمر لا يكفي. غمرتني اللهفة في عينيها وذكرتني بضآلتي عندما كنت أخجل من حبها وأعتبره خطيئتي. راعها أن أبكي في وقت كهذا، راحت تمسح وجهي مهدهدةً. أردتُ أن أخبرها لكني لم أقدر، كل ما تفوهت به كان:

-أنا لا أستحقكِ لكنكِ لن تتركيني، أليس كذلك؟

كان ردها بمثابة صك الغفران لكل آثامي:

-حبيبي، ألا تعرف بعد؟ سأكتفي منك عندما أكتفي من التنفس.

t.me/qurssan

على الفراش الذي اعتدت حفظه لاستقبال يوسف نمنا متعانقين طوال الليل، مارسنا حبًا فريدًا لم نختبر مثيله من قبل، لم أكن أعرف أن قلبي يمكن أن يرق هكذا وهو مضطرم، وأن الحب قد يفيض بكل هذا الحنان، لقد انفتحت عيناي وانزاحت الغشاوة عن حواسي، لمستها ورأيتها وتنفستها حتى استوعبتها بكاملها داخلي، حتى لم أعد أدري بالحد الفاصل بيني وبينها، وأين يبدأ أحدنا وينتهي الآخر! هذا هو الملكوت الأرضي أيها الفاني المسكين، هذا هو الجواب على كل الأسئلة، كان أمامك من البدء ورفضته بجهلٍ مثير للشفقة والغيظ معًا.

كان يفترض بها أن تنصرف فجرًا قبل استيقاظ من بالبيت والمخاطرة بقدوم خادمة سيمون حاملةً الإفطار لي، لكني لم أستطع، كان فوق احتمالي أن أتركها تذهب، أردت أن أحملها معي في روحي ومجيئي كما تفعل الأم برضيعها، رحت أقبل شعرها ووجهها وهي نائمة، تعمدت ألا أيقظها وجلست لأكتب.

عندما استيقظتْ وابتسمت لي أخبرتها أنها لن تغادر، ستبقى معي وسأذهب لشراء الطعام لنا بينما أغلق الباب عليها بالمفتاح شريطة ألا تُحْدِث صوتًا ما وألا تجيب أي طارقٍ على الباب. نظرت لي صامتةً قليلًا قبل أن توافق، قالت إنها ستبقى اليوم كله لأنها ستذهب لاستلام عملها مجددًا في الصباح التالي. بينما أرتدي ملابسي نهضتْ ميممةً صوب اللوحتين القائمتين بالغرفة. نزعت الغطاء عن إحداهما وهتفت:

-يوسف!

ثم ضحكت قائلةً:

-يا له من عمل مبهر يا آرام. تكاد تشهق فعلًا عند أول نظرة . أليس نموذجًا يصعب تكراره؟

ومن أدرى مني بذلك؟ استطردت قائلةً وهي لا تزال تطالع الصورة:

t.me/qurssan

-لاأعرف إن كان مثاليًا في أفكاره أم ساذجًا، هل أخبرك أنني دعوته لحفل السفارة الخاص؟ لقد وافق بشرطٍ عجيب،أن يقدم أغان إيطالية وألمانية. لم أستطع تحمل تلك المسئولية طبعًا، لكني وعدته بأن يفعل ما يريد بحفل ماري رياض، أتعرفها؟ هي مجنونة قليلًا وتجاهر بميلها للشيوعية مرسلةً التحية لستالين أمام الجميع، لن تندهش من مجنونٍ آخر كيوسف.

ثم توجهت للوحة الأخرى وكشفتها،علقتُ قائلًا:

-لا أزال أعمل بها، يبدو سؤالًا غريبًا ولكن... ألا تعرفين الشاب المرسوم بها؟ أعتقد أنه بريطاني.

أجابتني:

-هل تعرف كم مجند من أستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا والهند وإنجلترا موجود حاليًا بالقاهرة؟ هل تتوقع مني أن أعرفهم جميعًا؟

كانت محاولة على الأقل. جلست تتلهى بتصفح الكتب المكدسة بالمكتبة وخرجت أنا. كنت أفكر، ماذا يجب أن أحضر لها للإفطار؟ هناك أزمة في الخبز، بجوار المخبز جلس مجذوبٌ اعتدت مشاهدته منذ سني مراهقتي بالبقعة نفسها، كان يعيش على ما يعطيه له الناس من طعامٍ وملبسٍ، مرددًا كلامًا شديد العمومية عن حال الدنيا والبشر أشبه بما يردده رجال الدين جميعًا في كل العصور، لكن هذا الصباح تحديدًا كان كلامه أكثر تخصصًا، كان يؤكد أن هتلر سيُهزم شر هزيمة وأن أفول نجمه هو وموسوليني سيكون على يد الإنجليز!

عدت بالطعام المكون من مربى وزبد وفاكهة وأخذت الخبز من عند خادمة سيمون وصعدت إليها مسرعًا. قصصت عليها ساخرًا ما سمعته من الدرويش المتبصر في أمور الحرب وبشرتها بفوز قومها المحقق حسب تنبؤات المجذوب العليم، ولدهشتي وجدتها واجمةً لا تجد الأمر مضحكًا.

t.me/qurssan

-لو أن هناك فعلًا ما يمكنه ضمان نهايةٍ ما، أي نهايةٍ، لاستطعت التأقلم معها، ننتصر أو نهزم، شريطة أن يحدث هذا بسرعةٍ وينتهي ونبدأ من جديد من نقطةٍ ما... الجحيم هو ما أعيشه الآن... كل الاحتمالات واردة، قد يكون أخي حيًا في فرقته البعيدة في مرسى مطروح، قد يقع أسيرًا أو يموت، قد يدخل الألمان القاهرة غدًا وقد نسحقهم، قد يُقصف منزلنا بالغارات على لندن ويموت أهلنا أو قد نموت نحن هنا. أتوقف عن العمل والحركة لساعةٍ واحدة فأوشك على الصراخ ودق رأسي بالحائط من سعار التفكير، إنه عذاب لا يفوقه سوى عذاب الفقد. يخجلني أن أعترف بهذا لكني سأفعل، لو خُيرت بين موت أبي وأمي في لندن وموت أخي هنا أو... موتك أنت... لاخترت أن أفقد أبي وأمي...أليس هذا فظيعًا؟ أن يكون السبب في قدومك للحياة هو أول من تضحي به كي تحيا؟ لأنني لا أظنني قادرة على الحياة دونك أو دون أخي.

دون مقدماتٍ عرضت عليها ما يلح عليّ منذ تركتها وخرجت:

-ما رأيكِ لو تزوجنا؟ أريد حقًا أن أتزوجكِ زواجًا قانونيًا بالسفارة وليس بالكنيسة، فأنا أولًا لا أرتاد الكنيسة وثانيًا كنيستي لن تزوجنا. هذه نقطة لا بأس بها للبداية.

ابتسمت لي بحنانٍ وألقت بنفسها في حضني، ضحكتْ بعصبيةٍ وهي تقول:

-حسنًا سنفعل، لكن بعدما أجد أخي، يجب أن يحضر زواجنا؛ سأشعر باليُتم لو تزوجت في غير وجوده،أو أسوأ من ذلك، سأشعر باليأس من عودته.

لقد وافقتْ، وسأنتظر.

***

t.me/qurssan

مررتُ اليوم أمام البار اليوناني فوجدته مغلقًا، سألت الترزي المقابل له في الشارع عن السبب فأخبرني أن أهل الحي يتناقلون قصةً عن مقتل مجندين أثناء خروجهما منه فجرًا. لم يُقبَض على أحدٍ وتم التعتيم على الخبر.

***

هناك شيطان مُصِر على الضحك مني. في حديقة جروبي قابلت يوسف وكامل، دار حديثٌ قصير عن طلب اثنتين من الجمعيات أن نقوم بعرضنا الثلاثي لديها: الرسم والشعر والموسيقى، وعن ملاحظة عدم نجاح الأغاني غير العربية بين الطبقة غير المتعلمة بنفس درجة الأغاني العربية، بينما أتساءل سرًا عن مدى النجاح الذي كنا لنحققه على الإطلاق لو لم يكن يوسف هو من يغني. وتطرق يوسف لما جمعنا من أجله:

-هناك شخص يريد الانضمام لنا، لقد حضر العرض بالظاهر وشبرا وأعجبه بشكلٍ خاص أننا لا نروج لفريقٍ ما في الحرب ولا ندعو لأيديولوجيات معينة، قال إنه أقرب ما يكون للعدمية ولا يكاد يؤمن بشيءٍ سوى الفن! قد يكون هذا تطرفًا من نوعٍ آخر لكنه تطرف غير مؤذٍ ولا يفرض نفسه على الآخرين... أعتقد أنه جديد نوعًا، ما رأيكما؟

أبدى كامل قلقًا، كانت أول مرة يتردد فيها قبل الموافقة على ما يقترحه يوسف، قال:

-الشخص الذي لا يؤمن بشيءٍ قد يكون خطيرًا بصورةٍ يصعب التنبؤ بها، قد يسبب فوضى ويُنْسَب لنا ما يتبناه هو من أفكارٍ. أجابه يوسف:

-أرى أن نعطيه فرصةً ونجرب. كما أنه سيمثل إضافةً كنا نفتقدها. ستتعرفان إليه الآن عندما يأتي، فقد طلبت إليه الحضور للقائكما. آرام، أرجو أن تتذكر ما وعدتني به في هذا المكان من قبل. نظرتُ إليه مستفسرًا عما يعنيه، وقبل أن أتكلم وجدته يبتسم مرحبًا بشخصٍ آتٍ من خلفي، وما أن مَثَلَ أمامي ملقيًا التحية حتى...

t.me/qurssan

-آرام... ماذا بك؟

كان هذا يوسف الذي بلغ منه الإحراج مبلغًا لرد فعلي الشاذ، كنت جالسًا هناك أحدق بفمٍ مفتوح في يوحنا الحبيب المرسوم أسفل الصليب بغرفتي! لقد أتى إليّ بقدميه ودون أن أبحث عنه. وقف هناك ينظر لي ببراءةٍ قائلًا:

-مسيو آرام، فرصة سعيدة. كيف حالك الآن؟ أراك أفضل كثيرًا.

بات الوضع الآن مربكًا وغامضًا بالنسبة للشابين الآخرين، لذلك استطرد الفتى قائلًا بثقةٍ:

-لا أعرف إن كنت تتذكر شيئًا عن تلك الليلة.

ولما هززت رأسي نافيًا دون أن أتكلم استطرد:

-لقد شككتُ في الأمر، عندما عرضت عليّ أن أكون نموذجًا للرسم كنتَ... لنقل... منتشيًا، لكنك كنت لطيفًا جدًا مع ذلك، ولم يكن لدي ما أفعله باقي الليلة فوافقت، وقد عملت بحميةٍ شديدة حتى طلع النهار، ثم سقطت فجأةً نائمًا، فغادرت بهدوءٍ حتى لا أزعجك.

-إذًا فأنت تعرفني؟

كان يخلع قفازًا أنيقًا يرتديه ليضعه على المنضدة بينما يقول:

-طبعًا أعرفك، فقد شاهدتك من قبل بالمعرض الذي أقمتموه بالظاهر، ولو أني لم أقدم لك نفسي حينها. حقيقةً لقد أسعدني جدًا أن تطلب رسمي في تلك الليلة. كانت مفاجأةً لي، خاصةً وهي أول مرة أرتاد فيها البار اليوناني، فأنا لا أتردد إلا على الفنادق عادةً.

تمتمتُ متوجهًا لنفسي بالحديث:

-كدتُ أقسم أنك إنجليزي، بل لقد حلمت بذلك!

انفجر الفتى ضاحكًا بصفاقةٍ:

-معذرةً، لكنك كنت السبب في هذا الخلط، لقد توجهت أنت بالحديث إليّ بالإنجليزية مفترضًا أنها لغتي، ربما لأن المكان مكدس بجنود الجيش

t.me/qurssan

البريطاني، فقررت أن أجاريك حتى النهاية، أعتذر عن ذلك لكن الأمر كان مسليًا في الحقيقة.

رحت أتطلع إلى شعره البني الداكن وعينيه ذاتا الزرقة الصافية وملامحه الأوروبية، ورغمًا عني سألته بفظاظةٍ:

-ماذا تكون إذًا؟

قال مستمتعًا:

-أنا علي تيمور، ابن الأمير السابق عباس تيمور. درست الحقوق بالسوربون، لكني لا أرى الجدوى منها حقيقةً، فالقانون في النهاية يطبق فقط على الضعفاء، أردت لفترةٍ دراسة الفلسفة لكني لم أملك الصبر الكافي! تنال في الواقع ما يكفيك من الفلسفة إذا أنصت طويلًا لنقاشات الحي اللاتيني هناك، وأرى أن سارتر سيكون هو فيلسوف العصر القادم، هذا لو بقينا جميعًا على هذا الكوكب لعصرٍ قادم. أرى أن الفن وبعض العلم المروض هما الخير الوحيد الذي نتج عن وجود البشر لآلاف السنوات على ظهر الأرض،أعطني شعبًا لا يتبنى سوى العمل والفن أعطيك شعبًا سعيدًا دون منغصات ونزاعات وقلاقل. اجعلْ ذلك الشعب يؤمن بشيءٍ ما، أيًا كان هذا الشيء، سيتحول بعد عدة سنوات لجماعةٍ موتورة تتمتع بما لدى البهائم من عناد ومهووسة بتحويل بقية العالم للإيمان بما تعتنقه بيقينيةٍ مذهلة من حيازتها للحق المطلق، محولةً نفسها إلى مبعوث الخلاص للبشرية وقاضٍ يدينها ويعاقبها في الوقت نفسه .

تحولتُ ليوسف قائلًا بسخريةٍ:

-حسنًا، ألم يكن هذا شبيهًا بما قلته أنت بالحرف منذ شهرين؟

لم تكمن المشكلة في محتوى كلامه، لأني لا أجده خاطئًا، بل كان هو نفسه المشكلة. كان الفتى معتزًا بذاته بصورةٍ مبالغ فيها، بدا لي كبرميلٍ ضخم يبحث عما يملأ خوائه، كان جلوسه بساقيه المتقاطعتين وصوته المنغم

t.me/qurssan

الواثق أكثر مما يمكن لأعصابي أن تحتمل، بل لقد نفرت من اللغة الفرنسية لكثرة ما استخدمها في كلامه. تباهى بدراسته في باريس ورفقته للمثقفين والشيوعيين والعدميين، وتجربته لمناحي الحياة التي لم يكن ليعرف بوجودها لو لم يعش بفرنسا، بل اعتبر نفسه فرنسيًا "لو أن الانتماء يُقاس بالميول والعاطفة"، راح يرثي ضحالة الحياة الثقافية بالقاهرة وخلوها من الحراك المتطور والجهل المتسيد حتى بين الطبقات العليا. مرارًا وتكرارًا راح يعيد كلمات مثل: أنا أرى، أعتقد، في رأيي، لا أظن. يا إلهي! لم أرَ بحياتي شخصًا مغرمًا بصوته لهذه الدرجة، لقد كان مؤمنًا بأننا منتشون بالإنصات لحكمته والدُر المتساقط من فمه، هذا شخص مثالي للخطب الحزبية وأحاديث النوادي والصالونات، فلماذا يبتلينا يوسف به إضافةً لبلايا القدر؟

كان الضيق واضحًا على وجه كامل الرائق عادةً، أردت أن أصرخ بوجهه لينضم إليّ في لوم يوسف... ماذا يرى في ذلك المدعي؟ ما الذي سيضيفه إلينا وكنا مفتقدين له؟ أنه ابن أمير تركي؟ هل سيستتب السلام والحب في العالم الآن بعد أن قبلنا أحد الأتراك بيننا؟ فلنتصافح ونقبل بعضنا بعضًا بقبلةٍ مقدسة، فلنعتذر له بالنيابة عن شعبنا عن المشاعر السيئة التي نحملها لعشيرته الرقيقة. الطامة العظمى أن وجهه الموسوم بلوحتي تواجد هناك بفعل يدي، أليست هذه صفعة الشيطان لغروري المنتفخ؟

في نهاية حديثه، عندما كنا موشكين تمامًا على الانتحار ولا أستثني منا أحدًا، اختصني بالكلام متسائلًا عن مصير اللوحة التي ضمنته فيها، وأطربني بمحاضرةٍ أخيرة عن عدم اكتراثه لموضوع اللوحة الديني نظرًا لعدم اقتناعه بجدوى الدين عمومًا طالما توافرت فيها شروط الجمال الفني! وصارحني بدهشته من طراز رسمي التقليدي وعدم لحاقي بركب التكعيبية أو السريالية!

t.me/qurssan

كان يوسف مطرقًا بحرجٍ واضح عندما انصرف، لبثنا صامتين لدقيقةٍ حتى تأكدنا من ابتعاده ثم انطلقنا أنا وكامل معًا نسجل احتجاجنا على ضم ذلك البوق النحاسي الضخم إلينا.

-يوسف، أنت متيقن طبعًا أني أرحب بأي إنسانٍ نقي الغاية وليست لدي اعتبارات أخرى، لكن هذا الشخص... إنه يُثَمِّن نفسه كمفكرٍ وفيلسوفٍ وفنانٍ معًا، يعتقد حقًا أنه ملهم وفلتة، كيف سنتعامل معه؟ هل ستتمكن من مراجعته فيما يريد قوله أو فعله؟

-أنا لن أكون بلطف كامل، هذا الطفيلي الأرستقراطي الغبي لن يجلس معي ثانيةً في مكانٍ ما، لو أصررت على ضمه بالحفلات لن أحضرها بعد اليوم، يمكنك أخذ اللوحات وتنظيمها بنفسك. هذا رأيي النهائي.

لم يعترض طبعًا لأننا محقين، غيَّر الموضوع كأنه لم يكن وطلب مني أن أدعو فيرجينيا للحفل القادم. هنا تبدل مزاجي كليًا وشعرت بالسخاء الشديد يتملكني فارتخيت في مقعدي بعد توترٍ وعصبيةٍ وأطلعتهما على خطبتي السعيدة. لا أعرف من منهما كان أكثر ذهولًا أو صدمةً من الآخر، لكن دون شكٍ كان يوسف هو الأسعد.

***

بمجرد رؤيتي لوجهه أدركتُ أن هناك مصيبة. تلك الصفرة في البشرة والاحمرار في العينين، الشعر المشعث والأنفاس المضطربة والحركات غير المتسقة، أخذ يتمشى بالغرفة مسرعًا كأسدٍ حبيسٍ ثم ألقى نظرة على وجه علي تيمور الموضوع على كتفي يوحنا الحبيب باللوحة فضحك ضحكةً مريرةً منكسرةً، تلك الضحكة التي تسبق البكاء دائمًا.

-آرام، يبدو أني أسأت التصرف، أعرف الآن لماذا لم يعطني أبي هذا الدواء من قبل، لا أريد أن يتكرر ما يحدث لي الآن، هل تفهمني؟ لا تتركني أتناوله مجددًا، سأجن أو أموت... ماذا سيحدث لي؟

t.me/qurssan

وضعت رأسه تحت المياه لكن ذلك لم يجدِ نفعًا، كانت الأعراض قوية، لابد أنه تناول أكثر من واحد مثلي. راح يرتجف، تقيأ، تكوم على الفراش وراح يئن مستنجدًا بي، كان ألمي وخوفي عليه يمسكانني عن التصرف بشكلٍ مفيد. لقد أتى لي حتى لا يراه أبواه على تلك الصورة وينكشف سره، كيف أساعده دون أن أفضح أمره؟ طرأ ببالي فجأةً اسم كامل! حتى لو كان مجرد طالبٍ بالطب فلابد أنه يعرف طريقةً أو شخصًا ما لمساعدته.

خرجت إلى المقهى القريب من البيت حيث اتصلت برقم كامل، أخبرته باختصارٍ أن يوسف مريض وأنه لا يريد إعلام أبويه بالأمر، سألني عن الأعراض التي يشكو منها فشرحتها له، وزدت عليها أنه في الغالب قد تناول دواءً بطريق الخطأ وقد يحتاج للتخلص منه. أخبرني أنه سيحتاج للتوجه إلى لمستشفى ولن يمكن مساعدته بالبيت.

تقريبًا قمت بحمله من السطح إلى أسفل البيت، وأنا أرجو القدر في كل خطوة ألا تفتح أمه أو أنوش الباب، فأبوه لا يزال بالصيدلية. عندما وصلت إلى الشارع بعد دهرٍ أجلسته على عتبة البيت حتى آتي بسيارة أجرة أو حنطور، وكالاتفاق أخذته إلى المستشفى القبطي حيث قابلنا كامل على الباب.

كان كامل فاعلًا وخطير الشأن كما لم أره من قبل، كان القلق على يوسف يذهب برصانته تاركًا إياه نهبًا للغضب والاهتمام معًا. سمعته يتمتم لنفسه قائلًا:

-لو أصابه سوء ستموت.

باغتتني صورة وجهها لتملأ مخيلتي، لم يكن ليرغب في أن تعرف هي شيئًا عن هذا، هل سيخبرها كامل؟

عندما استطاعوا السيطرة على حالته بالنهاية قررنا أنه لن يقوى على المغادرة قبل يومٍ على الأقل.

t.me/qurssan

-دعْ هذا الأمر لي، سأعود إلى البيت لأخبر والديه أنه عانى من تسممٍ غذائي بعد تناول طعامٍ فاسد من إحدى العربات. هلا شكرت الطبيب عني؟ أخبره بالقصة المفترضة حتى لا يخطئ أمامهما.

-دكتور إبراهيم لن يقول شيئًا ولن يسبب مشكلةً ليوسف، لكني أريد أن أعرف يا آرام، كيف تناول يوسف ذلك الدواء وما هو بالضبط وما مصدره؟

كانت هذه آخر مشاكلي الآن، تنصلت منه بوعد الشرح المؤجل.

عاد يوسف إلى البيت بعد يومٍ كامل. بدا كأنه فقد خمسة كيلوجرامات من الوزن دفعةً واحدةً،جلست بغرفته أدير له الجرامافون والراديو وأقرأ له أشعار رامبو قبل أن أجدها غير مناسبة لحالته النفسية. وفي لحظةٍ معينة نظر لي بحدةٍ وقال حاسمًا:

-لن أتناول تلك الأقراص مرةً أخرى حتى لو رسبت، كنت أخاف الفشل لكن حفرة الموت أكثر سوادًا ورعبًا. خذها وتخلص منها يا آرام. ها هي هناك... أسفل بطانة علبة الموسيقى. تخلص مما لديك أيضًا، لن ترغب في تجربة ما حدث لي.

لكنه لا يعرف أني فعلت، هناك من يجابهون الموت في الصحراء بعيدًا، وهناك من يستحضرونه بأنفسهم في غرفهم المغلقة. أخذت الأقراص لأتلفها لكني لم أفعل.!

***

يراودني إحساس بتغيَّرٍ مريب صعب الإثبات في كامل. منذ ليلة المستشفى وهو يعاملني بشكلٍ رسمي لم يعتده قبلها. لا زال مهذبًا هادئًا لكنه يتصرف كأننا زملاء في عملٍ لا يقتضي الصداقة. ما الذي حدث؟ بماذا يفكر يا ترى؟

***

ذهبتُ إلى الحفل المقام بقصر ممدوح رياض برعاية زوجته، ذهبت رفيقًا لفيرجينيا أكثر مني عضوًا بفريق "أصوات" كما أسماه يوسف. كانت هذه

t.me/qurssan

هي المرة الأولى التي يُدعى فيها جمعنا الصغير إلى مجتمع القصور، لكن فيرجينيا بدت متآلفةً تمامًا مع الوسط الأرستقراطي وآدابه مما حدا بي للتفكير فيما لم يخطر ببالي قط من قبل، إلى أي فئات المجتمع الإنجليزي تنتمي تلك الفتاة التي أوشك على الزواج منها؟ هل أبواها عاطلان بالوراثة أم من الطبقات التي تعمل لتأكل؟ لم تكن حاجتي للإجابة على تلك الأسئلة ملحةً للغاية، لذلك اكتفيت بالجلوس إلى جوارها والاستمتاع مع الآخرين بغناء وعزف يوسف وقد تخلله إلقاء كامل للشعر بالفرنسية والعربية والإنجليزية، شعر عن الحب والطبيعة والصداقة والمثل والجمال والألم والإيمان والوجد! شعرت بسحابةٍ لطيفة من المتعة الخالصة تلفني وإياها كأن كل ما يُقدم كان من أجلنا، كانت تضغط على يدي كلما انتفض قلبها مع غناءٍ أو طربَ لموسيقى، وكنت سعيدًا كما لم أكن في حياتي القصيرة الفقيرة كلها، كان لدينا في تلك الساعة كل شيءٍ، كل ما يسعى البشر جاهدين لإحرازه في حيواتٍ كاملة، لذلك تحديدًا عندما وصلنا للذروة، بدأ الانحدار! انبثق علي تيمور من لا مكان ليقف بجوار يوسف خلف البيانو، كبقعة لونٍ تم رميها جزافًا على لوحةٍ منتهية بالفعل فأفسدها!

ألقى تحيةً مسرحية على الجالسين بالعربية والإنجليزية والفرنسية محتذيًا بكامل، وراح يلقى شعرًا فرنسيًا بأسلوبٍ تمثيلي مفتعل تمامًا قبل أن يجلس إلى البيانو ويشرع في العزف والغناء. غنى بالفرنسية أولًا، كان لا بأس به لو اعتبرته مبتدئًا. تحول فجأة لموسيقى مغايرة تمامًا ومقامٍ مختلف أستطيع تمييزه من أول جملةٍ، كان يغني أغنيةً أرمنيةً!

لم أستطع البقاء هناك، أخبرت فيرجينيا أني أريد الانصراف، فطلبت مني التريث حتى تحيي صاحبة الحفل. وقفت أنتظرها في الحديقة المزينة بالأنوار الملونة، فرأيت كامل آتيًا نحوي يحث الخطى.

-آرام ، لماذا تغادر الآن؟ لا داعي لتضخيم الأمر.

t.me/qurssan

-هل كنت تعلم أنه قادم الليلة؟

-لا، لكني لن أنسحب لأنني لا أستلطفه، قد تكون ليوسف وجهة نظر ويجب أن نحترمها.

-أنا أفهم بالضبط ما يرومه يوسف، لكنه ببساطة أعقد من قدراتي. لا يفترض بكل فنانٍ أن يكون قديسًا، أنا المثال الساطع على هذا، وفيما يتعلق بذلك الشخص المُدعي فالأمر لا يقتصر على عدم الاستلطاف، في هذه اللحظة أمقته كما أمقت سلالته من السفاحين بأكملها.

بينما أنهي جملتي حضر يوسف، لماذا بدا مذنبًا هكذا؟ كان يتحاشى إطالة النظر إليّ مباشرة على غير ما يوحي به صوته ثابت الجنان

-ماذا بك يا آرام؟ ظننتك أقلعت عن هذه الأفعال الصبيانية المضادة للمنطق.

لم أصدق أذني، لقد بدأ بالهجوم ليضعني بخانة الدفاع، لم يكن ذلك من شيمه قط، لذلك بدا كأنه يمثل دورًا أعده مسبقًا!

-ظننتك تعرف أني لا أكترث بالمرة للمنطق... إذًا فهو يستطيع، بقلبه الكبير المرهف، الغناء بالأرمنية، هذه هي المفاجأة التي يجب أن تلجم لساني وتجعلني أنحني أمام بعد نظرك العبقري، لكن هذا لن يحدث. ذلك السمج الغبي بالداخل يحمل دماءهم، أنت تعرف هذا. جربْ أن تسأله مرةً عن رأيه بما حدث لنا، ابحثْ في عينيه عن أسفٍ حقيقي أو إحساسٍ بالعار، لو وجدتهما أعدك أن أعيد التفكير في موقفي، لكنك لن تجدهما،أقصى ما يحمله أمثاله من شعورٍ يتلخص في بعض الضيق من ذكرى غير محببة تسيء لصورته الذهنية عن نفسه. لا تحاول خداعي باختلاق أسبابٍ وهمية للغفران، إلهك نفسه طالب بالعدالة المطلقة مع الحب، لا سبب لدي حتى لا أفعل كذلك، دعه يكفر عن ذنب آبائه وسأسامحه وأعتبره أخي. فليحمل

t.me/qurssan

صليبه هو الآخر مثلما فعل شعبنا، لكننا لن نصبح متساويين لمجرد أنَّ سُمُوّه تعطف وغنَّى بلغتنا.

وقفتُ هناك مرتجفًا بالحنق، ووقفا كلاهما أمامي صامتين. كان يتوقع بالضبط ما قلته، كان يعرف، أشار لي بيده أن أنصرف وقال بهدوءٍ:

-أنت حر تمامًا، اذهب، سألقاك فيما بعد بالبيت.

أتت فيرجينيا وهو يتكلم ولم تفهم ما يقوله بالعربية، لكنها أدركت من وجوهنا المكفهرة أن هناك خطب ما.

بعد عودتي أردت أن أحطم شيئًا أو أرسم شيئًا، ففعلت الثانية.

***

يوسف يتجنب لقائي. أرسل لي ورقةً مع الخادمة، يخبرني أن نشاطنا سيتوقف مؤقتًا حتى نهاية الامتحانات لأنه وكامل لن يملكا أي وقتٍ لتبديده.

حاولت رسم فيرجينيا من الذاكرة ولم أنجح.

***

عاد شقيق فيرجينيا في أجازةٍ لأيامٍ، سيعود بعدها إلى الصحراء الحدودية. قابلتني معه في ملهى ليلي شهير راغبةً في الترفيه عنه بإخلاص. بين الحين والآخر كانت تربت على كتفه أو وجهه بلطفٍ كما تفعل معي، كان مسرورًا لرؤيتها أخيرًا لكنه لم يملك دفع الوجوم والكآبة عن نفسه كلما تخيل عودته المرتقبة لجبهة القتال.

-لا يمكنكِ أن تتخيلي... لم أكن أتصور أن كل هذه الرمال قد توجد بموقعٍ واحد! كأنكِ في سفينةٍ وسط بحرٍ أصفر حارق ولا شيء آخر في الأفق، إنها تلتصق بكل شعرةٍ بجسدكِ. ولا توجد هناك مياه كافية للاستحمام، توفيرًا للمياه يصنع البعض الشاي بمياه سلق البيض! لقد اقترح علينا ذلك الطبيب المجنون أن نجري عملية ختان تحاشيًا للالتهابات الناجمة عن دخول الرمال في... عذرًا... أوه جيني! إنه جحيم! في الفترة الأخيرة هناك جنود

t.me/qurssan

وضباط هربوا يأسًا من قدرتنا على صد روميل...ألا تصدقين؟ لقد حاول القادة إنكار الأمر لكن من يخدعون؟ قد يكون الهروب إلى الدلتا آمنًا في البداية لكن أي شخصٍ بريطاني سيكون ملحوظًا وسهل الالتقاط في تلك الحقول المكشوفة وبين الفلاحين المصريين. أنا آسف، انسى أني قلت هذا. هل اسم آرام هذا فرعوني أم توراتي؟

-أنا أرمني يا مستر سكوت ولست مصريًا. ستجد جنسيات عديدة هنا بخلاف الأرمن، مثلك تمامًا.

-لا تفكر الآن بما تركته خلفك يا بيتر، حاول أن تسترخي وتستمتع بوقتك، سأطلعك فيما بعد على خطابات أبوينا، هما بخيرٍ تمامًا وبيتنا سليم لم تُخدش به نافذة واحدة.

ظل مهمومًا لا يجيب أخته سوى بهمهماتٍ غامضة إلى أن ظهرت الراقصة على المسرح فابتهج فجأةً وراح يتابعها بتركيزٍ واهتمام، لن أرى أبدًا وجاهة الرأي القائل بأن الرقص الشرقي فن كسائر الفنون، لكنني لن أنكر ما له من دورٍ ترويحي وباعث على التفاؤل أو مخدر على الأرجح بالنسبة للجنود الذاهبين إلى المعارك أو العائدين منها.

كان واضحًا في نهاية الليلة أنه يريد التملص من أخته والتجول بمفرده، ربما يذهب حيث العاهرات بكلوت بيك، لذلك تبرعت باقتراح إعادتها إلى شقتها بينما يذهب هو للقاء رفاقه، وافق فورًا وعانقني ممتنًا واعدًا إياي بلقاءٍ آخر قبل عودته إلى وحدته.

أخذتْ تعتذر عن غرابة أطوار أخيها معللةً إياها بأثر الحرب، فأكدت لها أني لم أجد به أي غرابةٍ من أي نوعٍ، وأنه شاب ظريف حقًا، ووسيم جدًا نظرًا لأنه يشبهها.

-لم أتوقع أن أشعر بهذه الوحدة في وجوده! جزء مني يشفق عليه ويتألم لصعوبة ما يمر به، وجزء آخر حانق يريد أن يصيح به: تمالك نفسك قليلًا

t.me/qurssan

البلاد كلها تمر عبر هذا الجحيم الذي تتحدث عنه بصورٍ أخرى. لكنه مجرد فتى رغم كل شيء، أليس كذلك آرام؟ لم يكن ليجند كضابطٍ لولا صلات أبي على كل حال.

-لا تتوقعي من الجميع أن يكونوا بصلابتكِ مس سكوت، أنسيتِ ما أصابكِ قبيل الأعياد من انهيارٍ؟

-كم أنا غبية ومتحجرة القلب! أنت محق يا آرام. أريد البقاء معك الليلة.

وبقيتْ معي.

تفاجأتْ بي أرسمها. أسعدها ذلك أكثر مما توقعت، لكني لم أرسمها عارية. كانت اللوحة كما أراها بذهني، معتمة بالكامل ووجهها هو بقعة الضوء بها، لذلك كل ما ركزت عليه هو الوجه.

-ستعجبكِ. ثقي بي.

سألتني عن لوحة الصلب الناقصة. أخبرتها نصف الحقيقة، فأنا بالفعل لم أجد مسيحًا لأرسمه، وهنا أدركت وحدها النصف الذي حاولت اخفاءه.

-أليس يوحنا المرسوم هذا هو ذلك النبيل الذي غنى في حفل ماري رياض؟ كيف أخبرتني من قبل أنه بريطاني؟

كان الشرح عسيرًا حقًا. كيف رسمت أحدهم دون أن أعرف شخصيته؟! ولماذا فررت من الحفل عند ظهوره؟ اكتفيت بأقل قدرٍ من الواقع:

-لم أكن في وعيي عندما رسمته... نعم، يمكنني أن أرسم أحيانًا وأنا منتشٍ، كنت ساهرًا ببارٍ عندما قابلته وشربت حتى الثمالة... ثم نسيت كل شيءٍ بمجرد إفاقتي.

بدت ممتعضةً قليلًا من فكرة الرسم في حالةٍ من عدم الوعي، ماذا لو عرفت من هي مريم المجدلية إذًا؟

***

t.me/qurssan

لم أكن أتوقع زيارته. لابد أنه افتقدني مثلما افتقدته. شكا أنه مرهق إرهاقًا جمًا من المذاكرة التي تراكمت على كاهله بفعل التأجيل، وأن أحد أصدقائه، أظنه موظفًا حكوميًا، تم نقله للعمل بالدلتا، وأنه يتمنى لو لم أكن قد تخلصت من الأقراص كلها! ثم تطرق أخيرًا إلى السبب الحقيقي لمجيئه والذي يرغب بشدةٍ في الحديث عنه.

-لم أرَ هيلانة منذ عشرة أيامٍ كاملة، أوشك على أن أفقد عقلي يا آرام. أبوها عقد رأيه على وقف الدروس حتى نهاية امتحاناتي أنا وكامل. سأجن لو انتظرت كل هذا الوقت. لا أجرؤ على طلب رؤيتها من كامل، ولا أستطيع المغامرة بانتظارها قرب البيت. لا أملك سوى دفترها، أقرأ فيه قبل النوم كما يقرأ أبي الكتاب المقدس، ماذا أفعل؟

أخبرته أن يذهب إلى مدرستها وينتظرها ليرى إن كانت تسير بغير صحبةٍ، تغير وجهه بغتةً وسألني:

-هل تظن أن أمها قد تمانع في زواجي منها؟ أمها تكره الفن وتخجل من هواية زوجها كما فهمت من كامل، كما أنها قد لا تعتبرني مصريًا بما يكفي! فهل ستكون حجر عثرة بطريقي؟ أنا لم أقابلها حتى الآن!

نظرت له مندهشًا بصدقٍ من افتراضه:

-كيف يمكن أن يرفضك امرؤٌ بأي صورةٍ؟! السبب الوحيد الذي قد ترفضك أمها من أجله هو أن تقع هي بحبك يا يوسف ما أن تراك.

ضحك ودمعت عيناه.

- لا أعتقد أن أحدًا يحبني مثلك يا آرام... سوى أبواي... وهي طبعًا. ياإلهي، لا أصدق مدى ما لدي من حظٍ. آه يا هيلانة! هيلانة! هيلانة! ومع ذلك لا أفهم، كيف لشخصٍ برقتك المفرطة يا آرام أن يكون قادرًا على الحقد وعدم المغفرة ؟

-دعنا لا نطرق هذا الباب الآن يا يوسف.

t.me/qurssan

-حسنًا، ما رأيك في جلسات استحضار الملائكة؟

لم تكن لدي أي فكرةٍ عما يقصده ولا ما تعنيه تلك الكلمات.

-هل هناك ملائكة لنحاول استحضارها؟ آسف... سأتظاهر بمشاطرتك إيمانك الطفولي البهيج، كيف يمكن لمخلوقٍ من الطين أن يستدعي كائنًا من نور؟

-لا أصدق بالمناسبة محاولاتك المستميتة لارتداء ثوب الحداثي الذي لا يؤمن بشيءٍ، كنت تقول دائمًا إنني الملاك الحارس الحقيقي، فلماذا لا تفكر أن الله هو من أرسلني لك؟ تمامًا كما أرسلك لي. كم من عونٍ في حيواتنا كنا لنجن كمدًا ويأسًا دونه؟ لماذا لا تشكر من أجل هذا على الأقل دون أن تتخلى عن غضبك المقدس؟

أردت أن أعانقه دون سببٍ واضح، أردت أن أكون مؤمنًا فعلًا في تلك اللحظة لأريحه، لكن الأمر ليس بتلك السهولة. عدت للسؤال الأصلي:

-ما هي جلسات استحضار الملائكة؟

-والد كامل هو من تحدث بشأنها، كنت أعيد له العود ذات ليلة بعد أن تدربت عليه فلاقيته مغادرًا المنزل، سألني إن كنت أود الذهاب معه بشرط ألا أخبر كامل فيما بعد! وعندما سألته أين سيذهب قال بالحرف "جلسة استحضار ملائكة". لقد تكلم في أمورٍ لم تخطر لي ببالٍ قط. تحدث عن القوة الخفية الكامنة في المزامير وحروفها وأرقام هذه الحروف. هناك، كما قال، ملائكة معينون لخدمة المزاميرو يمكن للإنسان باتباع تعليماتٍ خاصة في كتبٍ قديمة استدعاء الملاك المختص بكل مزمورٍ لأداء مهمةٍ معينة! لا أخفيك أن قشعريرة خوفٍ عابرة مرت بجسدي، لم أعرف ما أقوله له سوى أنني أرغب بشدة في حضور هذه الجلسات إلا أن تأخري أكثر من هذا لم يعد ممكنًا. فوعدني بتدبير جلسةٍ خصيصًا من أجلي عندما أكون متفرغًا، بل وطلب مني أن أستعد بالتفكير فيما أريد طلبه من الملاك الذي سيحضر!

t.me/qurssan

لم يغضب عندما ضحكت، انتظر حتى انتهيت ثم أردف:

-ماذا أقول له لو عرض عليّ ذلك العرض مجددًا؟ هل أذهب من باب الفرجة؟ الحق أني لا أزال خائفًا من الفكرة، لا أدري كيف يجد من يقتحمون تلك المجاهل الشجاعة الكافية لذلك،إما أنها ثقة تامة في قدراتهم وعلمهم...

-وإما أنها ثقة تامة في غباء من يخدعونه! آسف لكن ما تقوله لا يوصف بشيءٍ آخر. أي قدراتٍ وأي علمٍ؟ لو أن الملائكة بتفاهة الشأن هذه وهناك كلمة سرٍ أو شفرة للتحكم بهم لكانوا أقرب لجني المصباح منهم لخدام الله.

شرد يوسف قليلًا قبل أن يبتسم ويقول:

-تخيل فقط أن الأمر حقيقي، كنت لأطلب أن أصبح... الملهم ... أن يتذكرني التاريخ كفاجنر الشرق وموتسارت المصري.

أثناء كلامه كان قد نزع الغطاء عن لوحة فيرجينيا فهتف متحمسًا:

-هذا ما كنت أقصده عندما أخبرتك أنك بحاجة للحب. هل صدقتني الآن؟ كم أنت محظوظ يا آرام، ليتني أرسم، كنت رسمت وجه هيلانة على حوائط غرفتي الأربعة.

ثم التفت لي وحدق بي بتوترٍ، أرهقني تتابع موجات مزاجه المختلفة دون فواصل، قال هامسًا كأنه يخشى أن تسمعه الصورة:

-كيف هو الأمر يا آرام؟ كما كنت تتخيله؟ أروع؟ أتفه؟

كان صدره يعلو ويهبط معبَّأً بأنفاسٍ حارة، ولمعان عينيه يشي بحريقٍ صغير آخذ في النمو مع كل شهيقٍ. أعتقد أنه خجل لوهلةٍ من السؤال لكنه لم يملك الإرادة لسحبه، أراد فعلًا أن يعرف، لكن ما الذي أخره كل هذا الوقت؟

-حسنًا، كنت أود أن تسألني لأنني أردت البوح لأحدٍ... لأن ما حدث معي لم يكن... عاديًا، ربما يظن الجميع هذا، لكن فيما يخصني هناك مرحلتان؛ ما

t.me/qurssan

قبل وما بعد. ما قبل المعرفة، حين كنت أتناول جسدها كالطعام منجذبًا إليها انجذاب الجائع لمائدةٍ حافلة، كانت الرغبة قويةً وعنيفةً وملحةً ومطالبةً بالإرضاء العاجل، كنت أشعر بلذةٍ تتصاغر إلى جوارها كل لذات الحياة وتنمحي، ثم بعد تلك اللذة... لا شيء! كمن أحرز قَصَبَ السَّبْقِ ثم لم يدرِ ماذا يفعل به. فكرت أن هذا البرود الذي ينتابني بعد كل مرةٍ لابد أنه راجع إلى شعورٍ باطني متوارث بدناءة ما أفعله، وهكذا حاولت مرارًا الإقلاع عنها، ربما تقبلت هي تلك المعاملة لشعورها هي الأخرى بالذنب. المهم أنها لم تنبذني قط، إلا بعد ذلك اليوم الذي حضرته أنت وكامل لفجاجته الشديدة، أظنها لم تستطع الكذب على نفسها تلك المرة. منذ ذلك الحين بدأت على استحياء تباشير المعرفة. رويدًا رويدًا تكشفت لي نفسي، وعرفتها هي أيضًا، لا أدري هل بدأت أحبها أم أدركت أني كنت أحبها؟ هنا بدأت مرحلة ما بعد المعرفة! كان الاحتياج موجودًا وملحًا أيضًا لكنه مختلف... فيه من الحنان والرغبة في المنح ما يضفي عليه، أعرف أن هذا غريب، بعدًا أبويًا أو أخويًا! لكنها متعة أبعد من كل قدراتنا على التخيل، تلك الرغبة في ضمها وحمايتها وتدفئتها وتدليلها وتمشيط شعرها ومداعبة قدميها وإضحاكها وإطعامها والنوم بجوارها وتحقيق أحلامها، والتهامها وسحقها في حضنك في الوقت نفسه! مرحلة "ما بعد" هي الشيء الأصيل الحقيقي وما قبلها كان التقليد المغشوش، يسرني أنك لن تختبره، ستدرك ما أعنيه عندما تكون معها.

أطرق برأسه كأنه لم يعد محتملًا ما به من ثقلٍ، وراح يهزه كأنه ينفي شيئًا بينه وبين نفسه!

-أعتقد بصدقٍ أني لن أكون آثمًا لو احتضنتها الآن دون تأجيلٍ. يا إلهي... يا رب، ليس باحتضاني لها ذرة شهوة، تعرف ذلك، فلماذا أُحرم من الشيء الوحيد القادر على حفظ صوابي من الطيش والزيغان؟! أليست هي ضلعًا

t.me/qurssan

من صدري؟ فما ضري لو أعدته لمكانه؟ آآه لو أحتويها فقط يا آرام، لاختبرت الموت والميلاد والخلود والألوهة في لحظةٍ واحدة.

***

أخيرًا الربيع الحقيقي. لتذهب ليالي البرد إلى الجحيم.

القس يريد اللوحة قبل أسبوع الآلام.

اكتشف دكتور أرتينيان أخيرًا اختفاء الأقراص من المعمل ولا يعرف من يلوم، مساعده الصباحي عمر أم المسائي نسيم؟

بيتر سكوت سيحضر حفلًا آخر رسمي قبل العودة إلى الجبهة، سيكون على ضفاف النيل الساحر في سفينةٍ نيلية مخصصة للضباط. ستصحبه فيرجينيا على الأرجح لقضاء أطول وقتٍ ممكن بصحبته.

***

يوسف مدعو للحفل نفسه! سيكون هذا غريبًا جدًا، أن يكون هو مع فيرجينيا وأخيها وأنا هنا، لقد تدبر ابن دانيال باشا دعوته.

ليس لدي الوقت الكافي لإعادة رسم يوحنا، لذا سأتركه كما هو وأبدأ برسم المسيح. سأترك وجهه للنهاية.

***

أرسل إليّ مدير المعرض ليخبرني أني مطلوب لرسم صورٍ شخصية للأسرة الملكية. لا يمكن أن تكون المصادفة دقيقةً لهذا الحد. لماذا أنا؟ قال أن الملكة تحب الرسامين الأرمن لأنها تدربت على يد أحدهم وأن الملك يفضل مصوريهم وأن لوحاتي راقتهما معًا! لا أظن الأمن الميداني بهذه البراعة حتى يوحي للملك والملكة باستدعائي، لا أملك رفاهية الرفض قطعًا. فليكن ما يكون!

***

t.me/qurssan

لقد طرد دكتور أرتينيان مساعده الصباحي عمر. بماذا ينبغي أن أشعر لو أنني نسيم؟ هل أشكر العناية الإلهية التي وفرت كبشًا بدلًا مني للذبح أم أرثي للكبش المسكين وأتعذب بذنب الناجي من العقاب؟

***

صمم يوسف على الاحتفال بي مع أبويه، هنأني دكتور يعقوب مسرورًا بما بلغته من مكانةٍ رفيعة، الآن بات يعدني نائبًا ساميًا عن الأرمن في القصر، قبلتني سيمون وشدت شعري كما اعتادت أن تفعل منذ سنين خلت. وأنا أغادر شقتهم همست بأذني على الباب:

-آرام، هل كان يوسف هو من أخذ الدواء؟

كيف حزرت؟ تظاهرت بأني لا أفهم عم تتحدث. ربما يجب أن أخفيه في مكانٍ آمن. ما دامت تشك في ابنها فهي لا تستبعد مشاركتي له في الإثم.

***

اليوم دخلتُ قصر عابدين. لا زال جزء مني يأبى التصديق. كم مرة شاهدته من أعلى سطح البيت دون أن أتخيل إمكانية ولوجه أو رؤية ساكنيه وجهًا لوجه، وكيف لا أجد ما أكتبه الآن وهناك آلاف التفاصيل التي اعترضت حواسي في كل لحظةٍ مرت بي هناك؟ سأبدأ بالملكة لأنها أوفر وقتًا من الملك... هذا ما قالته... أنا أدون في هذه الأوراق ما قالته لي الملكة... كم مرة يجب أن أكرر هذا حتى أصدقه؟ لكنها لطيفة... لم أتوقع هذا.

***

عزف يوسف كارمينا بورانا في حفل الضباط. الآن يمكنه أن يهدأ بعد أن حقق هاجسه الملح، أتعجب أن أحدًا من الحاضرين لم يعرفها، أم أن أحدهم عرفها ولم يشأ فعل شيءٍ؟

t.me/qurssan

أخبرني أنه راقص فيرجينيا ثلاث مرات كما فعل مع معظم صديقاتها، لم يشأ تقديمها وأخيها لأصدقائه المصريين هناك لضعف عواطفهم تجاه الإنجليز عمومًا. ماذا كانوا يفعلون في حفلٍ إنجليزي إذًا؟

***

تشاجرت سيمون مع يوسف عندما علمت بأمر كارمينا بورانا. الغريب أنها هي من أمده بالنوتة المكتوبة للقطعة بعد حصولها عليها من أحد أصدقائها بالأوبرا، لكن لا أظنها توقعت أن يقوم بعزفها أمام ضباط الحلفاء.

عاد بيتر إلى الجبهة وفيرجينيا مضعضعة معنويًا. كانت متماسكة دائمًا في وجوده ولم تفصح عن حقيقة ظنونها.

-لا أعرف فيما ينبغي أن آمل، أن ننتصر أم ننسحب دون خسائرٍ أخرى؟ هل هناك فرصة لهزيمة روميل أصلًا أم أن النهاية بدأت بالفعل؟ بدأت الإشاعات تتواتر عن وجود دخلاء يبلغون الألمان بتحركاتنا قبل وقوعها، والشك وسوء الظن يطالان الجميع. هل تعرف كم ألف منا أُسِروا؟ كم جندي انتحر؟ وكم يود الاستسلام لإنقاذ حياته؟ ثم يكون كل هذا هباءً، كل تلك المعاناة وكل أولئك الموتي والمشوهين، ولندن التي تحولت لأنقاضٍ... مجرد عبث! كلها ستمسي قربانًا لمجد الفوهرر اللعين. والمخجل أني في أعماقي أتمنى أن يهرب أخي من المعركة لو أنه جابه الموت... هذا يجعل منه جبانًا خائنًا لكنه سيكون حيًا، أي وضاعةٍ قد نتصاغر إليها حبًا بتلك الحياة الحقيرة!

حاولت تغيير مزاجها الأسود، فذكرتها بالحفل مستفسرًا عن تفاصيله، كانت عيناها مغرورقتين بالدموع عندما ضحكت فجأةً مندفعةً في الكلام:

-يوسف، يا له من طفلٍ مجنون! لقد راقصته الفتيات جميعًا، كان لطيفًا وجميلًا، غنى كعادته بكل اللغات بصوته الرائع. سوزان، إحدى البنات، جنت به تمامًا وأرادت اختطافه قبل غيرها لكنه اختفى فجأةً قبل نهاية

t.me/qurssan

الحفل... آه... اختفى بعد تلك الأغنية الرهيبة... لا أعرف من أين استقاها، كلمات لاتينية ولحنها... يوحي بحلول نهاية العالم... لو رأيت الصمت الواجم على وجوه الحاضرين... لماذا انصرف دون أن يجني ثمار أدائه الاستثنائي؟ كان يمكنه الحصول على أي فتاةٍ تعجبه من بين العشرات.

-لم يكن ليريد أي واحدةٍ منهن، يوسف يحب بالفعل ونال مبتغاه، كما أن الأغنية التي تتحدثين عنها مقدمة لكنتاتا كارمينا بورانا، موسيقى كارل أورف الألماني.

نظرت لي مشدوهةً قبل أن تقول:

-ذلك الغبي الأرعن! مهلًا، لقد كان ويليام سمارت موجودًا، فكيف لم يتعرف الموسيقى ويفعل شيئًا؟

-من هو ويليام سمارت؟

-يسمونه المايسترو. قبل الحرب كان نجم المجتمع الفني بلا منازع، هو عازف البيانو الأشهر وموسوعة موسيقية متحركة، سمعت أنهم أرادوا ابقاءه في منصبٍ إداري بالقاهرة لكنه أصر على خوض الحرب ميدانيًا. لا أعرف أين وضعوه. أكاد أجزم أنه لا يوجد عمل موسيقي منجز على مستوى أوروبا كلها يمكن أن يخفى عليه، فلماذا لم يعترض على يوسف؟ أي دعايةٍ ألمانية بمثابة خيانة عظمى ولا تهاون الآن بهذا الشأن...

-إذًا فقد كان يوسف محظوظًا لكون السيد سمارت فاته الإطلاع على تلك القطعة تحديدًا.

-أتعرف من كان هناك أيضًا؟ علي تيمور... كان جالسًا مع الضيوف المصريين البارزين من الباشوات وأعضاء الحكومة، لاحظت انطلاقه في الحديث مع كبار ضباطنا كأن له معرفة شخصية بهم. أين قلت لي أنك قابلته أول مرة؟

-في بارٍ يوناني، يرتاده عادةً الجنود وليس الضباط.

t.me/qurssan

-لماذا تكرهه إلى هذا الحد؟ لو ترى كيف يتبدل وجهك عند ذكره، ها قد صرت مخيفًا الآن.

-عدا أنه مغرور وثقيل الظل ومتعالي، وأني رسمت وجهه البغيض غائبًا عن إدراكي، هو ببساطة تركي. الأتراك فعلوا بنا ما فعلته محاكم التفتيش بالمهرطقين والأوروبيين بالهنود الحمر معًا!

لبرهةٍ صمتت حزينةً محملقة بعيني، ثم قبلت رأسي مواسيةً.

-لماذا لا يكرهه يوسف مثلك إذًا؟

-عزيزتي، يوسف يريد أن يكون صوتًا صارخًا في البرية على طريقته، هو فقط يريد مباركة البشر بأغانيه بدلًا من ويلات يوحنا المعمدان المخيفة .أنا لا أعدو كوني إنسانًا عاديًا مسكينًا.

-بالتأكيد أنت إنسان، مسكين ربما، لكنك قطعًا لست عاديًا.

***

يوسف لم يعد. قضينا ثلاثتنا ليلةً سوداء بانتظار عودته، كل ما تعرفه سيمون أنه بصحبة أحد أصدقائه المصريين، لا تملك اسمًا ولا عنوانًا. أنا لا أعرف منهم سوى مراد دانيال ولا أملك له عنوان أو رقم تليفون. سيسأل دكتور يعقوب نسيم، فهو القاسم المشترك بيننا وبينهم. لماذا لم يخبرني شيئًا عن رحلته؟

***

أخبرنا نسيم أن يوسف مع شابٍ يدعى نجيب عبد المسيح وأنهما ذهبا إلى منطقةٍ صحراوية تدعى وادي النطرون.

له الآن ثلاثون ساعة متغيبًا عن المنزل، سيذهب والده أخيرًا إلى البوليس.

***

لم يجدوا ببيت نجيب سوى خادمٍ مسكين مرتعب لغياب سيديه! فيوسف ونجيب لم يختفيا بمفردهما بل كانا بمعية والد الأخير.

t.me/qurssan

لم يبقَ لنا سوى أكثر التوقعات سوادًا، لابد أن حادثًا ألمَّ بهم في الصحراء. لم يعد أحد ولم يصل أحدهم مصابًا لأي مستشفى. البوليس لن يمشط الصحراء من أجلنا. سنذهب، أنا ودكتور يعقوب، على نفس خطاهم، سنذهب إلى وادي النطرون لتحري ما حدث لهم.

***

كابوس! كابوس!

أخبرنا الرهبان في الديرين بقدومهم وانصرافهم. تبين أنهم لم يصلوا إلى الدير الثالث قط. ما الذي كان يفعله هناك بحق الجحيم؟ رحنا ندور بالسيارة في حلقاتٍ متصلة حول تلك البقعة، نعود من حيث نذهب ونذهب من حيث نعود، فقط حتى لا تنتهي رحلتنا الخائبة دون جدوى، كأن الرمال ستنشق فجأةً عن ثلاثتهم واقفين في الخلاء. سأذكر دائمًا مشهد تلك الرمال الكالحة المجدبة في أسوأ موضع بكوابيسي، فقدان الأمل أسوأ من الموت. كيف أستأنف حياة أسوأ من الموت؟

أرى جثتي أبي وأمي المسلولتين على ذلك الفراش الممزق مجددًا، وأستعيد كامل رعبي من القادم بقلب طفلٍ في العاشرة. أردت الصراخ بوجه أحدهم بالحقيقة لعل ذلك الألم ينتقل إليه ويخف عن صدري. تحدثت إلى كامل، لم أقل سوى ثلاث كلمات: لا أثر ليوسف.

***

جاءني كامل ليعرف التفاصيل، لا أعرف إن كانت تلك اللوعة الصادمة على وجهه حبًا خالصًا ليوسف أم إشفاقًا على أخته.

-ماذا ستفعل؟

سألته قاصدًا ما يتعلق بكيفية إخبار هيلانة، لكن رده كان غريبًا:

-نحتاج للمساعدة. نحن بحاجةٍ ماسة للعون.

-ماذا تعني؟ هل هناك من تلجأ إليه؟ أنا بحاجة للمعرفة، لا تتركني أجن هنا.

t.me/qurssan

-لكنك... لن تفهم، من الأفضل أن تدع هذا الأمر لي.

حاول أن يغادر لكني لم أدعه، تشبثت به بإحكامٍ قائلًا:

-لن تنصرف إلا إن أخبرتني.

-سألجأ لشخصٍ قادر على المساعدة... حسنًا، إنه راهب ناسك، لا تنظر لي هكذا، قلت لك أنك لن تفهم.

تركته يائسًا. إن كان اللجوء للرهبان سيساعده على تقبل المصيبة لا بأس. يبدو أن منظري كان كاشفًا عما أفكر به لأنه صاح بي:

-لا تتجرأ على السخرية، لا تتجرأ على احتقار ما لا قدرة لك على فهمه.

-ماذا تقصد بما لا قدرة لي على فهمه؟ خزعبلات تحضير الأرواح والملائكة التي يعشقها المصريون؟

-لا يوجد في إيماننا ما يسمى بتحضير الأرواح، هذا تعامل مباشر مع الشيطان لا هزل فيه ولا غفران لمن يصر عليه.

بإرادةٍ عجيبة لا أعرف مصدرها استطعت الإمساك عن إطلاعه على الحقيقة الجارحة، أن والده شخصيًا يتعامل مباشرةً مع الشيطان. أجد الآن أن هذا كان كرمًا زائدًا مني قياسًا بما تلاه، فعندما أشرت إلى أن كل تلك الغيبيات، اللجوء إلى الرهبان وتحضير الأرواح، تقع في سلةٍ واحدة انفجر دون أن يشغل نفسه بأي تحفظٍ:

-لا أعرف ما الذي رآه يوسف بك ليخصك بكل هذا الاعتبار، ليتبعك كما يتبع الطفل المنبهر الحاوي. ألم تكن أنت من أعطاه ذلك الدواء الذي كاد يقتله؟ لذلك أخفيت الأمر عن والديه حتى لا يطرداك شر طردةٍ. لقد نفى في البداية عندما واجهته لكنه لم ينكر عندما ضيقت عليه الخناق، قال أنك أعطيته إياه لتجربه بعد إلحاحه عليك، لكني لا أصدقه، أعتقد أنه أراد مشاطرتك الذنب وأنك أنت من ألح عليه لتجربته، هو أنبل من أن يرى الشر فيمن يحبهم،حتى لو كان ساطعًا يعمي الأعين كعلاقتك غير الشرعية!

t.me/qurssan

لابد طبعًا أن تضحك ممن لا زالوا يؤمنون بالأوهام العتيقة كالصلاة وما شابهها!
لم أتوقع رسوخ ذلك التأفف مني لدي كامل. إذًا فقد تركه يوسف يعتقد أني أغويته بالعقار! خاف على صورته لديها. ليست بي ذرة فائضٍ من الحزن لأسكبه على هذا الطارئ التافه، كل شيء بعد يوسف تافه.

***

اليوم لجأت إلى علي تيمور. حصلت على عنوانه وذهبت لرؤيته. بدا ممتلئًا بالصحة والراحة على نحو مستفز. حدثني بالفرنسية:
-آرام ديكران، رسام الملوك،أي رياح طيبة ألقت بك!
أخبرته بما حدث وطلبت منه التدخل لمعرفة إن كان يوسف بمكانٍ يجوز ألا يعلم عنه البوليس المصري!
-هل تشك أنه معتقل؟ ومن ولأي سببٍ قد يعتقل ذلك الشاب الرقيق؟
هل هو جاد أم ساخر؟ أردف قائلًا عندما لم أرد:
-لم أظنك بهذا الإيثار،أن تأتي لي بينما تتمنى اختفائي من على وجه الأرض، لأساعدك في العثور على يوسف.
كانت عواطفي جليةً أكثر مما تخيلت، لكني لم أعد أملك غضبًا كافيًا لأتمنى زواله من الحياة، يوسف أزاح من قلبي تلك الرفاهيات .
-كثير الصمت كعادتك يا آرام ونافرٌ ومع ذلك فأنت مقروء تمامًا للآخرين، لستَ بالتعقيد الذي تظنه، لستُ حانقًا لأنك تمقتني، أراك عادلًا في ذلك، أنا مثلًا أمقت البريطانيين، والفرنسيين، والروس، وهذا عادل أيضًا.
ما الذي يقوله ذلك المختل؟ هل سمعت ما يقوله؟ لماذا يبدو متحمسًا كأنه يؤدي عرضًا بهلوانيًا؟
-ما بالك مصدومًا هكذا؟ لا يجب أن تكون متبحرًا في التاريخ حتى تعرف أن عصابة الحلفاء هي من تسبب في زوال الإمبراطورية التي أسسها أجدادي،

t.me/qurssan

كما تمنى قومك الجواسيس بالضبط، لولاهم لكان أبي الآن حاكمًا نافذ الكلمة في إسطنبول، بدلًا من أميرٍ سابق متبطل يحمل لقبًا منعدم المفعول. أعرف السؤال الذي يعتصر فضولك الآن. لماذا أرتاد حفلاتهم وأتظاهر بصداقتهم؟ لماذا أتباهى بثقافتي الفرنسية وملابسي الإنجليزية وأصحابي ذوي الأزياء العسكرية؟ لأنك يجب أن تحتفظ بأعدائك قربك، بل أقرب ما يكون لك.

ثم اقترب مني حتى كاد وجهه يلمس وجهي وقال هامسًا بسعادةٍ وفخرٍ:

-سأدلي لك بتصريحٍ خاص لأني أعرف أنك لن تستطيع الإفادة منه. تابعْ الأماكن التي تواجدتُ بها دائمًا بصحبتهم، ستجد أن أحدهم مات ميتةً غامضةً أو تراجيديةً، مثل البار اليوناني الذي قابلتني به. أتعرف أن جنديين قد قتلا أمامه؟ نعم، أنا من دبر الأمر برمته، أنا من حدد الموعد المناسب وأعطى السلاح ورسم خطة الهجوم والهرب، عملية واحدة في كل مكانٍ حتى لا ألفت الأنظار. أحدهم أصيب بنوبةٍ قلبية في حفل ماري رياض، لكني ساعدته على ذلك بما وضعته في شرابه، هكذا أوزع خدماتي في كل مكانٍ أذهب إليه. الجزء الممتع حقًا يكمن في خداع كل أولئك الحمقى، وأولهم يوسف. لقد مثلت جماعتكم غطاءً ممتازًا عندما شعرت بالمراقبة،أظن أن أحد ضباطهم بالأمن الميداني يشك بي ويعتقد أني على اتصال بالألمان، لكنه لا يملك دليلًا ولن يفعل.

تنهد طويلا كأنما أفرغ صدره من عبءٍ طال حمله، كان سعيدًا خفيفًا، وكنت أحترق بغضبي من جديد، أنهى عرضه المنفرد بإشارةٍ محتقرة من يده لأنصرف مستكثرًا الكلمات. خرجت لا أرى ولا أسمع ولاأفقه شيئًا سوى حقدي الأسود. سأقتله يومًا ما.

***

t.me/qurssan

بحثت عن الأقراص ملهوفًا ولكن دون جدوى، لقد اختفت! من أخذها؟ ومتى؟ لم أبحث عنها منذ أخفيتها بعد حادث المستشفى. كيف سأتمكن من الذهاب إلى القصر؟

طعنتني رؤية سيمون في الصميم، رأيت فيها كل ما ورثه يوسف منها، البني المبرقش بالذهب في الشعر والعينين والملامح الملائكية ذاتها، لكنها بخلاف ديدنها كانت مشعثة المنظر مجعدة الوجه كأنها أصبحت بعامها التسعين. مَرْآها على هذا النحو كان باعثًا على اليأس أكثر من مضي الأيام دون جديدٍ. أردت أن أمسك يديها لأرجوها على ركبتي: أرجوكِ لا تتحولي لأنوش أخرى، لا تتصرفي كأنه قد مات وانتهى. انتظريه معي.

***

أتخيل وجهيهما وأنا ألقي عليهما الأنباء:

-سيدي، سيدتي... لقد تم استدعاء فيرجينيا، خطيبتي، لسؤالها عن علاقتها بيوسف! نعم... يوسف معتقل لدى الإنجليز، يظنونه عميلًا ألمانيًا أو ما شابه... ليس لديها فكرة عن السبب لكنها تعتقد أن عزف الموسيقى الألمانية مبررًا كافيًا لبث ذلك الشك. لقد دافعت عنه قدر استطاعتها لكنها تخشى أن الأمر لن يُحل بسهولة.

أعرف بالطبع أن تلك الموسيقى لم تكن سوى شررٍ ضئيل قادهم إلى صندوق الديناميت الخفي... كيف لم يُقْبَض على سيمون بعد؟

وجَّهتُ بالنهاية إنذارًا ضروريًا لسيمون، لم أستطع تركها غافلةً:

-يوسف لدى البريطانيين ويُظَن أنه متعاطف مع الألمان، بالتأكيد عرفوا عن خالته وزوجها الضابط الفرنسي المناصر لحكومة فيشي، أليس هذا هو الأرجح؟

بدت متماسكةً كأنها تعرف بالضبط ما ينبغي فعله.

***

t.me/qurssan

كان هذا ... سريعًا. لقد رحلت سيمون!

تركت لزوجها خطابًا تخبره أنه لا مناص لها من الاختفاء، وأن وجودها لن يسدي يوسف أي خدمةٍ فضلًا عن أنه لن يستمر طويلًا، سألته أن يحرق الخطاب بعد قراءته، وقالت أنه سيعرف آجلًا أو عاجلًا السبب!

وفي اليوم ذاته داهموا البيت وفتشوا كل ركنٍ ورفٍ وحشيةٍ، كان أثرهم على كل شيءٍ كاسحًا، صادروا الراديو وكل الأوراق والخطابات، لم يعترض الرجل ولم يقاوم كأنه كان ينتظرهم، لابد أن غياب زوجته أحدث خللًا في قدرته على التفاعل مع المصائب، بدا شاردًا كأن ما يحدث لا يعنيه في شيءٍ. حتى بعدما اصطحبونا للتحقيق لم يظهر أي انفعالٍ أو اعتراضٍ. قضينا هناك الليل كله وفي نهايته كنتُ قد فهمت كل شيءٍ. عندما سألني راسل باشا:

-كيف لم تعلم؟

لم أجد إجابةً مقنعة. جاء لموقع التحقيق بصفةٍ غير رسميةٍ ليتحدث معي. كان يرمقني بعينين حادتين لم توهن السنون من بريقهما.

-إنكاره لمعرفة أمرٍ كهذا مثير للشفقة طبعًا، وأنت... ألست رفيقه وربيب أسرته منذ اثنتي عشر عامًا؟ كيف يمكن أن تمر كل تلك الأعوام دون أن تسنح فرصةٌ يخبرك فيها أن والد أمه كان ألمانيًا؟

سيمون برنار، اسمها قبل الزواج، كيف يتضح فجأةً أن اسم أبيها يصلح أن يكون فرنسيًا أو ألمانيًا على السواء؟ لهذا هربتْ بالطبع.

-أليس هناك احتمال للخطأ؟

كنت أحاول التمسك باتزاني وأن أظل منطقيًا أو مفيدًا للنهاية، رغم تلك الرغبة الملحة في الصراخ، أي عبثٍ هذا! وأنا من ظننتُ أنها تفر من شبهة تأييدها لفيشي ليتضح لي أنها ألمانية من جهة الأب!

قص عليّ الرجل بدايات الحكاية الشاعرية:

t.me/qurssan

-سارة أنطوان، العازفة الفرنسية، التقت بالعازف الألماني الذي زار باريس ليعمل بدار الأوبرا في أحد المواسم. تطورت العلاقة سريعًا لما يشبه الزواج دون توثيقٍ رسمي، وفي نهاية الموسم الموسيقي عادت الفرقة الألمانية لموطنها ومعها العازف العاشق، يوهان برنار، تاركًا خلفه حبيبةً بداخلها طفلتين توأمتين، سيمون وكلوتيلد. الغريب أنها أصرت على تسمية الفتاتين باسم والدهما مع غياب أي مستندٍ يثبت زواجهما. يبدو أن فرقته، وهو كذلك، لم تعد لفرنسا ثانيةً، فقررت ترك البلاد والمجيء إلى مصر لتلد ابنتيها وتعمل على تربيتهما بمفردها. أشاعت هنا أن زوجها موسيقي فرنسي ميت، لكنهما تراسلا لأعوامٍ طويلة، وعندما قرر المجيء لزيارة ابنتيه أخيرًا وافته المنية على سطح الباخرة القادمة للإسكندرية وتم دفنه هناك. قصة حزينة،أليس كذلك؟

بمشقةٍ حقيقية تمكنت من استعادة قدرتي على التفكير وترتيب الكلمات في جملٍ ذات معنى.

-هل يصنع منه ذلك ألمانيًا؟ لمجرد أن عازفًا ألمانيًا نام مع جدته قبل أن يولد بربع قرن... هذا ليس عادلًا.

-نعم، أنت محق، لكن ما يصنع منه ألمانيًا هو اختياره لترديد دعايتهم في محافلٍ عسكرية وقت الحرب، وأن يكون من أسرةٍ مؤيدة للحكومة المتحالفة مع الألمان. فخالته هي زوجة أحد ضباط الحامية الفرنسية الفيشية بالشام.

في تلك اللحظة أبرق كل شيءٍ برأسي. هل كانت سيمون نفسها عميلةً من نوع ما؟ هل كانت تروج بين مواطنيها للمنطق الوطني الفيشي دون أن نشعر؟ كان حديثها المرير عن ضرب وإغراق الأسطول الفرنسي بالجزائر من قبل البريطانيين يحمل غضبًا وقناعة باحتقار إنجلترا لقيمة الحياة الفرنسية، لماذا لم يعنِ لي هذا شيئًا من قبل؟ أنهى هو تأملاتي هذه بقوله الفاصل:

t.me/qurssan

-واقع أنه ألماني، وفي هذا التوقيت الحرج السيء، لا يمكن تغييره، وبما أن أمه غير متاحةٍ للتحقيق معها فلا يمكن إثبات كون أحدهما جاسوسًا من عدمه، لكنه سيعامل معاملة الألمان ولن يطلق سراحه حتى تنتهي الحرب، ولن نترك أبيه حتى نتأكد أنه لا يعرف مكان زوجته كما قال. ليس لدي ما أضيفه.

كل ما أمكنني الحصول عليه، بعد التلويح بالطلب من الملكة مباشرة، هو وعد بلقاءٍ واحد لن يتكرر، فرصة استثنائية لرؤية يوسف، هذا هو المغنم الوحيد الذي استطعت قنصه من معرفتي بحكمدار العاصمة.

***

وجدتها جالسةً على عتبة السلم أمام شقته، هيلانة إسطفانوس، الجمال الذي يورد إلى التهلكة، وقد صارت هي أقرب ما يكون للهلاك: الهالات السوداء تحت عينيها والاحمرار فيهما، تلك كانت الألوان البارزة على صفحة البورتريه الشاحبة لوجهها. صوتٌ أجش مجهد بادرني:

-وجدتُ الصيدلية مغلقةً، وطرقت الباب هنا فلم يُجِب أحد، قررت أن أنتظر حتى يأتي أحدكم... أبوه، أمه، أنت.

-أين كامل؟ لماذا جئت وحدكِ؟

-لم يعد بوسعي سؤال كامل عن يوسف ولا طلب شيء يخصه.

أخذتْ نفسًا عميقًا كأنها تستمد القدرة على الحديث.

-كامل يعتبر يوسف قضيةً تم إغلاقها، قرر ألا ينقل لي أخبارًا عنه بعد الآن.

-ماذا تعنين؟ لقد تركني آخر مرة وهو عازم على مساعدته.

-وقد فعل، وسيفعل... ولكن بعيدًا عني.

-لماذا؟

شهقتْ فجأةً وارتجفت، تحدثت بنبرةٍ يائسة مبتلة بالنشيج:

t.me/qurssan

-لأنه صار واثقًا أن مستقبل يوسف لن يكون... صالحًا أن أعول عليه أو أرتبط به.

-عجبًا! ألم يعد لديه إيمان كافٍ لانتظار المعجزات؟ كان سيلجأ لذلك الناسك واضعًا نصب عينيه الصلاة كسلاحٍ استراتيجي، فأيهما خذله؟ الراهب أم الصلاة؟

راعني أن أكون سببًا في انهيارها عقب ما قلته، إذ انفجرت دموعها مع شهقاتٍ متتابعة كادت تمزق صدرها، رحت أرجوها أن تهدأ دون أن أجرؤ على لمسها، تركتها حتى أفرغت حريقها وفتحت فمها طالبةً أكبر قدر من الهواء، لم تكترث لتجفيف دموعها التي بدأت تترسب على وجهها، ونظرت أمامها بعيونٍ ميتة لتقول:

-هذا الراهب تحديدًا هو من أخبرنا أن ننسى يوسف. لقد صممت أن أكون مع كامل عندما يذهب لزيارته، أخذني إليه. دخلت معه لمقره ورحب بنا، لا يمكن وصف تلك السطوة التي تدهمك ما أن تقف أمامه، ظننت أني مهيأة لتلك التجربة بعد وصف كامل له مرارًا، لكن لا يوجد ما يجعلك مستعدًا لذلك الشخص، صوته يخترقك فعليًا، يستحيل أن تشك في مصداقية حرفٍ ينطق به، تعرف تلقائيًا أن ما يقوله حقيقي، لقد عرف ما كنا ذاهبين لأجله قبل أن نتكلم حتى.

-لا أفهم.

هنا فقط نظرت لي مباشرةً بقطعتين من الفضة الغارقتين في الدم، وبحدةٍ قالت:

-ما الذي تجده مستعصيًا على الفهم؟ بعد دخولنا بدقيقتين بادرنا هو قائلًا "يوسف سيظل حبيسًا لعامٍ، ولن يعود إلى كلية الطب أبدًا، وأنتِ... ليست إرادة الله لكِ أن تنتظريه".

t.me/qurssan

-هكذا! هل عرف مستقبل يوسف بمجرد دخولكما إليه؟ وهو محاط علمًا بإرادة الله كذلك؟

-كامل لم يخبره عن يوسف قط، فكيف عرف أنه سجين وبكلية الطب وأني...أحبه؟ من يعرف الحاضر بتلك الدقة هل يكذب بشأن المستقبل؟ لا أحد يتمنى أن يكون مخطئًا مثلي، لكن أبونا مينا لا يخطئ. المخيف حقًا أني أختار بملء وعيي أن أخالف ما يخبرني الله صراحةً أنه الصواب... كأنني أرفض اختياره وأبدله بهواي، هكذا لن أجد من ألجأ إليه لو أني شقيت بهذا الاختيار، ومع ذلك... أنا عاجزة عن إخراجه مني، عاجزة عن اختيار مصيرٍ سواه، أفضلُ أن أشقى به على الراحة بعيدًا عنه. كامل لا يفهم أني تورطت وانتهى الأمر، ولن يحدث ما يغير ذلك.

على سطح البيت أسفل التكعيبة جلسنا وأخبرتها كل شيء؛ شجاري مع أخيها، رحيل سيمون، أسباب احتجاز يوسف، والجد الألماني.

-أنت ترسم الملكة نفسها... ألا يمكن أن...

-لكني فعلت، وقد تدخلتْ بالفعل وطلبتْ أن يطلق سراحه، لكن المسئولون البريطانيون اعتبروا طلبها تدخلًا في شئونهم الخاصة ورفضوا إجابة سؤالها، حتى رجاء الملكة لأجله لم يساعده.

وضعت رأسها بين كفيها كأنما تحفظه من السقوط، تمتمت قائلةً:

-كلما فكرت في سبب حدوث كل شيءٍ كدت أختل، لقد قُبِض عليه لأنه ذهب إلى وادي النطرون! فقط ليرى المكان الذي ذكرته في مقالي، ليرى باب النبوات الذي حدثتُه عنه، بل طلبتُ أن يرسمه لأجلي، هل ألعن نفسي أم ألعن المقال؟

ليست بي ذرة نقمة عليها، لو أن يوسف ذهب إلى ذلك المكان بسببها فهي لم تدفعه لعزف كارمينا بورانا في الحفل العسكري، ولم تجعل رجلًا ألمانيًا يضع بذرته برحم جدته لتنجب أمه، هي لا تحمل سوى ضلعٍ واحد في مثلث

t.me/qurssan

النحس والقدر والغباء الذي رُسِم حول عنقه بإحكام. بالنهاية أطلعتها على الزيارة الوحيدة التي سيرتها راسل باشا لأجلي، كان الرجاء الذي طفر فجأة على وجهها طاعنًا لقلبي، من أحق بهذه الفرصة؟ هي أم يعقوب أرتينيان أم أنا؟

***

رسمتُ وجه المسيح أخيرًا، محجوبًا تمامًا، فالرأس منكس ولا يظهر منه سوى ستارٍ من الشعر الأسود الملوث بالدم والشوك فقط. كيف أرسم وجها لم أره قط؟

***

تذكرتُ أني لم أغلق باب حجرتي عندما عدت ووجدته مواربًا. بالداخل وجدت فيرجينيا جالسةً ممسكةً بمذكراتي، قرأتْ كل ما كتبته. نظرت لي بحزنٍ وارتباك.

-إذًا فقد كنتُ أثير اشمئزازك! لشد ما حيرتني يا آرام! لا بأس، لا أريدك أن تبرر شيئًا، أريدك أن تَصْدُقني في أمرٍ واحد فقط، هل تحب يوسف؟

جرحني تساؤلها البارد المحايد، لم أجبها وطلبت منها المغادرة، لكنها لم تغادر وراحت تنظر لصورتها المنصوبة بجانب صورته، جزء مني تفهم إحباطها من كآبتي وبرودي معها منذ اختفى يوسف، لكن القسم المسئول عن المسامحة والكرم بنفسي كان معطوبًا.

أعادت السؤال بنفس الهدوء المستفز:

-هل تحبنا معًا؟ أعرف أنك تحبني فهل نحن متساويان لديك أم أن أحدنا يفوق الآخر قليلًا؟

صرختُ بها:

-هلا صمتِ؟ كُفي عن ترديد ذلك القرف ،أكرهكِ يا فيرجينيا في هذه اللحظة ولا أريد رؤيتكِ.

t.me/qurssan

اقتربت مني دون أن ترتاع أو تضطرب، أمسكت بوجهي بحنانٍ وقالت:

-تعالَ معي إذًا! لنرحل إلى إنجلترا ونتزوج هناك!

-أنت تهذين، لستِ حرةً لتعودي إلى وطنكِ، أنتِ متطوعة بالجيش ولا يمكنكِ الزواج والرحيل، ولن أرحل من هنا ويوسف سجين.

بعد رحيلها رحتُ أعيد قراءة ما كتبتُه بعينيكَ... ما الفرق في النهاية بين الكتابة لنفسي والكتابة لتقرأ أنت؟

***

إنني أحدثك الآن يا يوسف. لقد أعطيتهم اللوحة متأخرًا كثيرًا عن الموعد الذي حددوه. أدهشهم كمالها على حد قولهم. سألني الأب عن الأجر الذي أطلبه، طلبت منه أن يخرجك! هز رأسه موافقًا ووعدني بالمحاولة كأن الأمر مطروح.

أخبرت يعقوب أرتينيان أن بوسعه رؤيتك، وأنه سيضطر لاصطحاب هيلانة إسطفانوس معه. تعجب عندما أخبرته السبب، إنه الترتيب الطبيعي للأولويات، عندما يُسمح بزيارة شخصين فقط لا أكثر، فمن أحق من أبيك وحبيبتك؟

***

قابلتنا هيلانة أمام مقر احتجازك، المدرسة الألمانية التي تحولت لمعسكر اعتقال لرعايا الرايخ، خمنت أنها جاءت دون علم أخيها لكني لم أسألها طبعًا. أوصلتها هي وأبيك حيث الضابط المختص وجلست أنتظرهما. كنت ألتهم نفسي يا يوسف، عالمًا أنك هناك بالداخل ولا يفصل بيني وبينك سوى أمتارٍ، وأني قد تنازلت طوعًا عن رؤيتك، أعزي نفسي بأني أَنَبْتُ عني من يفوقني أهميةً لديك، ممنيًا قلبي أن تتمكن من احتضانها أخيرًا.

يوسف يا شقيقي، يا صاحبي، يؤلمني مرأى كل شارعٍ جزته معك، وكل شجرة تظللنا بها، عربات الحنطور التي حملتنا من وإلى المدرسة، باعة الحلوى

t.me/qurssan

والعرقسوس، الأزبكية وعماد الدين وقصر النيل وشارع فؤاد وعابدين والضاهر وشبرا والزمالك، الأوبرا ومعرض الفنون وجروبي والبار اليوناني، القاهرة بأكملها تحولت إلى سرادق ضخم للعزاء وهي تستقبلني وحيدًا وتستنكرني وتلومني على المضي دونك! حتى فيرجينيا بِتُ أتذكرها دائمًا وهي تعزف الترومبيت بجوارك، فأين أفر منك؟ ليست فيرجينيا مخطئة بالكامل رغم كل شيء، فحبي لك غريب، يحمل عاطفة عشرة إخوة ورغبةً أنانيةً لم تنضج أبدًا في الاستحواذ عليك.

عاد أبوك وفتاتك من زيارتك وكل منهما يتفحص الأرض كأنما يتيقن من وجودها في الحقيقة. بادرتهما سائلًا:

-هل رأيتماه؟

دون أن ترفع بصرها أعلنت أنها ستغادر فورًا لتعود للبيت قبل أن تتأخر، ولم تنتظر الرد وذهبت. أخرج أبوك ساعته لينظر فيها وأمسك منديلًا ليمسح نظارته وشفتيه ترتجفان. دون أن أتكلم جذبته من ذراعه برفقٍ لنسير حتى نجد في الحركة معينًا على التماسك. وبعد مسيرةٍ صامتة لدقائق بالشارع أعلن فجأةً أنه بحاجة للجلوس. لم يكن هناك أي مكانٍ قريب يصلح، خفت أن يقع منهارًا فأجلسته على الرصيف. تنفس بصوتٍ مسموع، ومر وقت بدا لي دهرًا قبل أن يتمكن من الكلام.

-هو بخير، بدا مريضًا، لكنه بخير. ظننته سيقف هناك للأبد ينظر لنا بتلك الدهشة والفرحة في عينيه، حاول ألا يبكي عندما احتضنته لكنه لم يفلح، تركته ليستطيع تحية هيلانة فمد لها يده ليصافحها، لكنها...ألقت بذراعيها حوله، ضمته إليها بقوةٍ. ياإلهي! لو أن الحب له قوة مادية لالتحما إلى الأبد. صوت شهقاتهما يأبى مغادرة أذني. جلسا دون أن يترك يديها أو يحول عينيه عنها، قال لها باسمًا :

t.me/qurssan

-اتضح أني أحمل جينات آرية بجسدي، ربما كان هذا هو سر تميزي النادر! هل كنت تعرف يا أبي؟ أظنها لم تكن علاقة رسمية ولذلك أخفتها، آسف أيضًا لأنهم أخذوا دفتركِ يا هيلانة، الأمر الإيجابي الوحيد أنكِ وقعته باسم أسِنات قبل أن تعيديه إليّ، عمومًا لقد ادعى صديقي الذي امسكوا به معي أنه دفتره! أعتقد أنهم ظنوه كتاب شفرات ثم لم يجدوه مهمًا، وإلا ما كانوا ليطلقوا سراحه.

طلب منها أن تصلي لأجله وقَبَّل يديها، بكت، بكى. آآه يا يوسف، لم تكن مستحقا لكل هذا العناء، ما أشبهك بملاكٍ نُفي إلى الجحيم بطريق الخطأ! حتى وأنت شاحب مشعث ضعيف مهدل الكتفين، كيف لمن مثلك أن يهدر هكذا!

نهض ليمضي متكئًا عليّ وهو يتمتم طول الطريق:

-عمر ضائع! عمر ضائع!

***

بعد زيارتك لم يعد والدك إلى الصيدلية، أغلقها وأعلن عرضها للبيع. يقضي جل وقته بالبيت وقد عاد لعزف البيانو مجددًا. ينام في فراشك وهو يستمع إلى أسطوانات سيد درويش وعبد الوهاب التي تحتفظ بها في غرفتك.

الوقت يمر.

***

روميل في العلمين. انتصار الألمان يعني خروجك الفوري من المعتقل، ووضع حياة فيرجينيا في مرمى الخطر، أي تبادلكما الأدوار على الأقل، ماذا يجب أن أتمنى إذًا؟ أحاول أن أفكر بحياديةٍ، وقوع فيرجينيا في الأسر أمر عادل؛ لأنها مجندة، تطوعها بالجيش يعني القبول الضمني لاحتمالي القتل أو الأسر، فلا ينبغي أن تشتكي من وقوع أحدهما، بينما وجودك أنت بحيز الاعتقال عبثي وظالم، المنطق يقضي بأحقيتك في التحرر.

t.me/qurssan

لو أنني المتحكم في أقدار البشر ومصائرهم، ماذا كنت سأفعل؟ كيف سأوفِّق مسار العدالة ليشمل الملايين من يوسف والملايين من فيرجينيا دون أن يسألني أحدهم صارخًا: لماذااااااا؟ هذا ليس عادلًا! الأفضل أن ألعب دور جندي الشطرنج الذي لا يفقه سببًا وراء تحريكه وله مع ذلك مطلق الحرية في الصياح والاعتراض عالمًا أن هذا لن يغير شيئًا. ما أجمل وأتفه أن تكون بشريًا! وما أقسى أن تكون إلهًا!

***

ذهبتُ إلى الكنيسة لأول مرةٍ منذ خمسة أعوامٍ على الأقل، أردت رؤية لوحتي، أردت أن أرضي غروري، أن أجدها بأفضل موضعٍ حيث يمكن لجميع المصلين رؤيتها بوضوحٍ. أدهشني أن ألحظ بها تغييرًا ما لا يمكن تحديد كنهه، كأن طبقة لونية أو طيفًا غير مرئي قد أُضِيف إليها يغطيها بأكملها. سألت الأب جريجوري مباشرةً إن كان أحد قد عدل بها أو أضاف إليها فأنكر تمامًا. قال بثقةٍ تامة:

-لم نقم إلا بتدشينها. تعرف طبعًا أن كل لوحة تُعلق بالكنيسة يُصلى عليها وتدهن بالزيت المقدس لتدشن.

ثم ابتسم مستطردًا:

-يمكنك الآن التبرك بلوحتك. أليس هذا امتيازًا نادرًا؟

***

اليوم أتاني كامل. توجست من شجارٍ أو تقريعٍ محتمل، لكنه كان هادئًا دمثًا كما رأيته أول مرة. لابد أنه لم يعرف بزيارتيّ أخته. كان بحاجةٍ للحديث. خلع طربوشه ووضعه أمامه على المنضدة وراح وهو يتكلم يدق عليه بأصابعه كأنه طبلة.

-كنت عائدًا من شارع القصر العيني أول أمس، وكانت هناك سحب هائلة من الدخان تشي بحريقٍ ضخم، صاحبتها أوراق نصف محترقة تطير بالجو

t.me/qurssan

وتستقر حيثما اتفق تحت أقدام المارة. أتعرف أين كان الحريق وما سببه؟ لقد كان موظفو السفارة البريطانية يحرقون ملفاتهم! هل تصدق هذا؟ لقد التقط كل من شاء الأوراق التي لم يصبها ضرر وراح يحاول فهمها رغم جهله على الأرجح باللغة الإنجليزية! كما أن هناك أخبار بالكلية عن رحيل أُسر الأساتذة البريطانيين والموظفين اليهود على القطار المتجه إلى فلسطين. أظن هذا كله لا يدع مجالًا للشك في مصير هذه الحرب. لقد أثار وصول روميل إلى العلمين جنون الجميع، سيسعدك أن تسمع هذا... لقد اعتقلوا علي تيمور! يبدو أنه كان سكرانًا بشدةٍ في كلوب محمد علي وأخذ يشيد بالعبقرية الألمانية معلنًا دعمه الكامل للفوهرر ساخرًا من غباء البريطانيين وفشلهم... لا أدري... هل كانوا ينتظرون سببًا للانقضاض عليه؟ لم يتصور أحد أن بإمكانهم فعل ذلك، أعني اعتقال أميرٍ تركي، هذا شائك جدًا. من السخيف والمضحك أنه معتقل الآن بتهمة يوسف نفسها، الولاء الألماني.

أجبته مظهرًا عدم اندهاشي:

-كنت أعرف. هو أخبرني بلسانه أنه قام بعملياتٍ تخريبية ضد الإنجليز، لم يكن جاسوس ألماني ليقدر على التخطط لأفضل منها. هذا ما حاولت إخباركما به دائمًا، أنه غير جديرٍ بالثقة.

فك كامل رباط عنقه قليلًا قبل أن يقول بترددٍ:

-مِن وجهة نظر مَن؟ العديد من المصريين يرون في الألمان حلًا ناجعًا لوجود الإنجليز غير المرغوب فيه، مثل القط الذي تدخله بيتك ليطرد الفئران التي تنهب طعامك. هؤلاء لن يروا في علي تيمور سوى بطلٍ مقدام بعيد النظر، ثم إنك تكرهه دون الحاجة لسببٍ كهذا. ليس عداؤه للبريطانيين هو دافع مقتك له، أليس كذلك؟ عمومًا يوسف ضمه إلينا لأسبابٍ عملية بحتة جعلته يتغاضى عن نواقصه الجلية للعيان. كيف حال الدكتور يعقوب؟

t.me/qurssan

-تمهل من فضلك، لا تغير الموضوع، ماذا تعني بأن يوسف ضم علي تيمور لأسبابٍ عملية؟ كنت موقنًا من وجود سرٍ غامض لا يريد كشفه لي، ولن أتركك حتى تخبرني به.

دق مجددًا بعصبيةٍ على طربوشه كأنه يزن خياراته، تطلع إليّ حائرًا بصمتٍ ثم قال متنهدًا بالنهاية:

-لقد حاول يوسف ضم بعض زملائنا بالكلية والترويج لما تدعو إليه الجمعية عمومًا، عدد كبير منهم حضر حفلاتنا ويبدو أن أخبارنا انتشرت بشكلٍ لم يرق أحدهم. بدأت تفد إلينا خطابات باسم يوسف في الكلية، ليس عليها توقيع، وصلت تباعًا بمعدل خطابٍ كل أسبوع، وكلها حوت المضمون نفسه؛ التحذير والتهديد. تحذير من الاستمرار فيما نفعله وتهديد بالعقاب لو لم نتوقف. مرسل هذه الخطابات ساءه بشدةٍ أن يرى جماعةً يقودها ثلاثة من النصارى المعادين لكل ما هو إسلامي عربي، كما يرى هو، داعين للتَفَرْنُج وإزالة الحواجز البديهية بين الحضارات لصالح الحضارة الأوروبية، وحتى يسهل للأجانب حكم البلاد وامتطاء المصريين بسلاسةٍ. ويملكون ما يكفي من الوقاحة لاصطحاب مجندةٍ إنجليزية للعزف معهم! كانت فيرجينيا هي القشة الأخيرة التي قصمت ظهورٍ عاجزة عن حملنا أصلًا، وقد حذرته بنفسي من مغبة ظهورها معنا لكنه لم يستمع لي، أن تغني أغان إنجليزية شيء وأن تجهر بصداقتك لأحد جنودهم شيء آخر.

-من أرسل تلك الخطابات؟ وكيف لم أعرف بشأنها؟

-غالبًا ما تصدر تلك التهديدات عن المتعصبين والعنصريين، مصر الفتاة، الإخوان... أما عن إخبارك فقد عرف يوسف أن غضبك لن يُبقي على أخضرٍ أو يابسٍ ولن يدع مجالًا لأي حلٍ، وهو لم يرد سوى الاستمرار فيما نفعله دون منغصاتٍ. لقد رأى بعض الوجاهة في اعتراضهم، قال لي بالحرف: "هم محقين في شيءٍ واحد، الجماعة تبدو ظاهريًا، حتى الآن،

t.me/qurssan

مقتصرةً على غير المسلمين، نحن لم نقصد هذا أو نتعمده طبعًا لكنهم لن يصدقوا ذلك، وعلينا تلافي هذا العوار غير المقصود سريعًا". وقد كان، جاءه علي تيمور على طبقٍ من فضة، تركي مسلم عضو بالجماعة، ما الذي قد يفوق هذا درءًا للشبهات وإبطالًا للحجج؟

-كامل، لماذا أتيت اليوم؟

-أردت أن... أتحدث إلى شخصٍ ما، يعرفني ويعرف يوسف. آرام، هل تظن أن هناك فرصة لإطلاق سراح يوسف الآن وروميل على الأبواب؟

بدا يائسًا كأنه متيقن من الإجابة بالنفي، لذلك لم يكرر السؤال إذ بقيت صامتًا. أرسل بصره إلى صورة فيرجينيا وقال:

-ماذا قالت عن يوسف عندما عرفت؟ هل ظنت أنه كان مدركًا لأصوله ولم يخبر أحدًا؟

-لماذا؟ هل تظن أنت ذلك؟

-أحيانًا...أراه سببًا منطقيًا وراء دفاعه المستميت عن تفاهة الانتماءات القومية والأيديولوجية وحرصه على تأكيد مصريته في الوقت نفسه، أليس عجيبًا أن تكون تلك مصادفةً؟

-لا، العجيب حقًا أن يعرف تلك الحقيقة ويعمل على لفت الأنظار لها بذلك الغباء.

-ربما كان راغبًا في كشف نفسه دون أن يدري، مثلما فعل تيمور، بمنتهى الغباء!

-يبدو أنك من معجبي فرويد أيضًا. عرف أو لم يعرف، هو لا يستحق أن يوجد حيث هو، أم أنك تحاول إيجاد مبررٍ للتخلي عنه؟

نظر لي مبهوتًا وقد أخذته على غرة، استشعرتُ به ضعفًا لم أره قط من قبل، لم يجادلني كأنه ضُبِط متلبسًا. عندما نهض لينصرف كان مرتبكًا وكاد ينسى طربوشه.

t.me/qurssan

-أرجوك خذ هذا الشيء من هنا.
ابتسم، تناول الطربوش ووضعه على رأسه قائلًا:
-ربما كان رمزًا تركيًا بالنسبة لك، لكنه مصري بالنسبة لنا... حتى إشعارٍ آخر.
-وأنا لم ادَّعِ يومًا أني مصري، هذا الادعاء لم يجدِ يوسف نفعًا أيضًا.
هز رأسه موافقًا وانصرف دون تعقيبٍ. أشعر أن هذه هي آخر مرةٍ أراه فيها.

***

أيامٌ بطيئة مجدبة قاحلة. لم أشعر بهذه الغربة حتى في باريس. مللتُ كلَ شخصٍ وكل مكانٍ، كل عملٍ وكل تبطلٍ. صار كل شيءٍ باليًا رتيبًا ونائيًا لا يخصني. أن تحس ببرودةٍ لدرجة الصقيع في كل ما عرفته وشَكَّلك يومًا، هذا هو الرعب. كل ما يحيط بك ليس لك، هو للآخرين، لكل شخصٍ سواك. وأنت مستبعد، لست مدونًا على قائمة المدعوين ولست مذكورًا في وصية أحدٍ. من دونك يا يوسف ليس هناك وطن، كل البلاد والأمكنة تتساوى.

***

الضابط بالأمن الميداني نفسه ومكان اللقاء نفسه. هناك خدمة مطلوبة مني داخل القصر! أخبرته أن صورة الملكة انتهت ولم أعد أقابلها، وأن عملي انتقل إلى صور الأميرات، لكنه أكد لي أن هذا هو المطلوب. هذه المرة لم أتردد، وافقت واشترطت الثمن؛ إطلاق سراحك.
حاول أن يماطل لكني لم أترك له خيارًا، بالنهاية وافق، لكنه قال أن الإفراج عنك سيكون بعد انتهاء المهمة. لن أخبرك عن المطلوب مني حتى لا يصيبك ذعر أو ضيق. لا أعرف متى سيتسنى لك قراءة ما أكتبه الآن، أعلم فقط أني لا أستكثر أو أستعظم أي مخاطرةٍ في سبيل حريتك. سيكون ما أفعله بسهولة إعداد الكتان للرسم، صدقني!

***

t.me/qurssan

لم أظن يومًا أني قد أتمتع بهذا البرود اللازم لأداء المهمة دون خوفٍ. تفرجت على نفسي وأنا أنفذ التعليمات بدقةٍ تكاد تكون آلية، وكدت أصفق لنفسي إعجابًا عندما انتهيت، لكني ارتأيت أن أؤجل احتفالي بالنجاح حتى أخرج من القصر. أرجو أن يفيدوا حقًا مما فعلت، حتى لا يجدوا حجةً للتراجع عن وعدهم.

***

عرفتُ اليوم ما أُخفِي عني من قبل عمدًا. أخبرني مباشرةً ودون مداراةٍ أني يجب أن أرحل:

-غالبًا سيعرفون بالقصر أنك من فعلها ولن تكون آمنًا عندها. لم نخبرك بهذا سابقًا حتى لا ترفض طبعًا. لا نضمن رد فعل الملك لكنه سيسعى للانتقام منك على الأرجح، لذلك سنسهل لك الاختفاء مؤقتًا حتى نخرجك من مصر نهائيًا، سنعطيك مالًا كافيًا لتستقر حيثما شئت. فكرْ أين تريد الذهاب حتى نعد العدة لسفرك.

إنها الغربة مجددًا، وأبدًا... طوعًا وجبرًا. سأخرجك فقط لأفارقك. حين سألته عن مصيرك قال ببساطةٍ:

-لا يمكنه العودة إلى كليته أو أي مكانٍ مألوف حتى نهاية الحرب، كل من يعرف أنه أُعتُقِل لكونه ألمانيًا لا يجب أن يراه أو يعرف بخروجه. يمكنه مغادرة القاهرة لو أراد، على أن يعود بعد أن تضع الحرب أوزارها.

***

هذه كلماتي الأخيرة لك يا يوسف، قد أراك لمرةٍ أخيرة قبل الرحيل وقد لا أفعل. لذلك أحدثك يا حبيبي عن النهاية. سأترك هذا الدفتر لوالدك، أعرف أنه لن يقرأه على الأرجح، لهذا لن أخشى إطلاعه على شيءٍ من أسرارنا سويًا. وهل بقت هناك أهمية لأسرارنا الساذجة بعد كل ما افتضح؟ إليك نبذة سريعة عن مستقبلي القريب والبعيد:

t.me/qurssan

الآن سأسافر، سأسبق فيرجينيا إلى إنجلترا وأنتظرها هناك حتى تعود ونتزوج. أخوها لا يزال حيًا يرزق ويحكي قصصًا أقرب للأساطير عن المعركة التي يبدو أنها غيرت مسار الحرب بأكملها.

الآن وأنا أغادر مصر بلا رجعةٍ معلومةٍ يداهمني حنينٌ شاذ إلى الوطن! أنت مبهوت طبعًا، لم تظنني سأعترف يومًا بعاطفةٍ عميقة لهذا البلد، لكني أؤكد لك أني لا أعرف تفسيرًا لما بي. لقد اعتبرتك دائمًا بلدي يا يوسف، أنا الأرمني الذي لم يرَ أرمينيا قط، واليتيم الذي لم يعد يذكر أبويه، والوحيد النافر الذي لا يملك صديقًا سواك. ذلك الشخص بات فجأةً مرعوبًا من فكرة عدم رؤية القاهرة مجددًا!

صرتُ موجوعًا من حقيقة أنها ستظل هناك موجودةً وحيةً وعامرةً بالبشر ومتاحة للجميع بتفاصيلها كافةً إلاَّي. لا أطيق اصطحاب لوحاتٍ رسمتها لوجوه أهلها وشوارعها ونورها وظلها عالمًا أني قد لا أراها مرةً أخرى. سأترك كل ما رسمته لأبيك مع مذكراتي أيضًا، على أن يسلمها لك عند عودتك.

يا شطري الأنقى والأكمل، عسى أن تكون سعيدًا، وأن تظل أنت مهما طال منفاك، لا تتوقف أبدًا عن أن تظل أنت.

t.me/qurssan

آرام ديكران

طبعت أسِنات على الشاشة الكلمات الأخيرة بمذكرات آرام ديكران. أغلقت فادية الدفتر، وتمددتا منهكتين على فراش هيلانة .

-فادية، كيف يكون كل ذلك حقيقيًا؟ هيلانة عشقت يوسف الذي كان صديقًا لجدي! كل تلك الأحداث دارت بين أواخر ١٩٤١وأواخر ١٩٤٢، وهي أرادتني أن أجد مذكراتها، لأعرف ماذا؟ هل ساعدها جدي بشكلٍ ما على تخطي حبها ليوسف؟ لقد تزوجا سنة ١٩٤٤، أعرف أن أبي ولد مع إعلان نهاية الحرب، هذا زمن كافٍ لنسيان حب والوقوع في آخر، مهما بدا أسطوريًا، أليس كذلك؟

-لم أختبر ما تسألين عنه لأفيدكِ، لم أنسَ حبًا بحبٍ ولا تخطيت شخصًا بآخر. أحاول ربط الخيوط قدر الإمكان، لقد ترك آرام أوراقه لوالد يوسف، الذي كان صديقًا لنجيب الذي اِدَّعي أن دفتر هيلانة ملكه، هل كان نجيب يعلم بالعلاقة بينهما؟ كيف احتفظت هي بكل ذلك طوال تلك السنوات؟ ولماذا؟ ألا يعتبر هذا، بلفظٍ مخفف، ازدواجية؟ الحق أن جدكِ كان شخصًا غريبًا، لا أذكر أني رأيته في حياتي كلها سوى مرتين، بعد وفاة جدي إسطفانوس ووقت تخرج أبيكِ، وتلك كانت المرة الأخيرة كما تعرفين.

-وكيف كنتِ ترينه؟

-لا أعرف كيف أصفه، كنت أخشاه قليلًا، لم يكن يتحدث مع أحدٍ وكان شاردًا متصنعًا الابتسام معظم الوقت، كأنه قلق من شيءٍ ما أو ينتظر حدوث شيءٍ ما.

-هل كان جميلًا كما يقول أبي؟

-لا أعرف! كما قلت لكِ كنت أخشاه وأراه غريبًا. يجب ألا يكون هناك حاجز نفسي بينكِ وبين الجمال حتى تميزينه. لم أقصد طبعًا أن جدكِ كان شخصًا

t.me/qurssan

كريهًا أو منفرًا، بالعكس لقد قصدت أنه كان محاطًا بهالةٍ غامضةٍ أكبر من الجمال تجعلك لا ترينه بشكلٍ موضوعي... هل تفهمين شيئًا؟

-فادية، لنذهب غدًا إلى متحف الفن الحديث، فضولي لرؤية أعمال ديكران لا يفوقه سوى تحرقي لمعرفة ما خفي علينا من القصة. ترى، لمن منهما ترك يوسف المذكرات؟ نجيب أم هيلانة؟

في متحف الفن الحديث بحثتا عن أعمال الفنانين الأرمن الذين عاشوا بمصر، فوجدتا لوحاتٍ بأسماء أفيديسيان وزوريان ومجردتشيان وآخرين، وُضِعت اللوحات حسب الترتيب الزمني لميلاد أصحابها، لذلك توجهتا مباشرة إلى القاعة التي تضم مواليد العقدين الكائنين ما بين ١٩٠١ و١٩٢٠، وهناك وجدتا لوحات آرام ديكران.

داكنة ودافئة، تُلمّح لكآبةٍ دفينة وتصرح بعاطفةٍ فائرة. درجات اللون البني والبرتقالي والأصفر تشي بعينين سكنتهما النار ورأتا بها سائر الموجودات. موضوعات اللوحات تنوعت وتوحدت معًا؛ فهي لعجائز الباعة بالشارع حينًا، ولفتيات شاردات على أسطح البيوت حينًا، ولطفلٍ يلعب بالطريق حينًا آخر، ومع ذلك فالوجوه هي بطل الحبكة الرئيسية، الوجوه تتطلع إليك كأنك تراها من خلف نافذةٍ، تكاد تنطق لتسألك عما تبحث عنه وعما تريده من النظر إليها. أشخاص لا شيء مشترك بينهم سوى ذلك التساؤل القلق بعيونهم وتلك الكآبة حتى في ابتساماتهم. وقفت أسِنات بعينين تتسعان تلقائيًا لاحتواء اللوحات داخلها للأبد، وتثبتت أمام تلك اللوحة تحديدًا.

صورة نصفية لشابٍ في العشرينات، وجه مستطيل محدد الزوايا ناعمها، شعر بني يعكس الضوء الساقط عليه من أعلى في شكل بريقٍ ذهبي، تُغطي خصله الساقطة جانبًا من جبهته الناصعة، وتحت حاجبين كثيفين تأطرت عينان كبيرتان مصبوبتان من العسل و مسكونتان بالملائكة، كاد الرسام

t.me/qurssan

يبأس من قدرته على خط حقيقتهما على القماش، وأسفل الصورة وجدت التوقيع الذي وضعه صاحبها يومًا بالفرنسية وهو غائب عن إدراكه: بورتريه شخصي.

-فادية، هذه هي صورة يوسف أرتينيان! فادية، انظري، هذا هو.

كانت فادية تنظر بالفعل مأخوذة بالكامل مما تراه، فجفناها لا يتحركان ووجهها خالٍ من الحياة.

-يا الله! مسكينة هيلانة، ماذا كان يفترض بها أن تفعل؟ الالتقاء المستحيل لكمال الداخل والخارج معًا، فادية، لماذا لا تقولين شيئًا؟

وجدت تلك صوتها بعد لَأْيٍ وهي تسند ذقنها المرتجف بيدها كأنما تخشى على رأسها من السقوط.

.أسِنات!

قالت وانتظرت لبرهةٍ، ثم أردفت بصوتٍ مكتوم:

-هذا جدكِ! هذه صورة نجيب عبد المسيح الذي عرفته!

***

عاد يوسف إلى البيت. مر عامٌ تام منذ قُبِض عليه مع نجيب ووالده، والآن وقد أُطلِق سراحه مع تعليماتٍ مشددة بعدم الرجوع لأي مكانٍ عُرِف فيه من قبل وإلا أُعتقِل ثانيةً ، اختار أن يتسلل خلسةً إلى البيت بعد منتصف الليل! لكن يوسف لم يجد شيئًا يعرفه بالبيت. تلاشت أمه، ذهب آرام، ماتت أنوش بعد اعتقاله بستة أشهر، وأبوه صار شيخًا كليل البصر فلم يتعرف إليه دون نظارته. لقد تهاوت من تحت قدميه الأرض التي حملته قرابة الربع قرن ولم يبقَ منها سوى قشرةٍ رقيقة قادرة بالكاد على حمل طفل. قضيا ما تبقى من الليل يتحدثان ومع طلوع الصباح قال الرجل:

-ستأتي الخادمة بعد ساعةٍ على الأكثر لتنظيف البيت ولا يجب أن تراك. يمكنك أن تبقى بحجرة آرام، خذ ما تحتاجه من ملاءات نظيفة وملابس

t.me/qurssan

وصابون، وسآتيك بالطعام بعد أن أرسلها إلى السوق. فقط لا تسقط شيئًا ولا تدق بشدةٍ على الأرض حتى لا تلفت انتباهها.

لم يغير الملاءات المتربة ولا فتح النافذة لتهوية الغرفة وإضاءتها. ما أن غادر والده مغلقًا الباب خلفه بالمفتاح حتى سقط يوسف على الفراش كالمغشي عليه. تراءت في العتمة لعينيه الغائمتين لوحات آرام المتروكة على حالها كأشباحٍ تشاركه جهامة المآل. نظر إلى صورته التي اعتبرها صاحبه عمله الأتم والأجمل، حدق بنفسه وبادلها الدهشة لينفجر في النشيج وقد اهترأ قلبه من الوجع.

أدرك يوسف أنه نام نومًا أقرب للإغماء عندما فتح عينيه ليجد الغروب قد حل. كانت هناك صينية طعام مغطاة متروكة على المنضدة الصغيرة، أحس بالجوع يعتصر معدته الخالية وتعجب من إصرار جسده على البقاء!

أكل بسرعةٍ ودون تذوقٍ كل ما كان بالصينية. كاد يبكي مجددًا وهو ينظر إلى أطباق أمه المألوفة بالرسوم الدقيقة القادمة من فيينا. كانت تلك أول مرةٍ يأكل فيها حتى الشبع منذ عامٍ، حتى مع انكماش معدته وحجم ما يملأها من طعام. نظر إلى الملابس النظيفة الملقاة أمامه على الأريكة، ففكر تلقائيًا في الاستحمام.

عندما وقف عاريًا أمام مرآة الحمام تنكر لنفسه المرئية؛ كان يعرف أنه فقد الكثير من وزنه، لكن المعرفة شيءٌ ومعاينة تلك العظام البارزة بكتفيه ووجهه وما يكسوها من جلدٍ مصفر اللون شيءٌ آخر. هل ما حاق بروحه من خرابٍ يجاري ذاك الذي لحق بهيكلها؟

راح يصب الماء البارد على جسده دون تسخينٍ كما اعتاد خلال العام المنصرم. لاحظ الشعيرات المتساقطة من رأسه تنزاح مع تيار الماء دون اكتراثٍ. رعشة يده الممسكة بالصابون هي ما أوقظ اضطرابه، تسارعت وتيرة نبضاته وهو يحاول السيطرة على تلك الرعشة دون جدوى. أغمض

t.me/qurssan

عينيه مستسلمًا ساكنًا في انتظار زوالها. ترددت أنفاسه لاهثةً وهو يحاول إرخاء أعصابه، ركز قدراته التخيلية في محاولة تمثل هيلانة، هيلانة متواجدة هناك، تعانقه وتريح رأسه إلى صدرها، تقبله وتخبره أنها لا تريد سواه، تردد اسمه بلهفةٍ وتتوق إليه، تخبره أنهما سينتهيان كما انطلقا معًا وأنه لن يُمسي منسياً. عندما هدأ تمامًا وتوقفت يده عن الارتعاش، أنهى حمامه وارتدى الملابس التي أضحت فضفاضةً كأنها لا تخصه. فرد الملاءة النظيفة على الفراش واستلقى فوقها، ثم تناول مذكرات آرام التي تركها له والده وشرع في قراءتها بغصةٍ وكآبةٍ كالحداد.

عادت الحياة إلى الغرفة شيئًا فشيئًا مع تتابع الكلمات التي خطها آرام أمام عينيه، كأن بوسعه انتظار عودة صديقه دون قلقٍ. وجد خلاصًا مؤقتًا فيما يقرأه، لأنه لم يتوصل لإجابة سؤاله الجارح كالشفرة: أيهما أفدح وأعظم أثرًا، أن يُحجَز رغمًا عنه بعيدًا عن كل ما يرسم حدود عالمه؟ أم أن يعود ليجد ذلك العالم قد تجاوزه، بل وتلاشى في أكثره؟

لذلك كان اختياره نابعًا من غريزة تجنب الألم، سيتظاهر باستمرار ذلك العالم في الوجود، والمذكرات هي وسيلته لهذا. سيبقى هنا حاليًا بصحبة آرام وكامل وهيلانة وأمه وأنوش وفيرجينيا وعلي تيمور! مرة بعد مرة سيستحضرهم لمعيته كما استحضر إسطفانوس الملائكة.

في الأيام التالية استمر والده في خدمته بنفسه، أحضر له الطعام وأخذ الملابس المتسخة ليغسلها بيديه خوفًا من أن تعرف الخادمة بوجوده. أحضر له الجرامافون مع تعليماتٍ باستعماله بعد الرابعة عصرًا. لم يصدق أن بوسعه الاستماع لما يريد حقًا، طوال الليل لم يستمع إلا لعبد الوهاب، كأنه يعوض ثلاثمائة وخمسة وستين يومًا حُرِم فيهم من الموسيقى إجمالًا، حاول أن يغني أحيانًا مع ما يسمعه لكنه لم يجد صوته! أضاف ذلك لبؤسه، كأنه يمكن أن يزداد!

t.me/qurssan

أمضي يوسف أيامه في قراءة المذكرات ولياليه في سماع الأغاني. لم يقم بحساب الأيام التي تمر حتى لا يسأل نفسه "حتى متى؟". لم يعد يعرف في أي شهرٍ من العام هو، يعرف فقط أنه خرج من المعتقل في شهر مايو، وأن أيامًا عديدة قد مرت.

تحسنت حالته الجسدية بتباطؤٍ شديد مع العناية المفرطة من أبيه بكافة التفاصيل، من أدوية مقوية إلى حرصه على تزويده يوميًا بالخضر والفاكهة والألبان. لاحظ يعقوب أرتينيان بأسى التغير الطفيف في لون بشرة ابنه للأفضل وتراجع الرعشة التي تباغت يده وقلة الشعر الذي يجده ساقطًا على الوسادة، لكنه لم يستطع إنكار أن شوطًا طويلًا ما زال يفصل بين يوسف واستعادة كامل صحته، لو أن ذلك مقدر له الحدوث.

لم يسأله يعقوب قط عما حدث له خلال تلك السنة، كان مرتعبًا مما قد تكون عليه الإجابة فتلافاها.

-يجب أن تخرج يا بني.

واجهه مرغمًا ذات ليلةٍ:

-ما الفائدة من عودتك إن كنت ستبقى معتقلًا هنا في هذه الغرفة ؟يجب أن تفعل شيئًا سوى قراءة هذا الدفتر... ألا تريد رؤية هيلانة؟

نظر يوسف لأبيه معاتبًا مما أثار حزنًا مغلفًا بالندم في قلب الأخير. أردف موضحًا وهو يحاول الابتهاج:

-أعرف أنه لا يفترض بك مقابلة أي من معارفك، لكن... لا أظنك متخوفًا من أن تقوم هيلانة بالإبلاغ عنك. لقد انتظمت بكلية الآداب، يمكنك الذهاب هناك، أليس كذلك؟ حسنًا... افعلْ ما يناسبك.

فكر يوسف أنه لم يعد من حقه أن يأمل في الوصول إليها. من مقومات الحياة أن يحلم بها دائمًا، لكن ربط مصيرها بمصيره وأن تطلع على ما صار إليه أو يطلب منها وعدًا أو عهدًا، هذا أمر آخر.

t.me/qurssan

-فلنكتفي الآن بشكر الرب لأجل عودتك، لولا رعايته لظللت معتقلًا لأجلٍ غير مسمى.
-كان بوسعه منع اعتقالي من الأساس .
قالها يوسف مقررًا دون غضبٍ أو مرارةٍ، بالنبرة المتبسطة نفسها التي تحدث بها عن قتل الأرمن في ثورة ١٩١٩، تلك البساطة التي نتعامل بها مع خطأٍ غير مقصود في حساب إحدى الفواتير! لهذا تحاشى والده إثارة حفيظته بأي نقاشٍ أو تعقيبٍ. أما كلماته عن هيلانة فقد سقطت في قلب ابنه القاحل كالبذرة، ولندرة ما فيه من ماءٍ كان نموها بطيئًا أقرب إلى السكون. مرت أيام وأسابيع قبل أن تثمر تلك النبتة في روحه أملًا ورغبَة ومن ثم فعلًا.
في الفجر تسلل من البيت والناس بعد نيام، سار حثيثًا حتى وصل أمام المتجر المنشود ثم قبع ينتظر. ومع سطوع الشمس وشروع الناس في الحركة وصل صاحب المتجر وهو يدير سبحةً خضراء في يمناه ويخرج مفتاح الباب بيسراه، وما أن خط بقدميه داخل مقر عمله حتى عاجله يوسف سائلًا:
- نهارك سعيد. أريد طربوشًا لو سمحت.
غادر يوسف متجر الطرابيش هانئ البال مطمئنًا لعدم تعرف أحد إليه وهو على تلك الهيئة. كأنه أصبح خفيًا. سار متخففًا من أثقاله، يتنازع قلبه الخوف والترقب والفرح. استرق السمع لكل صوتٍ عَلا أو صغر شأنه، تذكر كيف كان يلصق أذنيه بالحوائط في محبسه محاولًا تخمين ما يحدث خلفها. ها هما تتدربان على استعادة حدتهما في التمييز والاستجابة، نداء الباعة وخبب الخيل ورنين الحناطير وعربات حمل البضائع، أبواق السيارات وصياح الصبية وضحكات الرجال ودعاء العجائز وتخاريف المجاذيب، كلها وقعت من أذنيه موقع نغمات المزمار السحري من آذان الأطفال. ظل مأخوذًا متابعًا لما يسمعه بينما يغذُّ السير لهدفه لا ينحرف عنه، وعندما

t.me/qurssan

أنهكه المشي استأجر عربة حنطور. توثق كل دقيقتين من ثبات طربوشه الجديد على رأسه وهو يلتذ بالإيقاع الراقص لخطوات الحصان إلى أن وصل وجهته، ووقف يتطلع إلى القبة الهائلة لجامعة فؤاد الأول وحديقة الأورمان تقف عن يمينه وحديقة الحيوان عن يساره. حاول الحفاظ على جأشه ثابتًا حتى لا يتراجع، بخطًى هادئة تقدم حتى بلغ مقر كلية الآداب، سأل عن مواعيد حضور الطلبة ففاجأه الرد:

-لن يأتي الطلبة! لقد انتهت الامتحانات ولن يعودوا حتى ظهور النتيجة بعد أسبوعين!

مخذولًا محبطًا سار يجرجر قدميه وهو مطرق، سيكون عليه الذهاب إلى شبرا وهو لا يملك الشجاعة اللازمة لذلك.

-دكتور يوسف أرتينيان، يا لها من مصادفةٍ!

رفع رأسه ليجد أمامه شابًا متوسط القامة، يرتدي بدلةً زرقاء وطربوشًا، من هذا وكيف يعرفه؟!

-أنت لا تذكرني، لا بأس، لم أكن بهذا الزي عندما تقابلنا منذ ما يزيد على العام، أنت أيضًا لم تكن ترتدي طربوشًا حينئذٍ.

هل ما زال بالإمكان التعرف إليه مع ما لحق به من تبدلٍ؟! بحث يوسف عن صوته الذي توارى خوفًا، وبصعوبةٍ تمكن من نطق الكلمات:

-لم نتقابل، أنت مخطئ.

-ألم تكن بدير الأنبا بيشوي بالصيف الماضي؟ جئت مع نجيب عبد المسيح، أنا لا أنسى الوجوه أبدًا.

مد له يده مصافحًا وهو يخلع طربوشه باليد الأخرى.

- هكذا قد تتذكرني، أنا نظير جيد، كيف حالك؟

كاد التوتر يذهب بصواب يوسف، يمكنه إنكار نفسه كما يشاء له هاجسه، لكن هل يخشى أن يقوم هذا الشاب بإبلاغ الأمن الميداني عنه فعلًا؟

t.me/qurssan

-حسنًا، أتذكرك الآن، فرصة سعيدة.
تكلم بسرعةٍ وهو يهز يده متعجلًا الانصراف
-ماذا جئت تفعل هنا؟
لم يكن يقصد من السؤال سوى التفوه بأي جملةٍ مفيدة قبل الذهاب، لكن الإجابة أقعدته عن التعجيل بإنهاء الحوار.
-أنا طالب هنا بكلية الآداب، جئت أتحقق من ظهور النتيجة لكنها للأسف لن تظهر قبل أسبوعين. وأنت، هل ستحول مسارك المهني من الطب للآداب؟
-لا طبعًا، كنت أسأل عن نتيجة الامتحانات لأجل قريبٍ لي... أنت بالعام الأول على ما أظن... هل تعرف كل من بالدفعة؟
بينما السؤال يخرج من شفتيه ندم عليه، ابتسم نظير قائلًا:
-أكيد، دفعتنا ليست كبيرةً وكل من فيها يعرف الآخر، من هو قريبك الذي جئت لأجله؟
ابتلع ريقه قبل أن يجيب:
-في الواقع هي أخت صديقٍ لي وهو من أرسلني بدلًا منه... هيلانة إسطفانوس؟
-آآآه... الآنسة هيلانة... أطلقوا عليها بالإنجليزية "هيلانة المكتبة" على غرار "هيلانة طروادة"، ذلك لبقائها هناك طوال الوقت. لا تقلق على نجاحها، ستحظى بتقدير جيد جدًا على الأقل. الحق أنها تجمع بين تفوق العلم والأخلاق معًا.
رغمًا عنه ابتسم فخورًا وقد طرب قلبه لمديحها، لم يعد متضايقًا من تلك المصادفة وأراد إطالتها.
-أنا بطريقي لحضور اجتماعٍ الآن، هل تسير معي؟
-اجتماع؟

t.me/qurssan

-حزب الكتلة الوفدية، أنا عضو به.
-ماذا تقصد بالكتلة الوفدية؟ هل غيَّر الوفد اسمه؟
توقف نظير عن السير ونظر له باستنكارٍ قبل أن يقول:
-أي سؤالٍ هذا؟ الكتلة الوفدية بقيادة مكرم باشا عبيد منفصلة تمامًا عن الوفد برئاسة النَّحَّاس... ألم تكن بمصر في العام المنصرم؟
وقف يوسف يحدق به وقد فارقته ثقته وحبوره، هل سيخوض الآن اختبارًا في معلوماته السياسية؟ أمسك بحبل الإنقاذ الذي ألقي إليه وهز رأسه مُؤمِّنًا:
-نعم لم أكن بمصر، لقد عدت لتوي من الخارج. أفهم مما تقوله أن مكرم عبيد ترك الوفد وشكل حزبًا جديدًا؟
وهنا أبرقت برأسه فكرة تكاد تبدو خرافيةً لكنه لم يستطع الإمساك عن طرحها:
-هل قام الإنجليز بإغراق الدلتا أم أن الألمان دُحِروا دون الحاجة لذلك؟
واجهته نظرات الشك والتعجب على وجه رفيقه فعاد له توتره الأول.
-ظننت أن وقوع شيءٍ كهذا قد يكون هو السبب في الانقسام بين رفيقي كفاحٍ كالنَّحَّاس وعبيد، أن يكون أحدهما قد ساعد على حدوثه فيما عارضه الآخر... مثلًا.
ظن أن ما يقوله لا يزيد عن كونه هراءً عندما أبدى نظير تفهمًا لسؤاله وما تبعه من شرحٍ. تنفس الصعداء وآثر البقاء صامتًا.
-لم يكن هذا ما حدث، لكن ما بلغه النَّحَّاس من فسادٍ وديكتاتوريةٍ واستغلالٍ للسلطة لا يقل فداحةً عن جرم إغراق الأرض، بل ربما فاقه!
اندهش يوسف من الحماس المتوثب من صوت الشاب وحركات يديه وتعبيرات ملامحه، كان يرتدي الآن ثوبًا مختلفًا تمام الاختلاف عن ذلك

t.me/qurssan

الذي يتذكره به في الدير وهو يتحدث عن بساطة الاستشهاد. متى شغف بالسياسة لهذا الحد؟

ركبا الترام ليبلغا وجهتهما التالية، وفي الطريق عرف يوسف كل ما جرى ويجري بالبلد من أخبار الساسة والحرب والسراي، والأمريكان الذين حلوا حديثًا على أرض مصر تعضيدًا لحليفتهم العجوز بريطانيا، والحراك الفكري الذي يصل لحد الصراع في الجامعة، وهنا ابتسم يوسف قائلًا:

هل ما زالوا يهددون بعضهم بالخطابات والمنشورات الخالية من التوقيع؟

-أحيانًا. هل ستعود للدراسة هنا أم أنك في أجازةٍ؟

لم يعرف يوسف بمَ يجيب، سأله بدلًا من ذلك:

-وما دور فتيات الجامعة في هذا المشهد المضطرب الذي تصفه؟

-لسن كثيرات ليشكلن جبهةً مؤثرة، لكن بعضهن... كافيات بمفردهن على إثارة القلاقل وربما تأسيس الأحزاب، عندك مثلًا لطيفة الزيات، ليست فتاةً نمطيةً بالمرة، ستقدر على حدس ما بها من إمكانيات وطاقة بمجرد سماع خطبها، وهي ماركسية قحة، بينما هيلانة تشارك في أي فاعليةٍ لها دور من قريب أو من بعيد في مناهضة الإحتلال البريطاني، أعتقد أن هذا هو الشيء الوحيد القادر على إثارة اهتمامها عدا الدراسة.

عقد يوسف حاجبيه قلقًا، إذا كان نشاطها السياسي معروفًا لهذه الدرجة فهي تحت طائلة الخطر إذًا، السؤال الحقيقي هو: *لماذا؟ لم يكن هذا أبدًا من أولوياتها، هل يعرف كامل أو أبوها بنشاطها هذا؟* راح يتفكر مهمومًا في صمتٍ.

قاربا باب الحديد حيث كان نظير يروم، التفت إليه الأخير قائلًا:

-لقد أوشكت محطتي، ألا تريد المجيء؟ سأعرفك على مكرم باشا شخصيًا.

-لا، سأذهب إلى شبرا، ربما في مرةٍ أخرى.

t.me/qurssan

شارع شبرا الأثير، سار وئيدًا يتأمل جنباته بحبٍ وقد أثار لوعته بقاؤه على حاله دون تغيير، لم يلحق به التبدل الذي عصف ببيته، ما زالت المحال والمقاهي والبيوت نفسها كائنةً تطمئنه وتربت على قلبه مرسلةً فيه شعورًا بائدًا بالأمان. فشبرا هي أهرامات الجيزة بخارطة حضارته، هي معبد هيلانة منذ رآها أول مرةٍ، يكفيه المرور به وحسب كالحجيج لو أن لقاءها غير مقدرٍ له.

كان الوقوف على مرمى حجر من البيت حلوًا ومرًا، في العام الماضي كان بوسعه ولوج تلك البوابة والصعود لشقتها دون تفكيرٍ أو ترددٍ، أين أضحى ذلك العود يا ترى؟ ليس معه الآن عود يتحجج بإعادته ليرجع إليها، وها هو يقف متوجسًا من مقابلة أبيها أو أخيها خشية الاضطرار للشرح والتفسير، كم تدهمه التعاسة والضآلة معًا الآن؟ ألقى ببصره بعيدًا للحظةٍ، تذكر على إثرها البيت الآخر، في ذلك الشارع الذي يلي شارعها موازيًا له، بيت نجيب. نظريًا كان هو المتسبب فيما لحق صاحبه ووالده من ضررٍ، فلولا صحبته لهما لما قبض عليهما ولما أثيرت حفيظة ذلك الضابط بذلك التسلسل الإغريقي. أين هما الآن؟ هل انتقل نجيب إلى المنوفية أم ظل هنا؟ توجه إلى حيث يوجد البيت بخطى تتأخر أكثر مما تتقدم، تداعت كل الصور إلى ذاكرته بوجعٍ، السيارة السوداء واقفة أمام الباب والسائق ينتظر، وهو يقف مستندًا إلى مقدمتها متوقعًا ظهور نجيب وأبيه في أي لحظةٍ ليبدأوا رحلتهم. لو أن طارئًا ما قد وقع في ذلك الصباح ليلغي خططهم ويؤجل الرحلة بأسرها لظنوا أنها حربًا شيطانية لمنعهم من زيارة الأماكن المقدسة ونيل البركة، لأصابهم إحباط شديد. أي قصور مؤلم في الرؤية!

ألمَّ به هاجس وهو يرتقي السلم، لقد حذروه من مقابلة معارفه وها هو يتقصاهم، لماذا سيرحبون برؤيته وأي ذكرى سارة يحملها لهم؟ وقف أمام باب نجيب ضائعًا، قدماه مغلولتان للأرض، غير قادر على الفكاك من

t.me/qurssan

التردد والشك والذنب، يشفق من الرحيل ومن المضي قدمًا، راح إقدامه يتضاءل مع استمرار وقوفه حتى تلاشى تمامًا، كما أن صوتًا لم يترامى من خلف الباب ليصدق وجود أحدٍ. هبط السلم للطابق الأسفل مؤثرًا السلامة، وطرق باب الشقة الواقعة تحت شقة نجيب، فتحت خادمة مراهقة الباب فسألها عن المقدس عبد المسيح وولده مدعيًا أنه طرق بابهما دون استجابة.

-لا يوجد أحد بالشقة، لماذا تريدهم؟

كان جليًا أن فضولها يجعلها تسأله عما بجعبته قبل الإفضاء بما لديها، استأنف الكذب قائلًا:

-أنا صديق لنجيب أفندي وكنت بالشام لأكثر من عامٍ، ولم أتلقَ منه خطابات منذ شهورٍ، لهذا أردت الاطمئنان، هل هو بخير؟

نظرت له متفحصةً كأنها تزن صدقه من تعبير وجهه، ثم قالت :

-المقدس عاد إلى ملوي بلده منذ عامٍ ومعه بباوي الخادم.

-وابنه؟ نجيب؟ هل عاد معه أم سافر إلى المنوفية؟

-منوفية؟ لم أسمع قط عن مسألة المنوفية هذه، لا أعرف يا أستاذ، لا أستطيع أن أقول نعم أو لا! ما أعرفه أن المقدس عاد إلى الصعيد ودفع إيجار عامٍ مقدمًا لصاحب البيت ثم أغلق الشقة ولم يدخلها أحد منذ ذلك الوقت. لكن الكل افترض أن الشاب صاحبَ أبيه دون أن يسأل.

راح عقله يدور طاحنًا القلق والأسى، هل فقد نجيب وظيفته في الفترة التي أُعتقِل فيها؟ هل آثر العودة إلى مسقط رأسه توخيًا للشفاء؟ أم أنه يعيش بالفعل الآن بالمنوفية متناسيًا ما حدث بجملته؟ هناك أمر واحد مفروغ منه، أن اللعنة طالت الجميع؛ نجيب وأبيه، أنوش، آرام، أبيه وأمه، فهل ينجو كامل وهيلانة من هذا المصير؟

t.me/qurssan

جلس يفترش السلم كما فعلت هيلانة يومًا، أمسك برأسه المضنى من الدوران، بحث عن دموعٍ يبكي بها فلم يجد، بمنتهى حدة تجسد التفاصيل عادت تلك الليلة لخياله، حيث جلس أمام البيانو فوق سطح الباخرة، تلك اللحظة التي وضع فيها أصابعه على القطع البيضاء والسوداء كأنما يسألها إرشادًا، هل يفعلها ويعزف كارمينا بورانا أم يحجم؟ لم يطل تردده إلا لثانيتين قبل أن يشرع في العزف. لو أنه استمع لمراد ! لو...

للمرة العاشرة بعد الألف نظر في عيني الجنون عن قربٍ يكاد يلتحم به! شعر برعشة يده تعاوده دون أن يراها فهب واقفًا ينفض عنه شبحها، قفز هابطًا الدرجات ليخرج إلى الشارع، هرول متخبطًا لا يبغي سوى التخلص من تلك الحركة اللاإرادية بيده والقادرة على إثارة سخطه أكثر من السجن! أن يكون جزءًا من جسده غير خاضعٍ لسيطرته، كأن هناك من ينازعه في وجوده، يستخدم لسانه ليقول غير ما يقصد، يقود قدميه للذهاب حيث لا يريد، لكن يده العازفة هي المقصودة والمعنية حتى يشعر بأكبر قدرٍ من العجز. ظل يسير دون هوادةٍ قرابة الساعة ونصف حتى وجد نفسه بباب الحديد أمام محطة السكك الحديدية. ومن مخارج المحطة شاهد صفوفًا من المجندين الحاملين حقائبهم، يسيرون في أفواجٍ صاخبة يغلب عليها المرح كأنهم طلبة في رحلةٍ مدرسية، دقق فيهم متجهمًا قبل أن يقول لنفسه: *هؤلاء هم الأمريكيون إذًا!* وقف هناك مأخوذًا يتابعهم بفضولٍ خالص. كم يبدون رائعين بثيابهم النظيفة وأحذيتهم التي لم تخض في الرمال ولا الطين، لابد أنهم وصلوا لتوهم بسفنهم إلى الإسكندرية ومنها بالقطار إلى القاهرة. هناك رائحة بريئة تفوح منهم وتثير في نفسه شفقة عليهم، هل يقدر لأحدهم يومًا أن يسوم إنسانًا آخر العذاب أو يقتله لهدفٍ وطني جليل؟

تبدل اتجاه بوصلته وهو يرى فوجًا مختلفًا يسير في صفوفٍ كئيبة متباطئة، أقدام أنهكها السير ورؤوس حرقتها الشمس ووجوه ملت الملل! هذا فارق

t.me/qurssan

ثلاثة أعوام طوال قضوها في الحرب. عرف على الفور الزي المميز للجيش البريطاني وتسارعت دقات قلبه المذعور، هل يصادف بينهم من يعرفه؟ أحد المجندين بالقاعدة العسكرية بوادي النطرون، أو أحد العساكر بمركز الاستجواب بالمعادي، أو حارس من المعتقل!

لم يدرِ إلا وهو يتحول للسير بالجهة المعاكسة هاربًا. كابوسه الخاص يضرب ظهره ليحثه على الجري والاختفاء، الآن سيمسك أحدهم بكتفك ويصرخ قائلًا: "ألماني، هذا رجل ألماني". راح يضغط طربوشه على رأسه بقوةٍ محاولًا إخفاء وجهه، لاهثًا شاحب الوجه ملوثًا بالعرق والتراب وصل إلى البيت. كان الظلام قد حل فتوجه مباشرةً يطرق على باب أبيه دون اللجوء إلى حجرة السطح. صاح يعقوب كالملتاث:

-يوسف! أين كنت طوال النهار؟ لماذا لم تخبرني أنك ستخرج اليوم؟ لا تفعل هذا بي مرةً أخرى إلا إن أردت قتلي.

كف الرجل عن اللوم والصراخ حين أدرك ما بولده من هشاشةٍ، كأنه من مادةٍ شفافة على وشك السقوط لتتهشم. خلع عن رأسه الطربوش المبلل بعرقه وسترة البدلة وأحضر طبقًا ليغسل له وجهه ويمسح شعره وهو مستسلم تمامًا ليديه كفرخٍ وليد. تحول لون الماء تدريجيًا مع الغسل ليمسي عكرًا، ويوسف يحدق به كأنه يشاهد شخوصًا تتحرك فيه.

-لماذا أسميتني يوسف يا أبي؟ أعني... لماذا لم يكن اسمًا أرمنيًا صرفًا أو فرنسيًا؟

أمسك يعقوب بمنشفةٍ ليجفف رأسه برفقٍ منتهزًا الفرصة ليربت على شعره بحنانٍ فائق، ابتسم بالرغم من الوجد الذي فاض بقلبه!

-يا يوسف! هل تسألني الآن؟ ولكن... ربما لم أرد حبسك يا بني! مثلما تركت لك حرية اختيار مذهبك تركتك حرًا لتختار وطنك. لم أرد وسمك بجنسيةٍ محددة يُستدل عليها من اسمك، كنت لتعتبر نفسك أرمنيًا فحسب لو أني

t.me/qurssan

أسميتك هوفسيب، أو فرنسيًا فقط لو صرت جوزيف، لهذا منحتك الفرصة لتكون كليهما لو أردت أو مصريًا لو اخترت.
قال يوسف بسخريةٍ:
-لم تتوقع طبعًا أن أنتهي ألمانيًا رغمًا عني وعنك. هل تعرف كيف ينطق اسم يوسف بالألمانية؟ لأني لا أعرف. في كل ليلةٍ قضيتها هناك كنت أغني لنفسي حتى النوم. بجواري كان ينام طبيب ألماني يدعي شولتز، لم يصدق أني اعتقلت لأني غنيت افتتاحية كارمينا بورانا، حاول إثبات أني أفهم الألمانية وفشل طبعًا. الغريب أنه كان مناهضًا للحزب النازي ودعا هتلر بالأحمق السفيه قبل قيام الحرب، لكن ذلك لم يشفع له ليعفى من الحبس، والأنكي أن أمواله صُودِرت لتعويض الأضرار التي لحقت ببريطانيا من قِبله!
رقد يوسف بفراشه في تلك الليلة، وقبل أن يغيبه النوم كان قد عقد عزمه على ما سيفعله في الصباح التالي. نهض فجرًا كما اعتاد وخرج، لكنه ترك هذه المرة رسالةً على وسادة أبيه يخبره فيها بضرورة ذهابه ويطالبه بعدم القلق لو تأخر في العودة.
كانت معرفته الدقيقة بجدول كامل اليومي هي ما أسعفه للوصول. فكر وخطط ونفذ، أين بالضبط ينبغي الانتظار ومتى، وكيف ينتقي موضعًا يرى منه كل شيءٍ دون أن يراه أحد، وبقي فقط أن ينتظر في صبرٍ وجلدٍ. فرحته برؤية كامل كانت خالصةً نقية من شوائب الكدر ولا يؤججها سوى ذكرياته الخالية السعيدة مع ذلك الشاب.
-يوسف؟!
هتف كامل مصعوقًا. أشار له يوسف أن يهدأ وهمس له بوجوب انعزالهما في مكانٍ أكثر خصوصيةٍ من الشارع. اصطحبه كامل إلى كنيسةٍ يونانية قريبة. لم يكن موعدًا لأي صلاةٍ فكانا بمفردهما تمامًا بالداخل، جلسا بركنٍ منزو يتهامسان.

t.me/qurssan

-كيف غادرت المعتقل بالله عليك؟ أين أُخِذت ولماذا؟ دكتور تشارلز نفسه لم يستطع الوصول لهذا السر.

آلم يوسف ما في وجه صاحبه من مشاعرٍ شتى بخلاف السرور، هناك ارتباك لا تخطئه العين، ربما مبعثه المفاجأة وعدم الفهم، هكذا طمأن نفسه.

-دكتور تشارلز أستاذ التشريح؟! ما دخله بهذا الأمر؟

-ولمن كنت سألجأ لمعرفة أخبارك؟ ليس لدي صلات آرام، دكتور تشارلز أطلعني على ما يحدث لك منذ دخلت هناك بأول يومٍ، عن طريق صلته بدكتور مارش طبيب المعتقل.

هنا شابت سعادة يوسف باللقاء موجاتٌ من التوجس والقلق آلمت صديقه الذي يعرف جيدًا سببها. أردف قائلًا:

-لقد لجأت لدكتور تشارلز سائلًا العون بشأنك، وكان رده القاطع أنه لا يستطيع التدخل في شأنٍ عسكري وأمني بحت، لكنه ما أن عرف بمكان احتجازك حتى بشرني بإمكانية معرفة أحوالك عن بعد، عن طريق دكتور مارش. يمكنك أن تقول أنه كان يعتني بك دون أن تدري، طبعًا لاقتناع كليهما بأنك لا تشكل أي نوعٍ من الخطر على بريطانيا العظمى.

أطرق يوسف متأملًا يديه الساكنتين قبل أن يسأل يائسًا:

-وماذا عرفتما من دكتور مارش تحديدًا؟

طالع كامل صديقه متمهلًا كأنه يبحث عما يكفيه مؤونة الحديث ومشقته، وعندما لاذ يوسف بالصمت تكلم على مضضٍ:

-عرفنا ما حدث لك بعد التحقيق مباشرة، وما بدا له كأعراض الامتناع عن مخدرٍ قوي! قال أنك قاربت الموت أو الانتحار… أخبرني يا يوسف، لقد كان البنزيدرين هو ما تناولته في تلك الليلة، أليس كذلك؟

t.me/qurssan

تناول يوسف القرص قبل الأخير في صباح يوم الرحلة إلى وادي النطرون، ثم أعطى الأخير لنجيب لاحقًا. كان يعرف أنه سيعاني غالبًا معاناةً شديدةً بوقتٍ متأخرٍ، لكنه لم يتوقع أن يجبر على الخضوع لتجربة استشفاءٍ وهو رهن الاعتقال، كما أنه لم يعتقد للحظةٍ أن تفاصيل تلك التجربة ستنتقل بحذافيرها إلى كامل بالذات من بين كل من يهمهم أمره.

دون أن يرفع بصره وقد تهدل كتفاه قال كالمعترف:

-نعم، كانت الأقراص نفسها، الخبر الجيد أن جسدي لم يعد بحاجة إليها منذ أكثر من ثمانية شهور، والخبر السيء هو أنني أنا من أتى بها من الصيدلية دون علم أبي وأعطاها لآرام وليس العكس كما تركتك تعتقد.

ثم رفع عينيه ليواجه رفيقه قائلًا بهدوءٍ:

-ما رأيك؟ هل يمكنك تقبل الحقيقة؟

حملت عينا كامل غيظًا وضيقًا ورغبةً في عدم إظهارهما، كأنه يود ضربه لكن لا يريده أن يعرف أنه يود ضربه. أدرك يوسف أن الأمر أكبر من قدرته على الاستيعاب والتعاطف أو ربما الغفران.

-هل أخبرتها؟

كان هذا هو الاستفسار الأخير لديه. هز كامل رأسه نافيًا، وقال بصوتٍ مكتوم:

-هيلانة لا تعرف شيئًا عنك منذ قُبض عليك، لم نتحدث عنك منذ أكثر من عامٍ عندما كففتُ عن إجابة تساؤلاتها وكفت هي عن السؤال.

كانت تلك هي القبضة الأقسى والأكثر إيذاءً التي تعتصر قلبه منذ خرج. لقد عرف بالفعل أن كامل يئس من صلاحيته كشريكٍ لأخته بعد ما بدا كنبوءةٍ من راهب ما، لكن أن ينفذ ما اعتزمه بتلك القسوة على مدار عام دون أي تعاطفٍ معه أو معها، أن يطرد من حياة حبيبته وصديقه ويكفا عن ذكره بهذه البساطة كأنه لم يوجد قط، يذكرانه كما يذكران ميتًا عزيزًا لم يعد

t.me/qurssan

بوسعهما الوصول إليه ولا جدوى من بكائه، هذا أسوأ من التشهير والسجن معًا.

فكر أن كامل مع ذلك قد اهتم بالإطلاع على أخباره والاطمئنان لسلامته، لكن هذا لا يعني أن يرغب في تزويجه أخته، هيلانة الملكة كما كان يدعوها. كأنه قرأ أفكاره، تملك كامل أسى مفاجئ يكاد يسيل الدمع من مآقيه، أمسك بكتفي يوسف بقبضتين حازمتين وقال :

-أنظر من أين سقطت يا يوسف، الشجرة الجيدة لا تثمر ثمرًا رديئًا!

حدق يوسف به عاجزًا عن فهمه، تذكر عندما استخدمت هيلانة التعبير نفسه لوصف الإكليروس الروماني دون أن يجد صلة بالموقف الحالي، لكن كامل استأنف خطبته:

-ابكِ واطلب المعجزة ... أتذكر؟ لو كان ما نفعله خيرًا خالصًا كما تخيلنا لما حدث كل هذا. كيف يكون خيرًا ثم يكون آرام ما هو عليه وتدمن أنت المنشطات؟ هل دخلت مستشفى فؤاد التي يفترض بنا دراسة الطب الإكلينيكي بها؟ أنا فعلت، المرضى هناك يلتقطون المزيد من الأمراض بمجرد تواجدهم بها، يصابون بالدوسينتاريا بسبب الذباب صيفًا، والالتهاب الرئوي والتيفوس بسبب البرد شتاءً، لا أحد يهتم بمنح أولئك المساكين بطاطين كافية! أُم رفقة الخادمة كادت تموت هناك وهي تعالج من السكر، وذلك لأن التمرجي كان يسحب الإنسولين من الزجاجة ثم يملأها بالماء! كل هذا ونحن، الأطباء، نسبح في سُحُب الموسيقى والشعر. لقد بت أرى شبهًا قويًا بين الفن والبنزيدرين، كلاهما يوهم لفترةٍ مؤقتة بالسعادة، بالقدرة على إحداث فارق، مجرد إيهام. وبينما ترتع في ذلك الوهم لا تفعل شيئًا حقًا! لا تبني جديدًا ولا تبدل خيرًا بشرٍ، تظل دائمًا متوقفًا عند مرحلة الرغبة، الإرهاصات ،"من ثمارهم تعرفونهم"،أي ثمرٍ أنتجناه؟ أردنا أن نكون أنبياء ونحن لم نبلغ حتى قامة العبيد البطالين! ربما أسأنا التجارة بوَزْناتنا، ربما

t.me/qurssan

جُعِلت فينا القدرة على خلق الشعر لوضع المزامير فحسب، لتمجيد الله بكل وجهٍ، وليس للاحتفال بكل ما هو زائل وباطل بطبيعته! ما الخير في الغناء والرسم للناس على أي حال وهم يموتون جوعًا ومرضًا وظلمًا وحربًا؟ أي فارقٍ كان بإمكاننا صنعه حقًا؟ وأي كبرياءٍ أرعن نتمتع به دون استثناء!
أظلم وجه يوسف وعقله وقلبه، أراد أن يعترض ويبسط حججه، لكنه لم يجد لديه الطاقة للاعتراض ولا الحجج ليبسطها. لقد تحول إلى وصمةٍ يُعيَّر بها الفن كله! وليس من حقه تفنيد ذلك الرأي. هل يلام هو أم الواقع على تبدل كامل لهذه الدرجة؟ تظاهر بالموافقة على كلمات صديقه لينتهي منها بأسرع ما يمكنه كما يتعجل المرء اليقظة للخلاص من كابوسٍ. غص بكلماته وهو لا يصدق أنه يقولها:
-لن يكون سهلًا أن أراك ثانيةً يا كامل، لقد أطلقوا سراحي بشرط أن أختفي ولا أعود لأي مكانٍ مألوف أو ألتقي بـ... أصدقائي.
وقعت الكلمة الأخيرة بأذنيه كلحنٍ ختامي وقبل أن يتسنى لكامل أن يرد انتصب هو واقفًا،خلع الطربوش الذي كان لا يزال على رأسه وأعلن أنه مضطر للذهاب.
-يوسف، كيف سأطمئن عليك؟
تكلم مسرعًا بحرارةٍ كأنما يعوض تأثير صراحته الحارقة. حاول عبثًا أن يبتسم فقال ببساطةٍ:
-لا تقلق، أنا بخير حالٍ ولا أعاني سوى شيءٍ من الملل دفعني للخروج اليوم، إلى اللقاء يا كامل.
ليس من الشرف أن يحاول رؤيتها بعد هذا. من لفظه أيضًا ليتجنب فرض نفسه عليه؟ من أيضًا يراه قضيةً خاسرةً؟
سار ممسكًا طربوشه بيده لا يلوي على شيءٍ، هل يسعي لمعرفة كل شيءٍ اليوم أم يكفي اليوم شره؟ رغبة خبيثة تملكته ليعرف وينتهي! لقد غاص

t.me/qurssan

بقدميه في المياه بالفعل وابتل، فالأجدر به أن يواصل السباحة حتى يصل إلى شاطئٍ ما.

وجد فيلا دانيال باشا مغلقةً وخاليةً إلا من حارسٍ نوبي يقيم بغرفةٍ قائمة جوار سور الحديقة.

-دانيال باشا رحل إلى جنوب أفريقيا العام الماضي، بعد اقتراب روميل من العلمين، لكن مراد بيه لم يسافر معه، وأغلق الفيلا بعد مغادرة الباشا بيومين.

تكلم النوبي بملل من اضطر لإيضاح هذه المعلومات مرارًا وتكرارًا.

-أين يقيم مراد بيه إذًا؟

استقل أتوبيس ثورنكروفت ليقصد بولاق. هناك في شقةٍ مفروشة مؤجرة وجد مراد، في بيتٍ مليء بالضباط الإنجليز الذين أحبوا الإقامة بجوار النيل الملطف لحرارة الطقس. أينما ولّى وجهه يجدهم!

-يوسف!

هتف مراد مثل كامل تمامًا، إلا أنه أعقب دهشته بعناقٍ حار كاد يحطم ضلوع يوسف مذكرًا إياه بما يمتاز به من قوةٍ عضلية مفرطة. دخلا معا إلى الشقة التي تعاني من فوضى نموذجية مختلطة، حيث زجاجات البيرة الخالية على الأرائك والأرض والمناضد، والكتب التي تعاني المصير نفسه، أطباق الطعام الفارغة تغطي المائدة الطويلة القائمة بمركز الصالة الواسعة. نظر يوسف حوله متحرجًا من اقتحامه لوكر صديقه على هذا النحو، متوقعًا ظهور ليليان في أي لحظةٍ.

-ليس المكان هنا بنظافة بيتنا بالطبع. انتظرْ قليلًا وسأرسل سيد البواب لشراء ما نريد، هل ستتناول الغذاء معي؟ أم أنه ما زال موعد الإفطار؟

ابتسم يوسف وقد استراح لاستقبال صاحبه، فاسترخى في مجلسه وفك أزرار سترته قائلًا:

t.me/qurssan

-لماذا لم ترحل مع والدك بدلًا من هذا الـ..

وأجال عينيه فيما حوله دون أن يجد ما يقوله، ضحك مراد قائلًا:

ولماذا لا تعتبر رحيل أبي هو الفرصة التي كنت أنتظرها لأجرب هذا الـ..

وأشار بيديه لما يحيط به في مرحٍ. ذهب لاستدعاء سيد البواب موصيًا إياه بشراء البيرة المثلجة والبسطرمة وأنواع الجبن المختلفة والخبز الإفرنجي، ثم عاد ليوسف يسأله عن أخباره باهتمامٍ.

-هل شرعوا في إطلاق سراح من لديهم من أسرى مدنيين؟ لقد بدأت الحرب في الانحسار عن القاهرة منذ تراجع خطر الألمان، حتى أنني بت أخشى عودة أبي في أي لحظةٍ!

-لم يخرج سواي من المعتقل. ولا أفهم كيف لا تُقدِّر وجود أبيك في قيد الحياة من أجلك. كيف تعتبر غيابه فرصةً لا محنةً؟

نظر له مراد بتعاطفٍ دون أن يجد بنفسه الرغبة في السخرية منه مثلما اعتاد أن يفعل فيما مضى. قال بهدوءٍ:

-اعتبرها دورةً من دورات الحياة، لا فرصة ولا محنة. نمر أولًا بدورة الاعتماد الكامل على آبائنا والتمثل بهم، بعدها نبدأ دورة التمرد عليهم وتحطيم أنماطهم لنستطيع نحن أن نوجد، ثم لا نستريح حتى نتخلص تمامًا من ظلالهم، أو هكذا نعتقد. وأخيرًا نقضي ما تبقى من حياتنا نبكي اختفائهم باحثين عنهم محملين بذنب قتلنا لهم.

-آه يا مراد، كم افتقدت شغفك بإلقاء المحاضرات! هل تتحدث هنا عن الأب أم الإله؟ أنا لم أخرج بعد من دائرة الاعتماد الكامل على الأب، سَمِ هذا ما شئت، في الواقع لم يعد لدي هناك من أستند إليه سواه.

-سيكون لديك يا يوسف، أعرف هذا. أخبرني بما فعلت ومن قابلت منذ استعدت حريتك.

فرك يوسف جبهته بإصبعين وهو لا يني يفكر، هل يخبره أم يتريث؟

t.me/qurssan

-في الواقع لم أرَ أحدًا بعد، أنت الأول. أتخوف نوعًا ما من مقابلة الناس مجددًا... لا أكذبك أني ذهبت لرؤية نجيب أولًا لكني لم أجده، هل تعرف أين ذهب؟

-بالطبع، لقد عاد مع والده إلى بلدهم بالصعيد، ملوي. كنت أظنك ستذهب إلى هيلانة أولًا!

-لماذا عاد إلى ملوي؟ هل كان مضطرًا لذلك؟

-بالعكس، استطاع والده أن يضمن له الرجوع لوظيفته دون مجازاةٍ على فترة انقطاعه أو التحقيق في الأسباب، لمعارفه الوفديين طبعًا، لكنه أبَى تمامًا العودة إلى الوظيفة وقرر أن يعود للعيش بقريته وسط أرضه وأقاربه.

بلغ الرعب من يوسف مبلغه وهو يستمع إلى مراد، هل حدث كل هذا بسببه هو؟ كيف يراه نجيب وما هو رأيه به؟

-ماذا قال نجيب عني يا مراد؟ هل كان غاضبًا أم حزينًا؟ لا تجمل الحقيقة من فضلك.

-لستُ مضطرًا لتجميل أي شيءٍ. نجيب لم يكن ساخطًا عليك قط. الحقيقة أنه كان هادئًا أكثر من اللازم. لم ينفس عن غضبه بالسب واللعن كما اعتاد، لم يضع الخطط للانتقام ممن آذوه، لم يَلُم أي طرفٍ على ما حدث، بل كان مشفقًا عليك لدرجة الأسى! أذكر جيدًا كيف قال أكثر من مرةٍ: "مسكين يوسف، لم يستحق أي من هذا". يمكنك أن تطمئن من هذه الناحية.

كان يوسف يتابع الكلمات الصادرة من شفتيه مترقبا. أراد أن يضحك فباغتته دموعٌ لم يكن مستعدًا لها، راح مراد يربت على ركبته مهدئًا.

-يجب أن تتعافى سريعًا وتمضي قدمًا، ولا تهتم بما يظنه فيك الآخرون، فهذه أولى خطوات التخبط.

-يسعدني أن أجدك على ما تركتك عليه يا مراد،كيف حالك مع ليليان؟

t.me/qurssan

تراجع مراد باسمًا وهو يحك شعره والحرج بادٍ عليه.

-لست كما تركتني بالضبط! لم نعد أنا وليليان معًا.

-ماذا؟

أصابه حزن مفاجئ كأنه يصارحه باستحالة عودة شأنه مع هيلانة.

-ولكن ... هذا ظالم... ماذا حدث بينكما؟

-اهدأ يا يوسف فأنا بخيرٍ ولست محطمًا ولا حزينًا.

-ماذا حدث؟ تخلى عن الكياسة وافتراض عزوف صديقه عن الإفصاح وأصر على أن يعرف!

-لم أكن ثوريًا بما يكفي لها! لا تتعجب، بدأ الأمر بلومها لي في مناسباتٍ متكررة على تمسكي بمبادئٍ متخلفة ومداهنة المجتمع الذي أنتمي له، وافتقاري للجرأة والصدق اللازمين في المواجهات المباشرة، بينما لم أرَ أنا الوقت مناسبًا أصلًا لأي مواجهات مباشرة. اعتقدتُ بصراحة أنها لديها حاجة مستمرة للدخول في صراعٍ ما، ليس لإحراز هدفٍ ولا إثبات صواب رأيها لكن لأجل الصراع نفسه. بالنهاية مللت من الدفاع عن نفسي أمام هجومها طوال الوقت، وعندما أخبرتني أنها لم تعد تجد ما يكملها معي تنفستُ الصعداء وتمنيت لها أن تجد من يكملها ويواكب طموحها الفكري سريعًا. أظنها كانت تتمنى أن أحاول ثنيها عن قرارها فأترجاها مستعطفًا حتى تلقي عليّ خطبةً مسرحية ختامية، لكني لم أمنحها تلك المتعة الأخيرة عن سابق قصد.

ضحك يوسف متوترًا دون أن يقرر إن كان ما سمعه مضحكًا أم حزينًا. أن يتحدث صاحبه بتلك القسوة الباردة عمن اعتبرها يومًا صنوه وتوأمه، ماذا بقي من المسلمات إذًا؟

هناك ساعة باقية على انتهاء عمل الموظفين، إذًا يمكنه أن يجد نسيم في مكتبه بوزارة الشئون الإجتماعية، فهي أقرب وأيسر بلوغًا من بيته.

t.me/qurssan

كان جالسًا بقميصه الأبيض منحنيًا للأمام وقد وضع سترته خلفه على ظهر كرسيه تقليلًا من معاناة حرارة الظهيرة، وعلى مكتبه تراصت أوراق راح يختمها بختمه تباعًا بعد نظرةٍ سريعة على محتواها ليتسلمها منه أصحابها الواقفين أمامه في طابورٍ من عشرة أشخاصٍ. وقف يوسف أمامه صامتًا لدقيقةً ينتظر انتهاءه قبل أن يرفع رأسه عن عمله ليراه. وللمرة الثالثة في ذلك اليوم يسمع اسمه بتلك النبرة المشدوهة مصحوبةً بتلك اللمعة في العينين. ألقى نسيم ما بيده ونهض ليتخطى طابور المنتظرين وصولًا ليوسف،أمسك بيمناه بكلتا يديه برقة من يخاف أن يسحقها، بدا عليه الارتباك من فرط الفرح كأنه لا يدري ما يجب أن يفعله، أمسك بكتفي يوسف ووقف يرمقه باسمًا كأنه يخشى أن يعانقه، فما كان من الأخير إلا أن احتضنه مغمورًا بامتنانٍ دافئ للمحبة الصافية المتدفقة من جوارح صاحبه.

-حمدًا لله على سلامتك! حمدًا لله على سلامتك!

ردد نسيم متأثرًا، ثم جرَّ كرسيًا من أمام مكتب زميلٍ له ليجلس صديقه طالبًا منه أن يستريح حتى ينتهي من عمله سريعًا ويتفرغ له وأسرع للباب مناديًا الفراش آمرًا إياه أن يحضر ليوسف ما يطلبه .

جلس يوسف ومد يده ليخلع طربوشه فقط ليكتشف اختفاءه، وهنا تذكر أنه نسيه عند مراد. تضايق من فشله في الاحتفاظ بعادته الجديدة بتلك السرعة، وأعاد يده ليضعها على ركبته متمنيًا ألا يكون أحدهم قد لاحظ حركتها. قبع يراقب صاحبه وهو يمارس عمله القائم على مراجعة وختم أوراق البطاقات الشخصية وتسليمها لطالبيها. لاحظ من نظرةٍ مدققةٍ ألقاها على إحدى البطاقات أنها مكتوبة بالعربية والفرنسية وتتضمن وصفًا تفصيليًا لمظهر صاحب الصورة المضمنة بالبطاقة كطول القامة ولون الشعر والعينين والذي قد يَغْمُض بسبب الصورة الخالية من الألوان،

t.me/qurssan

وتوقيع "صاحب التذكرة" كذلك. كانت تلك أول مرةٍ يرى فيها البطاقة الشخصية للمصريين، ورأى نفسه بعين الخيال يتسلم واحدةً مكتوب فيها بمحل الميلاد "شارع السلطان حسين كامل بعابدين"، ومذكور فيها طوله ولون شعره وعينيه، ولكن كيف سيكون توقيعه عليها؟ هل هذا وقت ملاءم ليتقدم بطلبٍ خاص للداخلية للحصول على الجنسية المصرية؟

-سنتناول الغذاء معًا، وسأدفع أنا اليوم.

قال نسيم وهو يرتدي سترته وطربوشه ويبتسم لصاحبه مشيرًا له لينصرفا معًا. سأله يوسف وهو يسير بجانبه:

-أين تعمل مساءً الآن يا نسيم؟

-في مطعم "أستريه" بعماد الدين، أتذكره؟ كان مراد يدعونا إليه أحيانًا، هو من رشحني للوظيفة في الواقع، هل نتناول غداءنا هناك؟

لم يعرف يوسف بما يجيب هذا السؤال، ذلك المكان يقع في النطاق المحرم، النطاق الذي لن يعدم فيه من يصيح لدى رؤيته "مسيو أرتينيان، أين كنت غائبًا؟".

-أفضلُ مكانًا أهدأ، فول وطعمية وخلافه، أيمكن هذا؟

-طبعًا، كما تحب، لا أصدق أنك تسير معي فعلًا.

في مطعمٍ صغير يعج بالموظفين والعمال ويصعب أن يسمع المرء فيه صوته جلس الاثنان ينتظران ما طلباه من طعامٍ.

-كيف حال دكتور أرتينيان؟ هل باع الصيدلية بالفعل أم أبقى عليها؟

-بيعت للأسف. *قال بضيقٍ* . ولكنه اشترط على الشاري ألا يغير اسمها، فيظل "أرتينيان" حتى... يتوفاه الله!

بهت نسيم وغص بكلماتٍ أرادت الوثوب من فمه لتحمل ما به من أسف، لكنه لم يجد منها جدوى فابتلعها. أردف يوسف بلهجةٍ أكثر مرحًا:

t.me/qurssan

-لقد أفطرت مع مراد اليوم! ما زال متطرفًا في إخلاصه، يغلق ڤيلا يمتلكها ويصرف الخدم مبقيًا على مرتباتهم ساريةً ليقيم في شقةٍ مؤجرة بلا خادمٍ في حالةٍ مدهشة من الفوضى، ولا يجد أي غرابةٍ في هذا! لقد أخبرني عن عودة نجيب إلى ملوي، هل رأيته قبل أن يسافر؟

-نعم، وساعدته في حزم الأمتعة والإعداد للسفر، فقد أخذوا معهم كل متعلقاتهم حتى أصغر ملعقةٍ بالمطبخ. لقد أُغلِقت تلك الشقة خاليةً إلا من قطع الأثاث، ربما يقومون ببيعه أو نقله لاحقًا.

-أنت تعتقد إذًا أنهم لا ينتوون العودة يومًا؟

-ولماذا يعودون؟ لقد أراد المقدس لابنه أن يكون موظفًا ولهذا أقام بالقاهرة. ونجيب رفض الاستمرار في الوظيفة بالقاهرة أو حتى خارجها. لماذا وجمت هكذا؟

-ألا ترى تأثيري الإيجابي على حياة نجيب ووالده؟!

-يوسف، كل الأشياء تعمل معًا للخير للذين يحبون الله.

-حصريًا "للذين يحبون الله"؟ لم أكن أحب الله إذًا بما يكفي، فهل فعل نجيب؟ أي خيرٍ لحق به؟

-وجد شيئًا كان يبحث عنه ولم يجده إلا بمحبسه. ولا تسألني الشرح من فضلك.

-لأنك لا تفهم أم لأني لن أفهم؟

-اسمع يا يوسف، ما تستطيع أن تطمئن إليه هو أنك لم تتسبب في دمار أحدٍ. الله أراد أن يحصره في مكانٍ وزمنٍ محددين وبضيقةٍ محددة لهدفٍ محدد، وأنت لم تكن سوى معبرٍ لتحقيق الخطة التي كانت لتقع بك أو دونك. ماحدث كان لخيره، صدق أولا تصدق!

-أي خيرٍ؟

سأل وقد بدأ يثور غاضبًا:

t.me/qurssan

-هلَّا شرحت تفصيليًا؟ ولماذا لم يعرف مراد أي شيءٍ عما تقوله الآن؟ أم أنك تخترعه من آمالك الخاصة؟

-هل كنت تريد من نجيب أن يخبر مراد، الشيوعي، أنه رأى رؤيا أثناء اعتقاله؟

نظر له يوسف نظرة العاجز عن ملاحقة كلامه بالفهم:

-رؤيا؟!

-نعم، ولم يخبر بها أحدًا سواي، ولا حتى والده،حتى لا يحاول مناقشته فيها وفي الآثار المترتبة عليها.

-لماذا؟ هل ترك عمله وعاد إلى بلده بسببها؟

-يمكنك قول هذا.

-ماذا أو من رأى يا نسيم؟

-شيئًا له دلالة روحية، إرشاد إلهي استجابةً لصلاته.

-في أي صورةٍ أتى ذلك الإرشاد وتلك الاستجابة؟

-بماذا سيفيدك ذلك؟

-ربما أفهم لماذا يتلقى البعض الإجابات التي يسعون إليها دون البعض الآخر! ولماذا لا تريد إخباري؟

-لا أعرف... صدقًا... أجده أمرًا غريبًا لأخبرك به! كأني...

وحانت منه التفاتة للراديو الذي يذيع مونولوجاتٍ فكاهيةً:

-أحاول شرح سفر الرؤيا في حفلٍ موسيقي!

فتح يوسف فمه مرتين ليتكلم دون أن يتفوه بشيءٍ، متمثلًا بقوةٍ مشهد كامل رافضًا أن يخبر آرام عن قديسه الناسك. وعندما وُضِع الطعام أمامه راح يرمقه صامتًا محاولًا تنظيم أفكاره. بسط يديه أمامه كأنه سيشرح شيئًا بواسطتهما، وقال بصوتٍ منخفض موثقًا كل كلمةٍ:

-هل حقًا تراني مختلفًا لهذه الدرجة أم غير جديرٍ فحسب؟

t.me/qurssan

ارتاع نسيم من وقع كلماته على صديقه، انبرى للدفاع عن نفسه بسرعةٍ:
-لا تكن قاسيًا يا يوسف، أنا آسف...حقًا، سأخبرك بما تريده، لم أكن أقصد...
عاد يوسف ينظر لطعامه وهو يشير له بيده أن يصمت، ودون أن يجيب أو ينتظر مزيدًا من الشرح شرع في الأكل!
سارا معًا حتى بيت يوسف بينما نسيم آخذ في الحديث بمواضيع شتى، متظاهرًا بالرغبة في إطلاعه على كل ما جدَّ بساحة الأحداث إبان غيابه، وهو في الحقيقة يحاول محو الظل السيء الذي سقط على لقائهما. استمع له صاحبه وهو لا يستجيب لما يسمعه إلا بهز الرأس والهمهمة.
-هل عرفت بما حدث من شقاقٍ بين النَّحَّاس ومكرم عبيد؟ كنت أرى هذه النهاية حتمية لكني لم أتوقع حلولها بهذه السرعة. هذا في صالح الأقباط بالتأكيد، كانوا قد استكانوا لأمانٍ زائف تحت لواء الوفد، والآن وقد فقدوا هذا المأوى الكاذب المشيد من أوهام السياسة سيعودون لمكانهم الطبيعي الذي أراده الله لهم، بعيدًا عن العالم المادي بصراعاته وغير متكلين على أحد سواه. الآن باتوا يفهمون معنى قوله "ملعون من اتكل على ذراع بشر". كم أود لو ألقيت التحية على دكتور أرتينيان، أفتقد بشدةٍ أيام عملي معه، أتعرف أني كثيرًا ما مررت من أمام الصيدلية تذكرًا للأيام الخوالي؟ عندما كان نجيب يمر بي لنصطحبك ونقابل مراد ،أما زلت شغوفًا بعبد الوهاب؟ هناك أغنية جديدة له اسمها "حياتي أنت"، هل سمعتها؟
رد يوسف بآليةٍ:
-نعم، ولم أحبها، أغانيه في فيلم "ممنوع الحب" كانت أجمل. كل شيءٍ بالعام الماضي كان أجمل.
-أظنك ستعود لاستئناف دراستك الفصل المقبل، أليس كذلك؟
-نسيم، أريد عنوان نجيب في الصعيد.

t.me/qurssan

-لماذا؟!
-سأراسله. هل هناك ما يمنع؟
قبل أن يفترقا حصل يوسف على عنوان نجيب بملوي بالإضافة إلى عناقٍ حار مليء بالاعتذار من صاحبه. وفي الهزيع الرابع من تلك الليلة ملأ حقيبةً صغيرةً بما يحتاجه من ضرورياتٍ ومالٍ كافٍ ومذكرات آرام، ثم ودع والده مُعلِمًا إياه أنه لا يدري متى يعود، وقبل أن يخرج من الباب التفت إليه أخيرًا وقال:
-هل تعتقد أن أمي ستعود يومًا؟
وقف الرجل مهزومًا من السؤال العبثي والبديهي مع ذلك، فعاجله ابنه بتساؤلٍ أكثر ملاءمةً:
-هل لديك أي فكرةٍ عن المكان الذي قد تكون قد ذهبت إليه؟
اكتفى يعقوب بهز رأسه نافيًا واكتفى يوسف بهز رأسه متفهمًا ليغادر مُيممًا شطر محطة القطار بباب الحديد.

***

طوال طريقه إلى المحطة وأثناء شرائه التذكرة وحتى اتخذ مكانه بجوار النافذة داخل القطار كان التوتر والترقب يتلاعبان بأعصابه،كمن ينتظر عائقًا أو مانعًا يباغته من الفراغ ليمسكه عن تنفيذ مسعاه، لذلك لم يصدق أنه راحل فعلًا إلا بعدما بدأ القطار في الحركة مطلقًا صافرته المدوية، واستمد اطمئنانًا قديمًا من الزحام الذي يلفه.
لم يشعر بالحاجة لإخراج مذكرات آرام من الحقيبة، كفاه أن يعرف أنها موجودة هناك تحت يده، كان بإمكانه استعادة أي فقرةٍ منها حرفًا حرفًا بمجرد إغماض عينيه والانفصال عما حوله، لكنه لم يحس عوزًا للانفصال أو الهرب. كانت عيناه تلاحقان براح الحقول الشاسعة الحاضنة لمسار القطار بنهمٍ، كطائرٍ يشعر بتملكه لكل الأراضي التي يستطيع التحليق

t.me/qurssan

فوقها، هي حرية لا يختبرها سوى أنقياء السريرة. ويوسف وهو يستعيد الآن طفلًا دُفِن داخله لردحٍ بائس من الزمن، تتملكه تلك الفرحة القديمة البيضاء بتفاصيل العالم، فلا يعود هناك سواه وذلك البراح وتلك الحرية.

في محطاتٍ متباعدة توقف القطار مارًا بالفيوم وبني سويف، فيها نزل ليتمشى ويشتري من باعة المحطة الجائلين، فحصل على مؤونة من السميط الساخن والجبن والجرائد تكفيه حتى يصل وجهته. آسفًا كان يعلم أن مديرية أسيوط، التي تتبعها ملوي، ليست بذلك البعد، متذكرًا خريطة المملكة المصرية الملونة التي أتاه بها والده صغيرًا مع خارطة كل من أرمينيا وفرنسا. كم تمنى لو أن نجيب في أسوان فقط لتطول الرحلة. هل ما زالت الملاريا متوطنةً هناك؟ وهل امتدت لتصل أسيوط أم لا؟

في محطة ملوي هبط من القطار الذي سيستأنف مسيرته لأعماق الصعيد بعد دقائقٍ من التوقف، هبط معه جمع منوع من الأفندية بالزي الأفرنجي وذوي الجلباب المحلي الذي يتفاوت في مستوى خاماته بين الغالي الأنيق والرخيص البالي. كان التباين يتخطى نوعية الملابس وقيمتها إلى الوجوه والأقدام والرائحة! وجوه حليقة وملتحية وبين بين، أقدام حافية ومحتذية ومنتعلة، روائح عطورٍ ودخانٍ ورائحة عرقٍ قوية. توارت تلك الملاحظات الحسية ما إن خرج يوسف من المحطة ليجد نفسه إزاء مدينةٍ لم يكن يتوقعها. كان يعتقد أن خلف المحطة مباشرة تنبسط الأرض الخضراء ذاتها التي عاينها من نافذته، فإذا بشوارع ومتاجر وبيوت مبنية من الآجر وسيارتي فورد سوداوتين، وعربات تجرها الدواب تحمل الواصلين لتوهم بالقطار إلى وجهاتهم الأبعد. سار يدقق بصره فيما يشكل حدود الشارع فأدهشه أن يجد فندقًا صغيرًا إيطالي الطراز والاسم، وفي مقابله صيدلية كتب على لافتتها "أجزخانة مظلوميان". مسوقًا بفضوله تقدم لباب الصيدلية بترددٍ،

t.me/qurssan

وصله صوت حوارٍ دائر بين شخصين، أحدهما رجل عميق الصوت والآخر طفل.

دفع الباب ودخل لتفعم أنفه رائحة الصيدليات الأزلية، ذلك الخليط من المطهرات ومكونات الأدوية والدهانات. على مقعدٍ خشبي دون ظهرٍ جلس طفل في العاشرة يرتدي جلبابًا داكن الخضرة وطاقيةً مشغولة من خيوطٍ بيضاء وسوداء، قدماه حافيتان وبشرته سمراء بها بقع ناجمة عن نقص الفيتامين، وعيناه واسعتان بنيتا اللون. ابتسم الفتى فور مطالعته وجه يوسف وصاح بصوتٍ مرح ينضح بالجرأة والعفرتة:

-انظرْ يا خواجة، خواجة آخر يريدك، تعالَ لترى بنفسك.

أُخِذ يوسف على حين غرة بهذا الإعلان ورفع بصره ليرى رجلًا خمسينيًا متوسط القامة، شعره مصبوغ السواد، وتعلو أنفه نظارة صغيرة دائرية. كان قادمًا من معمل الصيدلية على إثر صيحة الولد وقد أمسك بزجاجة دواءٍ بنية اللون وكيسٍ ورقي يتهيأ لوضعها فيه.

-أهلًا وسهلًا، أي خدمةٍ؟

قال الصيدلي هادئًا، إزاء تردد يوسف في الرد عقب باللغتين الإنجليزية والفرنسية مستفهمًا عن اللغة التي يفضل التعامل بها. لم يظن للحظةٍ أن للأجانب هذا الحضور المألوف في الصعيد، وضايقه ما لحق به وبالصيدلي على حدٍ سواء من تصنيفٍ على يد الصبي، تكلم بحسمٍ قائلًا:

-حدثني بالعربية لو سمحت.

هز الرجل رأسه وهو يعطي الدواء للطفل قائلًا:

-لا تنسَ يا حسن، ملعقة كبيرة مرتين صباحًا ومساءً، بلغ سلامي للحاج إبراهيم.

قفز حسن من على المقعد ممسكًا بالكيس هاتفًا يخاطب يوسف بضحكةٍ شقيةٍ:

t.me/qurssan

-سلام يا خواجة!

لاحقه الرجل بالتحذير من الجري والدواء بيده:

-تمهل يا ولد! ستنكسر الزجاجة ولن أُحضِّر لك غيرها، سيكسر الحاج إبراهيم رأسك!

كان الولد قد اختفى قبل انتهاء جملة الصيدلي، وقف الأخير خلف الحاجز الخشبي واضعًا إبهاميه خلف حمالتي البنطلون وهو ينظر ليوسف بودٍ قائلًا:

-حضرتك غريب عن البلد، أليس كذلك؟ تفضل بالجلوس، هل وصلت بالقطار لتوك؟

تقدم قليلًا ليرى جريدةً فرنسية مفتوحة على صفحة الكاريكاتير الذي ميزه فورًا.

-نعم. هذه رسوم صاروخان، أليس كذلك؟

ابتهجت أسارير الرجل وقال بسعادةٍ:

-بالتأكيد، هل تتابعه؟

-أحب طريقته في توثيق الحرب القائمة، كل تلك الحماقات والمؤخرات المشتعلة، أظن أنه يجب أن يجمع رسومه خلال سنوات الحرب في كتابٍ، سيكون كتابًا تاريخيًا فريدًا من نوعه!

-أوافقك يا عزيزي.

ثم اقترب منه هامسًا كأنه سيدلي بسرٍ.

-لكن لا يرى الجميع الأمر على تلك الصورة. تخيل أن بعض المساكين يتصورونه معاديًا للفاشية فقط لأنه يحب وجود الإنجليز في مصر؟ أي ضيق أفقٍ هذا! ما النفع الذي يعود عليه من بقاء الإنجليز؟!

t.me/qurssan

وُخِز يوسف بذلك التعقيب الأخير، تلك الوخزة التي يشعر بها كلما تم تذكيره بانتمائه لفئةٍ مفرزة، فئة قد تقع بموقع الإتهام في أي وقتٍ ويكون مدفوعًا بالتبعية للدفاع عنها عمومًا وعن نفسه خصوصًا.

-هل تعرف كيف أذهب إلى عزبة شحاتة؟

سأله وقد قرر أن يتجاهل ما قيل مفضلًا عدم الإفصاح عن هويتهما المشتركة.

-هي ليست بعيدةً لكنك لن تجد من يأخذك هناك الآن، كادت الشمس تغيب والطريق إلى العزبة ليس مضاءً وليس ممهدًا. ستكون هناك سيارة في الصباح وهذا يناسبك أكثر... هل رأيت فندق ألونزو مقابل المحطة مباشرةً؟ يمكنك استئجار غرفةٍ هناك لليلةٍ.

-عذرًا للسؤال، لكن ما سبب تسمية الفندق؟ هل هو اسم صاحبه؟

-نعم، صاحبه الأصلي هو الخواجة جياكومو ألونزو، ملكيته الآن آلت لمرتضى أفندي عبد السلام باشكاتب المركز، لكن هذا على الورق فقط.

-ماذا تعني؟

-عندما بدأت الحرب وأصبح مصير الإيطاليين غامضًا خاف ألونزو على فندقه من المصادرة فكتبه باسم صديقه، مرتضي أفندي، حتى لا يحق للإنجليز مصادرته، وهذا ما كان، لقد قبضوا على الرجل واحتجزوه شأن بقية الرجال من الجالية الإيطالية المنتشرة في بر مصر، لكنهم لم يستطيعوا مصادرة ممتلكاته لأنها ببساطة لم تعد كذلك.

-لابد أنه يثق تمامًا من استعادة الفندق متى أُطلِق سراحه، هل تحب الحياة هنا إذًا؟

-اعتدت أن أحبها. ماذا هناك لينغص عليك صفو حياتك؟ الهدوء والسكينة والناس الطيبون والبعد عن قلق الحرب والغارات. لقد أتى البعض للاختباء هنا هربًا من نيران الإسكندرية في العامين الماضيين، الآن

t.me/qurssan

بعد استتباب الأمور عاد أكثرهم لبيوتهم، لكني أجد الأمان هنا أكثر رسوخًا من أي موضعٍ آخر. طبعًا تقع الحوادث كشأنها في أي مكانٍ وزمانٍ، خاصةً كلما توغلت في القري والنجوع واقتربت من الجبال، لكن من كان سكنه بجوار نقطة البوليس بالمدينة مثلي سيحظى بالقسط الأوفر من راحة البال. تأتي مع الجرائد أخبارًا مثيرة للاضطراب والقلق في أحيانٍ كثيرة، لكني أنظر من نافذة بيتي صباحًا وأنا أتناول إفطاري وأرى ذلك الوجود الراكد الذي لا يتبدل تمامًا كالأشجار القائمة في زمام البيت، وأقول لنفسي: لن يحدث شيء اليوم، هذا يوم آخر يشبه ما قبله.

حقًا ماذا يبغي الإنسان أكثر من هذا؟ ألا يحدث شيء أبدًا.

كأن الرجل سمع ما برأسه أردف قائلًا:

-لم تقع أحداث جسام هنا منذ مقتل بوب مفتش السجون الإنجليزي أيام مظاهرات ١٩١٩، كادوا يدكون البلد بالمدافع وقتها انتقامًا لموته لكن ربنا لطف بالبلد ومن لا ذنب لهم.

ضحك يوسف رغمًا عنه قائلًا:

تتحدث كأن الظلم لا يلحق أبدًا إلا بمن يستحقه، لم يكن ليُسمى "ظلم" في هذه الحالة، أليس كذلك؟

-نعم، نعم.

لم يكن الرجل يفهم تمامًا ما الذي يوافق عليه. سأل مبتسمًا:

-من أين أنت يا عزيزي؟.

بادله يوسف الابتسام وقد بدأت الرغبة في اللعب تراوده.

-من شبرا، لكن أصلي من الصعيد، وقد جئت لزيارة أهلي هنا لكنها المرة الأولى.

-نورت البلد، لم نتشرف باسم العائلة الكريمة.

اغتبط يوسف لما بدا على الرجل من تصديقٍ سهل، فتشجع وتكلم بثقةٍ:

t.me/qurssan

-عائلة عبد المسيح شحاتة.

-إن أرضهم تقع ما بين أرض الخواجة فورتينيه وشرق ملوي، لكنك لا تشبههم،أنت أقرب في الشبه لأسرة حمزاوي، رجالهم شقر جميلي الطلعة كحضرتك.

ضحك يوسف قائلًا:

ربما كان هناك نسب أو قرابة قديمة بينهم لم تُسجل في كشوف العائلات.

***

قرر أن يتجول بالبلدة متفرجًا، أدهشته جسامة قصورها وفخامة رونقها، وتلك الأشجار المرتفعة بقاماتها أعلى الأسوار كأنها حصون طبيعية تحدب على البيوت وتصد عن العيون جهامة السور المبني من الآجر والحجارة والحديد المزخرف. تلك الروائح الغنية للحدائق هي ما تنبئ عن الحياة العامرة بالداخل، فلا أصوات بشرية تبلغ الشارع ولا خيال ساكنيها يلوح للرائي، فكر قائلًا: *كيف تكون الأزبكية دون حدائقها، بل كيف يكون عابدين نفسه؟ سأسكن يومًا في حديقةٍ. لماذا لا أجد لي ملاذًا هذه الليلة في إحداها؟*

سار طويلًا حتى ترك الطريق المرصوف وظهرت مجددًا الحقول والبساتين مع حلول الظلام، فأدرك أنه يغادر حدود المدينة. *ماذا رأيت يا نجيب ودعاك للعودة هنا؟ لماذا كان أبوكِ ألمانيًا يا أمي؟ هل كنت لأبحث عن بديلٍ للدواء الذي نفد ؟ كامل، هل أنت على حق؟ هل كنتُ بذلك الغرور؟ والخير لا ينبثق إلا من الأنقياء؟ كيف يكون ذلك الجمال كله مضلًا؟ ويلٌ للأعين المفتوحة التي لا تبصر والآذان التي لا تسمع، كيف نعرف الحق إن لم يكن جميلًا؟*

مع تلاشي أثر مصابيح الشارع بدا ضوء القمر المكتمل قويًا، لولاه لبدا ذلك البستان مخيفًا ليلًا، لكنه في ذلك النور الأشبه باللبن المسكوب بدا ودودًا

t.me/qurssan

مضيافًا. بحث عن بقعةٍ جافة مكسوة بالخضرة وأقعى عليها مسندًا ظهره لشجرةٍ لا يعرف نوع ثمارها. تعجب يوسف من نفسه، ما الذي يُجري السلام بدمه علي هذه الصورة؟ كأنه رُدَ إلى مأوى بعد تيهٍ، لا غربة هناك ولا قلق. كل ما يحتاجه ليأمن مكتفيًا يحيط به هنا والآن تحت هذه الشجرة رغم هجمات البعوض على وجهه ويديه، وأصوات الحشرات الليلية والضفادع ونباح بعض الكلاب التي يختبرها للمرة الأولى مغيرةً للأبد فكرته عن ليل الريف الصامت. لن يفكر في الغد، حسبه الليلة ذكرى عن هيلانة وأمه ونومٌ.

بقعة من النور تتمدد في صفحة السماء السوداء كأن واحدًا من النجوم يتضاعف حجمه تدريجيًا، ومن ذلك النور تنبثق درجات سلمٍ! درجة واحدة تهبط، كل مرة تليها درجة أخرى، تتوالى الدرجات الهابطة من السماء حتى تصل للأرض، سلم بطول المسافة بين السماء والأرض. العجيب أن الدرجات كانت آخذةً في التلاشي بملامستها للأرض، فكانت درجات أخرى تهبط من النور لتعوض تلك المفقودة. لو أن أحدهم أراد الصعود على هذا السلم لما وصل أبدًا! هذا ما أراد يوسف أن يصيح به، وهو نائم، مدركًا أنه يحلم.

اجتمع ظلام آخر الليل بنور الفجر فأرسلا معًا نسيماً باردًا، أيقظ يوسف من سباته مقشعرًا مرتجفًا. بدأ يعتدل جالسًا من رقدةٍ وجد نفسه عليها رغمًا عنه. لاح البستان لعينيه كبقايا حلمٍ في غيمةٍ، لكن الأبعاد الحقيقية لذلك الحلم بدأت تعرض نفسها تباعًا مع هروب الظلام تدريجيًا.

الآن يرى في نهاية البستان بعيدًا منزلًا من طابقٍ واحد، ليس بفخامة ما شاهد من قصورٍ وليس بتواضع بيوت الفلاحين الطينية، مطلي باللون الأصفر وشيش نوافذه الخضراء مغلق، وأمام باب شرفته الخشبية تقبع مضخة مياه. فكر على الفور أن يستخدمها لغسيل وجهه والشرب منها، بدأ

t.me/qurssan

ينهض نافضًا ما علق بملابسه من الأرض ليلاحظ أثرًا متعرجًا في التراب الداكن بجوار الموضع الذي كان رأسه مستقرًا عليه! انحنى ليدقق بذلك الأثر لتتسارع ضربات قلبه فزعًا، لقد مر ثعبانٌ من هنا وربما يكون قد لمسه وهو نائم! يبدو أنه لابد لكل جنةٍ من حيةٍ.

أخذ يتلفت دائرًا حول نفسه متفحصًا كل بقعةٍ وهو يتساءل إن كانت الثعابين تخرج ليلًا فقط أم نهارًا أيضًا. بحذرٍ شديد قطع المسافة إلى مضخة الماء وهو يبدو كلصٍ يخشى الافتضاح. وبأسرع ما يمكنه بدأ في ضخ الماء ورش وجهه وهو لا يَنِي ينظر للبيت والأرض قلقًا كأن أحدهما سينشق فجأةً عن ثعبانٍ يلدغه، لذلك قفز متراجعًا بمجرد سماعه صوت فتح الباب، بدت له تلك اللحظات دهرًا وهو لا يتحرك.

خرج من الباب شابٌ مجلبب عاري الرأس، متوسط القامة، قمحي اللون، شعره أسود يلتف في حلقاتٍ صغيرة ناعمة تُرِكت لسجيتها دون تَرْجيلٍ أو تصفيفٍ، له ملامح دقيقة أبرز ما فيها عينان بلون الحقول. وقف هناك يبادل يوسف النظر مندهشًا لوهلةٍ عابرة قبل أن يبتسم قائلًا:

-تفضل! تفضل عندنا!

فوجئ يوسف بالدعوة التي سبقت السلام والسؤال، وتفحص الشاب مرتبكًا قبل أن يقول:

-شكرًا! كنت فقط أستخدم الـ....، *وراح يشير للمضخة وقد نسي اسمها.*

- الطرمبة. ساعده الشاب وقد اتسعت ابتسامته وسارع ليمسك بذراع المضخة قائلًا:

-هيا! تفضل!

t.me/qurssan

ثم أخذ يضخ الماء داعيًا يوسف للاغتسال كما يريد.استجاب للمبادرة الدمثة وانحنى يغسل رأسه مفكرًا في سبب اللطف الشديد هذا. لم يملك إلا أن يسأله وهو يرش الماء على وجهه:

-هل توجد هنا ثعابين؟

-هل قابلت واحدًا؟ لا تقلق، لن تهاجمك ما لم تطاردها أنت أو تقرب وكرها. لابد أنها زيارتك الأولى، الآن يجب أن تتفضل بالدار أو أخبرني أين تريد الذهاب لأوصلك.

-أشكرك حقًا، سآخذ سيارة من أمام المحطة.

-إذًا تفضل لتفطر ثم اذهب في رعاية الله.

بعد أن جفف رأسه المبتل حاول يوسف التملص من الضيافة اللطيفة في إلحاحها، أخيرًا أضاف الشاب في محاولةٍ نهائية:

-انظرْ، قد يكون طريقنا واحدًا، ستأتي سيارة لاصطحابي بعد ساعةٍ من الآن ولن يركب معنا آخر؛ هي سيارة العمدة في الحقيقة لكنه تبرع بها لتسهيل عمل مفتشي الري حتى لا أضطر للذهاب إلى أطراف البلد راكبًا على الحمار كل يومٍ. أنا علي مصطفي، مهندس زراعي، أعمل هنا منذ عامٍ وشهرين. وجودك بالبيت لن يزعج أحدًا لأني أعيش وحدي، ستؤنسني في الواقع إن لم أكن أنا أزعجك.

-أنا يوسف... من أين أنت إذًا؟

لم يرغب في الإسهاب في المعلومات الشخصية.

-أنا من ساكني القللي أصلًا، تشرفنا يا أستاذ يوسف.

-أرجوك لا داعي لأستذتي،ادعني يوسف فقط. هل يقع مكان عملك بالقرب من عزبة شحاتة؟

-لا للأسف، لكننا سنحل الأمر. تعالَ، سيعجبك الإفطار لدينا، هناك مائدة وطبلية، فإلى أيهما تفضل الجلوس؟

t.me/qurssan

كان الفتى جائعًا للحديث، جلسا حول الطبلية وأنشأ يقص على يوسف تاريخ تعيينه مهندسًا زراعيًا بملوي عقب تخرجه، وكيف يفتقد الحياة المدنية ومقاهي القاهرة ومسارحها ودور السينما والتي لا ينعم بها إلا في الأجازات المتباعدة، أشار لجرامافون مهيب في وسط مجلس البيت قائلًا:

-هذا رفيقي الوحيد هنا، أسرفت واشتريته من أول مرتبٍ لي، لولاه لجننت حتمًا، فالعازب مثلي لا يدعى للبيوت إلا لغرض النسب وهذا ما لست مؤهلًا له حاليًا. المقاهي معتمة كئيبة، ولن أرقي لصحبة الساهرين بفندق ألونزو، لابد أنك رأيته وأنت خارج من المحطة.

وطفق يقص عليه الحكاية التي عرفها قبلًا من الصيدلي عن البيع الصوري للفندق. عرف يوسف أن هناك ثلاثة أجهزة راديو فقط بالبلدة؛ أولهم ببهو الفندق، وثانيهم بقصر السيد النائب، والأخير بسرايا العمدة الذي هو من سلالة أحد شيوخ الطرق الصوفية.

- لابد أنك قد مررت بها وتساءلت عن مالكها، لها طراز معماري مميز وأسوار عالية، ويقف الخفراء على بابها.

وعرف أن كل عائلة تفخر بانتسابها التاريخي لقبيلةٍ ما أو لشخصيةٍ ما ذات حيثياتٍ دينية أو سياسية عريقة، وأن أكبر عائلتين، في النفوذ المادي والعددي، تتقاسمان السلطة السياسية بالاتفاق الضمني على توارث منصب العمدة في إحداهما وعضوية مجلس النواب في الأخرى، وأنهما تتنافسان فقط في مظاهر الكرم في الصرف على الموالد الصوفية لكسب ود وتوقير العامة من مرتادي ومريدي هذه الاحتفالات .

قص علي كل التفاصيل بدقةٍ وحماسٍ منقطعي النظير، شافعًا الكلمات بالإشارات والمؤثرات؛ فمثلًا عندما وصف حديث العمدة مع المأمور في واقعة قتلٍ بسبب الثأر حيث وقفا أمام البلدة كلها في موقع الجريمة بحقل القتيل، توقف عن الأكل واتخذ سمت الجدية وكادت ملامحه نفسها تتبدل

t.me/qurssan

وهو يتحدث باللهجة الصعيدية، مغيرًا نبرة صوته لينقل الأسلوب المعتد اللامبالي، مشخصًا محاولة العمدة العبثية لنفي علاقة الجريمة بالثأر بمهارةٍ فاجأت يوسف وتركته مأخوذًا بقدرة مضيفه على التقمص والاختفاء تمامًا داخل شخصيةٍ أخرى. سأله يوسف جادًا:

-لماذا لم تشتغل بالتمثيل بدلًا من إضاعة مواهبك هنا؟

-تقدمت لفرقة نجيب الريحاني لكنهم لم يقبلوا بي. أنا أمزح! لم أفكر قط في احتراف التمثيل وإن كنت مارسته بالمدرسة على سبيل الهواية، أتخيل منظر أبي الذي أنفق على تعليمي بالعسر لأخبره في النهاية أني سأكون "مشخصاتي"! ثم أن البلد تحوي أكثر بكثير مما تحتاجه من الممثلين والمغنين، لكنها قطعًا لم تُحصِّل حاجتها من المدرسين والمهندسين والأطباء، بم تعمل أو تدرس؟

تمهل يوسف في ازدراد طعامه مفكرًا بسرعةٍ، سعل وتنحنح وأخيرًا قال:

-أنا أبحث عن عملٍ، لهذا جئت هنا،حتى يتوسط لي المقدس عبد المسيح عند معارفه بالقاهرة لأتوظف، الأمر ليس سهلًا للحاصل على البكالوريا فقط كحالي.

-لم أكن لأحدس هذا أبدًا. وما هي صلتك بالمقدس؟ آسف... لابد أنك تعدني متطفلًا.

-لا، لا... ابنه كان زميلي بالمدرسة الثانوية التوفيقية، كنت أزورهما بشبرا حتى قررا العودة هنا وأخبرني المقدس أن ألجأ له في أي حاجةٍ لي، وها أنا ذا.

-يا لها من مسافةٍ تقطعها للحصول على واسطةٍ، هذه هي بلدنا. أنت معذور بالطبع، لكني أعرف المقدس جيدًا ولم أقابل ابنه هذا أبدًا، لم أره في أي مرةٍ مررت فيها بالأرض. اسمعْ، لن يوصلك أحد سواي، سأغير خط السير اليوم لأجلك، لقد قررت أن أفتش على تلك الناحية مرورًا بعزبة شحاتة، ما رأيك؟

t.me/qurssan

-لا أريد أن تتكبد أي مشقةٍ خاصة لأجلي، ما يزال الوقت مبكرًا ويمكنني بلوغ المحطة.

-ولماذا تحرمني صحبتك يا أخي؟

وضع يده على كتف يوسف مفخمًا لهجته كأنه خديوي ينعم برتبة البكوية على أحد رعاياه قائلًا:

-لقد ارتحنا تمامًا ليوسف أفندي ونود إطالة أمد زيارته لنا قدر الإمكان.

ثم استرخى مبتسمًا ومردفًا:

-سبحان مؤلف القلوب يا أخي!

ارتدى المهندس الشاب البدلة والطربوش متحولًا من فتى هاذر ظريف إلى موظف حكومي خطير الشأن، فما أن وصل السائق بسيارة العمدة حتى ارتدى الملامح الملائمة للزي أيضًا مصدرًا تعليماته للسائق بكل جديةٍ ووقارٍ، لكن ما إن أعطاه السائق ظهره حتى التفت ليوسف الذي يحدق به غامزًا له بعينه كأنما يأتمنه على سرٍ ضاحك. أحب يوسف علي في تلك اللحظة، مال عليه الفتى هامسًا:

-ما رأيك؟ أنفع؟

كبت يوسف ضحكته هازًا رأسه مطرقًا، ثم ركبا معا بالمقعد الخلفي للسيارة. بصوتٍ خافت قدر الإمكان تحدث علي حتى لا يسمعهما السائق.

-إن كنت ستبيت لديهم لا بأس، لكن لو أردت ألا تبيت هناك يمكنك المجيء إليّ. اطلب فقط الذهاب إلى سكن المهندس الزراعي، ولو أني أستبعد تمامًا أن يتركوك تذهب، ذلك بمثابة عارٍ هنا. أتمنى أن يسهل الله أمورك وتحوز مرامك. فرصة سعيدة وأتمنى ألا تكون الأخيرة. يمكن على فكرة أن نتقابل بالقاهرة في أجازتي القادمة، سأسافر في يوم رأس السنة الهجرية وأضم له يومي الخميس والجمعة، سيكون هذا بعد يومين. هل لديك تليفون

t.me/qurssan

بالقاهرة؟ أجاب يوسف بالنفي وطرح عليه السؤال نفسه، فأجاب ببساطةٍ:

-الحقيقة أن أبي قدم طلبًا لإدخال التليفون بشقتنا المتواضعة منذ عامٍ تقريبا ولم ننل ذلك الشرف السامي بعد، لكني سأعطيك رقم تليفون المقهى الواقع أسفل بيتنا، ستصل إليّ بالسهولة نفسها.

-سأراك حتمًا قبل أن أغادر ملوي، شكرا على كل شيءٍ.

-أعرف أنه سؤال متأخر نوعًا، لكن ... لابد من طرحه، ألم نتقابل من قبل؟ في القاهرة؟ لدي ذلك الشعور الملح بأن هذه ليست المرة الأولى التي أراك فيها.

-ما دمت من محبي السينمات والمسارح فلابد أن طرقنا تقاطعت.

-الغريب أني... لا بأس، أراك على خير.

تنفس يوسف الصعداء لأنه لم يستفض في تساؤله مدققًا. من يعلم أين يمكن أن يكون قد رآه؟ لقد جال بالقاهرة كلها ساهرًا مغنيًا راقصًا، ما أبعدها حقبة تنأى عن حاضره كما تنأى طفولة المرء عن شيخوخته! ترك السيارة بسرعةٍ ليجد ما توقعه عندما غادر القطار في مغيب اليوم السابق؛ الأرض المزروعة المنبسطة التي لا تحد، كأنها نسخة خضراء من السماء، هناك جبال نائية تبدو كظلالٍ لبعدها، وأصوات أبقار وماعز لا يستطيع رؤيتها من موضعه، وخرير مياه من ساقية دائرة بعيدًا، والبيت الذي يقصده قابع هناك محتميًا بشجرة سنط تظلل على جهته الشرقية، هل هناك من يجلس بالشرفة الأمامية بجوار الباب؟ هل هو نجيب أم أبوه؟ تقدم متهيبًا لا يعرف بأي وجهٍ عليه الظهور، معتذرًا واجمًا أم مسرورًا بريئًا؟

***

كان عبد المسيح جالسًا، يسند رأسه فوق يديه المعقودتين على رأس عصاه. كان يردد مزامير باكر وهو مغمض العينين عندما سمع صوت محرك

t.me/qurssan

السيارة على الأرض الترابية الممهدة، فتح عينيه ورأى السيارة تقف بعيدًا ليهبط منها أحدهم قبل أن تستأنف سيرها، هذه سيارة المهندس الزراعي، فمن ذاك الذي هبط منها؟ هل هو موظف جديد بالري؟ هل سيتحدث إليّ بشأن الدور في السُّقْيَا؟هذا ليس علي مصطفي بالتأكيد، هو لن يسير مترددًا كأنه لا يعرف أين يخطو، سيلوح لي بكلتا يديه من حيث يراني ملقيًا التحية التي يضيع صداها المرتفع في البراح، وأين طربوشه؟ يا أم النور! هل هذا... يوسف؟

نهض العجوز واقفًا وقد أمسك العصا بيسراه بينما ظلل عينيه بيمناه ليرى جيدًا القادم، لم يعد هناك شك، هذا يوسف الأرمني.

-صباح الخير يا عمي.

تكلم يوسف وهو يفكر فيما سيفعله لو لم يرحب به الرجل، هل يرحل فورًا أم يسأل عن نجيب؟

متمهلًا ترك عبد المسيح موقفه هابًطا الدرجات الثلاث ليصل ليوسف، ودون أدنى توقعٍ من الأخير، بل ومع بعض الخوف، إذا به يجذبه إليه معانقًا! أصيب يوسف بالخرس، طفق العجوز يربت على ظهره مرددًا بصوتٍ رق إشفاقًا:

-كيف حالك يا بني؟ كيف حالك؟ ماذا فعلوا بك؟

عاد إليه ذلك الانفعال الذي اختبره للمرةِ الأولى عند عودته لأبيه باليوم الأول؛ مزيج كريه من الإشفاق المرير على النفس وعلى ألم الطرف الآخر من أجله، مع الإحساس بالعار لكونه المتسبب في ذلك الحزن الجارف.

عندما أبعده الرجل لينظر لوجهه لاحظ يوسف أن الرجل لم يتبدل قط، على النقيض مما أصاب والده من بلى ووهن، لا يزال شاربه مفتولًا كثيفًا أسود اللون بلا شعرةٍ واحدة بيضاء، عيناه لامعتان، ظهره منتصب وكتفاه مستقيمتان. كأن الزمن كان مدينًا له بعدة أعوامٍ فردها إليه!

t.me/qurssan

-أنا بخير، أردت أن أطمئن عليكما. نسيم أخبرني بالعنوان، كيف حال نجيب؟

بالداخل كانت هناك عتمة لطيفة باردة، يتخللها ضوء ساقط من كواتٍ مرتفعة وشيشٍ مغلق، ظن يوسف أنه متوهم لكن مع مرور الثواني الأولى تيقن من أن ما يشمه هو قطعًا رائحة بخورٍ. صدمته بعنف ذكرى الدير الذي تناول به من الأسرار المقدسة للمرة الأخيرةِ، وللمرة الأولى يمر برأسه ذلك الخاطر؛ ربما كان كل ما أصابه هو لعنة عدم الاستحقاق، هل كانت تلك هي النار الآكلة التي ابتلعها للدينونة؟ لماذا لا يزال يعتقد، أو يريد أن يعتقد، أن الله ليس بتلك القسوة؟

مع اعتياد عينيه على الإضاءة الخافتة بدأ يميز الصور التي تغطي ثلاث جهات بالصالة الواسعة؛ كانت صورًا للعذراء والملاك ميخائيل، صورًا قبطية وأوروبية منسوخة، كبيرة وصغيرة، بإطاراتٍ ودون إطاراتٍ، منها ما تم قصه من الكتب ولصقه مباشرةً على الحائط الجيري ذي اللون الأخضر الباهت. جلس على كنبةٍ تقليدية مغطاة بنسيجٍ يدوي باللونين الأحمر والأسود، وتطلع إلى سلمٍ داخلي بلا حاجزٍ يمتد من صحن الدار إلى سطحه، ومن ذلك السطح يسقط ضوء يغطي درجات السلم التي تآكل بعضها.

-سيأتي نجيب حالًا، يا بباوي، أحضر الإفطار للدكتور يوسف.

لسعه اللقب المنسي المأسوف عليه، قال لمضيفه بسرعةٍ:

-لقد أفطرت فعلًا، عند المهندس علي.

أصر الرجل مع ذلك على إحضار الشاي مصحوبًا بفطائر الملاك ليتناولها يوسف حتى يأتي صديقه، منوهًا أن كاهنًا جاء لتبريك المنزل في العشية السابقة وأن هذا سبب ما قد يلاحظه من بقايا بخورٍ عالقة بالبيت، ثم أشار لإبريق مياه موضوع على المائدة قائلًا:

-اشرب من هذه المياه، لقد تمت الصلاة عليها وأصبحت مباركةً.

t.me/qurssan

سكت برهةً قصيرةً ثم تابع متمتمًا:

-ابن حلال المهندس علي... ابن حلال... هل لك سابق معرفة به؟

-أبدًا، اليوم أول مرةٍ أتعرف به، أين نجيب؟

سأل وعيناه لا تفارقان السلم كأنه يتوقع ظهور صاحبه عليه.

-سيأتي حالًا، لقد ذهب بباوي ليحضره.

حاول يوسف أن يتذكر أين ذهب بباوي بعد أن وضع أمامه الفطائر والشاي، هل خرج من باب البيت أم صعد السلم؟ جاءته الإجابة مع نجيب الهابط من أعلى. كان يرتدي جلبابًا أزرق فاتحًا، ذقنه غير حليقةٍ، وشعره الخشن طال ليشبه الهالة حول رأسه. كل جارحةٍ به كانت علامة تعجبٍ، الدهشة وعدم التصديق لم يتركا مجالًا لانفعالٍ آخر ليظهر. وقف بمنتصف الدرجات يحدق بصاحبه من أعلى فاغرًا فاه:

-يوسف! أنت هنا فعلًا؟!

تسابقت أنفاسه مع ضربات قلبه وهو يرى نجيب على تلك الصورة، كأنه أحد الدراويش أو المجاذيب، تمالك نفسه ليتكلم بمرحٍ:

-نجيب، كيف حالك؟

كاد يسأله"هل تذكرني؟" وأمسك لسانه بصعوبةٍ، لكن نجيب لم يطل في ذهوله وتكلم بنبرته المألوفة بينما ذراعيه مفتوحتين:

-حمدا لله على سلامتك، تعالَ،اصعد هنا.

وقف مكانه مستمرًا في دعوته بابتسامةٍ، تنفس يوسف الصعداء وحث الخطى نحوه قبل أن يرتقي درجات السلم ليصل إليه، وما أن فعل حتى فوجئ بنجيب يمسك برأسه ويقبلها بقوةٍ!

-جيد أنك أتيت، بل شكرًا أنك أتيت. تعالَ معي.

وترك رأسه ليمسك بيده ويشده خلفه صاعدًا السلم حتى سطح البيت. على السطح رأى يوسف برج حمامٍ خاوٍ وغرفةً خشبيةً بلا سقفٍ بها آثار قش،

t.me/qurssan

السور لا يتعدى ارتفاعه مترًا واحدًا، وعلى الأرض كانت هناك حصيرة صفراء اللون جلس عليها نجيب داعيًا إياه للمثل.

-نورت الصعيد يا يوسف، ما رأيك في بلدنا إذًا؟ وكيف وصلت إلى المنزل ؟

-جئت مع المهندس علي مصطفي. البلد جميل كما تخيلته، بل أفضل.

-من هو المهندس علي مصطفي؟ أحد معارفك وقد جاء زائرًا ؟

-ولكن... كيف لا تعرفه؟ إنه يعمل هنا منذ... عامٍ وشهرين كما قال. والدك يعرفه جيدًا.

قال وقد بدا غير مكترثٍ لتعجب يوسف:

-دعك منه! المهم أنك أتيت، أريد الإطمئنان عليك، متى خرجت؟ وكيف حالك؟

بدأ يوسف في العثور على صديقه مجددًا تحت ذلك الغطاء من الشعر والملابس، الصوت نفسه والنبرة الحارة التي لا تفتر، ومع ذلك فهناك خاطر خافت جدًا بقلبه أن شيئًا ما حتمًا مختلف به.

-خرجت منذ ستة أسابيع، رأيت كلا من مراد ونسيم، الأخير هو من أعطاني عنوانكم، كما ترى لم يلحق بي أذى يمكن ملاحظته.

خبت ابتسامة نجيب وفقد الحبور الذي كان طافحًا من أساريره، بصوتٍ هادئٍ رزين قال:

-أخبرني بكل شيءٍ يا يوسف.

-بعد أن تخبرني أولًا... لماذا تركت عملك وعدت إلى هنا، وماذا تفعل تحديدًا أو تنتظر؟

-أنتظرْ الإفراج. لا تتعجب، الاعتقال ليس الطريقة الوحيدة لتقييد إرادة المرء. لا أتعجل انحلال قيدي مع ذلك، لأنه سيعني انقضاء أيامي أو ربما أيام أبي على الأرض!

t.me/qurssan

اعتدل يوسف متباعدًا قليلًا عن صاحبه وقد صُدِم. لم يمهله نجيب طويلًا ليتشرب معنى الكلمات حتى بادره:

-لا تظن سوءًا يا يوسف، أبي لن يتخلي عن رغبته وكذلك أنا، يتصادف فقط أن الرغبتين متضادتان. هو يريد، كما أراد دائمًا، أن أتزوج لأنجب حفيدًا وحبذا لو كان ذكرًا حتى لا يزول اسم عبد المسيح شحاتة من الوجود، وحتى نحتفظ بنصيبنا المتوارث من الأرض. بينما أنا قد قر قراري على نبذ الزواج تمامًا، هو ما زال لا يصدق هذا ويحاول إنكاره أو التحايل عليه. صار الأمر فجأةً أقرب لصراع كلينا مع الزمن، هو يريد أن يتيقن من نجاح خطته قبل أن توافيه المنية، وأنا أتظاهر من جهتي أحيانًا بموافقته مسوفًا مؤجلًا حتى لا أغضبه، مراهنًا على كسب الوقت.

-ولكن... من حقه أن يجد ذلك صعب التصديق، لم تكن قط معترضًا على المبدأ نفسه. فما الذي غيَّرَ رأيك بشأن الزواج؟

-تغير رأيي لأنني تغيرت. أتعرف يا يوسف، القبول، القبول يرفعك، يعبر بك فوق الألم، لن تعرف أبدًا كم كنت أخشى الألم، لهذا لا يمكنني الرجوع والتخلي عما أعطاني تلك القوة، ستكون تلك خيانة عظمى! أظن أحيانًا أني لو قفزت من هنا إلى أسفل لن أصل إلى الأرض... لفرط ما أشعر به من خفةٍ.

-نجيب، ماذا حدث لك؟ قبل أن يطلقوا سراحك.

كان بحاجةٍ لانتزاع اعترافٍ ما، أراد أن يعرف.

-لماذا يهم ذلك؟ أنت تركز هنا على السفاسف مهملًا النتيجة والمغزى. لن أعود أبدًا لما كنت عليه وهذا نهائي.

بدت كلمة "نهائي" مخيفةً ليوسف رغم السعادة التي استخدمها بها نجيب، لم يعد هناك مفر من السؤال مباشرةً.

-هل عاينت رؤيا يا نجيب؟ كما قال نسيم؟

t.me/qurssan

صمت نجيب دهرًا. دموع قليلة تألقت بعينيه دون أن تغادرهما. راح ينظر حوله متحاشيًا التلاقي مع عيني يوسف، تأوه فجأةً مُنفسًا عما جاش بصدره من انفعالٍ قبل أن يتماسك من جديد مهدئًا نفسه زافرًا بقوةٍ، منكسًا رأسه تكلم بصوتٍ باكٍ:

-لم أكن مستحقًا البتة، ولن أكون، لذلك سأشكرك للأبد يا يوسف، لولاك لما اختبرت شيئًا، لو فكرت بالأمر، لو لم نوضع تحت الرحى... تلك التي عشت أتجنبها دومًا، لو لم أفقد كل رجاءٍ سواه... لما أشفق عليّ ولما رأيت شيئًا.

لم يزد على ذلك حرفًا ولبث صامتًا منكس الرأس، سرت قشعريرة بجسد يوسف وهو يقول واجمًا:

-هناك أمر صغير لم أذكره لك قبل هذه اللحظة، لم تتح لي الفرصة... قرص الدواء الذي أعطيته لك بتلك الظهيرة، في دير السريان عندما أصابك الإعياء، هل تذكره؟ له، أحيانًا، القدرة على الإيحاء بما يشبه... الإلهام، تنشيط الخيال ربما، ألا يمكن أن يكون هو السبب فيما رأيته أيًا كان كنهه؟

ابتسم نجيب مشفقًا ووضع يده على كتفه قائلًا:

-لكني لم أرَ شيئًا في اليوم الأول يا يوسف، لم يحدث شيء سوى في اليوم العاشر! وفي تلك الأيام العشرة لم أفعل شيئًا سوى الصلاة، آملًا يائسًا، مرتعبًا واثقًا. لم أكف لحظةً واحدةً عن اللجاجة والإلحاح، هاجمتني كل سَوْءاتي وخطاياي وشكوكي لكني لم أكترث، غادرتني بتلك الظلمة كل شهواتي المألوفة ومخاوفي العتيدة، أُخْلِيت منها جميعًا، بالنهاية أرسله لي ليطمئنني، وهو بدوره أرسلني هنا لأنتظره، وها أنا أفعل.الوقت اقترب وكل ما عليّ فعله هو الانتظار.

t.me/qurssan

صمت فجأةً وحدق فيما خلف يوسف دافعًا الأخير للالتفات وراءه، لكنه لم يرَ شيئًا! عاد ينظر إلى نجيب مرةً أخرى ليجده لا يزال شاردًا، في محاولةٍ يائسة أخيرة قال حزينًا:

-ولكن... هل سيكون هذا للأبد؟ هل بلغت ما كنت تروم من نشوى تغنيك عن استئناف البحث والسؤال؟ ألا تريد العودة يومًا، في مستقبلٍ بعيد، إلى مقهانا؟ ألا يبدو لك كل ذلك مخيفًا؟ يمكنك في لحظةٍ ما أن تنبذ كل مسرات الدنيا ومباهجها دون ندمٍ، لكن ماذا عن الحب يا نجيب؟

تلفظ بسؤاله الأخير وقد غالبه شعور باليأس لا يأتي إلا مع الموت، كأن صاحبه قد مات وهو يخاطب جثمانه الذي سينتزع منه بعد قليلٍ ليوارى تحت التراب، لهذا خاطبه وهو يمسك بيده كأنما يأمل في جذبه من بحرٍ خفي سقط فيه. أحس بوجود أحدهم خلفه فالتفت مسرعًا ليجد المقدس واقفًا هناك على رأس السلم مستندًا لعصاه. ترك يد نجيب وقد شعر بخجلٍ غير مبررٍ، ثم نهض واقفًا ينفض عن ملابسه الغبار. بدا وجه الرجل مربدًا غائمًا، ولم يستطع تخمين السبب. قبل أن يصبح الوضع مربكًا تكلم العجوز بصوتٍ صارم:

-سأهبط للمرور بالأرض والمزارعين، ألا تريد اصطحاب يوسف لتريه أرضك يا نجيب؟

ركب ثلاثتهم في عربةٍ تشبه الحنطور لكنها بلا غطاء، كان عبد المسيح هو من يقودها بتمكنٍ كامل، وكان نجيب جالسًا وقد أسند وجهه لقبضته شاردًا كمن خرج مرغمًا إكرامًا لصاحبه فقط، همس يوسف بأذنه:

-لماذا لا تحلق يا نجيب؟

تكلم نجيب هامسًا هو الآخر:

-الآن هو يريد تذكيري بذلك النير الموضوع على أكتاف كل رجال العائلة. الأرض سيرثها أعمامي لو لم أترك أنا وريثًا، فيم هذا الاهتمام المريض

t.me/qurssan

بمصير ممتلكاتنا بعد موتنا؟ هل سيمنحه تسجيل الأرض باسمه أفضلية في الملكوت؟ وما ذنبي أنا؟

-حسنًا، لكنك لم تجبني... ما علاقة كل هذا بالحصول على منظرٍ طبيعي؟ لماذا لا تحلق شعرك ولحيتك؟

نظر له نجيب مغتاظًا من غبائه.

-هل تحتاج للسؤال فعلًا؟ إنه نذر، من نذر نفسه لله لا يعلو المقص رأسه.

أراد يوسف أن يزيد من غيظه فقال مداعبًا:

-آآه، كشمشون! ويُنْتَظر أن تحظى بمثل قوته طبعًا عندما يصل طول شعرك لـ..كم بالضبط؟

كان نجيب القديم جديرًا بأن يرد له السخرية بمثلها منقحةً بشيءٍ من الوقاحة، لكن الجالس بجواره الآن أجاب جادًا:

-فيمَ نفعت القوة شمشون؟ ألم يهلك برغمها؟

كان الفلاحون يعملون بالأرض مرتدين صدريات تكشف عن جذوعهم السمراء وسراويل مشمرة لأفخاذهم، مغطين رؤوسهم من لهيب الشمس بمناديل معقودة. أسرعوا لتحية راكبي العربة داعين إياهم لشرب الشاي بينما اكتفى عبد المسيح برد التحية وتقديم الشكر.

-نجيب، ألا توجد نساء ببلدكم هذه؟ لم أرَ امرأةً ولا طفلةً واحدةً منذ وصلت.

-المرات التي تضطر النساء فيها لمغادرة بيوتهن في اليوم معدودة؛ في الفجر وعند الغروب مثلًا لملء الجرار من النيل، الذهاب إلى سوق القرية يوم السبت، وحتى في تلك الحالات لن ترى منهن شيئًا يذكر.

-كيف ترقصون في مناسباتكم إذًا؟

t.me/qurssan

-الرجال فقط هم من يرقصون علنًا، والنساء يرقصن في غرفٍ مغلقة... وحدهن. لا تفتح هذه السيرة مرة أخرى هنا، ولو صادفت إحداهن لا تحاول الحديث إليها، لأنك قد تتسبب لها في أذى شديد.

للمرة الثالثة بذلك الصباح جلس يوسف ليشرب الشاي الذي أُعِد هذه المرة على"قوالح" الذرة الجافة فيما كان العاملون بالأرض يقطعون الذرة الخضراء ويطرحونها للجمع في يومٍ آخر. فكر يوسف في مدى ما يتمتع به من جهلٍ يجعله لا يميز بين أنواع المزروعات والأشجار، فلا يكاد يفرق بين القطن والبرسيم وشجر النبق والزيتون، كان ذلك عندما ترك نجيب كوبه فجأةً وقد قرر الانضمام إلى الفلاحين في جمع الذرة!

-لم تفعلها وأنت فتى صغيرويدك لم تلمس منجلًا قط، ماذا تريد منهم أن يقولوا؟

-سأجرب يا آبا... سأجرب.

وذهب لينضم إلى سائر جامعي المحصول. لاحظ يوسف الضيق الذي ألمَّ بمضيفه، ولم يتوقع ما قاله تاليًا:

-طبعًا أخبرك بنيته للترهب.

-الحقيقة... هو لم يذكر ذاك اللفظ تحديدًا، قال فقط أنه لا يريد الزواج... حاليًا على الأقل.

-لن أتركه لما يدور برأسه، لم يزد ما صلاه في حياته كلها عن عشرة مزامير، ولم يقرأ إصحاحين كاملين بالإنجيل، حتى إني كنت أخشى عليه من الضياع، فإذا به يريد أن يترهب فجأةً لمجرد أنه حُبِس شهران؟ما هي إلا نزوة عابرة ستهدأ مع مرور الوقت، كل ما يحتاجه ليكتشف أنه مخطئ هو الوقت.

-لكن... مضت شهور وهو ثابت على رأيه... لماذا وافقته على ترك وظيفته والعودة إلى هنا إذًا؟

t.me/qurssan

-أردته أن يعمل بالقاهرة لينضم إلى الحزب ويكون قريبًا من صانعي القرار، علَّه يصبح ذا شأنٍ في الوفد يومًا، لكنه لم يبدِ أي استعدادٍ للعمل بالسياسة، ثم جاءت مصيبة مكرم عبيد، الذي ظن أنه كفء لمناطحة الوفد وحده، لتنهي أي أملٍ للأقباط في المستقبل السياسي، فيئست منه بدوري. يمكنني حتى الآن إعادته لوظيفته لو أراد، لا مستحيل أمام المال المدفوع في المكان المناسب، لكن أن يقطع الطريق أمام حياته بالكامل على هذه الصورة... هذا هو الجنون. لو كنت أنجبت غيره لتركته يفعل ما يشاء، لكن ربنا أراد أن يكون هو الوحيد الذي يحمل اسمي والوحيد الذي سأستند عليه في شيخوختي. لن أبقى بصحتي للأبد، سأضعف وتتلاشى قوتي ولا أريد أن أكون وحيدًا في أيامي الأخيرة.

-أطال الله في عمرك يا عمي، لكنك هنا بين إخوتك.

-إخوتي مشغولون بأسرهم، لن يتركوا بيوتهم لرعايتي ولن أرضى لنفسي بمهانة التطفل على أحد، إن كان ابني نفسه سيتنصل مني فالأفضل لي أن أموت الآن بكرامتي.

أعجزه المنطق الملتوي بحديث الرجل عن الرد، وفهم رغبة نجيب في تجنب المواجهة معه، لأنه سيخرج خاسرًا لا محالة، كان محقًا في مراهنتهما على الوقت!

تذكر يوسف مقابلته لنظير جيد مع كلام الرجل عن مكرم عبيد، فقام لتوه ولحق بصاحبه ليخبره بتفاصيل ذلك اللقاء. وجد نجيب وقد رفع جلبابه وربطه حول خصره بينما أحاط رأسه بمنديلٍ عريض متأسيًا برفاقه في العمل.

-ماذا؟

قالها وتوقف عن العمل الذي بدأ يألفه وانتصب مكانه لاهثًا مغمورًا بالعرق. بدا عليه التفكير العميق للحظاتٍ قبل أن يقول بهدوءٍ:

t.me/qurssan

-لابد أنه يجده طريقًا عمليًا لتغيير الواقع. لا بأس بذلك فيما أعتقد، العمل بالسياسة ليس حرامًا رغم كل شيءٍ، وهو كان زائرًا للدير لا طالب رهبنة عندما قابلناه.

-ولكن... هل بمقدورك أن تختار الانفصال عن العالم؟ وجودك داخل الدير لا يعني أنك غادرت الأرض، سيأتي البربر حتى أسوارك مطالبين برأسك وسينشئ البريطانيون مطارًا عسكريًا على مرمى حجرٍ منك، الشر سيأتي إلى بابك شئت أم أبيت.

-هل تظنني أهرب؟

هتف نجيب مستنكرًا.

-لماذا لا يقال عن الجنود المقيمين بثكناتهم أو الطلبة بالمدارس الداخلية أنهم ينفصلون عن العالم؟

-نجيب، مراد كان خليقًا باتهامك بالجبن والتواني، لكن ليس أنا. أجد فيما تفعله شجاعةً تكاد تلامس الإقدام على الاستشهاد، وهذا ما يخيفني، تخليك هذا عن الاحتمالات، بينما أتمسك أنا لآخر رمقٍ بحياةٍ أدارت لي ظهرها بالكامل وأفضل ابتلاع رمادها كل يوم على التخلي عنها.

-ما هذا الكلام الفارغ عن الرماد والحياة؟ ابقَ معي يا يوسف، ابقَ حتى يتم الأمر وتطمئن. غدًا يبدأ صوم العذراء وبعد العيد ستحل الأمور.

-ماذا سيحدث؟ هل تعرف أم...

-انتظرْ الرب، تَقَوَّ وليتشدد قلبك وانتظر الرب.

صار نجيب الآن هو من يرد بالآيات! لو أنك تسمع يا نسيم!

-ولكن العيد سيكون بعد أسبوعين، كيف أبقى كل هذه المدة؟

-سيرغب أبي في وجودك لتذكيري بكل ما سأفتقده، ولن يلجأ لمعارك مباشرة وأنت هنا، لذلك سيفيد منك كلانا على طريقته، ما لم تكن متعجلًا العودة إلى القاهرة... لماذا لا تساعدني؟

t.me/qurssan

لم تكن هناك غرفة أخرى معدة بالمنزل سوى غرفة نجيب، وكان الفراش عريضًا يتسع لكليهما، لكن صاحب الفراش لم يحتجه طويلًا، فقد غادر الحجرة وهو يظن يوسف نائمًا لا يشعر به. أما يوسف فكان يقظًا! رانت عليه كآبة لا يعرف مصدرها وباتت الغرفة ثقيلة الوطء على نفسه فنفر من النوم فيها، بأهدأ ما يمكنه غادرها ثم خرج من البيت كله ليقف في الظلام المنهزم من ضوء القمر. تنفس عميقًا وقد بدأت الراحة تعود إلى قلبه وأنشأ يبحث عن شجرةٍ يقضي تحتها ليلته، وما أن وجدها ملاصقةً لجدار البيت الشرقي حتى اتكأ عليها ممتنًا، لكنه ما إن بدأ يستكين للنوم حتى أقلقته أصوات حركةٍ وكلماتٍ يوهن منها الهواء، وتأكد أنها قادمة من فوق سطح المنزل. إنه صوت صلاة ملحنة!

السطح هو قلايتك إذًا يا نجيب! هل ستهبط قبل الصباح لتتظاهر بأنك كنت نائمًا طوال الوقت؟

أغمض عينيه وقد تملكته رغبةٌ في ترديد صلاةٍ قبل النوم لكنه لم يستطع تذكر أي صلاةٍ، لم تحضره سوى الصلاة الربيّة التي يحفظها بالأرمنية فتلاها، لكن النوم لم يراوده إلا بعد ترنمه بصوتٍ لا يسمعه سواه بأغنية أطفالٍ فرنسية.

لم تخب توقعاته، قبل طلوع الشمس استيقظ وترك الشجرة عائدًا إلى الفراش، كان لا يزال خاليًا، وإذا بنجيب يعود متسللًا على أطراف أصابعه ليندس فيه ظانًا أن يوسف نائمًا لا يشعر به. بات خجِلًا من نفسه ومن محاولته زعزعة ثقته في قراره، هذا شخص يعرف تمامًا ما يريد وكيف يصل إليه، عسى أن يبلغ هو يومًا تلك الدرجة.

نهض الصديقان بعد ساعتين وقد تظاهر كل منهما بالمبيت طوال الليل بالغرفة، وبينما يتناولان الإفطار مع المقدس نَوَّه عن دعوتهم إلى فرح ابن شقيق العمدة والذي سيقام ببيت العمدة وعلى نفقته إكرامًا لأخيه الراحل.

t.me/qurssan

-فرح في أول أيام صيام العذراء؟ هل سترفض تناول الطعام أم تفطر؟
كان نجيب هو السائل مستنكرًا، لكن شعرةً لم تهتز لأبيه الذي أجاب:
-سأكتفي بتناول الشربات، لدي مصلحة مع العمدة وأريد مجاملته بينما أحدثه فيها، هدايانا وصلت هناك بالفعل ولم يبقَ سوى حضورنا الفرح ليلًا.
-لماذا تجمعنا معك؟ وما حاجتك إلينا؟
-ستذهب معي يا نجيب لأنك ابني الوحيد ويجب أن تحضر ما سيقال، كما أنك لست فتاةً للأسف لأعتذر بخجلك من مخالطة الناس، ومن العيب طبعًا أن نذهب تاركين يوسف. لا أريد كلمةً أخرى في الموضوع.
-حسنًا يا أبي، لكني لن أحلق لحيتي ولا شعري.
-هل تعتقد أنك صرت راهبًا لأنك لا تحلق؟ حتى طالب الرهبنة يحلق في فترة الاختبار. افعل ماشئت، لكن لف رأسك بعمامةٍ حتى لا تبدو كالمجاذيب،أنا لا أصطحبك للشحاذة!
كتم يوسف ضحكته كي لا يغضب نجيب. وتعجب من سطوة الرجل التي أسكتتهما معًا دون مجهودٍ من جانبه.
وهما يتمشيان بموازاة ترعةٍ خضراء اللون نظر يوسف إلى العربة التي قادها الرجل العجوز في اليوم السابق وسأل صاحبه:
-هل تستطيع قيادتها كأبيك؟
-لم أجرب، كنت أجلس دائمًا بجواره بينما يمسك هو باللجام.
-ماذا ستفعل طوال اليوم؟ لن تصلي وتقرأ أربع وعشرون ساعةً. أليس كذلك؟
-الرهبان يعملون يا يوسف، يزرعون ويحصدون، يخبزون وينسجون. من لا يريد أن يعمل فلا يأكل أيضًا. لا أريد الاستمرار في الشرح والتبرير، يضايقني هذا.

t.me/qurssan

-ألن تودع أحدًا قبلها؟ نسيم ومراد مثلًا.

-بعد فترة الاختبار يمكنكم زيارتي، لا أظن مراد سيحب المجيء. هل تعرف دير الأنبا صموئيل المعترف؟ يمكن الذهاب إليه من هنا بالسيارة، هو في الصحراء بجبل القلمون، الطريق وعر وغير ممهد لكن... كلما كان المقصد جديرًا كلما ازداد الطريق صعوبةً.

-دير آخر؟ اعذرني يا نجيب لعدم تمتعي بالحماس الكافي، لكن لماذا تريد الذهاب إليه؟

طفق نجيب يتطلع إليه مفكرًا. *دائمًا ذلك التردد في حسم الرأي، هل من الحكمة أن يخبره أم لا؟* عرف يوسف ذلك فأمضه الموقف المشابه لموقف نسيم من قبل. بضيقٍ لم يستطع إخفائه قال:

-يمكنك أن تحتفظ بالسبب لنفسك، سأذهب لزيارة المهندس علي ريثما تعود.

-لن أذهب حتى عشية عيد العذراء، هو أخبرني أني سأقابله هناك في ذلك الموعد. تعالَ معي يا يوسف، سأخبرك بكل شيءٍ.

صعدا معًا إلى سطح البيت، وهناك حكى نجيب تحت الشمس الساطعة التي تحرق الخيال. أخبره بالحلم الذي زاره فيه مينا البراموسي دون سابق لقاءٍ أو حتى سمعٍ، ذكره بالليلة التي أخبرهم فيها بخطة أبيه لزواجه قائلًا:

-لابد أنك تذكرها، كنا نتحدث في المقهى عن حادثة عابدين، ليلتها أخبرني نسيم أنه سيأخذني لمكانٍ ما في الصباح التالي دون أن يذكر شيئًا عن كنه هذا المكان، وبعدما نمت رأيته... غاضبًا في يده صليب يكاد يضربني به.

قصَّ عليه كيف ذهبا لزيارته ولم يجداه، وكيف حاول مقابلته مرة ثانيةً بعد حادثة الجنديين وفشل، وكيف كان يفترض به التواجد في دير البراموس الذي لم يقدر لهم زيارته في اليوم المشهود، ثم أخيرًا كيف أتاه زائرًا في حلمٍ آخر في اليوم العاشر من اعتقالهم!

t.me/qurssan

-لكنه لم يكن غاضبًا في هذه المرة،كان لطيفًا جدًا رغم أني لا أذكر أنه ابتسم، لم يكن لطفًا يُرى، كان لطفًا تتشربه روحك وتأتنس به، يصل بك إلى مواضع الراحة التي لم تعرف يومًا أنك تبحث عنها. قال لي ألا أخاف شيئًا، وإني سأكون مخصصًا للرب، وأن أعود لبلدي وأنتظره بعد خروجي من المعتقل، أعطاني موقع اللقاء وموعده، عشية عيد العذراء في دير الأنبا صموئيل بجبل القلمون، شريطة أن أظل ثابتًا. ويلُ لي إن لم أثبت بعد هذا، أليس كذلك؟

فهم يوسف لماذا لم يرغب نسيم في حكي هذه التفاصيل العصية، الغريبة، المدهشة، الأُخْروية. ضاع تمامًا باحثًا عما يمكن قوله، ثم فجأةً كأنه أدرك شيئًا قال بشكٍ وتوثبٍ:

-هل قلت مينا البراموسي؟ أذكر أن اسمه كان "أبونا مينا"، هل هما الشخص نفسه؟

بدا كأنه يحدث نفسه لا نجيب، أبونا مينا المذكور على لسان هيلانة بالمذكرات، ذاك الذي أخبرها ألا تنتظره، كيف يظل هذا الرجل يلاحقه بتلك الطريقة؟ سأله نجيب بسعادةٍ:

-هل سمعت عنه؟

-في الحقيقة... كان لي صديق قد حدثني عنه مقترحًا اصطحابي لزيارته، لكني رفضت! لم أرَ سببًا داعيًا للتعرف عليه حينها، *أطرق مبتسما بمرارة*، لو كنت أعرف...

أنىَّ له أن يعرف؟ الآن تترابط الذكريات والتكهنات. في ذلك اليوم وهما يغادران الكلية تكلم كامل بحماسٍ بالغ عن ناسكٍ شديد الورع، مقصد البائسين والحائرين، "قديس" كما اختار أن يلقبه. لم يُثر كل ذلك فضوله حينها وتنصل من زيارته التي ألح كامل على أهميتها. شعر وقتها أن صاحبه حاول إخفاء ما به من خيبة أمل، لكن إسعاد كامل لم يكن سببًا كافيًا

t.me/qurssan

لتكبد مشقة لقاءٍ لا جدوى منه. كانت هناك عشرات الاهتمامات الأجدى في نظره باستهلاك وقته الثمين. حدث هذا عقب حادثة دخوله المستشفى بسبب الجرعة الزائدة من الدواء. هل كان صاحبه يريد مساعدته على الشفاء؟ وهل كانت نبوءة الراهب بشأنه لتتغير لو أنه أبدى اهتمامًا بالتعرف عليه؟ لم يجد لديه رغبة في اطلاع نجيب على هذا التاريخ، اكتفى بسؤاله بحذرٍ:

-ومع ذلك فتعبير "مخصص للرب" لا يعني بالضرورة الترهب. هل أنت واثق أنك لم ترَ صورةً له في مكانٍ ما قبل أن تحلم به؟ صورة رأيتها ثم نسيت شأنها... هذا وارد الحدوث.

-كيف أنسى شيئًا كهذا؟!

-هل تحدثت مع المقدس عن كل ما أخبرتنى به؟ أعني الحلمين.

هنا تعكر وجه نجيب، فعرف يوسف فورًا أنه أخبره لكن النتيجة لم توافق آماله.

-قال إني كنت أهذي بسبب الظرف الذي وُضعت فيه، كأن خيالي قادر على اختلاق شيءٍ كهذا! أعرف أنه في صميم قلبه يصدق، لكن المعضلة تكمن في عجزه عن التعامل مع كلفة التصديق.

-لابد أنك مميز جدًا يا نجيب. ماذا يفعل العاديون المساكين لحل معضلتهم بعيدًا عن الخاصة الذين يُدعون بالاسم للطريق؟

-لماذا تقول "الطريق" كأن هناك طريقًا واحدًا لا يتغير؟ الطرق عديدة ولا يوجد بينها اثنان متماثلان تمامًا كما لا يوجد شخصان متطابقان.

ذكره هذا بما قالته هيلانة يومًا،"الله لا يتصيدنا ليهلكنا". كلمات مطمئنة لا تنبع إلا ممن بلغ قصده وضمن مصيره!

-لا بأس إذًا إن أخبرتك أن كل الصلوات والترانيم والتسابيح مجتمعةً لا تملأني! لا تسد جوعي المضني للموسيقى، ولا تحل محل الغناء، الموسيقى

t.me/qurssan

والغناء وحي الساقطين وطريقي. هل ما زلت تحب سماعي يا نجيب أم أن الأمر لم يعد "يليق"؟

-لا أتضايق عندما أسمع الغناء مصادفةً، لكني لا أسعى إليه ولا أشعر بحاجته. بعد عددٍ معين من ترديد التسبحة تصبح كراديو تم ضبط مؤشره على موجةٍ معينة فلا يعود بوسعه استقبال غيرها في الوقت نفسه. مجرد اختلاف في الذائقة.

فتح يوسف فاه وقال:

-حبيبي فرقتك مرة... حرام تنسوني بالمرة.

كان صوته مفاجئًا، جهوريًا، ملتاعًا، ساطعًا كالشمس، جعل قلب نجيب يدق دقةً أسرع، لكنه لم يستطع إنهاء ما بدأه، غلبته غصة لتصمته، فركز جهده في مقاومتها وطفق يضحك بتشنجٍ. أمسك نجيب برأسه كأنه يصلي عليه وتمتم بلطفٍ:

-هيا بنا لنخرج.

كان المقدس قد ذهب لزيارة أخيه. فُوجئَ يوسف بنجيب يصحبه للأرض ليساعد الفلاحين مجددًا في جمع الذرة بعدما انتهى الضم! وقف يراقبه وهو يخلع جلبابه ليتهيأ للعمل بالصدرية والسروال.

-هل تعرفهم؟ هؤلاء الفلاحين... هل تعرف منهم أحدًا؟

-لا، ولا واحدًا. لم أكن أخرج من البيت في العام المنصرم.

-ما حاجتك لفعل هذا؟ بدا والدك مغتاظًا منك بالأمس.

- غالبًا سأعمل بالزراعة في الدير، سمعت أن لديهم نباتات طبية نادرة لا يملك أسرار وصفاتها سواهم. وعقل المتبطل معمل للشيطان.

-حسنًا، اذهبْ واشغل نفسك بينما أجلس هنا أتسلى مع الشيطان.

للمرة الأولى يضحك نجيب بصوتٍ مرتفع قبل أن يذهب. اختار يوسف ظل شجرةٍ ليحتمي به من الحرارة متفرجًا على العمل الدائر. عُرِض عليه مرارًا

t.me/qurssan

أن يؤتى بطعامٍ أو شرابٍ من كل من مر به لكنه رفض شاكرًا واكتفى بجلسته تلك. رام التخلص من عبء الملامات والافتراضات،"ماذا لو" و"ماذا إذا"، كل الفوضى الضاربة برأسه. أخذ نفسًا عميقًا... ونظر إلى السماء...

رائحة الزرع والتراب تتخلله للعمق وتنظف حواسه، كأن روحه خاضعة للصيانة والتجديد. الوقت يمر، أغمض عينيه وفكر أن المرء يرتاح كلما اقترب من الأرض التي أخذ من أديمها. الوقت يمر والأصوات تخفت بالاعتياد والتجاهل، الموسيقي وحي الساقطين؟ لماذا قال ذلك؟

الوقت يمر، ينسحب من الوجود. يتضاءل شعوره بمحيطه وميقاته، صار بعيدًا نائيًا أعلى السلم الصاعد نحو السماء، في الفضاء، في مركز المطلق...

ثم رآها، ولمسها، وسمعها. تلك الجملة تراوده راقصةً. لحن يعلو وينخفض، يروح ويجيء، معلق هناك يحوم حول رأسه ويلاعبه بأجنحةٍ بيضاء، لا يعرف من أين وكيف أتى، لكنه مشكورًا أتى. دون أن يدرك راح بحنجرته يدندن اللحن، أعاده المرة تلو المرة منتشيًا بزيارة الحياة له، ممتلئًا بها حتى الحلقوم، ستمتد تلك النشوة للأبد، سيكون حيًا بها للأبد، ثم لا يعرف لماذا فتح عينيه. وجد أمامه صبيًا، يقف محدقًا به مبتسمًا. هتف الولد:

-أهلًا يا خواجة!

إنه ذلك الصبي الذي قابله بالصيدلية!

-أهلًا، أنا لست خواجة على فكرة. ماذا تفعل هنا؟

كان متلهفًا على استعادة وحدته بأقصى سرعةٍ.

-أعمل بدلًا من والدي. عنده ديدان.

-ديدان؟!

-تذهب وتجيء. هل تغني؟

-لا، لم أكن أغني.

-بل كنت تغني الآن.

t.me/qurssan

-ماذا تريد؟

-غنِ مرةً أخرى... بصوتٍ عالٍ.

-هل أنا راديو لأسلي حضرتك؟ *قال متبسطًا*، اسمعه في بيتكم.

-لو كان لدينا راديو لما طلبت منك شيئًا، هل جئت لتغني في فرح العمدة؟

-لا.

كان الفتى على وشك طرح المزيد من الأسئلة عندما ناداه أحدهم ليكمل عمله. راح يوسف ينظر متعجبًا كيف يعمل الفتى مع أطفالٍ آخرين بأقدامٍ عارية دون مللٍ أو شكوى. بدا له النهار قصيرًا وهو يدون الموسيقى الوليدة ويستعيدها ألف مرةٍ. كان النهار نفسه شاقًا بلا نهاية لمن لم يجلسوا للراحة إلا قبيل الغروب. بدأت الصواني المحملة بالطعام تفد محمولةً على رؤوس فتياتٍ لا تتعدى قامتهن المتر وربع، ومع ذلك فلم يلمح بأيديهن اهتزازًا ولا بظهورهن ميلًا.

افترشوا جميعًا الأرض يتناولون الطعام المكون من الخبز والجبن والبصل والبلح. جلس نجيب معهم بعد أن ألح على يوسف لينضم إليهم، لكنه خجلًا من عار الراحة أبَى التطفل على زاد من نالت منهم قسوة العمل في ذلك الهجير. تسلوا بالتواعد على اللقاء في الفرح ليلًا، ممنين أنفسهم بلحم الذبائح الذي سيوزع والتخت والراقصة القادمين من البندر.

عادا ليجدا بباوي قد أعد الغداء وعبد المسيح منتظرًا هناك. راعه منظر ابنه فصاح:

-هل عملت بالأرض مرةً أخرى؟ وما ذنب يوسف لتجرجره خلفك في الحر دون أكلٍ أو شرابٍ؟ اذهبْ واستحمْ! تعالَ يا يوسف، لن ننتظر أكثر.

اضطر للبدء في تناول الطعام دون أن ينتظر نجيب حتى لا يغضب الرجل، خاصةً وأن نجيب كان قد أكل بالفعل. وكأنما كان يصالح أبيه عاد بعد ساعةٍ في أبهى حلة! تلاشى كل أثرٍ للأفندي ربيب العاصمة تاركًا فقط

t.me/qurssan

الصعيدي القح في عمةٍ فاخرة وجلبابٍ وجبةٍ بحواشٍ وشالٍ من الحرير، ثم انحنى على يد أبيه يقبلها في بادرةٍ أسكتت الرجل عن أي انتقادٍ مفتعل.

كانت الأضواء المعلقة بالطريق المؤدي إلى بيت العمدة تكفي لإنارة مدينة، استمدت طاقتها من مولدٍ كهربائي خاص يمتلكه. غطت أصوات الطلقات النارية على موسيقى الربابة والمزمار المعزوفة، وكادت رائحة البارود تزكم أنف يوسف فتوتر هامسًا:

-هل هذه طلقات وقائية؟ هل يتوقعون هجومًا ما؟

هادئًا أجابه نجيب:

-لا تقلق، هذا طبيعي تمامًا... ستجد مأمور المركز بالداخل وجنوده كلهم بالخارج بعد قليل.

في حديقة قصر العمدة تم فرش الأرض بطبليات متجاورة محملة بالطعام وقد جلس إليها الفلاحون، بينما الممر الرابط بين البوابة و الباب الداخلي قد تم فرشه بالرمل وتظليله بالأعلام الملونة باللون الأخضر والمزينة برمز المملكة المصرية ذي الهلال والثلاثة نجوم. أما القصر من الداخل فكاد يشتعل نورًا، تمت إضاءة كل ركنٍ وزاويةٍ بكل الطرق؛ الشموع والكهرباء والكيروسين، فصار الجو أشبه بالنهار ضوءًا وحرارةً. وتصدر التخت الذي تحدثوا عنه المشهد،إذ ارتص أعضاؤه أسفل الدرج الطويل المفروش بالسجاد الأحمر. كانوا منهمكين في عزفٍ طويل مؤجلين الغناء لحين صدور الأمر من صاحب الفرح. جلس المقدس مع إخوته القادمين لتهنئة العمدة، قدم لهم يوسف وتركه في معية نجيب قبل أن يتجه وحده إلى العمدة متحدثًا.

تطلع يوسف بحنينٍ إلى العازفين، خاصًا مغنيهم الممسك بالعود بنظرة الحسد. كان يعرف الطقطوقة المعزوفة وتكاد تجري أصابعه على مواضع الأوتار المقصودة في عودٍ خفي على فخذه. همس نجيب بأذنه:

t.me/qurssan

-أرجو أن تستمر الليلة على هذا المنوال. لنسأل الله الستر!

وما أن وصل نائب المجلس الموقر وحضرة المأمور يصحبه ضابط شاب حتى صدح المغني حسب الإشارة المتفق عليها:

-يا عشاق النبي صلوا على جماله!

نهض الجميع لاستقبال الزائرين خطيري الشأن مبدين السعادة المقترنة بالوقار اللازم لمراكزهم. وعندما استقر الجمع السعيد وبدأ توزيع الشربات بدأ القادمان الأخيران في النظر بفضولٍ إلى يوسف لشذوذ منظره وسط الحاضرين المعروفين، لكنه مأخوذًا بمتابعة الغناء لم يلاحظ شيئًا. كانت لهذه الليلة مكانة بارزة جديرة بتصدر ما مر به منذ... منذ ليلة الحفل البريطاني أم زيارة هيلانة له في المعتقل؟ ما أنأى وأبعد ذلك العالم عن هذا الكوكب الذي يزوره الآن! كان قد بلغ حالة الطرب وهو مبتسم شارد، متذكرًا مرةً أخرى لحنه الخاص عندما وقف أمامه علي مصطفى ناضحًا بالبهجة.

-يوسف أفندي، فرصة سعيدة جدًا! لي حظ أن أراك قبل السفر.

أفسح يوسف له مكانًا للجلوس بجواره فأصبح يتوسط المجلس بينه وبين نجيب، تذكر أن نجيب لا يعرفه فقام بواجب التعريف بينهما.

-لم أصادف حضرتك قبلًا بزمام أرضكم، هل تقيم هنا عادةً أم بالقاهرة؟

-هنا وهناك.

أجاب نجيب باقتضابٍ. كان زهده في الحديث واضحًا فتحول عليٌ بكلامه إلى يوسف وحده.

-لقد دُعِيت بسبب وظيفتي، لكنها فرصة لا بأس بها لتلقي جرعةٍ من الحضارة قبل العودة للمنبع. غدًا في مثل هذه الساعة سأكون جالسًا بصالة سينما مترو أشاهد الفيلم المعروض بها أيًا كان نوعه.

-متى ستذهب؟

t.me/qurssan

-في قطار السابعة صباحًا. هل تريد أن أحجز لك مكانًا؟

-لا أدري. نجيب يريد بقائي لعيد العذراء لكن...

-سأكون قد عدت على أي حالٍ. أنصحك أن تبقى، ستشهد مولدًا لعيد العذراء لن ترى مثيله في أي موقعٍ آخر بمصر؛ زفة ضخمة وزغاريد وفطائر وجو لا يمكن وصفه... يجب أن تشهده بنفسك. ها هو مأمورنا الهمام قد أتى بالفعل، وقد اصطحب معه الضابط الجديد أيضًا! طبعًا،أي فرصةٍ أفضل من هذه ليعرفه بأقطاب البلد جملة؟

تغير الإيقاع المعزوف وبدأت أغنية أخرى ذات لحنٍ مغرٍ مغوٍ، وإذا بالفقرة الأساسية التي انتظرها الجميع، حتى لو لم يصرحوا بذلك، تبدأ. راقصة ممتلئة الجسم، بشرتها بيضاء لامعة كأنها مطلية، عارية إلا من قطعتين براقتين تتدلى منهما شرائط ملونة، تضرب بأصابعها صاجات نحاسية صغيرة وتحمل على رأسها شمعدانًا فضيًا بخمس شموعٍ مشتعلة. حدق يوسف مشدوهًا بتلك الوليمة الحسية التي تستميت في اقتناص العينين ودغدغة الأذنين. مال على نجيب سائلًا:

-هل يفترض أن تظل ترقص حتى ينصهر الشمع كله؟

لكن نجيب لم يرد، كان مطرقًا لا يرفع وجهه وقد التحم حاجباه وبدا كأنما يعاني ألمًا مكبوتًا.

-نجيب، هل أنت بخير؟

حينئذٍ عاد المقدس وأمر يوسف بالإفساح له ليجلس بينه وبين نجيب. راح يوسف يختلس النظر لصاحبه المكفهر لسببٍ غامض منتظرًا بشغف أن يكشف السبب، لكن نجيب دون أن يتكلم شرع في القيام عندما تصلب فجأةً كأن هناك من أمسك به ليمنعه.

نظر نجيب لأبيه غاضبًا مستنكرًا، ردًا على السؤال المكتوب على وجهه قال المقدس هامسًا:

t.me/qurssan

-لن تذهب إلى أي مكانٍ حتى ينتهي الفرح، وارفع رأسك لتنظر كالرجال، لا تجلس مطأطئ كالعذارى.

كاد الدم ينبثق من وجه نجيب وقد زم فمه بشدةٍ كأنه يمنع نفسه من قول شيءٍ قد يندم عليه. لم يحول عينيه عن وجه أبيه، فقلق يوسف مما سيلي ذلك. استطرد الرجل هامسًا:

-ألا تريد الترهب وتنبذ الزواج؟ انظرْ إذًا... ينبغي ألا يؤثر بك شيئًا كهذا.

لكن نجيب لم ينظر، قابضًا يديه بتصلب على ركبتيه أصر ألا يقول شيئًا وألا يحول وجهه عن وجه أبيه. لم يفقه يوسف ما سر التحدي في أمرٍ بادي التفاهة كمشاهدة راقصة؟ تحول إلى علي في الجهة الأخرى فوجده يتفرج ببساطة واهتمام طفلٍ يرى ساحرًا أو أراجوزًا، حتى أنه مال عليه قائلًا:

-واضح أن شعرها مصبوغ وليس أشقر طبيعيًا، لكن كل شيء آخر طبيعي جدًا! أو هو نتيجة المفتقة!

ابتسم يوسف لتنكيت علي دون أن يغادره التوتر بسبب الجبهة القائمة في الناحية الأخرى. وفجأة انتفض نجيب واقفًا، لفت إليه الأنظار القريبة بسبب العنف البادي في حركته، وإذا به يحدق بثباتٍ في الراقصة التي اقتربت منه مداعبةً مستثيرةً، لكنه لم يلتفت يمينًا أو يسارًا ولم يحرك مفصلًا أو يصدر إيماءةً حتى عندما لمسته مباشرةً، إلى أن ابتعدت عنه بعد دقيقةٍ طويلة كالأبد، نظر بعدها من عليائه إلى أبيه الجالس قائلًا بصوتٍ مسموع:

-هل استرحت؟

ثم غادر القصر دون أن ينظر خلفه. نهض يوسف ليتبعه لكن عند الباب الخارجي للحديقة أوقفه نجيب قائلًا بحدةٍ:

-عد للداخل، لا أريد أحدًا معي.

t.me/qurssan

وبكل ما به من ضيق وغل خلع العمامة عن رأسه ملقيًا بها على الأرض. وقف يوسف يراقب الظل الأسود يبتعد حتى اختفى تمامًا. ماذا يفعل الآن؟

-أهلًا يا خواجة!

بزغ ذلك الطفل من الظلمة كجني صغير، كان يحمل لفافةً لا شكل لها ويبتسم كعادته.

-أهلًا، أين ستذهب والفرح لم ينتهِ بعد؟ ألا تريد سماع الغناء؟

أجابه الولد:

-سأذهب باللحم إلى البيت ثم أعود.

-أنت هنا وحدك؟ هل بيتكم بعيد أم قريب؟

-قريب.

-دعني أصحبك إذًا.

لم تكن به أدنى رغبة للعودة إلى الداخل حيث يوجد المقدس، وحيث يوجد علي الذي سيسأل عما حدث وسببه. سار بجوار حسن وقد وضع يديه بجيبي بنطاله وتنشق قدر ما يستطيع من الهواء.

-هل كل أفراحكم كهذا ؟

-لا يا خواجة. أفراح البهوات غير أفراح الفلاحين.

-ألا تذهب إلى المدرسة ؟

-أي مدرسةٍ؟

تساءل الفتى مستنكرًا كأنه أهين.

- وهل أنا ابن العمدة حتى أذهب إلى المدرسة؟ لم أنفع أصلًا بالكُتَّاب.

بدا الطريق ليوسف بلا نهاية، غادرا شوارع المدينة وكانت الحقول السوداء تحيط بهما من كل جانبٍ، نظر خلفه فوجد بيت العمدة بأنواره قد صار بعيدًا كفنارٍ على شاطئٍ قاصٍ، طمأن نفسه بأنه يستطيع العودة ما دام يمكنه رؤية الضوء، وسرّى عن قلبه بدندنة لحنه فهتف الولد:

t.me/qurssan

-ها أنت تغني ثانيةً.

توقف يوسف وقد اعترته شيطنة قديمة ظنها اندثرت، نظر حوله واطمأن لوحدتهما قبل أن يقول بلهجةٍ خطيرة:

-ويمكنني أن أرقص أيضًا!

تطلع إليه الفتى وهو يبدو غير فاهمٍ. خلع يوسف سترته أمام الطفل المشدوه وفرد ذراعيه إلى جانبه وبدأ في ترديد لحنٍ هادئ محركًا قدميه، ومع تسارع اللحن تطورت حركاته لتشمل ساقيه وسائر جسده، رقص دائرًا وقافزًا، ضاربًا الأرض بقدميه وملوحًا يمينًا ويسارًا. انتهى بعد دقيقتين ليقول لاهثًا : هكذا نرقص في أفراحنا.

-كأنك ملبوس يا خواجة.

صاح حسن مفتونًا. لم يفقه يوسف معنى كلمة ملبوس، لكنه خمن أن لها علاقة بالسحر أو القوى فوق الطبيعية. ضحك مسرورًا بنفسه لاكتشافه أنه ويا للعجب ما زال بوسعه الرقص.

-ولكن أين بيتك القريب هذا؟

سارا طويلا ثم دخلا ما يشبه الحارة التي لم يتعمد أحد تخطيطها، لقد وُجِدت نتيجة تراص البيوت عفويًا واحدًا تلو الآخر في تلاصقٍ حتى لم يعد هناك مكان للسير سواها، بالكاد تتسع لحمارين في الوقت نفسه. وأمام بابٍ خشبي عتيق بمسامير غليظة توقف حسن معلنًا الوصول. كان المدخل منخفضًا عن مستوى الطريق فيضطر الداخل للنزول فعليًا! فتح الباب ودخل صائحًا "معي ضيف"،بمثابة تحذيرٍ للإناث حتى يختفين. لم ينتوِ يوسف الدخول، أخبره أن يترك اللحم لأمه ويرجع حتى يعودا معًا للفرح، لكن الفتى دخل وغاب. كان المدخل مظلمًا تمامًا، ورائحة عطن مختلطة برائحة بصلٍ ومخلفاتٍ عضوية تفوح منه. سمع همهماتٍ نائيةً من الداخل

t.me/qurssan

ولاح ضوء أصفر ضعيف بدأ يزداد توهجًا مع اقتراب حامله، كان حسن يحمل مصباح كيروسين ضئيلًا مثله، داعيًا يوسف للدخول.

-شكرًا، ليس هناك وقت، هل ستعود للفرح أم لا؟

الآن أصبح بوسعه الرؤية. كانت أرض البيت ترابية كالطريق تمامًا! وعلى تلك الأرض على بعد مترين من الباب نام طفل في الخامسة تقريبًا وطفلة في الثالثة، وكان هناك لصق الجدار ما يشبه الكنبة لكنها مصبوبة من الطين، وقُفَّة من الخوص بها شيء ما مغطى بقماشةٍ، وهذا كل شيء!

عافت نفسه الدخول، حاول أن ينكر تلك الحقيقة دون جدوى. كان يخشى الجلوس على تلك الكنبة، ويفضل النوم في العراء بأحد الحقول على لمس أي شيءٍ بذلك البيت. كان أسوأ من أسوأ ما رأى بحواري القاهرة القديمة، كان البيت حرفيًا وليس مجازًا تحت مستوى الأرض حيث يوجد عادة الأموات وليس الأحياء. تذكر المغارة التي هبط إليها طوعًا الراهب بيشوي منذ ألف وستمائة سنةٍ وارتجف!

-أبي يخبرك أن تتفضل.

-أباك مريض ولا يجب إزعاجه. هل يتناول الدواء الذي أحضرته له؟

-أي دواءٍ؟!

-ذلك الذي كنت تشتريه من الأجزخانة عند المحطة.

-واه! تتكلم عن دواء الحاج إبراهيم شيخ البلد؟ لقد أرسلني لإحضار علاجه من الخواجة مظلوم لغياب ولده بالبندر.

-تقصد مظلوميان. لم يكن العلاج لأبيك إذًا!

-أبي يشفى دائمًا بغير علاجٍ. يمرض ويرقد أيامًا ثم يصح ويقوم. لو المرض شديد قد يصف له الحلاق شربةً... علاج الأجزخانات لا يشفي الفلاحين. إن كنت لن تدخل هيا بنا للفرح قبل نهايته.

t.me/qurssan

في عودتهما حل هدوء عظيم على يوسف، سار بخطواتٍ متوانية وحسن يكاد يشده شدًا للحاق بما تيسر من مشهد الغازية وسماع الغناء، مترددًا سأله:

-هل أكلت يا حسن؟

-تقصد في الفرح؟ نعم، أنت جائع يا خواجة؟ لابد أن مائدة الأكابر قد بسطت،أسرع لتلحق بها.

-لماذا تحب الغناء؟ أنت تحبه، أليس كذلك؟

-لأنه زين.

-لو أن هناك فرح به طعام كثير ولا يوجد غناء وفرح آخر به غناء ولا يحوي طعام، لأيهما تفضل الذهاب؟

.-آكل في الأول ثم أذهب إلى الثاني.

-افترضْ أنك تستطيع اختيار واحدٍ فقط.

-لماذا تضيقها عليّ؟ وسعها الله يرضي عنك.

سكت يوسف. وصلا إلى القصر فانطلق الولد سابقًا إلى الداخل بينما وقف يوسف عند البوابة وقد زغللت عينيه الأنوار الكثيفة بعد الظلمة النقية. ومن حيث لا يدري ظهر المقدس فجأةً هاتفًا بوجهه:

-أين كنتما كل هذا وأين تركت نجيب؟

-لكني لم أكن مع نجيب. لقد رفض أن أصحبه من البداية.

-هيا إذًا... هيا إلى البيت، لابد أنه هناك.

رفع يوسف رأسه لأعلى نحو السماء دون دافعٍ سوى الهرب من الإضاءة المباشرة، لكنه صادف نافذةً مفتوحة بالطابق الثاني تبدو منها الظلال السوداء لنساءٍ وقفن يشاهدن رقص الخيل الدائر بالفناء دون أن يظهر منهن شيء. لم تطل النظرة المختلسة سوى ثانيتين، ومع ذلك فقد شعر بذنبٍ غير مبرر.

t.me/qurssan

لم يجدا بالبيت سوى بباوي الذي لم يرَ نجيب منذ خرج معهما للفرح.

-ربما ذهب لأحد أعمامه.

-كلهم بالفرح، حتى حريمهم.

-لابد أنه يتمشى بعيدًا ليهدأ، ربما يريد العودة متأخرًا ليتلافى لقاء حضرتك.

قال الجملة الأخيرة في ترددٍ قلقًا من وقعها. انفجر الرجل مرعدًا:

-وماذا حدث حتى يحتاج البيه لتهدئة أعصابه؟ هل خدش حياءه مرأى الراقصة؟ هل أعثرته؟ فليعتبرها شيطانًا ويحاربه، أليس قديسًا؟

مرتاعًا لم يجد يوسف ما يقوله سوى:

-سأخرج للبحث عنه.

-عندما تجده يمكنك أن تخبره أنه سيتزوج كما أريد، وأن الأمر تم الإتفاق عليه ولم يبقَ سوى تحديد الموعد .

متجاهلًا حقيقة أنه لا يعرف البلد جيدًا خرج مسرعًا حتى لا يبقى وحيدًا مع الرجل المضطرب. دون أي فكرةٍ عن أين عساه سيذهب سار على الطريق الضيق بين الحقول في خطٍ مستقيمٍ حتى لا يضل. لم تعد الطبيعة المحيطة تبدو بالدرجة نفسها من الود والحميمية التي كانت عليه حتى هذا المساء، كأنها تضمر سرًا ترفض هتكه أمام الغرباء أمثاله. ترامى إلى أذنيه صوت الطلقات الاحتفالية التي لم تهدأ بعد. فقد كل رغبة في البقاء بهذا البيت، لقد جن الرجل ويريد تزويج ابنه رغمًا عنه. لم تعد تلك لعبة من سيستسلم أولًا، لقد حانت المواجهة أسرع مما أراد نجيب.

كان واردًا أن يواصل سيره هذا إلى ما لا نهاية لولا ذلك الصوت، بدا أولًا كلهاث محتضرٍ، وقف لينصت جيدًا وقد انتصب الشعر على ذراعيه ليتكشف الصوت عن نشيجٍ مكتوم مصحوب بآهات منفلتة. ظل مكانه وقد حصره الخوف، التفت باتجاه الصوت فلم يرَ شيئًا، كتلة متجانسة من

t.me/qurssan

الظلام وأشجار الجميز، ثم لاحت حركة خلف جزع شجرة، كان أحدهم مختبئًا خلفها مواجهًا الحقل.

-نجيب؟

لم تصله إجابة. استجمع شجاعته ليتقدم من تلك الكومة المختلجة على الأرض متحسسًا موضع قدميه،كان هذا صاحبه فعلًا.

-نجيب! ماذا بك؟ هل أصبت بأذى؟

شيئًا فشيئًا بدأ يميز ملامحه المكفهرة المبتلة وعينيه المحتقنتين بالدم. رافضًا أن ينبس بحرفٍ أخذ يحرك رأسه من اليمين لليسار دون النظر إلى يوسف. وقت طويل وثقيل من ثوانٍ مر وهما لا يتواصلان إلا عن طريق شهقات نجيب ولمسات يوسف المواسية.

-هل عدتما إلى البيت؟

أخيرًا تساءل نجيب بصوتٍ مخنوق مرتجف:

-نعم.

-هل هو سعيد بما فعله؟

-لكنه لم يفعل شيئًا يا نجيب.

-أراهنك أنه استقدم تلك الفرقة على حسابه لمجاملة العمدة ظاهريًا ولأجلي أنا فعليًا.

-حسنًا، أتمنى لو بذل أبي المجهود ذاته لأجلي.

-هل تمزح يا يوسف؟ هو يأمل بشدةٍ في كسر نذوري... وقد نجح.

-ماذا؟!

بلهجةٍ باكية لن ينساها يوسف ما حيا قال نجيب:

-سأحمل منظر تلك الراقصة في عقلي إلى أن أموت... لم أعد مخصصًا للرب... ما زالت هناك شهوة بداخلي تختبئ متحينة الفرصة للخروج، والشكر لأبي لإعداد الفرصة المناسبة، وأنا لست أكثر من حيوانٍ يا

t.me/qurssan

يوسف... مررت بحقبةٍ عابرة من المناعة فيما مضى، لن تخمن السبب أبدًا، لكن الليلة كل ما كنت أحتاج إليه هو تلك الفرصة وذاك المنظر الحقير التافه لدقيقةٍ واحدة... كل ما احتجت إليه هو دقيقةً واحدةً ولمسةً لأنتصب كأي بهيمةٍ... هذا ما تخفيه الملابس... بائس وأعمى وفقير وعريان... بائس وأعمى وفقير وعريان.

-لا تصور الأمر بتلك القسوة يا نجيب. لا يزال بوسعك اختيار ما تشاء. لا يُحْكَم على أحدٍ بسقطةٍ واحدةٍ. يمكنك العودة إلى البيت الآن وإخبار أبيك أنك لن تنفذ مخطط الزواج الذي بدأه.

كالمجنون تمامًا تطلع نجيب إليه، وبصوتٍ كالفحيح تمتم:

-ماذا تعني بـ "بدأه"؟

-لقد... قال... لا أعرف إن كان جادًا أم لا.

-ماذا قال؟

-أن الأمر تم الإتفاق عليه ولم يبقَ سوى تحديد الموعد.

أصاب نجيب تبلد عجيب. هدأ تمامًا كمن آب للشفاء بعد حمى طويلة. جلس ينظر أمامه وقد اتسعت حدقتاه وشفتاه تختلجان كأنه يكلم نفسه!

-لن تجرجر للمذبح لتتزوج مرغمًا يا نجيب، هو لا يملك سوى الكلام ليريح نفسه.

- *دعه يقول ما يريد.* -لن أعود إلى البيت ثانيةً.

-كيف؟ أين ستذهب؟

-لن أطمئن هناك أبدًا. من يدري ما قد يدبره لي تاليًا؟ ربما أعود لغرفتي لأجد بها امرأة سوءٍ مثلًا. بقي ثلاثة عشر يومًا على موعدي معه بالدير، سأنتظر هناك... ولا يجب أن يعرف هو بذلك.

-بغض النظر عن تهويلك المبالغ فيه لمدى تآمر والدك، ألا يستطيع تخمين مكانك؟

t.me/qurssan

-لا، لم أخبره عن دير الأنبا صموئيل. ولن تخبره أنت، قلْ أنك لم تجدني قط.

-أجد الكذب على الرجل دناءةً يا نجيب، سيجن من القلق لو اختفيت.

-ألا ترى أنه لا فائدة من مواجهته؟ لن يتخلى عن هاجسه أبدًا... وأنا بحاجةٍ للهدوء، أريد أن أعرف إن كنت سأصمد أم لا دون أن أضيع طاقتي كلها في الصراع معه.

-هل ينتابك شك؟

ضحك نجيب باكيًا، كان على وشك الانهيار مجددًا لكنه تماسك بمشقةٍ هامسًا:

-ظننت نفسي منيعًا، هذا كل ما بالأمر.

-أنت لا تجد غضاضة إذًا في دفعي إلى خطيةٍ صغيرة لتنقذ نفسك! أفضلُ مصاحبتك في طريقك الآن على العودة للكذب على أبيك.

-سأسير وحدي. الطريق طويل ويجب أن أبدأ الآن. وداعًا يا يوسف.

انتصب قائمًا وقد اتشح بقوةٍ مفاجئة:

-يجب أن أكفر عن ذنبي وأقمع جسدي. سأتجه إلى بني سويف لأقرب مكانٍ للدير ثم أسير في الصحراء ما تبقى من الطريق، سآكل وأشرب فقط مما أقابله أو آخذه على سبيل الصدقة.

-نجيب... تَأَنَّ أرجوك ولا تطلب مني ما يفوق طاقتي. ولا تتنكر بالكامل لأبيك، الرجل ليس لديه سواك... ليس بتلك الطريقة.

-هل من الصواب أو الكافي أن نعيش لأجل أحد؟ أتذكر مَن مِنا ألقى هذا السؤال يا يوسف؟ أخبرك الآن إجابتي الخاصة "من أحب أبًا أو أمًا أكثر مني فلا يستحقني".

مد يده ليصافحه ليكتشف يوسف لأول مرةٍ ما بها من تسلخاتٍ وجروحٍ. كان الأب محقًا في قلة استعداد نجيب للعمل الشاق في الأرض! لم تكن

t.me/qurssan

هناك كلمات أخرى لتقال. خلع نجيب جبته وشاله وأعطاهما ليوسف، مال على رأسه يقبلها متمتمًا:

-لن ترى نجيب مجددًا، إن قُدِّر لنا اللقاء مرةً أخرى سأكون قد صرت "مينا".

وقبل أن يدري يوسف سبب ذلك الاحتجاج بصدره كان نجيب قد ذاب في الظلام تاركًا إياه. راح ينظر للجبة والشال على يديه اللتين ترتجفان رغمًا عنه وخاطر كالبرق يمر برأسه؛ كيف يعود بملابسه إلى البيت ثم ينكر رؤيته؟! ومع ذلك فلم يكتفِ بحملها، بل ارتداها، سار يجرجر قدميه بثقلٍ، الجبة والشال على كتفيه. فكر أن يستمر ماشيًا حتى يبلغ محطة ملوي ويعود إلى القاهرة في قطار الثامنة، ولكن...

لم يكن له خيار بالأمر. فتح باب البيت ليدخل ويفاجأ بالظلام، كانت هناك نافذة مفتوحة يتسرب منها ضوء القمر وقد وقف بها المقدس كأنما يراقب الطريق، على إثر صوت خطوات يوسف استدار الرجل ليرى القادم بلهفةٍ، وأول ما صافح عينيه كان ملابس ولده المعلقة على هامة يوسف ليهتف آملًا:

-نجيب!

وقف يوسف وقد تمنى أن يكون نجيبًا فعلًا ولو لدقائقٍ ليريح الرجل. كاد التوتر يذهب بصوابه وتكاثفت حبات العرق باردةً على جبهته. اقترب منه عبد المسيح ببطءٍ وقد اتسعت عيناه كأنه يزيد قدرتهما على الرؤية متوقعًا الفجيعة. همس مجددًا:

-نجيب؟ يوسف... أين ذهب نجيب؟ من أين جئت بملابسه؟

رأى يوسف عيني أنوش أمامه بوجه الرجل، أليس الجنون رحمة؟ تلعثم وهو يحفر لنفسه مخرجًا قائلًا:

-وجدتها خلف شجرة الجميز هناك... غربًا.

t.me/qurssan

ظل المقدس جالسًا بصدر البيت حتى الفجر ويوسف منزوٍ بركنٍ قريب وكلاهما صامت. ومع بوادر النور الأولى نهض المقدس مناديًا بباوي، أخبره أن عليهما الذهاب للمرور ببيوت إخوته حتى يساعدوه في البحث عن ابنه، فقال يوسف:

-سآتي معكما.

رد المقدس حاسمًا قاطعًا:

-لا، ستبقى هنا حتى لا يكون البيت خاليًا إذا عاد. حينها يمكنك أن ترسل أحد العاملين بالأرض لبيت إسحق شحاتة ليخبر من هناك، لا تتحرك من هنا حتى يأتي هو أو نعود نحن. ألم يخبرك أبدًا أين يريد الترهب؟ بأي ديرٍ؟

جاءت لحظة الكذب الصريح التي لا يجرؤ بعدها على السفسطة، بصوتٍ متحشرج من السكوت طوال الليل أجاب مختصرًا:

-لا.

غادر مع خادمه تاركًا يوسف متخبطًا في احتقاره لنفسه، ضم عليه عباءة نجيب وقد تسللت إليه برودة رحيل الليل. لم يشعر بمرور الوقت ولم يستطع تحديد الساعة التي سمع فيها الدقات على الباب. هل عاد نجيب أم أن هذا علي مصطفي يعرض عليه الرحيل؟ نهض إلى الباب يفتحه ليجد أمامه هيلانة!

وقفت أمامه برداءٍ أسود يلامس الأرض وطرحة سوداء على رأسها لا تخفي سواد شعرها المنسدل. هل كانت شديدة الشحوب أم كان هذا تأثير السواد الذي التحفت به؟ وقف ينظر إليها كالمعتوه،جامدًا كمشلولٍ وساكنًا كأصم وأخرس، متحولًا بجملته إلى عينٍ، وكل وظائفه الحيوية إلى النظر!

كانت هي الأولى في استعادة جأشها، شهقت لا إراديًا قبل أن تقول بصوتٍ مسموع بالكاد:

-يوسف!

t.me/qurssan

تزحزح من مكانه متراجعًا خطوة، كأنه يخبرها أن عليها أن تقرر إن كانت تريد الدخول بنفسها. دخلت وأغلقت الباب. وبينما يخبر نفسه أنه يخرف لا محالة وأمام وجهه المذهول تكلمت:

-لقد رأيتك بالأمس... من نافذة بيت العمدة... كنت تقف مع الرجل مالك هذا البيت... عبد المسيح شحاتة، أليس كذلك؟ ألم ترني؟ لقد رفعت عينيك لأعلى نحوي كأنك عرفت أني هناك أنظر إليك. كنت على وشك مناداتك عندما استدرت وغادرت.

هز رأسه نافيًا ببطءٍ وقد بات قلبه الآن يعزف إيقاعًا أفريقيًا وأنفاسه مسموعة بوضوحٍ. كيف عمي عنها بالأعلى هناك؟! رأى ذلك التوق الصريح في عينيها يكاد يمتد ليلمسه، هز رأسه مرةً أخرى ليوقظ نفسه هذه المرة، بهمسٍ لاهث نطق:

-هيلانة!

بنطقه اسمها لفظَ كلمة السر، أعطى شفرة الوجود، أخذتْ نفسًا عميقًا كالموشك على القفز في البحر ثم ارتمت عليه تعانقه، بكل ما فيها تعانق كل ما تستطيع الوصول إليه، يداها في شعره وخلف عنقه وعلى كتفيه وظهره ويديه، وجهها على وجهه وصدرها على صدره، حتى قدماها داستا على قدميه في انتشاءٍ كأنما تنتقمان. كانت تشهق بأنينٍ متنشقةً جلده وشعره بعمقٍ عندما شرعت في تقبيله. بدأت بأذنيه ورقبته، ثم عينيه وجبهته وخده وذقنه وشفتيه وأنفه ويديه ثم يديه. رشفات، رشفات. لم تتوقف عند موضعٍ أكثر من غيره، كانت توزع لمساتها كالبركات على كل المواضع بالتساوي. ورد هو البركات جميعًا بالتساوي، نصف سكران ونصف مجنون، نصف بشري ونصف إله. وفي ذرى لم يدرك إمكان بلوغها رفعها إليه عن الأرض ليعانقها كما لم ولن يعانق أحدًا أبدًا. أطلق آهةً طويلةً خرجت بكل الأوجاع من جسده ورن صداها في المنزل الصامت، كان يسترد

t.me/qurssan

ضلعه الضائع إلى صدره، ويعود إلى الفردوس المفقود. كانت الطرحة المنسدلة على رأسها قد سقطت إلى الأرض لتكشف جانبًا ناقصًا من شعرها، كأن هناك مصففًا أرعن قصه بالخطأ من جانبٍ واحدٍ فقط. لا إراديًا وضع يده موضع الخصلة الناقصة بحزنٍ وارتياعٍ.

-من فعل هذا؟

-أنا! كانت أمي مصممةً على أن أرى شخصًا متقدمًا لخطبتي، ولما فشلت في إثنائها عن رأيها هددتها بأني سأقص شعري وأخرج له برأسٍ محلوقة، لكنها لم تصدق أني جادة إلا بعد إمساكي بالمقص وشروعي فعلًا في قصه. هجمت عليّ منتزعةً إياه وهي تسبني وتلعنني، لكن بعد استيعابها الكامل للرسالة وسقوط تلك الخصلة للأرض.

قبل جبهتها بحنانٍ سبع قبلاتٍ متمتمًا:

-آسف... آسف... لن أتركك لحظةً واحدةً أو طرفةً عين أبدًا. هيلانة، لا أصدق أنكِ ما زلتِ لي، شكرًا... شكرًا...

لم يعرف من كان يشكر تحديدًا، هي أم الله أم القدر، لكن الامتنان الهائل يسير مصحوبًا دومًا بالخوف! بلهجةٍ لائمة متهمة ومستحية مع ذلك سألته:

-كيف لم تأتِ لرؤيتي؟

وهو لا يزال لاهثًا، لم يفق من دواره الشهي، تطلع إليها وقلبه على مشارف الذوبان، أخذ أصابعها يقبلها كأنما يمنح شفتيه النطق.

-لكني أتيت... جئتكِ ولم أجدكِ... في الكلية....

عاجلته مقاطعةً:

-لماذا لم تأتِ إلى البيت فحسب؟ لماذا لم تفعل أي شيءٍ؟ هل تعرف ما مررت به في كل يومٍ وليلةٍ منذ أُخِذت مني؟ لو تعرف لما هنت عليك ولما تأخرت عني كل هذا.

t.me/qurssan

مد أصابعه يمسح دموعًا سقطت على خديها دون أن تكترث لها. كل هذا اللوم اللذيذ والبكاء السعيد والافتراضات والمحاكمات، كلها أثلجت قلبه كهدايا صغيرة إضافية. دون أن يتركها قال مصارحًا:

-لقد قابلت كامل. هذا ما حدث.

اتسعت عيناها في جزعٍ وهتفت مرغمةً:

- لكنه لم... بالطبع... بالطبع لم يكن ليخبرني. وكيف يمنعك هذا عني؟ هل كان كامل هو من منحك إياي حتى يسلبني منك؟

-اغفري لي ضعف إيماني... كيف أتيتِ هنا وماذا كنتِ تفعلين ببيت العمدة؟

-حسنًا... بدأ كل شيءٍ عندما ذهبت لرؤية مراد في كلية الحقوق، أردت أن أسأله عنك. كنت أتوقع خروجك بعد سنةٍ من اعتقالك لكنك لم تظهر، لذلك قصدته، أخبرني أنك خرجت وأنك سافرت إلى الصعيد، طلبت منه العنوان لكي أكتب لك لكنه لم يكن بحوذته، وعدني بالحصول عليه من صديقٍ آخر لك اسمه نسيم وطلب مني العودة لرؤيته مرةً أخرى في اليوم التالي، وعندما عدت له كان مضطربًا ومتعجلًا. ستجد هذا غريبًا نوعًا ما... يجب أن تفهم أني دائمًا ما كنت أقرب لغاندي في تفضيل المقاومة السلبية، لم أؤمن أبدًا بتدبير الأنشطة التخريبية في سبيل مقاومة الاستعمار... لكن هذا تغيَّر بعدما... صرت أنت موجودًا بشكلٍ شخصي بيني وبين الإنجليز جميعًا، أصبح الأمر أقرب ما يكون للثأر، ربما هو العرق الصعيدي كما يقال، خلاصة الأمر... لقد حذرني من أنني قد يُقْبَض عليّ في أي وقتٍ منذ تلك الساعة وأنه من الأفضل لي أن أختفي تمامًا لفترةٍ وجيزة.

-ما... ماذا؟

-قال إنه إجراء احترازي معتاد؛ القبض على كل المنضوين تحت كافة التنظيمات، لضمان سهولة تأمين المؤتمر الذي سيقام بالقاهرة بعد شهرٍ، سيكون تشرشل وروزفلت على الأقل من الضيوف الرئيسيين، وهذا كافٍ

t.me/qurssan

حتى ينشط البوليس السياسي للدرجة القصوى . لا أعرف من أين استقى مراد معلوماته لكنه كان واثقًا وقلقًا في آنٍ واحد. اضطررت طبعًا لإطلاع أبي على الحقيقة الخافية عنه حتى لا يُفاجأ بمن يطرق بابه سائلًا عن ابنته. فما كان من كامل إلا أن اقترح أن أسافر عند عمي بأسيوط. كاد أبي المسكين يموت من صدمة المفاجآت المنهالة على رأسه، ولم يجد في النهاية سوى التسليم بمنطقية الفكرة لحمايتي وحماية بقية من بالبيت في الوقت نفسه.

-هل تقولين أنكِ جئتِ من القاهرة بمفردك؟ وأن عمكِ هنا؟!

-صمم كامل أن يودعني بنفسه لدى عمي فجاء معي.

-كامل أيضًا هنا؟

-لم نجد عمي ببيته... سألنا فعرفنا أنه بفرح عمدة ملوي، طبعًا لم يعنِ ذلك شيئًا لكامل لكنه عنى لي كل شيءٍ. ألا ترى أنه تسبب في جمعنا للمرة الثانية دون أن يعرف؟ لقد كان متعجلًا استئناف السفر حتى يصل إلى قنا، وتضرر من الرحيل قبل أن يسلم على عمي، لكني أقنعته أن يسافر وألا يضيع وقته بعد أن اطمأن لوصولي، طمأنته أني سأبرر موقفه لعمي حتى لا يغضب... وما أن غادر حتى... طلبت من أحد الخفراء ببيت عمي توصيلي حيث فرح العمدة... نظر الرجل لملابسي بدهشةٍ سائلًا إن كنت سأركب الحمار هكذا! لذلك أعطيت نفسي الحق في استعارة هذه الملابس من حجرة زوجة عمي... وركبت الحمار و... أتيت.

-ولكن... كيف بقيتِ هناك حتى الآن وكيف خرجتِ وحدكِ؟

-بمجرد بلوغي بيت العمدة طلبت توصيلي لموضع النساء حيث العروس مباشرةً... وعندها وجدت زوجة عمي المذهولة لظهوري المفاجئ بمفردي، وقامت هي بتقديمي للعروس وبقية النساء ، توقفت لتبتلع ريقها برهةً، فانتهى بي الأمر واقفةً بنافذة الحجرة المطلة على الحديقة أشاهد الخيول الراقصة مع أخريات، عندها رأيتك...

t.me/qurssan

بدأ فكها يرتعش وهي تحاول السيطرة على انفعالاتها، زفرت مستطردةً:

-سألتُ فتاةً صغيرةً أولًا إن كانت تعرفك فنفت رؤيتك من قبل، لكنها عرفت المقدس عبد المسيح الواقف معك والذي ركبت معه العربة بعدها بلحظاتٍ. طلبت منها أن تصف لي موضع البيت بالتفصيل دون أن أعرف كيف سأفيد من ذلك، لاحقًا أدركت أن النساء القادمات من خارج ملوي سيبتن جميعًا ببيت العمدة حتى النهار التالي... انتظرت مستيقظةً وجميعهن نائمات حتى تبينت بصيصًا من النور أستطيع السير فيه وغادرت بهدوءٍ متتبعةً الوصف المحفور برأسي... و... جئت.

نظر لها مأخوذًا وقد لهث عقله محاولًا اللحاق بها ومتصورًا إياها سائرةً وحدها في الفجر الموحش ببلدٍ مجهول لتصل إليه! كان يألف شجاعتها الأدبية وعدم تهيبها للبوح بالجديد والخارج عن السياق، لكن ما تجابهه به الآن من تطويع كل شيءٍ إلى حيث وكما تريد تمامًا دون اعتبارٍ للنتائج كان مرهبًا، رائعًا ومرهبًا.

-لا تنظر لي هكذا... هل جربت أن تريد شيئًا... كما أريدك؟

قالت الكلمتين الأخيرتين بصوتٍ ضعيف خافت كأنما أتت فجأةً على رصيدها من الجرأة والصراحة! أغمض عينيه واضعًا يده على صدره ولسان حاله يقول:

-رفقًا بي!

-يوسف!

فتح عينيه بسرعةٍ مجيبًا:

-نعم.

لكنها بدت تائهةً وليس لديها ما تنطقه... اضطرب عقله وقلبه معًا إذ همست مجددًا:

-يوسف!

t.me/qurssan

كان يضمها الآن حتى لا يموت، حتى لا يجن، حتى لا يتبخر متصاعدًا إلى السماء السابعة تاركًا الأرض، فلم يعد غاضبًا على الأرض ولا مستعدًا لمغادرتها.

حين لملما أخيرًا شظايا الإدراك والمنطق نظرا لبعضهما وقد شرعا في التفكير:

-ماذا نفعل الآن؟

-سيكتشفون اختفائكِ... هل سيمر كامل بكِ في طريق عودته؟ لكن ... لماذا ذهب إلى قنا؟

-يريد أن يرى ويتيقن بنفسه من مصداقية ما تدعيه الحكومة من تقهقر الملاريا هناك؛ فقد رفضوا الاستعانة بالخبراء والأطباء البريطانيين والأمريكيين رغم تكرار العرض بالمساعدة، وقالوا إن في خبرائنا الكفاية، ومع ذلك فليس هناك حصر حقيقي لأعداد الضحايا، بالعكس هناك تعتيم كامل كأن الوباء سر حربي، بينما الأرض الزراعية خلت من زارعيها وتقارير مجلس النواب متضاربة. لو أن وحدات الحميات تدار هناك بنفس الطريقة التي يدار بها المستشفى الجامعي، وهذا تفاؤل بالغ، فالنتيجة لا يمكن أن تكون خيرًا.

-نعم، لقد تحدث عنها بمرارةٍ وغضبٍ.

-كامل يقوم الآن بترجمة نشرة تفضح كل نقائص المستشفى والتعليم الطبي فيه. ربما يرغب في إضافة حميات قنا وأسوان لكتاب المستشفيات الأسود.

-تقولين يترجمها؟

- أجل، لأن من كتبها أستاذ وطبيب إنجليزي يعمل بالجامعة، دكتور ألبورت، قدم استقالته منذ شهورٍ حتى يتمكن من عرض ما يعرفه على الرأي العام بعد أن بح صوته لأعوامٍ في محاولات مع دكتور علي إبراهيم عميد الكلية وحكومة النَّحَّاس للتغيير دون جدوى.

t.me/qurssan

-إنجليزي مهموم بإصلاح الطب في مصر! وماذا كان رد إبراهيم باشا على ذلك النداء؟

-اتهمه بالعنصرية تجاه المصريين عامةً والمسلمين خاصةً!

ضحك يوسف كالباكي وقال بغيظٍ:

-يا له من ردٍ مبكم مفحم! من سيجرؤ بعدها على تأييد مساعيه وحججه؟ ومع ذلك، أليس هذا رأي الجانب الأكبر من عامة الشعب؟ أن الأجانب هم سبب كل البلايا والشرور؟

بدا عليها التفكير العميق وقد عقدت حاجبيها، وكانت على وشك الاحتجاج عندما أردف قائلًا:

-يا لها من طفرةٍ في المبادرة عند كامل! لاعجب أنه يحتقر إلقاء الشعر الرومانسي الآن! ألا يخشى على نفسه من معاداة الحكومة في ظل الأحكام العرفية؟

-يبدو أن كلينا يعاني من نقصٍ مؤقت في غريزة حماية النفس.

-هيلانة... ألم يخبركِ أحدهم أني... لست مقدرًا لكِ؟ ألا تخشين معاندة إرادة الله؟

-هل أخبرك كامل بذلك؟ أم أنه آرام؟! أنا لا أعاند الله... أنا أغير رأيه فحسب.

الآن بات مترددًا بين الخجل من نكوصه العابر والرعب من خذلانها.

-انتظري هنا، سأغير ملابسي حتى نصير متجانسين.

في غرفة نجيب خلع بدلته التي كان يلبسها أسفل الجبة وارتدى جلبابًا رمادي اللون أعقبه بالجبة والشال نفسيهما على كتفيه. حمل حقيبته وخرج لها قائلًا:

-ما رأيكِ الآن؟

باسمةً قالت بحنانٍ:

t.me/qurssan

-شعرك فقط سيلفت الأنظار تحت الشمس من على بعد ميل. انتظرْ!
تخطته ودخلت الغرفة مفتشةً إياها باجتهادٍ حتى وجدت طربوش نجيب وطاقية، حملتهما بيديها مخيرةً إياه:
-أيهما تفضل؟
-جربتُ الطربوش من قبل ولم يحب البقاء طويلًا على رأسي، سأجرب الطاقية.
تقدمت منه رافعةً يدها حتى تلبسه الطاقية فأحنى لها رأسه، مسحت على شعره أولًا مرتبَّة إياه بتمهلٍ ثم وضعت الطاقية برفقٍ.
-شكرًا يا مولاتي... سأحاول أن أكون دائمًا عند حسن ظنكِ لأرد جزءًا من إنعاماتك الجزيلة.
-أتعرف؟ كنت أفكر وأنا راكبة من بيت عمي إلى هنا أن الله لابد وقد عضدني فيسر لي الوصول إليك على هذه الصورة... حتى إني طلبت منه إشارةً إضافية لأطمئن، وجاءتني الإشارة في الساعة نفسها! كنا نسير بمحاذاة ترعةٍ طويلة تبدو بلا نهاية فسألت علام، الذي كان يقود الحمار، عن طولها، أتعرف بما أجابني؟ قال لي "يااه... بحر يوسف يبدأ في أسيوط وينتهي في الفيوم".
لم تطل الابتسامة التي زانت وجهيهما، فمن بعيد ترامى إلى مسمعهما دوي إطلاق نار، كأنه يأتي من الجبال البعيدة المرئية على امتداد البصر. سألته بقلقٍ:
-ما هذا؟
أجابها وهو ينظر للباب مشدودًا:
-كانوا يطلقون النار في الفرح كعادتهم، لكن الفرح انتهى منذ ساعاتٍ!
-الأفراح في الصعيد تمتد لأيامٍ وليس ليلة واحدة يا ابن البندر، *مازحته* ، لكن أعترف أن إطلاق النار يكون في الليل فقط.

t.me/qurssan

-ولا يمكن أن يطلق أهل نجيب النار وهم يبحثون عنه!

-لماذا يبحثون عن صاحبك؟ هل هو هارب أم مخطوف؟

-بل يريد الترهب... ضد رغبة أبيه.

-هذه أعظم فوائد الأهل أحيانًا... إضافة المزيد من التحدي للحياة.

-تتحدثين مثل مراد، هل تعرفين من هو مرشد نجيب الروحي؟ أبونا مينا البراموسي... أو هذا ما يعتقده.

-ألهذا عاد ليترهب هنا؟

-ماذا تعنين؟!

-أخبرني كامل ونحن في القطار أن أبونا مينا تم اختياره لرئاسة دير الأنبا صموئيل المعترف. يفترض أن يأتي لاستلام منصبه خلال أيامٍ.

تابعت غافلةً عما أثارته فيه من زلزلةٍ:

-وربما يذهب بنفسه لزيارته هناك بعد عودته من قنا. يوسف، هيا نعود إلى القاهرة!

جلب حقيبته وأمسك بيدها ليسيرا على الطريق الترابي محاولين ألا يجنحا منه للحقول التي تحف بهما. لمح وسمع أخيلة وأصوات الفلاحين الذين خرجوا يتلمسون سبب إطلاق النار. حاول أن يتحاشى الاحتكاك بهم دون أن يضل الطريق، فسلك مدقًا رفيعًا في حقل ذرة لم تُجمع بعد، سارا وقد ارتفعت العيدان عن يمينهما ويسارهما كسورٍ ذهبي مزدوج.

-يوسف... يجب أن أتصل بأبي من أول تليفونٍ يتاح لنا. لو أرسل عمي له تلغرافًا يخبره باختفائي قبل وصولنا سيجن من القلق.

الآن سيكون عليه مواجهة كامل وأبيها أيضًا، لم يخطر له قبل هذه اللحظة أن يتساءل إن كان كامل قد أخبر والده بزلته. ماذا سيكون رأيه حينها؟ *إسطفانوس بيه... أنا مدمن بنزيدرين سابق، وطالب طب منقطع، لكني أود*

t.me/qurssan

الارتباط بابنتك، آه... نسيت أن أذكرك بأن هناك راهبًا، صار الآن رئيسًا لديرٍ، حذرها صراحةً من انتظاري، لكن هذه كلها تفاصيل ثانوية.

ازدحمت رأسه بالطرق الوعرة التي كُتِب عليه سلوكها، وسمع أحدهم يصيح مناديًا رفيقه:

-عبد العال! مواشيك سليمة؟ لقد سُرِقت مواشي حظائر شيخ البلد والعمدة بينما الخفراء ملتهين بالفرح... لقد بلغوا بها الجبل.

-لماذا يطلقون النار إذًا؟ لم تعد هناك فائدة.

-حتى يصل المدد من المركز، أقسم المأمور على ألا يفقد ظِلف بهيمة وأن يعيدها سليمةً، ستكون معركة .

قال يوسف متهكمًا:

-لقد حلت بركتي على البلدة التي لا يحدث بها شيء يا هيلانة، هل حدثكِ والدكِ عني في العام المنصرم؟

ردت باختصار:

-لا.

توقف فجأةً واستدار ليواجهها. كم هي مستسلمة له بكليتها،مطمئنة ومستكينة ليقينها به! كم هذا معذب ومرضي أيضًا!

-هيلانة... لن يكون في صالحنا أن تختفي معي من بيت عمكِ على هذه الصورة، سيعتبر والدكِ وجودكِ بمفردكِ معي مهينًا لكرامته ووضعًا له بموقف المضطر... كما أن وجودكِ بالقاهرة يتضمن خطر اعتقالك.

-ماذا... ماذا أفعل إذًا؟

-عودي إلى بيت عمكِ...أخبريه أنكِ أردتِ التجول بالبلدة فضللتِ الطريق... قد يبدو ما تقولينه عسير التصديق لكنهم سيقبلونه، يجب أن تبقي هنا حتى زوال الخطر عنكِ. سأعود وحدي إلى القاهرة لرؤية أبيكِ وطلب

t.me/qurssan

موافقته... ومتى صار الوضع مطمئنًا سآتي إليكِ لآخذكِ، أو تعودين لي. لا تصمتي هكذا... بماذاتفكرين؟
أطرقت برأسها هامسةً:
-أعرف جيدًا صواب ما تقوله وحاولت أن أتجنب التفكير فيه كي لا أضطر لمجابهة عواقبه؛ مفارقتك مجددًا، وبهذه السرعة؟ الآن؟
انصب الألم مقطرًا بدمه وأراد أن يحملها ليختفي بها في أصقاعٍ غير مطروقةٍ. أسف لما بدا عليه حديثه من منطقيةٍ باردة، فاعتذر عنه بقبلةٍ على يدها التي اعتصرها بقوةٍ أجفلتها، لكنها لم تحاول سحبها مع ذلك.
-سأراك بسرعةٍ... بأسرع مما تظنين... وسأفعل كل ما يلزم لنكون معًا... ليس عليكِ أن تفعلي شيئًا بعد الآن. ابقِ بخيرٍ فقط.
-يوسف... لم أسألك كيف أطلقوا سراحك... أريدأن أعرف لأتأكد من أنهم لن يأخذوك ثانيةً.
-كانت صفقةً بينهم وبين آرام... بسببها اضطر لمغادرة مصر. يمكنك قراءة التفاصيل بمذكراته.
-ماذا؟ هو الآخر يدون مذكراته؟
أدرك أنها لو قرأت مذكرات آرام ستعرف كل ما منعه خجله من البوح به. ستكون تلك أغلى مقامرة يعقدها في حياته، هل ستغفر له أم لا؟
أخرج دفتر آرام وأعطاها إياه.
-اقرأيه حتى نلتقي مرةً أخرى وتخبريني برأيكِ في المكتوب. والآن... ما مدى تورطكِ بذلك "النشاط " كما أسميته؟ أعني... هل عواقبه سيئة جدًا؟ ألا يقتصر الأمر على توزيع المنشورات وتنظيم المظاهرات؟ هذاخطير بما يكفي.
صمتت. وكان صمتها مخيفًا! لم يكن ليتصورها طرفًا فيما هو أكثروعورةً وظلامًا.

t.me/qurssan

-هيلانة، ماذا فعلتِ بالضبط؟ أحتاج أن أعرف.
تحاشت النظر إليه قائلةً:
-من الآمن لك ألا تعرف شيئًا.
هنا تولاه الهلع.
-هل تمزحين؟ آمن لي؟! آمن لي؟!
أمسك نفسه بصعوبةٍ عن الصياح:
-تكلمي من فضلك.
هنا شعرا باقتراب أحدهم سيرًا وسط الذرة مثيرًا حفيفًا عاليًا. تسارعت نبضاتهما وهما يتخيلان مدى الريبة التي يبعثانها بتخفيهما في الزروع على هذا النحو. تسمرا وقد كتما أنفاسهما لاإراديًا في انتظار المواجهة القادمة حثيثًا مع ذلك الداني. شاهدا الأكواز تهتز وتتماوج كلما اقترب القادم منهما حتى برز أخيرًا خارجًا.
-حسن!
هتف يوسف متنفسًا الصعداء.
كان الفتى مبغوتًا برؤيتهما أيضًا، كان يحمل عدة كيزان ذرة في حضنه وبدا راغبًا عن مصادفة أحدٍ بطريقه، لكن منظر يوسف وهيلانة أربكه بدلًا من أن يخيفه، ردد بصره بينهما متعجبًا وبات محرجًا. سأله يوسف:
-ألا يوجد بالبلد سواك حتى أتعثر بك كلما خطوت؟ أين أنت ذاهب في هذه الساعة؟
-لماذا ترتدي هذه الملابس يا خواجة؟ ومن هذه؟
سأل وهو ينظر لهيلانة فاغرًا فمه.
هبط إليه يوسف ليصير رأساهما بمستوى واحد قبل أن يقول:
-اسمع يا حسن، أريد منك خدمة، هذه الفتاة هنا ضلت طريقها وتريد العودة إلى بيت العمدة، فهل يمكنك اصطحابها إلى هناك؟

t.me/qurssan

-لماذا لا تصحبها أنت؟ أنت تعرف الطريق، كما إني أريد العودة بهذه الكيزان للدار.

-أنا ذاهب إلى المحطة لألحق بالقطار العائد إلى القاهرة، كما إني سأعطيك تعويضًا عن الذرة لو تركتها، ما رأيك في خمسة جنيهات؟

مرةً أخرى فتح الولد فاه مصعوقًا من جسامة المبلغ، رمى حمله للأرض ومد يده مفتوحةً مطالبًا بجائزته. أخرج يوسف محفظته وأخذ منها المال، وقبل أن يضعه في اليد الممدودة قال:

-هناك شرط واحد يا حسن، لا يجب أن يعرف أحد،أيًا كان، أني كنت هنا... أنت لم ترني معها ولم أطلب منك شيئًا، لقد قابلتها تائهةً عند عزبة فورتينيه وهي من طلبت منك المساعدة، هل تفهم؟

- لكنها ليست من بيت العمدة.

-لهذاضلت الطريق، لكن أهلها هناك وسيكافئونك لمساعدتها، لكن لا تنسى الشرط لأنه مهم جدًا.

ابتسم الفتى فجأةً وراح يحدق بوجه هيلانة مما أثار قلق يوسف، أمسك برأسه وهمس بأذنه:

-قد يفضل أهلها التخلص من الشاهد الوحيدالذي رآها معي، أليس كذلك؟

امتلأت عينا الولد ذعرًا وكاد يتراجع عن المهمة بأكملها، لكن يوسف أمسك بكتفيه قائلًا بثباتٍ:

-لا تخشَ شيئًا إن سمعت كلامي وعملت به، لقد وجدتها تائهةً وحيدةً وطلبت منك المساعدة. خذْ... ها هي النقود التي وعدتك بها.

هنا جذبته هيلانة من جبته بقلقٍ وسألته بصوتٍ خفيض:

-بماذا همست له حتى خاف هكذا؟

-لا شيء، هيا الآن، أرى وجهك الجميل بخير.

t.me/qurssan

بكل قوةٍ تمتلكها في جسدها اعتصرت يده كأنها تنوي انتزاعها منه واصطحابها معها. أراد أن يعانقها مرةً أخيرة ومنعته عينا حسن المسلطتان عليهما. وجهه للشروع في السير ثم حمل حقيبته. استدارت بينما تبتعد لتقول له قانطةً آملةً دون صوتٍ مسموع "أحبك!".

ظل واقفًا يرقبها تبتعد حتى اختفت تمامًا، ثم أجبر نفسه على التحرك أخيرًا في الاتجاه المقابل وهو يتمتم سرًا، *سأعود لأجلكِ، سأراكِ مرةً أخرى.*

في طريقه قابل صبيًا يجر حمارًا في طريقه إلى حقله، فعرض عليه أن يوصله إلى المحطة مقابل مبلغٍ من المال حتى يتمكن من اللحاق بالقطار. وعندما جلس أخيرًا بالعربة، أطال النظر إلى البلدة من النافذة بعينٍ جد مختلفة عن تلك التي قابلها بها قادمًا، كان يغادر موطنًا وليس موقعًا استكشافيًا.

من حيث لا يدري انبثقت للوجود زمرة من الجنود البريطانيين أقبلوا على الرصيف ليستقلوا القطار، راقبهم وقد بردت أطرافه،استرق النظر والسمع خلفه وأمامه ليعرف بأي مكانٍ سيستقرون، وتنفس الصعداء عندما أدرك من أصواتهم العالية أنهم بالعربة التالية لعربته.

بدأ يتذكر أنه بات ليلته جالسًا مع ذلك الوجع الطفيف في عنقه وظهره وتلك الصعوبة التي يبقي بها عينيه مفتوحتين. ذهبت تلك الوثبة في حواسه التي رافقت ظهور هيلانة المعجزي وبات أسيرًا مرةً أخرى لضعفه الجسدي، وكل ما أراده هذا الجسد الآن هو النوم. ما بين اليقظة والنوم تذكر مجددًا لمحةً من السلم الواصل بين السماء والأرض، وأسفل هذا السلم تخيل ما بدا كهيلانة وهي تصارع ملاكًا بعزمٍ وتصميمٍ!

يد عنيفة هزته هزًا لتجبره على اليقظة. آبَ من نومه العميق مجبرًا ولم يستوعب فورًا أن ذلك الشيء الموجه لرأسه هو سلاح ناري، بندقية تحديدًا، وخلفها يقف ملثم لا يبين من وجهه سوى عينين ضيقتين كشقين

t.me/qurssan

صُنِعا بسكينٍ، عينان بلونٍ أزرق بعد التدقيق. بصوتٍ جاف عاجله نافذ الصبر:

-أخرجْ ما بجيبك! أسرعْ!

دون أي تمهلٍ أطاعه،أخرج محفظته، ساعته، بل وتطوع بتفتيش جيوبه ليرى إن كان بها ما نسيه، فتح حقيبته ليريه محتواها فتناول الرجل الملابس وأعطاها مع بقية الغنيمة لمساعده. بعدها فقط بدأ ينظر حوله بحذرٍ شديدٍ مستطلعًا. كان هناك الكثير منهم، وزعوا أنفسهم بحيث يقف أحدهم مهددًا بالسلاح وفي ظهره آخر يواجه الصف المقابل من الجلوس، بينما يتحرك الآخرون ليجمعوا المسروقات في أجولةٍ ضخمة وقد اطمأنوا لتأمين زملائهم لهم. رمى بطرفه نحو النافذة فأدرك أن القطار متوقف في الخلاء، يا له من استغلالٍ عبقري لغياب قوة المركز في المطاردة بالجبل! ويا له من تداولٍ فعال للمعلومات! أم أنها العصبة نفسها مع توزيع الأدوار؟ ترى أين ذهب الجنود الأشاوس الذين صعدوا القطار قبلًا؟ هل يتم إفراغ جيوبهم أيضًا رغم ما يحملونه من سلاح؟ لم يستطع منع شماتةٍ صغيرة شريرة من الترعرع في قلبه. سيسلبون بواسطة عصابة ريفية كالفلاحين والنساء الذين يشكلون غالبية القطار. شكل من الانتقام لم يطلبه وليس له دخل بوقوعه، لكن هذا لا يمنع الاستمتاع به.

استمرت عملية سلب الركاب في بطءٍ قاتل ودقةٍ متناهية حتى بدا الأمر باعثًا على التململ، إلى أن دوت طلقة قريبة أعقبها العديد من الطلقات وصراخ النساء. هنا انقلب الهدوء المصطنع الذي حاول يوسف التمسك بأهدابه إلى رعبٍ صريح، هل يقتلون الركاب بعد سرقتهم؟ هل سيموت الآن؟

-عنتر،اذهب لتعرف ماذا يحدث ثم عد!

t.me/qurssan

أمر أحدهم زميله. فكر يوسف أنه ربما لذلك نصح الراهب هيلانة ألا تنتظره،حتى لا تضطر إلى مكابدة الحداد عليه، لو أنها نسيت أمره مبكرًا لما آلمها موته مثلما سيفعل الآن. أغمض عينيه وراح يرجو الله ألا يغضب عليها، يكفي ما حدث وسيحدث، لكن ألا يعد هذا نصيبًا مبالغًا في حجمه من النحس ليلحق به وحده؟

يارب ارحم، يارب ارحم، سامحني وارحمني. كانت تلك هي أول مرةٍ يتضرع فيها منذ خرج من سجنه!

لكن ما حدث كان التتابع الذي لم ينتظره قط، كان يتوقع أن يعود اللص بصحبة بقية العصابة ليجهزوا معًا على الجميع حتى لا يتركوا شهودًا. بدلًا من ذلك فوجئ بجنديٍ إنجليزي ممتقع يدخل العربة متعثرًا وقد فقد غطاء رأسه وسال الدم من شقٍ بحاجبه الأيسر، وخلفه اللص الملثم يدفعه دفعًا بسلاحه حتى لا يتوقف.

-أحدهم أراد أن يكون بطلًا وأطلق رصاصةً أصابت عبدالرحيم في كتفه، أجهز سليمان عليه وعلى سبعةٍ من أصحابه، وعلى فلاحٍ أيضًا اعترض طريقه.

كان هذا كلام المرافق للأسير شارحًا أسباب إطلاق النار. سأله الرجل المنتصب أمام يوسف:

- كلهم؟

-كلهم إلا هذا، لقد بكى كفتاةٍ وترجانا أن نرحمه على ركبتيه، سنتركه ليعود ويخبر كل صنفه بما حدث ليكون عبرةً.

كان الجندي مطرقًا يتحاشى التقاء عينيه بعيني أحدٍ وقد تدفق العرق ليبلل شعره ويختلط بدمه ومخاط أنفه.

-ألا تكفي جثثهم ليعتبروا؟

t.me/qurssan

اعترض متذمرًا وهو راغب أشد الرغبة في القضاء على هذا الجندي الأخير، الذي كان مصيره يتقرر وهو لا يفهم حتى ما يقال بشأنه. وصاح فجأةً أحد الجالسين:

-هذا الكلب ضرب عوضين أبو سليم أمام أهل بيته لأنه رفض إعطائه حصانه ليركبه مجانًا، اقتله!

هنا تجرأ آخر وتكلم:

-لم يكن هذا، بل أحد زملائه.

-ما الفارق؟ كلهم نجسون أولاد كلب ويستحقون الشنق!

لاحظ يوسف أن رجال العصابة لم تضق صدورهم بهذا النقاش الديموقراطي. أخيرًا تكلم الرجل الذي أرسل عنتر قائلًا:

-كلهم يشبهون النساء، ترى لو خلعنا ملابسه ماذا سنجد؟

يوسف لا يصدق ما يحدث أمامه وما يسمعه، هذه المداولة القائمة للتفضيل بين قتل الرجل وانتهاكه جنسيًا. يبدو أن هناك اتفاق ما حول مشروعيتها! لا أحد من الركاب العاديين يبدو مفزوعًا أو مصدومًا مما يقال، هل يصمت هو أيضًا؟

صلى أن يصاب بالعمى والصمم والجنون معًا. بدأ الرجلان في خلع سروال الجندي الذي شرع في الموت بالفعل. لماذا لا يختطفه الله أو يميته فحسب بدلًا من ذلك الإذلال؟ لماذا لا يستجيب لاستغاثاته؟ لماذا لم يستجب له هو؟ هل كان هو من أطلقه أم آرام؟ هذا لا يحدث! هذا لا يحدث! الجميع ينكسون رؤوسهم مستنكرين أو يتطلعون بتشفٍ مثلما حدث معه. يجمع بين الفريقين الصمت. منذ متى كانت المعجزات تنقذ أحدًا؟

-كفاااية!

صدرت تلك الصيحة من بقعةٍ عمياء تمامًا ليوسف، لكن الصوت، هو يعرف هذا الصوت، إنه صوته هو!

t.me/qurssan

بغضبٍ وحشي هتف ذلك المسمى عنتر:

-من الذي يتكلم؟

بلسانٍ يملك إرادته المستقلة تمامًا قال دون أن ينهض من مكانه:

-اقتلاه أو أطلقا سراحه، لكن هذه ليست رجولة.

الآن ستنطلق الرصاصة الأولى والأخيرة لرأسه. راحت العيون المستترة باللثام تحدق به متعجبةً وحانقةً. بصوتٍ غليظ نافذ الصبر سأله أحدهم:

-أنت من عائلة حمزاوي؟

تذكر يوسف ذلك الاسم الذي سمعه في أجزخانة مظلوميان وتساءل هل يصب في مصلحته أن يكون من أهل البلدة أم يهون من شأنه؟ كان بحاجةٍ لقرار سريع. مرة أخرى سمع نفسه يتحدث قبل أن يقرر:

-أنا من عائلة شحاتة.

أضاف تحسبًا لاختلاف اللهجة:

-لكني أعيش بالقاهرة.

-قبطي! قالها الرجل كأنها تفسر شيئًا غامضًا لا يمكن فهمه إلا من خلالها، لكن يوسف لم يرَ العلاقة بين ما هم بصدده وبين تلك السمة. هنا ترامى لأذنيه صوت آخر من مؤخرة العربة يقول مداهنًا:

-الكل يعرف ويهاب الخُط ورجاله وهذه ليست خصالكم. كما أن هناك نساء بالعربة.

إذًا فأمر قطاع الطريق هؤلاء شائع وزعيمهم معروف! شبَّ بعنقه ليرى ذلك المتطوع بالمساندة، لم يكن سوى علي مصطفي!

هتف نافذ الصبر تجاه ذلك التجرؤ:

-ومن تكون؟

-أنا مفتش الري.

هدر الصوت الغليظ:

t.me/qurssan

-اسمك؟

-علي مصطفي.

سأل عنتر رئيسه بينما هز الجندي من قذاله:

-هل أجهز عليه؟

بعد دهرٍ أجاب الرجل الغامض:

-لا، اجعله يهبط من القطار، دون سرواله ويداه مقيدتان خلفه، واربط هذين معًا إلى الباب. لن يفك أحد رباطهما حتى مجيء البوليس.

كان هذا هو التهديد المختصر الذي أطلق على الملأ، وكان كافيًا تمامًا.

هبط الفتى من القطار لينطلق جاريًا بسرواله الداخلي الأبيض، وما إن غادر رجال العصابة بغنيمتهم حتى قفز الركاب جميعًا هاربين في كل الاتجاهات، وبقى يوسف وعلي مربوطين إلى باب العربة. تمتم يوسف وهو يقاوم الغثيان:

-هم في العربة التالية لنا،أستطيع أن أشم رائحة الدم، هل تشمها أنت؟ تشبه رائحة الذبائح في عيد الأضحى.

-أنا أشم رائحة الكارثة التي حلت للتو على هذا البلد، هل تعرف كم شخصًا أعدموا في المرة الأخيرة التي قُتِل فيها ضباط وجنود إنجليز هنا؟ خمسين شخصًا! لن يتمكنوا من الخُط، هذا مفروغ منه، لذلك سيحل محله آخرون في تلقي العقاب. هذا ما يحدث دائمًا.

-لا يمكن أن يحاكموا أشخاصًا لجرائمٍ لم يرتكبوها!

كانت الدهشة التي رمقه بها علي شبه مهينة كأنه يسأله عن العالم المتوهم الذي يعيش به.

-سأتغاضى عما سمعته لتوي لأنني لا أريد أن أفترض فيك البلاهة! ما قصة أنك من عائلة شحاتة هذه؟ كل من بالقطار من أهل ملوي يعرف أنك كاذب

t.me/qurssan

بالمناسبة، لكن أحدًا لم يكن يرغب في سقوط جثثٍ أخرى. هل أنت هارب من البوليس السياسي أم هناك مصيبة أخرى؟

-لست هاربًا من شيءٍ فعلته. هويتي هي ما يدينني، اسمي ونسبي حتى سابع جد كما تقولون.

-ألهذا لم تخبرني إلا باسمك الأول؟ هل هي مسألة تار؟ لكنك تنسى أنك لم تعد تحمل ما يثبت هويتك... ألم تُسْرَق محفظتك مثلنا منذ قليل؟

هو محق، لقد سُرِق جواز سفره مع باقي محتويات المحفظة، ومذكرات آرام لم تعد معه. ما أنسب هذا! استطرد علي مازحًا:

-أنا الآن من يحتاج لتغيير اسمه، الخُط يعرف اسمي ووظيفتي ولم يعد بإمكاني البقاء هنا آمنًا، ربما يفكر في زيارتي يومًا. سأطلب نقلي لأي مكانٍ، هذا لو نجونا مما نحن فيه الآن. سيأتي الإنجليز بغضبهم الأرعن وربما يطلقون النار على أول من يرونه انتقامًا.

لم يستطع يوسف منع نفسه من محاولة رؤية العربة المجاورة، كانا جالسين على الأرض بجوار الباب فمال للخلف حتى كاد ينام على ظهره ليرى ما هناك، شاهد أقدام الجنود وأكتافهم وأذرعهم، الدماء ما زالت بلونها القاني لم تسود، تزركش أرضية العربة وقد ثقلت رائحتها حتى بات لها وزنًا يضاف للهواء، وأخيرًا رأس أسود ملقى على الأرض وقد توارى الجسد بين المقاعد، رأس الفلاح الذي شارك هؤلاء المنحوسين مصيرهم.

اعتدل ليواجه علي قائلًا:

-هل أنت سعيد؟ أخبرني بالحقيقة لأني أريد أن أعرف فعلًا، هل سرك موتهم؟ تراه عادلًا منصفًا؟

عقد علي حاجبيه ولم يجب لبرهةٍ. نظر إلى يديه المقيدتين بيدي يوسف وقال متمهلًا:

t.me/qurssan

-أعتقد أني لم أكره في حياتي أحدًا، قد أزدري كياناتٍ أو أفكارًا، وقطعًا أمقت الجيش الذي ينتمون إليه لأنه هنا ويحمل السلاح على أرضي دون وجه حق، وأتمنى أن يغوروا غدًا وألا يبقى منهم أحد، ومع ذلك أنا لست الله لأعرف ما هو العادل لمن، ربما يوجد بينهم من قتل بريئًا أو ظلم ضعيفًا من قبل، وربما لم يطلق أحدهم أبدًا رصاصة على هدفٍ حقيقي، لكني أعرف أن الخُط مجرد لصٍ، لص أحقر من أن ينصب نفسه قاضيًا أو مناضلًا ليحدد من يجب أن يموت أو يعيش، لقد قتل مصريًا معهم ،أليس كذلك؟ هو إذًا لا يختلف لتلك الدرجة عنهم، كما أنني لست سعيدًا ولا مطمئنًا ولا راضيًا وأحاول تشتيت ذهني بكل التفاهات الممكنة حتى لا أفكر في القبر الجماعي الملاصق لنا ورائحة الدم التي تجعلني راغبًا في فقد الوعي، نعم... أشمها مثلك.

عقب ذلك أغمض عينيه وأسند رأسه إلى أيديهم المربوطة معًا، كأن الحديث قد أرهقه. مرت دقائق طويلة لا يسمعان فيها سوى صوت الذباب، ثم راح يدندن فجأة:

-تاراتاتا... تاراتاتا... تاراتاتاتاتاتا...

خفق قلب يوسف خفقًا، وراح ينظر له مستنكرًا ومنكرًا .

-ما هذه الموسيقى التي ترددها؟

-لا أدري، حاولت مرارًا طوال شهورٍ أن أتذكرها عبثًا وإذا بها تعود إلى ذهني الآن دون أن أفكر فيها.

-كيف تعرفها؟

-لم أسمعها سوى مرةٍ واحدة منذ... لا أذكر لكنها كانت قبل تعييني هنا.

-في الأوبرا؟

-قطعًا لا، لم أرتد الأوبرا في حياتي. أردنا يومًا أن نجرب جروبي كأولاد الذوات أنا وابن خالتي فذهبنا هناك صباحًا، والحق أنه كان يستحق شهرته، لم

t.me/qurssan

أذق أبدًا شيئًا يشبه الكرواسون لديهم، ولم أرَ نساءً في أناقة الجالسات هناك! كما كان هناك مسرح صغير يعدونه من أجل عرضٍ سيقام في المساء، وأسفل ذلك المسرح استقر بيانو صغير وجلس أحد العازفين يتدرب فيما يبدو على ما سيعزفه ليلًا، فسمعت هذه المقطوعة. لقد حاذت انتباهي فورًا، بشكلٍ شاذ في الحقيقة، ربما لأنها كانت مناقضة لجو المرح والخفة الغالب آنذاك، كما أنه راح يعيدها طوال الساعة التي مكثتها هناك. أفعل أي شيءٍ الآن لأعود إلى ذلك الصباح المثالي.

- ولا تذكر شكل العازف؟

-لا، كنت بعيدًا عنه وظهره كان بمواجهتي. ماذا؟ هل تعرفه؟ مهلًا... مهلًا، لقد شككت أني أعرفك من مكانٍ ما مع أني لم أرَ وجهك قط. لقد كان أنت!

-بكل تواضعٍ يا سيدي.

قال وهو يتظاهر بالمرح جاهدًا ألا تظهر الغصة الصاعدة من حلقه:

- اسمها كارمينا بورانا، وأنصحك ألا ترددها في وجود الإنجليز إن أتوا، تحسبًا فقط.

-لماذا؟

-لقد ألفها موسيقي ألماني.

ابتسم بشفتين مرتعشتين:

-وهم لا يتهاونون في تهمة محبة الأعداء.

دقق علي النظر فيه ليتأكد من جديته، وعندما ظن يوسف أن الموضوع انتهى فوجئ به يقول بتلقائيةٍ:

-لكني لن أدخر جهدًا لمضايقتهم وتعكير مزاجهم، وما أبسط هذه الطريقة حقًا!

-علي!

تبدلت نبرة يوسف ليصبح صارمًا حادًا:

t.me/qurssan

-أنا جاد وأعني ما أقوله حرفيًا، قد يقبض عليك لهذا السبب. لو لم أعزف تلك المقطوعة اللعينة لما شعر أحدهم بالفضول تجاه أصولي ولما اكتشف بالتالي أن جدي لأمي ألماني ولما سجنت وتركت كلية الطب وحرمت من هيلانة وأمي وأصدقائي جميعًا... جميعًا على التوالي.

تمتم علي مبهوتًا بوجهٍ مصدوم:

- شكرًا على التحذير.

بقيا صامتين لهنيهةٍ قبل أن يشرع يوسف فجأةً في خبط رأسه في جدار العربة خلفه، قال يائسًا فيما يشبه الأنين:

-ستتوالى المصائب الآن، أعرف ذلك. هذه الموسيقى هي تميمة حظي العاثر. ماذا أفعل لعكس هذا النحس؟ ماذا تريد مني؟

بينما ليس لديه فكرة عمن يتوجه إليه يوسف بالحديث، حاول أن يهدئ من روعه قائلًا:

-لا تتشاءم هكذا، تفاءل بالخير تجده يا أخي، أسوأ ما يمكن أن يحدث لك وقع من قبل كما تقول وانتهى. ستأتي العواقب سليمة، فقط ثق بالله ولن يخذلك.

نظر له يوسف شاردًا كأنه يتذكر شيئًا كان غائبًا عن ذهنه، انفرجت شفتاه كالمقبل على الكلام، لكنه بدلًا من أن يقول شيئًا أغمض عينيه وراح يتكلم سرًا دون صوتٍ كمن يصلي! بدا هذا جليًا لعلي فسكت احترامًا وانتظر أن ينتهي وهو يدعو أيضًا في سره. ظلا على هذا الوضع لعشر دقائق، ثم سمعا أولًا صوت خبب الخيل قبل أن يروها قادمة وقد حملت على ظهورها بزات عسكرية لا تخطئها العين. امتقع يوسف وتقلصت أحشاؤه بينما ارتاح علي لدنو الخلاص أيًا كانت صورته.

مع اقتراب القادمين استطاعا تمييز طربوش واحد وقبعتين إنجليزيتين. وتعرف كل من علي ويوسف إلى الضابط الشاب الذي صاحب المأمور في

t.me/qurssan

زفاف الليلة السابقة. بلغ الثلاثة القطار ليهبط الضابطان الإنجليزيان عن جواديهما ويهرعان لمتنه حيث توجد الجثث، تصاعدت فورًا أصوات الغضب والالتياع والاستنكار بينما بدا الاستسلام للواقع على وجه المصري.

-متى غادر الخُط القطار وفي أي اتجاهٍ ذهب؟

سألهما بلهجةٍ باترة وبوجهٍ غاضب ومغتم. أجابه علي بما يعرفانه فبدا عليه الضيق، وراح يتمتم لاعنًا الأيام السوداء التي جعلته يفتتح سجله الوظيفي بكارثة هذا قدرها. لم يترك له الإنجليزيان الفرصة للاستطراد في شكواه وعادا ليبلغاه أنهم، بصيغة الجمع، سيشتركون في التحقيق مع كافة الشهود بما فيهم الاثنين الماثلين أمامهما. لم يخفِ المصري امتعاضه وسكت دون أن يجيبهما، ثم التفت فجأةً إلى يوسف وعلي قائلًا:

-لقد قالوا أننا سنجدكما على هذا الوضع لأنكما دافعتما عن عسكري إنجليزي، هل هذا ما حدث؟

هزا رأسيهما بينما أحد الضابطين يقوم بحل رباطهما والثاني يوجه لهما الأسئلة بعربيةٍ بالغة الرداءة لدرجة الاستغلاق على الفهم. قاطعه المصري موجهًا الحديث ليوسف:

-أنت... لقد أتى والدك منذ قليل إلى المركز ليبلغ عن هروبك طالبًا مني البحث عنك. طبعًا أخبرته أنك بالغ وأن آخر همومنا الآن هي البحث عن الشبان الذين خرجوا دون استئذان آبائهم.

وقف يوسف يرمقه بشيءٍ من البلاهة حتى كاد الضابط ينشق غيظًا.

-ما بالك صامتًا كالصنم؟ ألست نجيب عبد المسيح شحاتة؟ كنت معه في الفرح، أليس كذلك؟ أدِ لي خدمةً وعدْ إليه بعد أن ننتهي من سماع أقوالك حتى يستريح ويريحنا.

لم يكد يوسف يصدق ما يسمعه، لقد رآه الضابط بمعية الرجل فافترض على الفور أنه الابن الموظف الذي عاش بالقاهرة. لم يلفت نجيب، المحاذي

t.me/qurssan

من الجهة الأخرى، نظره بملابسه التقليدية، التي يشبه فيها باقي الموجودين ببيت العمدة! توقع أن يصحح علي للضابط خطأه موضحًا حقيقة هويته، لكنه التزم الصمت!

هبط أخيرًا المصري عن جواده وصعد إلى القطار ليعاين الموضع بنفسه وعندما عاد وقد زاد عبوسه كرر الضابط الإنجليزي التأكيد على وجوب مشاركته في التحقيق، وأصر على اصطحاب يوسف مع علي إلى المركز أو قيادة المعسكر، وقال بتنمر:

-لقد قُتِل ثمانية جنود من جيش جلالته، ولا أعتقد أن الشرطة المصرية تعاني من ارتباكٍ في الأولويات يجعلها تتوانى عن أي مساعدةٍ ممكنة.

من بين أسنانه همس المصري بالإنجليزية وهو يواجهه لأول مرة:

-أولًا المصري الذي قُتِل على رأس أولوياتي أنا، ثانيًا هما شاهدان وليسا موضع اتهامٍ، ثالثًا ليس من صلاحياتك التحقيق مع مواطنين مصريين على أرضٍ مصرية، وكيل النيابة هو من سيتولى الأمر في مقر المركز، يمكنك أن تحضر التحقيق كضيفٍ لا أكثر، دون إلقاء أسئلة.

-لم يقتلوا لأسبابٍ سياسية.

كان هذا علي متطوعًا كالعادة.

-ماذا تقصد؟

سأله المصري.

-لقد استمروا في السرقة لما يقرب من الساعة وكان الجنود جالسين هناك ولم يفكروا في قتلهم. بدأ إطلاق النار فقط بعد أن أصاب جندي واحدًا من اللصوص برصاصةٍ في كتفه. يمكنك أن تسميه قتل أثناء سطو مسلح.

-يمكنك أن تكرر ما قلته مع ما تتذكره من تفاصيل أمام وكيل النيابة.

كان يوسف موشكًا على التقيؤ وهو يسير كالمسوق لحتفه، شاعرًا بتكرار ذلك التسلسل العبثي للأحداث الذي أفضى به للاعتقال سابقًا، كأن لحظة

t.me/qurssan

اقتياده للمثول أمام ويليام سمارت تعاد لكن دون الجهل المريح الذي كان يتمتع به في تلك المرة. هل سيكذب بشأن هويته في محضرٍ رسمي ليمنع اسمه من بلوغ آذان الإنجليز؟

ما أهمية يوسف يعقوب أرتينيان لأي أحدٍ؟ أنا هنا بعيد تمامًا عن كل مبررات الحيطة والحذر، وما عدا ذلك فهو ذعر مبالغ فيه، لا تخف يا يوسف وقلْ الحقيقة.

في المركز كان سائق القطار ومساعده وبعض الركاب جالسين في حراسة الجنديين المتبقيين من قوة المركز.

-سعادة المأمور لم يعد بعد؟

سأل الضابط المصري وهو يعرف الإجابة بالفعل، لذلك لم ينتظر الرد وجلس ليستخدم التليفون طالبًا المساعدة من المديرية ومتعجلًا حضور وكيل النيابة والطب الشرعي حتى لا يجد البريطانيون فرصةً للتدخل والشكوى. وبينما هو في منتصف إحدى المكالمات دخل رجل طويل القامة نحيفها، في نحو الستين من عمره، يرتدي عباءةً حريرية ثمينة ويمسك بعصا مهيبة من الأبنوس. بدا كأن وجهه لم يبتسم قط، وكأن تجاعيد وجهه الكثيفة هناك منذ ولد. تقدم يدق الأرض بعصاه ووقف أمام الضابط مباشرةً دون أن يعني بالرد على أسئلة الجندي له عما يريده. سأل واجمًا:

-حضرتك أنور بيه عبد الحميد؟

رمقه الشاب بتأففٍ وسماعة التليفون على أذنه ولسان حاله يقول " ليس لدي وقت لك بالمرة". أجابه مبادلًا إياه الامتعاض:

- نعم. أي خدمة؟

-أنا أبسخيرون ميخائيل، من أعيان أسيوط، ولدي استفسار لحضرتك أرجو منك إجابته.

-تفضل.

t.me/qurssan

-هل جاءكم بلاغ من عبد المسيح شحاتة بخصوص اختفاء ولده؟

.هل لي أن أعرف سبب السؤال أولا؟

-الموضوع عائلي.

ونظر حوله للآذان المصغية كإشارةٍ لتعذر التوضيح أو التحرج من التفاصيل.

-اعفني من ذكر الأسباب. أريد أن أعرف فقط إن كان هذا قد حدث فعلًا، هل أبلغ عن اختفاء ولده؟

خلسةً راح الضابط ينظر ليوسف القابع في الخلفية بعيدًا وراء الحاجز وسط زمرة الشهود، ليلاحظ نظرات الاستنجاد في عينيه، أدرك أن الشاب لا يرغب بحالٍ في تقديم نفسه للرجل. تشاغل قليلًا بالكلام في التليفون ثم وضع السماعة وأجاب الواقف أمامه:

-نعم، عبد المسيح شحاتة أتى وطلب منا البحث عن ولده المدعو نجيب عبد المسيح الذي ترك البيت قرب الفجر ولم يعد. لكننا .بغض النظر عن عدم مرور وقتٍ كاف على غيابه، ليس لدينا قوة للبحث والقضايا الأهم تشغلنا حاليًا، كمقتل جنود بريطانيين منذ ساعةٍ وسرقة بهائم العمدة وشيخ البلد. عندما يمر يوم على اختفائه سنحرر محضرًا وننشر أوصافه،أي سؤالٍ آخر؟

بهدوءٍ يثير القشعريرة قال الرجل:

-أي أنه ليس لديكم فكرة عن مكانه.

أجاب أنور حاسمًا:

-نعم، ظننت هذا بديهيًا، لكن أحدًا لم يغادر البلد اليوم على متن القطار، هذا هو الأمر الأكيد.

-شكرًا يا سعادة البيك.

t.me/qurssan

وحياه بنفس البرود مغادرًا ليعاود الضابط النظر مجددًا إلى يوسف.أسند وجهه لراحة يده وقد بدت عليه أمارات اللهو، وبيده الأخرى أشار إلى يوسف ليأتي إليه.

مَثَل يوسف أمامه فأشار له ليجلس، ثم قال بصوتٍ منخفض مقربًا رأسه منه:

-لم أسأله عما يريده منك لأنه لم يكن ليتكلم على أي حال. لابد أن الموضوع به حريم، وتحديدًا فتاة من عائلته، هل يريد أبوك طمس الفضيحة بتزويجك إياها ولهذا هربت منه، أم أن مسألة الهروب والبلاغ هذه تمثيلية متفق عليها بينكما للتنصل من المسئولية؟

رد يوسف دون تفكير:

-حضرتك تتمتع بخيال روائي عظيم . أنا لا أعرف أي شخصٍ من أسرة هذا الرجل ولا رأيته بحياتي. وأنا لست الشخص الذي يستفسر عنه.

-لماذا اختبأت منه إذًا وأشرت لي ألا أخبره عنك؟ هل تنوي التذاكي ؟ لقدأخبرت الخُط أمام الناس أنك من عائلة شحاتة، ورأيتك بنفسي البارحة وأنت جالس بجوار المقدس ثم مغادرًا الفرح معه في الكارتة الخاصة به. يمكنني إرسال عسكري لأبيك الآن لأخبره أني وجدتك وسيصل الخبر كالبرق للأخ أبسخيرون. كن صريحًا معي حتى لا تخسر.

أخذ يوسف نفسًا عميقًا، ونظر دون وجلٍ في عينيه ليقول بثباتٍ:

-سيأتي ليخبرك أنني لست ابنه، يمكنك أن تعيد سؤال من كانوا في القطار وسيخبرونك أنهم لا يعرفونني. لقد كرروا ما ادعيته فحسب.

كأن يوسف لم يقل شيئًا استمر أنور في الكلام:

-سمعت أنك عشت دائمًا بالقاهرة ولم تترك البيت منذ عدت هنا مع والدك أو تختلط بالأهالي، لا تتعجب هكذا، لقد أثرت فضولي بالأمس لذلك سألت

t.me/qurssan

عنك، سمه الفضول البوليسي، هل أعادك هنا ضد إرادتك؟ وإلا... فمن أنت إذًا وأين نجيب؟

ابتسم يوسف قبل أن يجيب:

-فلنرَ إن كان يمكنك التخمين، هل أنت واثق أني مصري من الأساس؟ أم أنني أقرب لأن أكون... فرنسيًا مثلًا؟ أو ألمانيًا؟ ألا ترى بي شبه من الأرمن كذلك؟

-لست الصعيدي الوحيد بهذه الملامح لتستغلها في المزاح، دعني أذكرك أن شهامتك مع الجندي الإنجليزي في القطار ستكون مضحكةً لو كنت بالمقابل تترك فتاة هنا للموت.

-موت؟!

-هل تظن أهلها سيتركوها حيةً لو تورطت معها ثم هربت؟ مجرد الشك والقيل والقال هنا مبرر كافٍ لإخفاء أي أنثى من على وجه الأرض.

بغتت يوسف رعدة باردة أسكتت قلقه على نفسه محولةً اتجاهه بالكامل لهيلانة. هل يمكن أن تقع هي تحت طائلة شكٍ مماثل في هذه البقعة الغامضة من الأرض؟ أي مخلوق سوي قد يمس هيلانة!

اعتبر الشاب الاضطراب الذي اعترى يوسف اعترافًا منه بصحة تخميناته، فاسترخى في مقعده منتظرًا سماع القصة المسلية. حينئذٍ، كريحٍ ساخنة هبت على المركز، اندفع داخلًا بوجهٍ ملتهب وعروقٍ نافرة وشاربٍ أصفر منتفش، كان متوسط القامة والامتلاء، يصعب التكهن بعمره، بزته العسكرية تشير لرتبته كميجور في الجيش البريطاني، ونظراته النارية تشير لغضبته الباحثة عن ضحيةٍ. انكمش يوسف قليلًا متمنيًا التلاشي، كانت تلك رتبة الضابط الذي تولى التحقيق معه في ثكنات المعادي قبل إرساله إلى المعتقل، ومجرد ملمح الزي نفسه أرسل الوهن في أطرافه!

t.me/qurssan

-كيف تجرؤون على منعنا من نقل جثث الجنود من القطار؟من أعطاكم الصلاحية لذلك؟

متمهلا كأنما يستفزه نهض أنور من مجلسه وتناول طربوشه من على سطح المكتب ليرتديه قبل أن يجيب في أناةٍ:

-لابد أن يعاين وكيل النيابة المكان ثم يأمر بنقلها إلى المستشفى حتى يتسنى للطب الشرعي الكشف عليها.

تحاشى يوسف النظر إلى البريطاني منهمكًا في الإمساك بتلابيب خوفه للسيطرة عليه. بينما انتفخت أوداج الرجل حتى خُيل للشاب أنه سينفجر متناثرًا في وجهه.

-هؤلاء مواطنونا نحن، ثم أي طبٍ شرعي هذا؟! ليس لديك أطباء في المقام الأول! لدينا أطباؤنا وهم الوحيدون المؤهلون في هذا البلد، وسيعاينون جنودنا في المستشفى العسكري.

كان يوسف لا يزال جالسًا محدقًا في بزته الرسمية بتوترٍ حين انتصب واقفًا وقاطع حوارهما الشائك بحسٍ انتحاري قائلًا بالإنجليزية:

-معذرة، لكن الأطباء المصريون يتلقون تعليمهم على أيدي الأطباء البريطانيين، أو المصريين الحاصلين على زمالة الكلية الملكية البريطانية، لذا ... إن كان هناك نقص في كفاءتهم كما يفهم من حديثك فستكون تلك مسئوليتكم كاملة!

انقطع الكلام المندفع من فم الإنجليزي كبندقيةٍ نَفِدت ذخيرتها فجأةً، والتفت ليوسف الذي يراه الآن لأول مرةٍ دون أن يستوعب ما يقصده.

-معذرة! هل تتحدث إليّ؟

سأل مستنكرًا بكبرياءٍ كأن بحديث يوسف إليه وقاحة لا تغتفر.

-نعم.

قال يوسف ببساطةٍ.

t.me/qurssan

فتح الرجل فاه قليلًا مبهوتًا،وراح يصعده بنظرات الاحتقار قبل أن يقول:
-لابد أن هناك شيئًا في هواء هذا المكان يصيب الجميع بلوثةٍ ما.
ثم اتجه بحديثه للشاب الآخر.
-وأنت يا حضرة الضابط، أين القوة التي تعرف الطريق في الجبال حتى تصحب فرقتنا في مطاردة المجرمين؟
-للأسف كل قوة المركز بالخارج، لكنني طلبت تعزيزات من المديرية ولابد أنها في الطريق.
صاح معترضًا:
-هراء! سيكون الخُط هذا قد تلاشى كالعادة في انتظار المدد. أحضر من أهل البلد مرشدين وسندفع نحن لهم.
-لكن أهل البلد يخافون الخُط أكثر منكم، اعذرْ صراحتي، حضرتك لست باقيًا هنا للأبد، ولو فشلت في القبض على الخط، *وشدد على كلمة فشلت*، سينتقم ممن ساعدك. هذا رأي الأهالي طبعًا وليس رأيي. هل تظن أني لم أحاول قبل مجيئك؟
لم يستطع يوسف تقدير مدى صدق الشاب، لكنه استطاع أن يجزم أن البريطاني كان قاب قوسين أو أدنى من الإصابة بسكتةٍ نتيجة انفجار أحد شرايين المخ. قال باشمئزاز:
-قد لا أبقى هنا للأبد، لحسن حظي، لكني لن أترك خلفي أي واحد يرفض الانصياع لأوامري، لسوء حظكم، كما إني واثق أنك تستطيع معرفة مقتفي الأثر هنا مثلما أثق أن هناك بعض المواطنين المحترمين الذين لا يمانعون في منح المساعدة اللازمة.
ابتسم أنور وقال بلهجةٍ تقطر بالاشمئزاز:
-أعرف طبعًا المواطنين المخلصين للتاج البريطاني، لكن للأسف لا فائدة منهم في مسألة الأثر والتتبع في الجبال.

t.me/qurssan

التفت يوسف إلى الضابط الشاب متمنيًا لو استطاع شق رأسه ليرى ما به مباشرة، لكنه عرف سريعًا ما يقصده.

أمر الإنجليزي بحسمٍ:

-أرسلْ أحدهم لإحضار دكتور مظلوميان .إنه لا يبعد عن هنا سوى رمية حجر.

عاد أنور للجلوس واضعًا ساقًا فوق الأخرى دون أن يبدي إشارة لفهمه. خرج الميجور وألقى الأمر نفسه لأحد جنوده المرابطين خارج المركز وعاد لينتظر صامتًا. لم تمر دقائق حتى كان الجندي عائدًا بصحبة الصيدلي المتوجس من هذا الاستدعاء.

نظر الأرمني حوله سريعًا قبل أن يتجه بكليته لأنور متغاضيًا عن باقي الحاضرين.

-خير إن شاء الله يا أفندم، ما الذي أستطيع خدمة سيادتك به؟

نظر له أنور بملامحٍ نقية من أي تعبيرٍ وقال هادئًا:

-أنا لم أطلب حضورك، هو من فعل، وأشار للميجور الواقف خلف الصيدلي. التفت الأخير إليه بقلقٍ ولم يجد ما يفعله سوى الانتظار. تقدم منه الميجور خطوةً واحدة قائلًا:

-أنت تعيش هنا منذ زمنٍ طويل يا دكتور مظلوميان، ولابد أنك تعرف كل العائلات وما تتميز به كل منها، أريدك أن تخبرني بأي منها مختص بتتبع الأثر وخبير في الوقت نفسه بمسالك الجبال، بما أن حضرة الضابط جديد هنا وغير قادرٍ على مساعدتي.

ابتلع مظلوميان ريقه وقد ارتفع حاجباه ليبدو أن هذا كان آخر ما يتوقعه. رمقه يوسف متحفزًا ليعرف بما سيجيبه.

-لكن البلد كلها تعرف من هم يا سيدي، لماذا لم تسأل العمدة أو شيخ الغفر؟ كانا سيدلانك بالتأكيد.

t.me/qurssan

-لا أحد منهما متوفر الآن كما لابد وأنك تعلم. هل هناك ما يمنعك من إخباري؟

أمسك الرجل لا شعوريًا بحمالتي بنطلونه ليعتصرهما ويطبق فمه بشدةٍ للحظاتٍ، بسرعةٍ قال:

-إنهم البدو، العائلات البدوية في الأطراف البعيدة.

-هلا كنت أكثر دقةٍ؟ أي عائلةٍ وأين تسكن بالضبط حتى أرسل في إحضار أحدهم الآن.

هنا أحنى الصيدلي رأسه كأنما يسلم أمره لقوى علوية وقال بصوتٍ خافت:

-عائلة الربايع، في نجع غرباوي.

-شكرًا سيد مظلوميان!

متوجهًا لأنور:

-هلا أرسلت لإحضار رجلين منهم؟ لا وقت لدينا لنضيعه.

انصرف الصيدلي مشيعًا بنظراتٍ ثابتة باردة من الضابط الشاب الذي اضطر لتنفيذ الأمر، ليغضب يوسف من الظلم الفادح، لو أن الميجور سأل أيًا من الموجودين بالمركز من أهل البلد لما تمكن أحدهم من التهرب من الإجابة، ثم... ألا يريدون جميعًا القبض على الخُط؟ علام النزاع العبثي إذًا؟

جرَّ ذلك المشهد الصور القديمة والجديدة كالقاطرة البخارية تجر العربات الأخرى، وكلها مدموغة بالوسم الذي حاول طمسه والتحايل عليه منذ وعي؛ خطابات التهديد في الكلية للأجنبي النصراني، رفضه في الإذاعة المصرية بسبب اسمه وليس شكله فقط كما ادعى أمام هيلانة، رفض تجنيسه، النظر له كضيفٍ في كلا الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية، أمه التي لا يعرف حتى الآن إن كانت جاسوسة فعلًا أم مجرد متعاطفة مع حكومة فيشي بسبب شقيقتها، العام الذي قضاه كألماني في المعتقل، مظلوميان

t.me/qurssan

المدان بحبه للإنجليز دون سؤاله أو سابق معرفة به، "أهلا يا خواجة" يقابله بها حسن دائمًا وأبدًا!

ما حدث بعد ذلك كان كالتالي:

انصرف الميجور الغاضب إلى حينٍ ليتأكد من تسليم الجثث، وهنأه أنور على مداخلته التي "حرقت دم الإنجليزي" ببراعةٍ وحذقٍ. وعاد المأمور بقوته وقد نقصت ثلاثة من الجنود الجرحي، ليصرح أن الرجال الباقين غير قادرين على مطاردة أو مداهمة أخرى في الجبال. وفي الوقت نفسه وصلت القوات القادمة من المديرية لتشارك القوات الإنجليزية في المهمة العتيدة،مع اضطرارهم لتأجيلها للفجر التالي لحلول الظلام.

-لا يمكن السير في تلك الطرق ليلًا.

هكذا قرر الحكمدار المصري بشكلٍ قاطع دون أن يعير أهميةً لاعتراضات القائد البريطاني. ثم جاء أخيرًا وكيل النيابة للتحقيق مع الشهود، وعندما أتى دور يوسف للإدلاء بأقواله رمقه أنور عبد الحميد مهتمًا مترقبًا، وما إن سُئِل عن اسمه حتى أجاب:

-نجيب عبد المسيح شحاتة.

***

مرت به في الهاوية ثلاثة أيامٍ. منذ حط رحاله على أرض قنا وحتى غادرها عائدًا إلى أسيوط ظن أنه سيحتاج إلى زمنٍ أطول ليتقصى ويجمع الأدلة التي لا تقبل الدحض، وها هو يغذُّ الخطى تجاه بيت عمه و قد انتهى من التقصي للأبد!

ربما انتهت الحرب بالنسبة للقاهرة، ربما يتساءل آخرون في مواقعٍ شتى عن موعد الخاتمة، لكن هنا في هذه المجاهل الملعونة النهاية قد حلت والعالم قد انقضى. الاستثناء النادر أن تنجو، لا مهرب ولا مفر. سينال الجوع من آدميتك أولًا، وتتحول إلى حشرةٍ تعيش على الفتات وتشرب الماء الملوث

t.me/qurssan

وتعيش جنبًا إلى جنب مع الهوام والمخلفات البشرية والحيوانية، وعندما تنقض عليك بعوضة الأنوفيليس جامبيا لتطعم من دمك الشحيح وتهديك الطفيل الساكن بأحشائها، ستكون بمثابة السطر الأخير بالشاهد على قبرك الذي" تحيا" فيه بالفعل، بيوت الطين. صُنِع الإنسان من طينٍ فلا بأس بالسكن فيه، أليس كذلك؟ لن تجد الدواء لأنه أندر من أن يُهْدَر عليك بينما هناك قوات مقاتلة قد تحتاجه. ولو وجدته ستفضل عليه رغيف خبزٍ أسود بلون أيامك ليطيل من سوادها ليلةً إضافيةً، وعندما تموت بشكلٍ رسمي، بالأنيميا والصفراء والفشل الكلوي وكل التوابع الأخرى سيدفنوك حيث أنت حتى لا تُحصى ضمن الضحايا، فالقرية على أي حالٍ قبرٌ واحد كبير يسير فيه الأموات اللاحقون فوق بقايا الأموات السابقين.

هلا رأيتِ هذا يا هيلانة؟ كل لعنات نهاية الأزمان هنا والآن، الجوع والموت والحرب والخراب، كلها تحققت وتمت. هل ستسقط الشمس والقمر بعد ذلك؟ لا حاجة لذلك، فقد مات الأطفال، لم يبقَ ولا واحد! ماذا ستقولين عن هذا؟ أي خلاصٍ سننتظر بعد أن مات كل الأطفال؟

رائحة كريهة بالجو تستفحل كلما اقترب من البيت. أم أنها ترافقه منذ فترة؟ متى بدأ يشمها؟ لا يدري. دخل البيت بعد أن مر على خفيرٍ خاص مهيب لم يره بالمرة السابقة يقف بالباب مدججًا بالسلاح، لابد أنه كان يرافق عمه برحلته لملوي.

وجد عمه جالسًا بصدر المجلس يراجع حسابات مدونةً في دفترٍ ضخم، ولاحظ بعد الترحيب العابر فتورًا أعمق وأبقى. كان قد نسي كيف يعبس عمه حتى تبدو تجاعيد وجهه كأنها ترافقه منذ ولد! بدأ يستشعر حرجًا، هل غضب عمه لرحيله بعد إيصال هيلانة دون انتظار عودته؟

-لم يكن بيدي يا عمي، اضطررت إلى الذهاب بسرعةٍ رغمًا عني... أرجو أن تسامحني.

t.me/qurssan

كان عمه ينقل بصره بين الدفتر وعصاه الأبنوسية اللامعة المستريحة عليها يسراه. قال بتؤدةٍ دون أن ينظر له:

-لم يكن يجب أن تترك أختك بالبيت دون رجلٍ.

سأل بقلقٍ وهو يستدعي صورة الحارس القائم على الباب الخارجي:

-لماذا تقول ذلك؟ هل هناك خطر في وجودها هنا وحدها؟

-ربنا قدر ولطف وكان يمكن لهذه المصيبة أن تفضي للدم! أختك ذهبت لبيت العمدة بملوي بعد أن رحلت أنت، ثم غافلت النساء وهن نائمات وشردت وحدها في البلد ليلًا ولم تعد إلا بعد طلوع الشمس. بماذا تسمون ذلك عندكم في "مصر" يا دكتور؟

لم يتطلع عمه إليه مباشرةً إلا مع السؤال الأخير كأنه يبصق بوجهه. طن رأسه وشعر بضغط الدم على جدران شرايينه يريد هدمها. *هيلانة فعلت كل هذا وحدها؟ لابد أن لديها سببًا قاهرًا، ما هو؟* حاول أن يحافظ على هدوء نبرته وألا يُظهر ما به من ارتباك.

-ألم تقل أين ذهبتْ ولماذا؟

-كلامها لا رأس له ولا ذيل ولا ينطلي على أبلهٍ. أتعرف معنى أن يحدث هذا على مرأى مِن كل مَن كان ببيت العمدة؟

-عفوك يا عمي، أنت تعلم أن هيلانة صغيرة وليست خبيرةً بعادات البلد، لا شك أنها لم تقصد إحراجك. سأتحدث إليها لأعرف السبب ولن يتكرر منها ذلك.

هنا ارتفع صوت عمه وقد بدأ ما بصدره من دخانٍ أسود ينكشف.

-هل تظن أن ما حدث يمكن له أن يتكرر؟ أقول لك إن أختك باتت ليلةً خارج البيت فتقول لي إنك ستتحدث إليها؟ ما صنفك بالضبط؟ لقد ذهبتْ إلى بيتٍ من عزبة شحاتة في ملوي، وعندما سألتُ عرفت أن له ابنًا وحيدًا كان موظفًا بالقاهرة، لكن الرجل قام بتهريبه قبل أن أضع يدي عليه. لابد

t.me/qurssan

أنه رآهما معًا وعرف ما سيحدث بعد ذلك. لقد كانا حاضرين في الفرح نفسه ولم أتعرفهما! آه لو كنت رأيته.

هب كامل واقفًا وقد تخلى تمامًا عن مقتضى اللباقة واللطف وقال بحدةٍ:

-لا أصدق حرفًا من... عمن تتحدث ومن هو ذلك؟ أختي لا تعرف أحدًا بالصعيد كله ولا يمكن أن تقصد بيتًا معينًا لزيارته، إحضارها هنا كان اقتراحي أنا لا هي.

-لقد سألتْ إحدى البنات بالفرح عن مكان البيت قبل أن تختفي يا دكتور. لو أنها ابنتي لما أبقيت عليها ساعةً بعد رجوعها، لكنها للأسف أمانة لدي. يمكنك أن تستلمها سليمةً كما تركتها بالضبط، لكن تأديبها يقع على عاتقك أنت وأبيك، ويفضل أن تزوجاها بسرعةٍ، هذا لو أنكما لا تزالان تأبهان لعرضكما.

أنفه مفعمة بالرائحة الخبيثة وأذناه تقيئان السم المتردد عليهما.

-ماذا تقول؟ ماذا تقول؟

أين الكلمات عندما تحتاجها؟ لو أن الكراهية يمكن أن تُرمى من القلب كالرصاص لما توانى عن قذف ذلك الرجل بها، أراد أن يقول له "اصمتْ أو متْ"، بدلًا من ذلك رفع رأسه صائحًا بكل قوته:

-هيلانة! هيلانة!

سيأخذها ويذهب بها إلى محطة القطار وإن أُضْطُرَّا للمبيت هناك. لكن لماذا؟ لماذا يا هيلانة؟

هنا ظهرت زوجة عمه فجأةً من ركنٍ مظلمٍ كأنها كانت تتحين فرصتها.

-اهدأ يا دكتور فعمك لا يقصد سوى الصالح. والخطأ لم يقع من جانبنا لتلومنا.

-شكرًا على كل حالٍ وكفى، أريد أختي الآن لنذهب ونوفر عليكم أي عناءٍ.

t.me/qurssan

-لا أظنها قادرةً على السير والخروج الآن، أختك ترفض تناول الطعام منذ عادت معنا منذ يومين.

الخوف الآن يزاحم الغضب والمقت على قلبه، تساءل متوجسًا من الرد:

-لماذا؟ لماذا ترفض الطعام؟

كان البرود المتكبر على وجه المرأة وهي تمصمص شفتيها كافيين لجعله راغبًا في لطمها، لكن ما قالته تخطى استيعابه وتركه عالقًا في فراغٍ بلا شعور ولا رأي.

-لم يحدث لها شيء، كل ما هنالك أننا أردنا الاطمئنان على سلامتها، وستر وجهنا أمام الناس، لكنها عاندت، وعندما كشفنا عليها بالقوة غضبت وأحدثت فضيحةً ثم رفضت الأكل وبقت بغرفتها لا تتركها، لكن استرح يا دكتور، فهي بنت بنوت وصاغ سليم.

اللكمة كسرت أنفه وتردد صداها في تلافيف مخه:

-هيلانة؟! بنت بنوت وصاغ سليم؟ ماذا تعني تلك... ماذا فعلت بها؟

تشكلت تلك الكلمات بدمٍ ساخن في عقله دون أن تصل للسانه. كان الاستيعاب عسيرًا كمخاضٍ عكسي؛ فبدلًا من الألم المبرح في محاولة إخراج المحتوى كان الوجع في محاولة إدخال الصورة الواردة، الصورة القذرة اللزجة كريهة الرائحة والمثيرة للتقيؤ. لماذا يستمر العالم بعد؟

ضن بصوته أن يضيع في كلماتٍ مهدرة على الكائن الماثل أمامه، الذي أذل أخته وكسرها نصفين. استمد من الغليان والقرف قوةً قفز معها الدرج الطويل بالبيت في أربع خطواتٍ ليبحث بنفسه عن أخته في غرف النوم.

وجدها مستلقيةً على جانبها في جلبابٍ أسود، يداها متكورتان في هيئة قبضتين وركبتاها مضمومتان إلى بطنها في الوضع الجنيني. هناك صينية طعام بركنٍ من الغرفة ورائحة الهواء ثقيلة بفعل الركود والمنافذ المغلقة. اقترب منها مشفقًا وهمس بما يستطيع من رقةٍ:

t.me/qurssan

-هيلانة! حبيبتي! لقد عدت.

لكنها لم تبدِ ما يُظهِر سماعها له. من حركة جفنيها أدرك أنها تغلق عينيها عَمَدًا وترفض النظر إليه. جلس بجوارها على الفراش ومد يده يمسح شعرها قائلًا:

-هيلانة، قومي معي لنذهب من هنا. لن نبقى لحظةً واحدةً بهذا البلد.

لكنها ثنت رأسها للداخل كأنما تريد له ألا يرى وجهها. تمزق قلبه ندفًا حمراء وهو يرى إحساسها بالعار يحول بينهما.

-ليس هناك ما يدعوكِ للخجل، هم من ينبغي عليهم ذلك. لا ترفضي النظر إليّ وانهضي وارفعي رأسكِ.

كاد ييأس من استجابتها، وعندما رأى عينيها تفتحان وتنظران ليديها المغلقتين تشجع وقال ملحًا:

-هل لديكِ القوة للقيام والسير؟ سأحملكِ لو اضطررت لذلك.

انتظرها طويلًا حتى استطاعت الجلوس، وبجهدٍ أنزلت ساقيها للأرض، تسارعت أنفاسها كأنها صعدت سلمًا لمجرد الاستواء واقفةً، بدت موشكةً على الوقوع كأنها نست السير، فأسرع يسندها وقد رأى أن إضرابها عن الطعام قد أضعفها تمامًا.

-اخلعي أولًا هذا السواد عنكِ.

قالها بضيقٍ ورفع الجلباب عنها ليظهر الفستان الذي وصلت به معه وليسقط دفتر أحمر كان مخفيًا فيه على الأرض. انحنى ليلتقط الدفتر ويقلبه قليلًا دون أن يلتفت للتوقيع في نهايته.

-خط من هذا؟ هل أحضرته معكِ من القاهرة؟

كان يتكلم بما يستطيعه من رفقٍ وإن أمضه الفضول، لكنها لبثت على وضعها المتخشب مطرقةً للأرض كأنها لا تسمعه. رأى حقيبتها أمامه فأودع فيها المذكرات مؤجلًا البت في شأنها لما بعد، وانحنى يضع الحذاء في قدميها،

t.me/qurssan

ثم أحاط خصرها بذراعه ليسندها ويعينها على الحركة بينما أمسك حقيبتها بيده الأخرى. شعر بعضلاته كلها ترتجف رغمًا عنه فأخذ يطبق فمه بشدةٍ حتى لا تصطك أسنانه بعضها ببعض. وما إن خرجا من الغرفة بخطواتٍ متمهلة حتى عادت لإغلاق عينيها مرةً أخرى، وسارت معه على هذه الصورة حتى وهما يهبطان الدرج حيث أُضْطُرَّ لحملها فعليًا حتى بلغا أسفله.

-انتظرْ حتى الصباح يا دكتور، لن تجد قطارات للقاهرة الآن. عيب ما تفعله هذا يا ابن أخي.

أمده جسد أخته الهامد بالقوة، فنظر لعمه نظرةً طويلةً جاهد أن تحمل له ما يكنه من غضبٍ وسخطٍ، وقال باختصارٍ:

-هذه آخر مرةٍ تخطو فيها قدمي هنا. انسَ تمامًا أن لك ابن أخ.

احمر وجه الرجل من الإهانة التي باغتته حد الخرس. وغادر كامل وهيلانة المنزل وهي معتمدةً عليه بأغلبها. حاول كامل اختلاس النظر لوجهها فوجده منكسًا وعيناها ما تزالان مغمضتين. سارا طويلًا على التراب حتى صادفا عربةً يجرها حمار، محملةً بالقطن. كان يقودها رجل مغبر في الأربعين يصحبه فتى في طور المراهقة، عرض عليهما توصيلهما حيث يشاءان، فركبا إلى جواره بينما جلس الفتى فوق أجولة القطن. لاحظ كامل أن السائق ينظر بفضولٍ إلى جفني هيلانة المسدلين ورأسها المرتمي على كتفه، أراد تجاهل الأمر إلا أن الرجل لم يصمت.

-خير إن شاء الله، ألف سلامة على الهانم!

اكتفى بهذا الرد المقتضب:

-متى يغادر القطار المتجه إلى القاهرة غدًا؟

-لا أعرف يا بيه... ألم تسمع بما حدث في ملوي من يومين؟ يوم الأربعاء الصبح، الخُط هجم على القطار وقتل العساكر الإنجليز الراكبين فيه

t.me/qurssan

والدنيا مقلوبة في كل مكان. القطار لم يغادر أبدًا وكل من كانوا فيه يُحقق معهم.
هنا شعر كامل بيد هيلانة تعتصر معصمه وإذا بها تتطلع أمامها بملء العينين قبل أن توجههما له، العينان اللتان ما أن رآهما السائق حتى بسمل تلقائيًا.
-ماذا هناك؟
سألها بقلقٍ وهو يتعجب مما أثارها لهذه الدرجة.
-هل حدث شيء للركاب الآخرين؟
كانت هي المتجهة بالسؤال للسائق.
-لا... لكن الخُط عمل شيئًا عجيبًا، ربط اثنين من المسافرين مع عسكريٍ إنجليزي وجعلهم يسيرون معًا إلى البلد، الثلاثة عرايا كما ولدتهم أمهاتهم!
بدا الاشمئزاز على وجه كامل بينما ظلت هيلانة ساهمةً كأنها استنفدت قواها كلها في السؤال الذي طرحته، هنا تدخل الفتى من خلفهما ليدلي بدلوه في الحديث:
-لم يكن هذا ما حدث، العسكري وحده كان عاريًا لكن الاثنين الآخرين لا.
-وما أدراك أنت يا ابن... هل كنت معهم؟
احتج الرجل على معارضة الولد، لكن الأخير أصر مستطردًا:
-وهل كنت أنت هناك؟ أنت تحكي ما سمعته، أنا سمعت من عبد الرحمن أبو ضب وقد كان في القطار بشحمه ولحمه... المربوطان واحد غريب والآخر مفتش الري. وكلاهما، حسب كلامه، تجاسر على معارضة الخُط ذاته! ولهذا ربطهما معًا في القطار، لكنه لم يخلع سوى سروال العسكري وحده. الخُط ابن بلد ولا يفضح أولاد البلد.
استرد السائق ناصية الكلام قائلًا:

t.me/qurssan

-الخلاصة يا بيه النيابة التي لا تصل مكان الجريمة إلا بعد تعفن الجثث وانتشار رائحتها فطت ونطت لمعاينة القطار قبل غروب الشمس، طبعًا... فالقتلى إنجليز وليسوا أولاد عرب، لكن من سيمسك بالخُط؟ ولا كل عربات الجيش الإنجليزي ولا حتى الهجانة يستطيعون السلوك في طرق الجبل الوعرة، لكنه سيهدأ إلى حينٍ ولن يخاطر بطلعةٍ أخرى قريبة، فسيأمن أغنياء الناحية منه على الأقل.

كان كامل مشغولًا بتقصي ملامحها بحثًا عن سبب اهتمامها بالقطار. هل تهتم بمصير شخصٍ معين كان ضمن الراكبين؟ أين كانت إذًا عندما تركت البيت؟ ولماذا ذهبت إلى ملوي في المقام الأول؟ لقد كان هو من اقترح إخفاءها بالصعيد، لم يكن لديها وقت لإبلاغ أحدهم لمقابلتها هناك. ومن يمكن أن يأتي هنا لمقابلتها؟ أحد زملائها المقاومين للاحتلال؟ أيكون لجماعتها دخل بمقتل هؤلاء الجنود؟ اللعنة! هل كانت تُبلغ رجال الخُط بوجود الإنجليز على القطار؟ أم أنه لم يكن الخُط الذي قام بتلك العملية؟! كاد رأسه يحترق بالأسئلة والافتراضات الجنونية. هذه الحيرة فوق طاقته، سيسألها بمجرد انفرادهما.

استأجرا غرفةً بجوار المحطة ليلحقا بقطار اليوم التالي. طلب كامل طعامًا وألح عليها لتأكل حتى اضطر لدس اللقم في فمها بيده. لاحظ الصعوبة التي تبتلع بها فتفحص حلقها بحثًا عن التهاب، لكنه لم يجد شيئًا. حاول أن ينشغل بتفاهاتٍ شتى عن عجزه المخزي الكبير.

-يجب أن تستردي قوتكِ للسفر. كلي حتى لو لم تكن لديكِ الرغبة في الأكل.

جلس ينظر لها وقد فتحت عينيها حتى تستطيع الأكل فبدتا متورمتين. بحث عن مدخلٍ مناسبٍ للحديث ليسألها عما حدث بعدما تركها، لكنه لم يعرف كيف يفعل ذلك دون أن يثير وجعها. فضل الانتظار حتى تنتهي من طعامها وتستريح، وعندما استلقت معطيةً إياه ظهرها و قد عادت لإغماض عينيها

t.me/qurssan

تمدد بجوارها وراح يمر بيده على شعرها. وبدلًا من أن يسألها عما يرغب في اكتشافه قال:

-ألا تريدين معرفة ما وجدته في قنا؟

أجابت بتلك الخشونة الطارئة على صوتها، كأنه صوت امرأةٍ أربعينية بحت حنجرتها في مهنة العديد:

-لا، لا أريد أن أعرف. منذ أغلقت عيني وأنا أصرخ وهن يوثقنني وأنا لا أرى إلا كل ما هو أسود ولا أشم إلا كل خبثٍ... ربما جننت، لا بأس... الظلام المحض أكثر أمانًا .

غص بتلك الكلمات حتى الاختناق: "يوثقنني"و"أكثر أمانًا". عرف أنها ستقتنص ذاكرته إلى أن يموت، وهو لم يكن أبدًا عديم الجدوى بعيني نفسه كلحظتها، ومرةً أخيرة يتساءل... لماذا يستمر العالم بعد؟

احتضنها يخفيها محاولًا كتم النحيب بصدره المأزوم دون أن ينجح. راح يرتج ويرجها معه وقد بللت دموعه شعرها.

-آسف لأني تركتكِ وحدكِ... لقد تعذبتِ عبثًا، لم يكن لوجودي هناك فائدة البتة، فلم أستطع مساعدة المحتضرين وكل ما رأيته لا يمكن توثيقه، معاينة الجثث بالمشرحة كان أبسط من اختبار عملية تصنيعها ببطءٍ وتلكؤٍ. الأدهى أن كل شيء معروف بالفعل! لقد سبقني إلى هناك منذ عامٍ كاملٍ صحفي من الإيجيبشان جازيت، وجمع كل المعلومات الممكنة عن الوضع بحذافيره لكنها لم تُنشر! ما الذي سيفعله دكتور ألبورت بما سأخبره به؟ كل مسئولٍ يمكنه أن يفعل شيئًا يعرف الحقيقة، لذلك لن يحدث شيء. ها أنا أبكي وأطلب المعجزة وأنا أيضًا أعرف أنها لن تقع. لماذا تُشفِق علينا السماء؟ أنتِ من كان بحاجة إليّ فعلًا، وقد خذلتكِ.

في الصباح استيقظا قبل موعد الرحيل بوقتٍ كافٍ، ووجد كامل نفسه مضطرًا لخوض الحوار المؤجل بقدر ما يعافه.

t.me/qurssan

-هيلانة، يجب أن نعرف ما سنقوله لأبي عند عودتنا. سيخبره عمي بكل شيءٍ آجلًا أو عاجلًا، ويجب أن نستعد. أخبريني بما حدث باختصارٍ، لماذا ذهبتِ إلى ملوي وخرجتِ وحدكِ ليلًا؟

-فجرًا... كان الوقت فجرًا... ولم أغب سوى ساعةٍ ونصف.

كانت هذه أول جملةٍ متماسكة الفحوى تلقيها منذ رآها بتلك الغرفة، وإن كانت بنفس الصوت المبحوح. زادت فقالت وهي شاخصة نحو الضوء القادم من النافذة:

-لم أفهم ما أردن فعله وذلك ما أرعبني. ظننت أنهن يردن قتلي بطريقةٍ ما، فلم أعلم من قبل أهمية ذلك الجزء الذي أردن فحصه. كنت أظن دائمًا أنه مجرد معبرٍ لنزول الدم كل شهرٍ، الدم الذي هو دليل على نضج جسد الفتاة واستعداده للحمل، لكني لم أربط أبدًا بينه وبين... العلاقة بين الذكر والأنثى... لقد قلن أن أحدًا لم يمسني... فهل يفترض أصلًا بأن هناك من يمكنه مسي بتلك الطريقة؟ هل يعرف كل الناس ذلك عداي؟ هل كنت تعرف أنت؟ أيُدرس مثلًا؟ اشرحْ لي! *وهنا نظرت له*. كيف ولماذا يتغير ذلك الموضع إذا... مسه أحد؟!

لم يكن يتوقع فداحة الجرم متعدد الطبقات؛ الانتهاك والإهانة والإرعاب في الطبقات الأولى ثم ذلك المستوى الأخير من سحق البراءة، المعرفة في أظلم نسخها وأبعدها عن النفع وأجلبها للأذى، لقد دسوا ثمرة معرفة الخير والشر في فمها عنوةً ودون أن تطلبها. وهو ببساطةٍ لم يتخيل تلك الدرجة من الجهل التام لدى أخته المثقفة والذي كان أبلغ توثيق لبراءتها. والآن هو مطالب بأن يشرح لها ما لا يزال مستغلقًا على عينيها المفتوحتين العمياوتين في آنٍ واحدٍ. كأنه يطالب بهدنةٍ أغمض عينيه وألقى برأسه بين يديه واحتمى بالسكوت فقط ليطارده صوتها مجددًا:

-هل يعرف هو ذلك؟

t.me/qurssan

عرف لتوه إلى من تعود "هو"، ولسببٍ غير مفهومٍ شعر بطعنةٍ من الغيرة والنفور.

-نعم .

لاحقته دون رحمةٍ:

-هل تكون الأجساد عاريةً إذًا أثناء ال...؟

ألقى بـ"نعم" مختصرةً وولى هاربًا. كان يمكنه سماع صوت تنفسها بوضوحٍ رغم البرودة الخشنة بصوتها. تعجب من قدرتها على طرح تلك الأسئلة بتلك الآلية، لكنه لم يجرؤ كذلك على مجابهتها بما في نفسه من ضيقٍ. أغضبه بشكلٍ بدائي أن تربط بين تلك الاستفسارات وبين يوسف ولو من بعيد.

-هل هذا ما كان يُقصد إذًا بتعبير "وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين"؟ هذه هي المعرفة؟! أن يرى كل منهما الآخر عاريًا؟

-نعم، جزئيًا.

-هناك تفصيلة غائبة، تفصيلة مختبئة بين حقيقة العري وذلك الموضع الذي يتدفق منه الدم، أليس كذلك؟

هنا رفع رأسه وقد امتلأ للحافة وهتف رغمًا عنه:

-يكفي هذا يا هيلانة! عندما نعود سأريكِ كتاب التشريح وصور الجهاز التناسلي لتفهمي كل شيء! لا تطالبيني بالمزيد الآن من فضلكِ!

لم تبد مرتبكةً لانفعاله، ظلت على البرود الموضوعي نفسه الذي بدأ يثيره.

نظرت في عينيه بثباتٍ وقالت:

-إجابةً على سؤالك الأول عن سبب ذهابي إلى ملوي: لأنه كان هناك، وكان يجب أن أراه. لو أنك تركته يأتي إليَّ عندما قابلك، لما تبعته حتى ملوي لأراه.

-عمن تتكلمين؟

-هو... يوسف.

t.me/qurssan

الآن بات يشك نوعًا بسلامة إدراكها أو سلامة استيعابه هو. كانت تلك المرة الأولى التي يتحدثا بها عنه كواقعٍ وليس كماضٍ مطلق منذ عامٍ! سأل وقد بدأ يفهم مذعورًا:

-يوسف لم... ما الذي قد يفعله بملوي؟ لكن... لماذا كنت تسألين عن ركاب القطار؟

-لأنه تركني ليلحق بالقطار... أقنعني بالعودة إلى عمي ووعدني أن يسبقني إلى القاهرة ليرتب كل شيء حتى نكون معًا، كان يخشى أن يثير حفيظة أبي لو عدنا معًا...

عقبت ساخرةً:

- انظرْ لما حدث الآن؟

نظر لها صامتًا يتأمل كل الأسباب التي لا تفضي إلا إلى الجنون؛ هيلانة لم تنسَ يوسف قط، كان راغبًا بشدةٍ في تصديق العكس طوال العام المنصرم فصدقه. ماذا يجعل منه هذا؟ غبيًا أم ساذجًا؟هل يستطيع أو يملك الحق في لومها؟ كيف تواصلا ومن منهما تبع الآخر؟

هناك من يمكن صلبه الآن نيابةً عن الأمة كلها، إنه يوسف، هو من تسبب في وقوع تلك التراجيديا، هو قاد هيلانة إلى المحاكمة، هو أتى ببعوضة الملاريا و قتل الأطفال ولوث المياه وأفقر الفلاحين. أم أنه هو وحده الملوم؟

دون أن يضيف ردًا أو يستزيد من التفاصيل نهض يلملم أشياءهما للرحيل. تحاشى كلاهما الحديث ثانيةً، ظلا محافظين على ذلك الحائل من الفراغ بينهما حتى وصلا القاهرة قرب نهاية اليوم.

لم يأتِ أحدٌ من الشرطة للسؤال عن هيلانة، ربما لم تكن بخطرٍ قط ولم يكن اسمها على قائمة السياسيين المطلوبين أبدًا. حكى كامل ما حدث لأبيه بمرارةٍ كئيبة وهما خارج المنزل محاذرًا أن تلم أمه بأي معرفةٍ بالموضوع، فقد

t.me/qurssan

كانت خليقة بأن تحيل حياة هيلانة إلى جحيمٍ وهذا ما كانوا جميعًا في غنى عنه. كان الجحيم ماثلًا أمامه وداخله دون حاجةٍ لأي معونةٍ خارجية!

لماذا كان عليها أن تمضي هكذا حتى النهاية فتحبه بتلك الطريقة ولتلك الدرجة؟ لماذا لم تقتنع ببساطة أن الأمر انتهى وحسب كما تنتهي آلاف الأشياء؟ كيف لم يكن عام دون رؤيته أو السماع عنه كافيًا لمحو أو حتى تخفيف دمغته على قلبها؟

بهت إسطفانوس مما سمعه وبات التعبير الدائم على وجهه كمن فقد براءته هو الآخر لتوه! لقد تغير العالم بالنسبة لثلاثتهم دون عودةٍ، هو وولديه معًا!

لأسبوعٍ طويلٍ انتظر كامل على الحافة أن يحدث شيء ما، أن يحاول يوسف لقاءه مجددًا،أن يذهب لأبيه مباشرةً، أن تخبره هيلانة بشيءٍ جديد يخفف من كآبته. مضى يشارك في توزيع نشرة ألبورت المترجمة في النوادي الأرستقراطية وعلى بيوت السياسيين المعارضين للوفد، في الزمالك وجاردن سيتي وهليوبوليس. وسَهَّلَ له ألبورت مقابلة أهم نائبٍ معارضٍ بالبرلمان حيث وعدهما بأن يقدم استجوابًا للحكومة بشأن الملاريا قبل خطاب العرش القادم. تفاءل بحذرٍ مؤملًا في تغييرٍ ما، لكن الهاجس الأعظم كان هيلانة وكيف تنتهي قصتها التي بدأها هو. هل كان صده ليوسف فعالًا ليفوق في أهميته أي وعدٍ أعطاه لها؟ بماذا وعدها أصلًا؟ هل عليه أن يتدخل ليلعب دور الآلهة وهي تحرك قطع الشطرنج البشرية مرةً أخرى أم يكتفي بما سببه حتى الآن ويتعظ؟

لم تكترث أمه للتغيير الطارئ على زوجها الذي لم يعد يحمل عوده معه كلما خرج، ولم تلاحظ ما به هو لطول بقائه خارج البيت، لكنها ركزت كل ريبتها وقلقها على هيلانة التي خافت أن تكون قد التقطت الملاريا من فرط شحوبها وهزالها، ولم يخفف من غلوائها تأكيده لها أن أعراض الملاريا لا

t.me/qurssan

تظهر على المريض إلا بعد أسابيع من الإصابة ليطمئنها ويتخلص من إلحاحها. وليجد ما يفعله أيضًا اصطحب هيلانة للفحص بالمستشفى القبطي وعاد ليؤكد لها سلامتها التامة، فقط ليزداد قلقها! مادامت ليست مصابةً بالملاريا فماذا تسبب في هذا الانحدار السريع لابنتها القوية الصلبة؟ حارَ هو نفسه، أي الشقين كان أعظم أثرًا، التجربة الساحقة ببيت عمه أم انتظارها العبثي ليوسف؟

نضبت قدرته على الانتظار، قرر أن يذهب إلى بيت يوسف ليصل إلى صفحةٍ قاطعةٍ في تلك السيرة المرهقة. ساق نفسه سوقًا ليصعد درجات البيت ويطرق ذلك الباب. تمنى لو أن آرام ما زال هناك رغم ثقل ظله ليصعد إليه ويعرف منه ما يريد، لكنه للأسف مضطرٌ إلى اللجوء للصيدلي العجوز مباشرةً. بعد طرقاتٍ عديدة يئس من تلقي استجابة. اتجه سائلًا عن الرجل في متجرٍ مجاورٍ للأسطوانات يملكه أرمني آخر، وتلقى ردًا أكثر إحباطًا مما توقع، فأرتينيان ليس متغيبًا لساعةٍ عابرة وليس هناك موعدًا مقترحًا لعودته.

-لقد رأيته يحمل حقيبة ملابس كبيرة ويدلف إلى سيارة أجرة، كان هذا منذ أسبوعٍ. لم يخبر أحدًا من الجيران أو الأصدقاء بوجهته. أغلق الشقة ورحل فحسب.

-لكن ماذا عن ابنه؟ هل كان معه؟

حاول كامل التمسك بذلك الأمل الأخير، لكن الرجل هز رأسه قائلًا:

-لكن ابنه معتقل منذ عامٍ وأكثر، صحيح أن البعض بالشارع هنا يزعمون أنهم رأوه لكنها مجرد ظنون والتباسات. لو أنه خرج فعلًا لعرفنا جميعًا، أليس كذلك؟

-هل له أقارب في أي مكانٍ؟ كيف أعرف أين ذهب؟

t.me/qurssan

-يعقوب أرتينيان ليس له أقارب بمصر. أنوش، رحمها الله، كانت قريبته الوحيدة، لكن ربما... الأب جريجوري... عليك بالذهاب إلى البطريركية وسؤال الأب جريجوري هناك، فقد كانا مقربين جدًا.

كان الأب جريجوري حريصًا لدرجة التقتير في عدد الحروف التي ينطق بها. وجده كامل مبالغًا في حذره. أي ضررٍ يملك هو إيقاعه بيوسف أو أبيه؟

-إذًا فقدسك ليس لديك فكرة عن موضعه الآن؟

-طلبت منه ألا يخبرني.

-ويوسف؟ يجب أن أعرف على الأقل كيف أصل إليه.

-لا أستطيع مساعدتك.

-لكنه قابلني بالفعل ووعدني بالعودة منذ أسبوعٍ ولم يعد.

-انتظره.

صرخ فاقدًا كل قدرة على التأني:

-لا أستطيع!

-ما دام قد وعدك فليس أمامك سوى الانتظار.

-هناك آخرون غيري حياتهم متوقفة حرفيًا على أخباره. أنا لا أتسلى هنا باختبارك.

تنهد القس باستسلامٍ قائلًا:

-لكني لا أعرف مكان أي منهما بالفعل، كل ما هنالك أن يعقوب أرتينيان جاءني قبل أن يسافر إلى مكانٍ ما وأعطاني خطابًا مغلقًا حتى أسلمه ليوسف إن أتى إليّ، ولم أسأله عن وجهته أو مكان يوسف.

لم يبقَ أمامه سوى محاولةٍ أخيرة؛ سيذهب لرؤية مراد دانيال.

كان قد قابله مرتين ممثلًا عن كلية الحقوق في اجتماعات الطلبة مع دكتور ألبورت، تحدثا عن قوانين الجامعة التي يجب تغييرها والواقع القاسي للبلد الذي سيضطر الطلبة الحاليون للتعامل معه لاحقًا، لكنهما لم يتطرقا أبدًا

t.me/qurssan

لأحاديث شخصية متعلقة بسبب تعارفهما الأصلي. لم تكن لديه فكرة عن مدى اطِّلاع مراد على التطورات الأخيرة بحياة يوسف وخروجه من المعتقل، لكن عليه أن يجرب.

في كلية الحقوق لم يجده. وجد زملاء له لا يعرفون عنه شيئًا رغم التكهنات العديدة؛ فالبعض يظن أنه مختفي بإرادته والبعض يتوجس من وقوعه رهن الاعتقال السياسي.

لو أن أبونا مينا لم يغادر إلى الصعيد، هل كان سيجرؤ على الذهاب إليه بعد أن ضربت هيلانة بنصيحته عرض الحائط؟ شعر أنه مهجور تمامًا وبقسوةٍ، حتى الصلاة لم تخفف من وحدته المطلقة.

عاد لأبيه خالي الوفاض إلا من الخيبة. جلسا يتحدثان في المقهى بعيدًا عن مجال رادار أمه، عذبه منظر إسطفانوس المأزوم العاجز، الذي لم يتمكن حتى اللحظة من رؤية هيلانة أو الحديث إليها!

-لا أعرف أين أذهب أيضًا؟ ومن تبقى لأسأله عنه؟

-ألم تقل هيلانة أنه سيأتي لرؤيتي؟

-لم أعد واثقًا. لقد تركها منذ عشرة أيامٍ يا أبي. إنها تنحل ببطءٍ، لقد خاطرت لتراه كما لم تكن أي فتاةٍ سواها لتفعل، وتعرضت بسببه لمهانةٍ لا تحتمل وها هو يختفي كأنه لم يوجد.

-ماذا يمكن أن نفعل إذًا؟

كان أباه يسأله كطفلٍ معدوم الحيلة وجد نفسه متورطًا فيما يفوق قدراته، غاظه ذلك وجعله يقول بحدةٍ طفيفة:

-لقد فقدنا كل الخيوط التي قد تقود إليه، إلا إذا ذهبت إلى الصعيد حيث تركها لأبحث عنه هناك، ربما ما زال هناك. لو أعرف لماذا كان هناك في المقام الأول!

همس الرجل وقد بدأ صوته في الارتعاش:

t.me/qurssan

-أتعرف فيما تفكر أمك؟ لقد بدأت تعتقد أن روحًا شريرة قد سيطرت على أختك، هذا يفسر الخشونة في صوتها وإعراضها عن الطعام والكلام والتزامها الفراش. أحاول إخراج الفكرة من رأسها لكني لا أملك البديل المنطقي. سأجدها قادمةً يومًا بصحبة كاهنٍ ليطرد الروح منها. حاولْ أن تتحدث معها يا كامل، ربما عرفنا تفاصيل أكثر إفادةٍ وربما فكرة مجيء الكاهن للصلاة عليها ليست سيئةً في النهاية.

-ليست سيئةً لكنها لن تعالجها. الروح التي تتلبسها هي يوسف، وهذا لن يغادرها بقراءة المزامير.

اتسعت عينا إسطفانوس فجأةً واعتدلت كتفاه المتهدلتان، سرت في كيانه حماسة طارئة تعجب لها كامل.

-ماذا؟ هل توصلت لحلٍ؟

-ربما، لكن... لا مفر مع ذلك من سفرك كما قلت.

نظر كامل لأبيه مندهشًا وقال:

-ما هو؟ ولماذا يجب أن أسافر؟

-أتذكر نجيب عبد المسيح؟

-من؟

-الشاب الذي كان مع يوسف في الصيف الماضي عندما قُبِض عليه. أتذكر ما عرفناه عنه في سياق الأزمة؟ لقد عرفنا أنه صعيدي، ومن ملوي تحديدًا.

فتح كامل فاه للحظةٍ وقد لمعت الصورة أمام عينيه بوضوحٍ.

-كيف... كيف نسيتُ ذلك؟ كان يوسف في ملوي عند صديقه ذاك.

-ربما هو المقصود في عزبة شحاتة، نحن لا نعرف اسمه الثلاثي. يجب أن نسألها لنتأكد.

t.me/qurssan

-لا أعتقد أنني يجب أن أسأل هيلانة أو أنها يجب أن تعرف أصلًا أني أبحث عنه؛ سيعطيها هذا حجةً جديدةً لانتظاره ولن تكون العاقبة جيدةً لو خابت.

ذهب ليراها قبل أن يسافر. وجدها قد أدخلت الجرامافون لحجرتها ووضعت عليه أسطوانة "مضناك جفاه مرقده " تستمع إليها. كانت جالسةً إلى منضدة الكتابة لا تفعل شيئًا. أمامها دفاترها القديمة وكتبها وأقلامها، وهي ترمقها جميعًا بهدوءٍ دون أن تتحرك فيها عضلة واحدة. سقط قلبه. برقةٍ شديدةٍ قال:

-لابد أن لديكِ ما تكتبينه بعد كل هذا الوقت. كنتِ تكتبين كل يومٍ تقريبًا فيما مضى.

لم يكن ينتظر ردًا، اعتاد صمتها وسلم به. كان يقبل رأسها ليرحل بينما يسمع عبد الوهاب مغنيًا "أقسمت الحسن بيوسفه" كأنما ليثير حفيظته! وعندها أدلت بذلك التصريح:

-لقد ظننت أني نجحت، وأن نذري قد قُبِل.

-نذركِ؟!

-نعم. عندما قال أبونا مينا أن الله لا يريدني أن أنتظر يوسف عدتُ هنا وعقدت معه اتفاقًا؛ صليت له، وأنا جالسة إلى هذه المنضدة، قائلةً: "أعدك أن أكرس كل قدرتي على التفكير والكتابة لك وحدك، لن أكتب خاطرةً أو فكرةً ، قصيدةً أو قصةً أو حتى مذكراتٍ شخصية. لن أخط كلمةً ليست عنك! ستكون تلك الموهبة التي منحتنيها لك حرفيًا وليس مجازيًا. سأتخلى عن حلم نسختي الخاصة من "الزمن المفقود". فقط أعطه هو لي! وخذه مني لو خالفت عهدي، لو كتبت سطرًا عن أي موضوعٍ لا يتعلق بك مباشرةً عاقبني. هذا نذر ولن أعود عنه. ما رأيك؟". هل كان هذا كافيًا أم أن الله لم يكترث قط لما أكتبه؟ المشكلة... *وهنا رفعت رأسها لتنظر له،* أني بعد عامٍ

t.me/qurssan

لم أكتب فيه سوى الترانيم وشروح الآيات قد فرغت! رأسي خاوٍ تمامًا لكن... لا أعرف إن كان النذر لا يزال ساريًا أم أنني قد تحررت منه. لم أوقِّع بدمي! *قالتها وهي تكاد تضحك بمرارة*، لم يصل الأمر لهذا الحد... هل كان يجب أن أوقع بدمي في رأيك؟

كانت، باستثناء فحوى الكلام وصوتها، تشبه أخته التي يعرفها شبهًا ضئيلًا.

ابتلع ريقه متمهلًا في الرد، قال متجنبًا عينيها:

-الوقت ما زال مبكرًا لتقرري، أنتِ لم تفقدي يوسف بعد لتتحرري من نذركِ.

-هل ترى ذلك؟ لكني تلقيت العقاب مع هذا على اختياري! ليس لدي ما أكتبه على أي حالٍ، لذا سأنتظر.

لم يطاوعه قلبه ليقول "لقد تم تحذيركِ ولم تستمعي". لعن في سره اليوم الذي رأى فيه يوسف، وودعها.

حاملًا حقيبةً صغيرةً خفيفةً خرج من البيت مثقلًا ليمر أولًا على بائع الجرائد. كان يروم شراء ما يسلي وقت سفره الطويل الذي يقوم به على مضضٍ ودون قناعةٍ كبيرة بجدواه ولا يعلم به سوى أبوه، فأمه تظنه في مؤتمرٍ طبي بالإسكندرية وكذلك أختاه. وبينما يدفع ثمن الصحف التي اعتادها ويحفظها البائع لفتت نظره العناوين البارزة على الصفحة الأولى لجريدة المقطم، وهي جريدة لم تغره أبدًا بشرائها أو تصفحها، وقد ظنها للوهلة الأولى سخريةً قاتمة يراد بها التقريع واللوم، فإذا بها تصريح جاد يهدف الإعلام وتقرير الأمر الواقع!

بعد تجديد ثقة البرلمان في الحكومة: صاحب الدولة النَّحَّاس باشا يطمئن القطر المصري في خطاب العرش للقضاء على بعوضة الجامبيا و انحسار الوباء.

t.me/qurssan

النَّحَّاس باشا يصف الفلاحين عقب زيارته السامية لهم في الصعيد: إنهم أجسام صحاح، ووجوه تفاح، ونعمة و افية، وصحة وعافية.

لم يتصور كامل أنه يمكن أن يكابد مثل هذا القنوط لمجرد معاينة كذبة. أحس بها موجهةً إلى شخصه قاصدةً مترصدةً كقبضةٍ من الطين صوبت إلى وجهه بعرض الطريق غدرًا! وقف طويلًا لا يتحرك ثم نجمت عنه ضحكة أجفل منها البائع، أعقبها بضحكةٍ أطول وأكثر استهتارًا وأدعى للاستهجان.

سأله البائع ما بين العجب والقلق:

-ماذا بك يا دكتور؟

رفع كامل يديه في الهواء حائرًا كأنه ينتظر المطر، ثم قال وهو يشير إلى الجريدة يائسًا:

-إنه يتكلم بالسجع! وافية وعافية! هل رأيت؟ كيف يكذب أحدهم بهذه الوقاحة؟ هذا الرجل كاذب، مدلس، بل صفيق لا حياء له. لا تصدقه. كيف كنا نصدق كل ما يقوله تصديقًا أعمى؟

أخذ الرجل ينقل بصره بين كامل والجريدة دون أن يفهم قصده، فبائع الجرائد لم يكن يعرف القراءة!

-من هو الذي تتكلم عنه وماذا يقول؟

راح كامل يشير إلى العناوين وهو يكاد ينشق غيظًا:

-النَّحَّاس... الحكومة... الوفد... البرلمان... كلهم كاذبون عديمو الفائدة، طفيليات، كلهم أحقر من...

لم يجد وصفًا يشفي غليله لأنه لم يكن متمرسًا بالسب. أخرج غضبه في طربوشه الذي خلعه ملقيًا به إلى الأرض، ثم انحنى يحمل الجريدة المدانة ليمزقها بكل ما فيه من سخطٍ. وعندما صرخ الرجل محتجًا جابهه كامل:

-كل نسخ المقطم التي لديك... كم يبلغ ثمنها معًا؟

t.me/qurssan

بدت الفكرة رائعةً لشطرٍ من الثانية؛ أن يشتريها جميعًا ثم يمزقها إرْبًا في الشارع أمام الناس، ستكون تلك الصورة أبلغ من أي خطبةٍ ينعي فيها الغش الفاضح وتزوير الواقع. بعدها ما لبث أن تلاشى حماسه إزاء ذلك السؤال البديهي: وماذا عن مئات النسخ الأخرى المنتشرة في بر مصر؟ هل سيقوم بشرائها جميعًا؟

وقف يلهث وقد تراجع عن كل شيء، لن يسافر باحثًا عن يوسف ليرجو منه العودة لأخته، لن يخوض هذه المباراة مجهولة القواعد مع القدر،"كما كان، هكذا يكون من جيل إلي جيل". ربما لن يستطيع إقامة لعازر من الموت، لكنه حتمًا سيعمل على إزاحة الحجر من على القبر.

أوقف سيارة أجرة وطلب من السائق الاتجاه إلى سراي القضاء العالي بباب الخلق. وهناك توجه إلى مكتب النائب العمومي رغم ما حاق به من رهبةٍ . تقدم ببلاغٍ ضد النَّحَّاس بشخصه وحكومته اعتباريًا يتهمهما بالكذب على شعب المملكة المصرية وتزوير الحقائق والتقاعص عن أداء مهامهما بادعاء انحسار الوباء الذي بلغ الذروة في منحنى خطورته وحصده للأرواح في الواقع. وطلب شهادة الطبيب مايكل جرين التابع للإرسالية الأمريكية في قنا، وهو الذي يتابع علاج الحالات منذ البداية، كما طلب شهادة صحفي من الإيجيبشيان جازيت يدعى حسنين هيكل على ما يذكر، وأدلى بإفادةٍ كاملة عما عاينه هناك في بؤرة الوباء بنفسه من إهمالٍ صارخ واستخفافٍ بحياة البشر.

خرج كامل من مبنى المحكمة مشدوهًا من نفسه، لم يعرف ما الذي يجب عليه فعله الآن وقد انفجر بالون غضبه وقام بأقصى ما يستطيعه. شيء ما في رسم النائب أوحى إليه بأن البلاغ لن يخرج من بين دفتي الملف الذي حُفِظ بداخله. تعجب من ذلك الفراغ الكئيب بين حناياه، كأنه تبدد وانتهى!

t.me/qurssan

سار طويلًا بخطواتٍ متمهلة، منكس الرأس عاريها، وثقل طفيف شرع يُضاف إلى قدميه كلما تقدم كأن وزنه يزداد. أخرج منديله يمسح العرق المنسال على جبهته وتعجب من البرودة التي يشعر بها رغم كل هذا العرق. هل هو مريض؟ راح يجرجر قدميه فعليًا، لجأ إلى الظل الرطب لمقهى ليستريح. جلس يتطلع إلى الشارع، المارة والعربات والأوتوبيس، النساء والأطفال والشباب والكهول، شقر وسمر ونوبيون وهنود. رائحة طعمية تُقلى في مكانٍ ما تثير في نفسه الغثيان على نقيض المعتاد. وصوت أحدهم ينادي لشراء الأشياء القديمة، كل شيء ماضٍ في طريقه ولا أحد يملك تعطيله أو تغيير وجهته. ومن شرفةٍ قريبة في طابقٍ أرضي يأتي صوت أغنية "بينما يمر الزمن" يغنيها دولي ويلسون، وذلك الإحساس المربك الممض بأنه مر بتلك اللحظة بكل تفاصيلها من قبل، خاصةً مع ذلك الهيكل العام لمجندة إنجليزية تعبر الطريق مقبلةً نحو المقهى وهي تتلفت حولها متلمسةً خلو الاتجاهين من السيارات. تذكر بجلاءٍ أنها كانت آخر أغنية يختارها يوسف للعرض في حفلاتهم، هل كان ذلك حقًا عملًا باطلًا؟ فلماذا إذًا تغمر قلبه تلك الوداعة واللين إذ يسمعها؟ لماذا ترق روحه حتى توشك الدموع أن تدفق من عينيه؟ أسند رأسه فوق ذراعيه المتصالبتين على المنضدة ليدفع عنه الدوار، تراءى له مشهد فيرجينيا تعزف الترومبيت بجوار البيانو الذي جلس إليه يوسف، كانا يتدربان على تلك الأغنية دون كللٍ.

إنها نفس القصة القديمة

معركة لأجل الحب والمجد

مسألة أفعلها أو أقبل الموت

بينما يمر الزمن

تلك الكلمات بدت في حينها هائلةً كمخطوطةٍ مقدسة ووقع لحنها على نفسه شابه الوجد، وبدا كل منهما رائعًا مثاليًا كأنما خُلِق لتوه على صورة

t.me/qurssan

الله! وهي، كم كانت مضيئةً ومستحيلة البلوغ! وكم كان يحبها! ومع ذلك فأية شركة للنور مع الظلمة؟ من منا كان نورًا ومن كان ظلمةً؟ يمكن للشيطان أن يأخذ صورة ملاك، هكذا تكلم أبونا مينا حازمًا: "تذكر فقط أنها ستبدو يومًا كتلك الجثة التي أفزعتك في المشرحة، ولن تعود لاشتهائها أيضًا". فلماذا يشك الآن؟ لماذا يشك الآن؟

كامل! رفع رأسه استجابةً للنداء، لم يكن هناك أحد. نهض ليطلب سيارة أجرة تعيده إلى المنزل.

وقف متحاملًا على نفسه يطرق الباب، بات لسانه ملتصقًا بفمه وجافًا من فرط التعرق، والصداع برأسه يجعله راغبًا في السقوط نائمًا حيث هو. بدأ في التذمر عندما طال وقوفه دون ردٍ من الداخل. أين ذهبوا جميعًا؟ تذكر أن أمه ستصحب تريزة للخياطة هذا النهار، لكن هيلانة ورفقة لن تغادرا، فلماذا لا تفتح إحداهما؟

طرق مجددًا بقوةٍ أعظم وكاد ينادي الخادمة عندما سمع لغطًا بالداخل! ألصق أذنه بالباب وترقب. هناك من يوجد بالشقة، ومهما كانت هويته فوجوده باعث على الريبة، وإلا فلماذا هذا الهمس وتلك الهمهمة؟ هناك مقاعد تزحزح و... هل هذه رائحة بخور؟!

لم يطرق مرةً أخرى، وقف فحسب ينتظر، لن يبقى الزائر الغامض للأبد وليس هناك مخرج آخر سوى باب الصالة وباب الصالون اللذين يقف بينهما الآن. أتى صبره أكله بعد دقيقتين طويلتين رأى بعدهما خيال أبيه يقترب من الباب ليفتح.

-كامل! أنت لم تسافر!

انقبض فورًا لشحوب والده وارتباكه الفاضح. ودون أن يرد عبر الباب داخلًا وهو ينظر حوله متفحصًا. لم يكن يتخيل، هناك رائحة بخور قوية

t.me/qurssan

فعلًا لم يستطع الفتح المتعجل لكل النوافذ والشرفات تصريفها كما يجب، وهناك...

التفت بسرعةٍ نحو حجرة الصالون التي لمح فيها شخصًا ما يسرع بالفرار من الباب المفضي للسلم. كان أوهن من أن يلحق به عندما فهم ذلك الترتيب. توجه إلى غرفة هيلانة فوجدها جالسةً على فراشها في فستانٍ للخروج وهي تلهث راجفةً. وعنما طالعت وجهه أخيرًا كان الذنب يعترف بعينيها. ما الذي يجري هنا؟

-أبي؟

تكلم بصعوبةٍ ولم يزد.

-ماذا حدث لطربوشك ولماذا لم تسافر؟ لقد كان لدينا ضيف... أحد أصدقائي... لكنه كان متعجلًا قليلًا... خسارة أنك لم تقابله.

كانت محاولة أبيه تمثيل الهدوء والمرح فاشلةً وباعثةً على الشفقة والسخط معًا. بدا مستريحًا سعيدًا لأن ابنه لم يمسك به في الجرم المشهود ومستعدًا للكذب للتغطية عليه حتى النهاية. ها هو الكذب الوقح يطارده إلى عمق بيته، فما هي الكارثة التي يستميت إسطفانوس للتمويه عليها إلى هذا الحد المرعب؟ لم يتعب نفسه بمحاولة الحديث إليه، عاد إلى غرفة هيلانة وأغلقها عليهما من الداخل. جلس أمامها وسألها:

-من كان هنا؟ وماذا كان يفعل؟

كانت نظراتها مثبتة على ربطة عنقه المحلولة وزر القميص المفتوح، أجابت باستسلامٍ ولهجةٍ متماسكة:

-صديق لأبي، كان يقوم بخدمةٍ طلبها منه.

-أي خدمةٍ تحديدًا؟

-كان... يحاول... العثور على يوسف.

-كيف؟

t.me/qurssan

تذكر البخور الذي تعبق به الشقة والاضطراب الناضح منهما معًا فأدرك سفور الإجابة، تمنى أن يكون مخطئًا كما لم يتمنَ شيئًا في حياته.

-هذا الرجل... هل يدعي القدرة على الاتصال بالأرواح؟

-بل الملائكة! قال أبي إنه رآه يفعلها مرات لا حصر لها، يستخدم ما يسمى دلال المزامير لطلب مساعدة الملائكة، وفي كل مرةٍ كانت تستجيب فعلًا .هو قال هذا.

أذهله وجود تلك المستويات الجديدة تمامًا من الغضب لديه. ارتاعت هيلانة لاحمرار وجهه وانتفاخ أوداجه. همستْ راجيةً:

-لا تغضب يا كامل، لقد فعلها يأسًا، شفقةً بي. أرجوك لا تدنه، أنا أيضًا لم أقل لا، لم يعد هناك ما يشكل فارقًا. عندما سألني قلتُ: "ولم لا؟"، لم يعد هناك شيء عصي على التصديق، كل شيء جائز الحدوث وليس هناك مسلمات قطعية. ما أسوأ الاحتمالات؟ هل سيغضب الله عليّ؟ لقد غضب بالفعل! وسواء كنا نستحضر شيطانًا أم ملاكًا... قد يخبرنا بمكانه! ولو لم يفعل... لن أخسر أكثر مما خسرته... أردتُ أن أرى بنفسي، الفضول كان سيذهب بعقلي .

كان عاجزًا عن تخطي الحقيقة، لقد كان ما حدث لهيلانة لدى عمه شرًا عبثيًا أعمى، لا ذنب لهما فيه رغم وقوعه، مترتبًا على اختياراتها غير الصائبة بالكامل، أما هذا فلا يمكن تبريره، هذا تعمد واعي واختيار حر لأعظم شرٍ ممكن. لقد تحول البيت لمغارة لصوصٍ! ولا يوجد قَصَّار على وجه الأرض يمكنه أن يبيض هذه الصفحة، صفحة أبيه وأخته معًا، بل أخته بالأخص بكل ما وُهِبت من رجاحة عقل تدينها وتنفي عنها عذر الحماقة والطيش لدى أبيه!

-أنتِ... لا عذر لكِ...

قالها وئيدًا ضاغطًا على كل حرفٍ، ثم بصوتٍ أعلى قليلًا أعاد قولها:

-أنتِ بلا عذرٍ.

وقف ينظر حوله ويدور حول نفسه كمجنونٍ وهو يتمتم:

t.me/qurssan

-ليس لكِ عذر! لماذا؟ ليس لنا عذر! نحن نستحق تمامًا كل ما يأتينا من ضربات... يارب، سامحني! سامحها! ليس لنا عذر ولا حجة!

أخفت وجهها بين كفيها متسترةً من غضبته وخجلها. توقف عن الدوران بالغرفة ليسألها:

-هل فعلها أم لم يتسنَ له الوقت؟

منتظرًا الإجابة دون جدوى، صرخ فيها:

-أجيبيني... هل فعلها أم لا؟

دون أن تنزع كفيها عن وجهها قالت:

-كان على وشك طرح الأسئلة عندما طرقت الباب... قال تحديدًا "الملاك حضر... يمكنكما سؤاله الآن وسيجيبكما".

ضحك ساخرًا وقال:

-وهل انصرف الملاك عندما حضرت أنا؟ أم أنه لا يزال معنا هنا؟

سأل الشطر الثاني من السؤال بلهجةٍ مخيفة.

-لم يكن هناك وقت كافٍ ليفعل أي شيء، بالكاد جمع أشياءه وأعدنا ترتيب الأثاث... هل تصدق أن هناك ماحضر؟

-ألا تصدقين أنت؟ وهل الشيطان بحاجةٍ لدعوة ليحضر بيننا؟ إنه هنا من البداية. ماذا أفعل الآن؟هل أترك البيت؟ وماذا عن أمي وتريزا؟ ماذنبهما لتعيشا في منزلٍ مأبون؟ ألهذا الحد هان عليكِ كل شيء؟ كان الرجل محقًا في تحذيره... كان يعرف ما سيحدث.

فتح باب الغرفة واندفع إلى الصالة الكبرى حيث أبوه جالس مطاطئ الرأس، وقف يتطلع إلى الحوائط حوله والسقف، وقال :

-هل أنت هنا؟ حتى لو كنت هنا فلا سلطة لك عليّ، هل تسمع؟ لا سلطة لك عليّ البتة... آمرك أن تترك هذا البيت.

هنا نهض إسطفانوس مرتاعًا يترجى ولده:

t.me/qurssan

-كامل... اهدأ يا كامل. لا توجد أرواح شريرة هنا.

لم يلتفت إليه، وطفق يجول بكل الغرف مرددًا الكلمات نفسها بنبرة التحدي ذاتها، إلى أن انتهى إلى غرفته. وهناك بحث في أدراج مكتبه عن شيءٍ ما، وعندما وجده خرج به، كان زجاجةً صغيرة من الماء، نزع غطاء الزجاجة وشرع يصب منها على يده اليمنى ليرش زخاتٍ في هواء كل غرفةٍ على حدة في الجهات الأربعة، فعل هذا بكل ركنٍ بالبيت إلى أن وصل أخيرًا إلى غرفة هيلانة.

وقفت مقابله كأنها تريد منعه، قالت له بفتورٍ:

-هذه زجاجة أبونا مينا؟

لم يرد. كلاهما علم أنها كذلك، وأنه حصل عليها يوم قصداه معًا للسؤال عن يوسف وطلب الصلاة لأجله. أردفت:

-حسنًا... لا ترش منها هنا.

الصدمة على وجهه والارتياع والخذلان تعاقبوا بلمح البصر ليتركوه مشوشًا ضعيفًا.

-لماذا؟

سأل أخيرًا وقد تراخت ذراعاه على جانبيه.

-لم يستطع مساعدتي وقتها ولن يستطيع الآن. لا أريد شيئًا من طرفه، أتعلم متى خذلتني حقًا يا كامل؟ ليس عندما تركتني وحيدةً في بيت عمي، بل عندما اخترت ألا تسألني عن رأيي وأن تتجاهل اختياري لعامٍ كاملٍ، عندما افترضت استسلامي لقداسة الأمر الواقع. خذ ماءك المقدس الآن واتركني .

غادر كامل الغرفة مكللًا بالهزيمة الأفدح من كل هزائمه، والعار الموجع أكثر من كل أسقامه. لجأ لفراشه بعد أن أغلق بابه ولم يغادره طوال اليوم.

عادت النسوة الغائبات إلى البيت لتجدن كلًا من الثلاثة منعزلًا في موقعه بغرفته لا يغادره ،ولم يكن كامل كاذبًا عندما برر عدوله عن السفر بالمرض.

t.me/qurssan

كانت الحمى قد تملكت منه والألم متفشٍ في كافة أنحاء جسده. لمدة يومين عاش على الأسبيرين والحساء الساخن لأن معدته لفظت أي طعامٍ صلب. وحضر دكتور إبراهيم، طبيب الأسرة، لعيادته بنفسه، حيث صرح بشكوكه حول إصابة كامل بالملاريا.

تمت معالجة كامل بكل الأدوية المطلوبة وكل الأغذية الضرورية، وتناوبت أسرته على رعايته فلم يُترك وحده للحظةٍ وأصبحت راحته هي وظيفة كل من بالبيت وشاغله. اتخذت كل الاحتياطات وتُليت كل الصلوات وطُلبت كل الشفاعات. كان شفاؤه مسألة وقتٍ في نظر الطبيب، فلا يوجد ما يمنعه أو يعوقه، لم تساوره شكوك أو يعتريه قلق، وانتقلت تلك الثقة كالعدوى لكل من يهمهم الأمر عدا هيلانة!

وحدها رأت ذلك الانطفاء في عينيه، غياب ذلك الجوهر الذي نميز به الأعين الحية من أعين التماثيل والصور. رأت وارتعبت، لهذا كانت تبكي كلما اختلت به، كانت تمسك بيده لتقبلها وترجوه أن ينسى كل شيء ويتمسك بحياته، ألا يتركها وحيدةً نصف حية، أن يسامحها إن كانت قد أتعبته أو خيبت أمله، ألا ييأس من حدوث المعجزات.

تحسن في الوقت الذي توقعه الطبيب. توقفت الحمى عن مهاجمته وانسحبت الأعراض تباعًا، لكن شيئًا مفقودًا من روحه لم يعد له ثانيةً. وفي ذلك المساء تحديدًا كان والده نائمًا مطمئنًا بجواره عندما نهض من الفراش لأول مرةٍ منذ مرض، وبساقين لينتين خطا متمهلًا نحو غرفة هيلانة المجاورة وفتح الباب. كانت نائمةً، جلس جوارها ومرر يده على شعرها كعادته فانتبهت من نومها، وما أن وجدته حتى تعلقت به تعانقه مندهشةً، راجفةً، موجسةً، مؤملةً.

-كامل،حبيبي، لماذا نهضت ولم تنادني؟ كيف تشعر؟

أحاطها بذراعيه وأجابها دون أن يبعدها هامسًا:

t.me/qurssan

-أنا بخير. هيلانة... عديني أن تكوني بخير أيضًا.
-سأكون بخير ما دمت أنت معي، لأني لا أستطيع شيئًا دونك.
-عديني أن تكوني سعيدةً وألا يقدر أحد على إيذائك، وأن تفعلي ما تصدقين صوابه فقط!
-أعدك. هل تسامحني إذًا؟
-أي حماقةٍ هذه؟ أسامحك على ألمكِ العميق واضطراركِ لعبوره بمفردكِ؟ لابد للمرء من التعثر والذلل ما دام يسير، تذكري فقط أن تقومي متى سقطتِ. حسنًا، لماذا تبكين الآن؟
-لا تبالِ ياحبيبي. كم أحتاجك... سأظل بحاجةٍ إليك ما حييت.
-لا لن تفعلي. نامي الآن. سأنام بجواركِ. هيلانة، هناك أمر أخير أريدكِ أن تعديني به... اكتبي روايتكِ... يومًا ما يجب أن تكتبي روايتكِ.
فصلت نفسها عنه وتطلعت لوجهه، رأته هادئًا، مطمئنًا، مرتاحًا، فغمرها السكون وما يشبه البرودة العابرة. لم تستطع الكلام فهزت رأسها موافقةً. اكتفى هو بتلك الإشارة واستلقى لينام، وهكذا فعلت.
لم يستيقظ كامل في الصباح. حلت النكبة التي لم ينتظرها أحد بالأسرة، ومعها تهاوت كبيتٍ مبني على الرمال. بانت علامات الخرف على إسطفانوس أول ما بانت في يوم الثالث، عندما بدأ يسأل المعزين في البيت عن صاحب العزاء الذي أتوا لأجله! بينما لم يتضرر ظاهريًا في زوجته سوى جسدها الذي أصيب بالضغط المرتفع والسكر معًا، فصار الإغماء حدثًا متكررًا يتوقعه من حولها كلما نهضت من فراشها وشرعت في الحركة.
صارت تريزا تقوم بكافة مهام أمها بالمنزل منكفئةً عليها بكل طاقتها حتى لا تجد وقتًا للبكاء أو الحديث. وأثار عجب الجميع ما تتمتع به من صرامةٍ وحزمٍ جعلاها أشبه بنسخةٍ شابة من الأم كان وجود الأخيرة الفاعل يؤخر ظهورها.

t.me/qurssan

انقطعت هيلانة عن الجامعة حتى تم فصلها دون أن يهز ذلك شعرةً فيها، شأنه شأن كل ما كان خليقًا باستقطاب اهتمامها أو إثارة جزعها ولم يعد كذلك! فكرت أن أمنية كامل الأخيرة قد تحققت بشكلٍ ما، فلا شيء أو أحد صار قادرًا على إيذائها بالفعل.

عرفت من الجرائد أن دانيال باشا قد غادر البلاد بصحبة ولده مهاجرًا إلى سويسرا بعد عودته في زيارةٍ قصيرة قام أثناءها بتصفية ممتلكاته وأعماله في مصر. لم تفهم السبب إلا متأخرًا بعد أكثر من عامٍ، ومن مصدرٍ كان لصيقًا بمراد، نسيم.

لقد سلم مراد نفسه لمقر البوليس السياسي عندما عرف بصفقةٍ خاصة أُبرمت بينهم وبين أبيه لغض بصرهم عنه! كان ذلك فعل التمرد الأخير في حياته. في سجنه تعمد استفزاز سجانيه كأنه يتعجل استنفاد حظه حتى نفد بالفعل يومًا، كان خطأه بشكلٍ ما، اختار ألا يصمت وألا يحني رأسه لتمر الريح، كان يعرف شهرة ذلك الحارس بالغشامة والقسوة ومع ذلك لم يرتدع. ربما لم يكن الرجل يقصد ايذاءه لتلك الدرجة، لكن ما اجتمع فيه من غباءٍ وقوةٍ مفرطة أديا بالنهاية لكسر عمود مراد الفقري وإصابته بالشلل في النصف الأسفل من جسده لبقية عمره. لم يعد بوسع أبيه بعد ذلك احتمال البلد بأسرها حتى بعد تدبيره مقتل ذلك الحارس لتهدأة غليله ولكن دون جدوى. ورحلا معًا وقد التصق مصيرهما ما بقى من حياتهما رغمًا عنهما.

عُقِد أخيرًا مؤتمر القاهرة بحضور تشرشل وروزفلت وتشان كاي شيك بنجاحٍ تام وتم إعلان شروطه وبنوده على الملأ. وكان ذلك قبل حلول ذكرى الأربعين لكامل بأسبوعٍ عندما ظهر يوسف.

t.me/qurssan

الختم الثامن

t.me/qurssan

عادت أسِنات إلى الشقة لتتوجه إلى حجرة هيلانة قاصدةً الدولاب الخالي. لم تكتفِ هذه المرة بالنظر فيه وانحنت لتتفحص كل لوحٍ بأرضيته. وقفت فادية التي لحقت بها متسائلةً عما تفعله، لكن أسِنات راحت تدق بيديها وتطرق دون أن تجيب، وعندما يئست تمامًا من حدوث شيءٍ تربعت على الأرض أمام الدولاب المفتوح خجلةً من نفسها.

-ماذا أفعل؟ ماذا أحتاج بعد؟

راحت تعيد على نفسها ما تيقنت منه حتى تصدقه. *أنا... أسِنات عوني نجيب، أسنات عوني يوسف أرتينيان، مصرية، يونانية، أرمنية، فرنسية، ألمانية! ماذا يُسمى هذا؟*

-عما كنتِ تبحثين؟

-في الحلم... وضعت جدتي مفتاح مكتبها في قاع الدولاب، كان هذا هو المكان الأخير الذي آمل أن أجد فيه شيئًا جديدًا. أي شيء يخبرني بما لا أعرفه عن تاريخي. ماذا حدث ليصبح يوسف نجيب؟ سأوشك على الجنون .

تقدمت فادية نحو الدولاب وانحنت داخله بهدوءٍ، لبثت ساكنةً تنظر فقط لبرهةٍ كمن يتطلع إلى خريطةٍ، ثم مدت يدها لتضغط بقوةٍ على زاويةٍ محددة بها جزء مقعر كأنه مخصص لوضع فنجان فوقه، وإذ باللوح الخشبي يتحرك كغطاءٍ منزلق كاشفًا عن فجوةٍ غير عميقةٍ!

شهقت أسِنات ودست رأسها لترى، كان هناك دفتر أسود اللون، ومفتاح صغير، وصورة فوتوغرافية للوحة آرام لوجه يوسف، والبطاقة الشخصية التي تحمل اسم نجيب عبد المسيح والتي ظن أبوها أنها تلفت. راحت ترمقهم مأخوذةً وهي تعتصر كتف فادية التي استعادت زمام المبادرة أولًا وأخرجت ما وجدتاه.

-فادية، كيف عرفتِ بهذا المكان؟

t.me/qurssan

-كنت طفلةً حين رأيت خالتي وهي تفتحه في إحدى الأجازات لتخرج منه أو تضع شيئًا، لا أعرف بالضبط. لم أتذكر هذا إلا الآن. لابد أن هذا هو مفتاح المنضدة.

في اللحظة ذاتها أمسكتا معًا بغلاف الدفتر لتفتحاه وهما جالستين على الأرض. وطالعتا الصفحة الأولى، بدت كأنها فرد من العائلة يعلن عن وجوده حالا. كان ذلك خط هيلانة وقد اعتراه بعض التغير، ليس بتلك الدقة المثالية في رسم الحروف ولا ذلك النظام المزين بالنقوش حول التواريخ. كان ذلك الخط مجرد وسيلة لسطر الكلمات، عمليًا واضحًا، لا إهمال به ولا رداءة لكنه لا يكترث كذلك لمظهره.

***

t.me/qurssan

العثور على الزمن المفقود

هل تصدق كم استغرقني الأمر؟ في زياراتك كلها طالبتني أن أبدأ، وأخبرتك أني فقدت ما يلزم. لا أعرف لماذا الآن، وهنا تحديدًا. لم أفكر حين منعت كامل من رش الغرفة بالماء المقدس أني أدخرها كجيبٍ معلق في الفراغ لكل ما سيقع فيها، بدايةً بموت كامل نفسه!

أكانت تلك هي البداية؟ أم أن هناك شيئًا ما قد صبغها قبل ذلك بصبغةٍ لا تزول؟ النذر الذي نذرته... على الطاولة نفسها التي أكتب عليها بهذه اللحظة، ذلك الكفاح المقدس الذي أعلنته ضد الحتمية، لم أقنع أبدًا بالحتمية وظننت أن ذلك جدير بإغضاب كارل ماركس وليس الله!

لا تزال الرعدة تسري في ظهري كلما أدرت الأسطوانة وأنا أنتظر حضورك. لو أن هناك تردد موجي لمشاعر الإنسان، يتناسب أثره المادي مع قوتها... لصارت هذه الحجرة ركامًا وترابًا منذ... متى؟

هنا جلستُ مرارًا أجتر مشاعر لم تكف أبدًا عن إذهالي، تعجبت دائمًا من قدرة قلبي على التمدد مع الزمن لإضافة مساحات أوسع تمتلئ كلها بك. كان ذلك العام الغابر الذي قضيته معذبةً بإقصائك عني بمثابة تدريبٍ طويل على الاكتفاء بوجودك داخلي، والآن وقد مرت أعوام منذ غادرتني للمجهول. على الفراش نفسه الذي رحل عليه كامل، استعدت مضطرةً ما تعلمته جيدًا آنذاك؛ التواجد معك على أي حال، التواجد معك من دونك! فزتُ الآن بميزةٍ إضافية لم تتوفر حينها، وجود صورتك معي، لدي صورة للوحة آرام لم تعلم بوجودها. كنت جادًا مثلي في وعودك مهما أنكرت ذلك عليّ.

الآن وقد بات بمقدوري الكتابة، هل أريد؟

لكني صرت بارعةً في طمس تلك الرغبة حتى فقدتها، استطعت أن أسحقها تمامًا بربطها طوال الوقت بفقدك. كل يومٍ، كل أسبوعٍ، كل شهرٍ، كل عامٍ،

t.me/qurssan

أخبرُ نفسي أني يوم أكتب الرواية التي أشتهي كالثمرة المحرمة سأخل بنصيبي من التعهد وأفقدك. الآن وقد انتهى كل شيء ما زال الخوف الشرطي المرتبط بالكتابة يلازمني، كأني يوم أكتب ستكف عن زياراتك الليلية الخاطفة لي. سر صغير يعرفه الله طبعًا وسأخبرك به الآن، هناك ترانيم كتبتها عنك أنت. ربما كان هذا هو الإخلال بالشروط الذي ذهب بك مبكرًا، كلمات الحب التي خاطبت فيها الإله مطلق الجمال بينما كنت أقصدك بها خلسةً، غير عامدةٍ، مرغمةً نوعًا، ثم أخبرت نفسي أني لم أخطئ كليةً، ألم تكن رغم كل شيء هيكل الله وروحه ساكن فيك؟

كم قاومتني يا يوسف! كم ألححت في إقناعي بالتراجع عن وعدي العبثي وكتابة ما أريد! "لا يمكنكِ البقاء تحت ذلك النير فوق عنقكِ، ما مغزى وجودي في حياتكِ إن كنت أجعلها ناقصةً فقيرةً؟". كان هذا أشبه بأن تسألني: ما مغزى وجود المخ داخل رأسكِ إن كنت ستصابين بالصداع أحيانًا؟!

إن كنت أندم على أي شيء في حياتي بأسرها فهو إطلاعك على هذا النذر. لو لم أخبرك به لسعيت جادًا وراء حلمك بدلًا من البقاء منكفئًا بعد أول عثرة كأنك تعاقب نفسك على تعطيل حلمي. كأنك كنت تنتظر الفشل كفرصةٍ للتكفير!

ماذا لو؟ هذا السؤال الذي يصنع عباقرة الفلسفة والخيال العلمي وكذلك المهووسين! كان لدي كل الوقت لتخيل كل الاحتمالات وشطب وإعادة كل الأحداث، كأنني أحاول تخمين كل النسخ الممكنة لحياتنا. ماذا لو ذهبت بلحنك إلى شخصٍ آخر غير "معبودك"؟ هل كان لينسبه لنفسه مثلما فعل عبد الوهاب؟ لماذا اعتبرتها النهاية كأنه صادر حقك في وضع ألحانٍ أخرى يوم عرض عليك خمسين جنيه لتصمت؟

t.me/qurssan

"لم أتخيل أن الأمر كله قد يكون على تلك الدرجة من... التفاهة... والرخص."

لا أزال أرى كل غضن أصاب وجهك وأنت تتلفظ بالكلمات بمعاناة من يرى لأول مرة اللب الخبيث للروح البشرية! كم مرة كان عليك معاينته واختباره قبل أن تتخلى عن دهشتك تلك؟ لماذا أصابك الارتباك وأنت تفكر إن كان ما قاله كامل عن الشجر الرديء والثمر الجيد صحيحًا؟ أتعرف ما أعتقد فيه الآن؟ لا يوجد شجر جيد وشجر رديء، ولا شجر ملهم، كلنا أشجار موصومة بالمرض في نخاعها، تعطي مواسم جيدة وأخرى رديئة. ماذا لو كان عبد الوهاب قد انتحل ألحان الآخرين؟ ماذا لو كان أوسكار وايلد مثليًا؟ ما زلت أسمع "مضناك" بلوعةٍ، وما زلت أقرأ "أهمية أن تكون إرنست" بابتسامةٍ على وجهي. أرى الآن ما جمعك بكامل في المقام الأول، ذلك الطموح الطوباوي لقداسة البشر. لا يوجد قديسون في هذا العالم يا حبيبي. هناك بشر فحسب.

أستعيد كل أسفارك بالغصة نفسها في حلقي. نعم، حتى الآن. في كل مرةٍ كنت تصحب معارفك من الفنانين الهواة لقصور الثقافة بالمحافظات والصالونات والنوادي لتؤدي أغاني وألحان الآخرين مثلهم، كان إحساس الهدر يصرعني. لقد ظللت تستنسخ ماضيك الذي صنعته في شهورٍ معدودة مع كامل وآرام، كأن هذا كل ما بوسعك. ظن عوني أني أغضب لغيابك عنا فيما لا يستحق، لم يفهم أني أردتك أن تدخر طاقتك لما هو أهم وأبقى، موسيقاك الخاصة. ما زلت أحتفظ بالنسخة المخطوطة من لحنك ضمن ذخائري، ربما أجعل فادية تقرأها، فقد تكتشف بمفردها ما سكت أنت عنه من اقتباسٍ فج لعملك.

ماذا لو؟ ماذا لو كان جدك شخصًا آخر غير العازف الألماني؟ ربما لم تكن لتصبح يوسف الذي كنته. فلابد أن بعض مزاياك الحبيبة تنحدر منه. ماذا

t.me/qurssan

لو قرر أبي أن يعطيك دروس العود بعيدًا عن البيت فلا أراك أبدًا؟ ماذا لو لم تكن والدتك وخالتك معًا متورطتان بالعمل لحساب فيشي؟ أكان محتمًا أن يذهب والدك خلفها ليكون معها في منفاها وتختفي أخبارهما عنك للأبد؟ هذا الاجتثاث غير الرحيم للجذور... أين كان سيقودك لو لم تختر أنت أن تصبح "نجيب عبد المسيح"؟ لو لم يختر نجيب أن يتلاشى لما استطعت أن تحل محله، لما تجرأ نسيم على استخراج البطاقة الجديدة لك باسمه،لما ظنك عمي هو وقد غررت بي وهربت. كل ذلك الوقت الذي قضيته في الصعيد كأنك تغلق دفاتره نيابةً عنه. لماذا قررت أن تبقى مع أبيه للبحث عنه في كافة الأديرة وانتظار عودته رغم علمك التام بمكانه؟ "البحث راحة! كنت أفعل لأجله ما فعله أبي وآرام لأجلي، كما أن لي خبرة في التعامل مع الأمهات الثكالى والآباء الحائرين، كلهم يرون فيّ طيف ما فقدوه لسببٍ ما"، هكذا اعتدت أن تبرر ذلك التصرف، وأراه محاولةً للتخلص من الذنب، لكنك لم تحتمل الرحيل في النهاية قبل أن ترشده للبحث في دير الأنبا صموئيل كأملٍ أخير، ولم تعرف أبدًا إن كان قد وجده أم لا.
كنت قد قضيت وقتًا لا بأس به تبحث عني لتعرف ما صار لي، واطمأننت لسلامتي عندما عرفت بعودتي مع كامل إلى القاهرة. لم يخطر ببالك طبعًا ما حدث لي قبل ذلك الرحيل، لأنك ببساطة لم تعرف بإمكانية حدوثه. كيف كان لك أن تخمن أن هناك من يستطيع منح نفسه الحق لذلك؟ أن يوثق فتاة ويعريها ويفحص ما بين ساقيها ليرى إن كانت عذراءً أم لا؟ أعرف أن هذا كان سببًا آخر لشعورك دائمًا بالجرم في حقي، معتقدًا أن تركك لي هو ما جلب عليّ البلاء، ومعتبرًا البرود الجنسي الذي عانيت منه أعوامًا جزاءً مستحقًا لك، كأنه لم يكن يضيرني أكثر منك! لم أكتف قط من معانقتك وتقبيلك، تعرف هذا، لكنني غالبًا ما انفصلت عن وعيي عند التمادي في

t.me/qurssan

الأمر لنهايته، كأنني أشاهده يحدث لأخرى خارجي. هناك ما لا يشفى قط ولو عولج عمرًا بأكمله.

وماذا لو لم تقابل علي مصطفي؟ يا إلهي، لقد غيرت صداقتكما كل شيء. لم تكن لتفكر في الحياة بالمنوفية بالذات لو لم ينقل هو إليها. أردت البدء في مكانٍ جديد لا يعرفك فيه أحد وهذا ما أتاحه لك رغم أنه هو عرفك جيدًا، وأحبك كيوسف وكنجيب. كم يفعل الحب من أعاجيب وكم يفتح من أبواب! كلما تداعى لخيالي مشهدك منتفضًا منهارًا من البكاء على كامل أشكر الله لأنه أرسل لك، أو لنا معًا، علي.

ناديتك دائمًا باسمك في غرفتنا، فيما بيننا، لم أستطع أن أحبك باسمٍ آخر. وحين تعلق لساني به أمام عوني ابتسمت له قائلًا: إنه اسم المعمودية الذي اختاره أبي. في أيامنا كان لكثير من الناس اسمين، واحد بالبطاقة وواحد يُنادى به.

أردتُ الكثير من عوني. أردته أن يعرف أن باستطاعته اختيار ما يشاء في حياته دون القلق حول موافقتنا، ومع ذلك حاولتُ إعادة إنتاجك مرةً أخرى فيه! ورغم حبي المطلق له تعجبت من اختلافه الشديد عنا، كأن سماتنا الوراثية انتهت بنا دون قدرةٍ على المرور لنسلنا. كم كان غريبًا في نظري ألا يستهويه أي فن! حاولت مرارًا أن أدفعه للتجربة ليكتشف شغفه، واستغرقني الأمر أعوام طفولته ومراهقته كلها لأعرف أن ذلك الشغف لم يكن موجودًا ببساطة. إلا إذا اعتبرنا اهتمامه الشديد بتحصيل العلم والدراسة شغفًا من نوع مختلف!

كثيرًا ما تطلع عوني إليّ صامتًا في انفعالاتي، لم يجشم نفسه عناء التعليق لكنه كان مقروءًا على صفحة وجهه: " أنتِ مجنونة قليلًا، لا بأس، كل العائلات لها مشاكلها وهذه ليست أسوأها، سأنتظر فقط حتى تعبر هذه النوبة كغيرها". طالعني هذا التعبير عندما اقترحتُ عليه كتابة قصة،

t.me/qurssan

وعندما ذهبتُ به ليتعلم الرقص الأرمني، وعندما حاولتُ تعليمه الرسم والتمثيل والغناء والترنيم والعزف. رأيته أيضًا وأنا أخبره أني سأبقى هنا بعد ذهابك، لكنه كان غاضبًا تلك المرة، شعر أني أتخلى عنه وهو يبدأ لتوه. ولم أستطع أن أشرح، كيف كنت سأخبره أنك منذ يوم الثالث تزورني ليلًا وتتحدث إليّ؟ فضلت أن يعتبرني قاسيةً على أن يعتبرني مخرفةً. هل أكون مخرفةً فعلًا إذ أراك وأسمعك؟ هل كان نجيب يخرف إذ رأى البابا كيرلس وسمعه؟ من أنا لأقرر أي الرؤى حقيقية؟ لكلٍ وليه ومولاه.

هناك شيء لم أخبرك به. أتذكر الجلسة التي عقدها أبي هنا بغية العثور عليك؟ لقد صنع أخرى، في الغرفة ذاتها، بحضور عوني! كان يريد الاطمئنان على كامل أو الحديث إليه واعتقد أن وجود عوني سيسهل المهمة. أنا من طلب إليه ألا يخبرك. كنت تعتقد أن انعقاد تلك الجلسة في البيت هو ما عجل بكامل لحتفه، و خفت أن يحدث شيء لعوني فتلوم أبي. استنطقته مرارًا لأعرف ما اختبره بالضبط لكني لم أرتح لما قاله كواقعٍ مفروغ منه... سيبقى الشك دائمًا آفتي،حائلًا بيني وبين التسليم بما يراه الآخرون واضحًا كالنهار، وستبقى أنت دائمًا إيماني الذي أتبعه دون أن أنظر للوراء.

"لا أريد العيش بالقاهرة بعد الآن، لا أرى في أرجائها إلا من ماتوا أو غادروا وأسبابًا للسعادة لم تعد كذلك. سأبيع البيت وأهب لوحات آرام. هل ستأتين معي؟"

أي سؤالٍ هذا؟! في اليوم التالي لزواجنا سافرنا إلى المنوفية، لنسكن البيت الذي اخترته بجوار كنيسة سانت تريز كأنك ما زلت تلتمس ما يذكرك بنصفك الفرنسي. وساعدك علي في شراء الأرض المناسبة للمزرعة. ظننت كل هذا مهربًا مؤقتًا، ولم أعتقدك ستركن إليه للأبد.

كم تمنيت أن ترى أسِنات! تشبهني كأنها ابنتي أنا، لكن لها عيني كامل. أنا من أعطاها اسمها، يمكنك أن تخمن طبعًا. الاسم الذي وقعتُ لك به دفتري

t.me/qurssan

كأنه رسالة سرية، رسالة تخبرك بما تكونه أنت بالنسبة لى، وما أتمنى أن أكونه لك. أتعرف أن أمي ظنتني ممسوسةً بعد عودتي من الصعيد؟ ربما لم تكن مخطئةً، ربما لبستني روح أسِنات الحقيقية مطالبةً بعمرٍ آخر معك لعدم كفاية واحدٍ!

قلقةٌ هي ومفرطة الحساسية، لطالما هابت هذه الحجرة وتوجست من دخولها قبل أن تعرف أي شيء عنها. قرأت بنهمٍ كل ما أعطيته لها ولم يعد لديها حد اكتفاء، تبحث طوال الوقت عما يدهشها ويشبع توقها للكمال. تخيل أن مسرحيات الملهاة لشكسبير أحبطت توقعاتها؟ لكنها أدمنت الأدب الروسي عمومًا وتولستوي ودستويفسكي خصوصًا. تحلم أن تكتب شيئًا كالحرب والسلام أو الإخوة كارامازوف، هل تذكرك بشخصٍ تعرفه؟! جعلتها تسمع كارمينا بورانا في إحدى زياراتها لي ورحت أراقب وقعها عليها بينما رمقني عوني بعينين متعبتين متسائلًا عما أقصده أو أنتظره من ابنته. لو أني أستطيع أن آخذها منه! يبالغ في حمايتها لدرجة كتم الأنفاس. لو أتت للإقامة معي ستزدهر وتثمر كحديقتنا. هي أيضًا متعلقة بتلك الحديقة كما لو كانت قد شاركتك غرسها. كم أود لو أحكي لها كل شيءٍ، وأعني "كل شيءٍ"، حتى ما يجهله أبوها، لمجرد أن أقبض بيدي على تلك اللحظات مجددًا، لكنها ما تزال صغيرةً. أرى ذلك اللمعان في عينيها لدى زيارتها لي وأعرف أن لعنة الافتتان بالماضي موسومة على قلبها. كم كانت ستحبك لو عرفتك!

آه يا يوسف... لقد نجونا رغم كل شيءٍ. ماذا سيبقى منا؟ ومن سيذكرنا؟ لم أعد بالقوة نفسها منذ وفاة تريزة. أبقى في فراشي بالساعات دون أن أجد بنفسي القدرة أو الرغبة في النهوض حتى لتناول الطعام. قررت فادية أن تأتي لتبقى معي ولا أعرف إن كانت تحتمي بي من الوحدة أم تخشى عليَّ منها كما تقول. أحيانًا أفكر أن فادية كانت جديرةً بأن تكون ابنتنا نحن،

t.me/qurssan

وأتساءل إن كان قد حدث خطأ في توزيع الأرواح بينها وبين عوني وهما لا يزالان جنينين في رحمينا أنا وتريزة. الفارق بينهما كان تسعة أشهر بالضبط. أتذكر؟ الغريب أني كنت واثقةً أني لن أحمل بأطفالٍ آخرين دون سببٍ ، أم لم أُمنَح أطفالًا آخرين لأني لم أرد؟!

تبدو فادية لمن لا يعرفها كتابًا جادًا مستعصٍ على القراءة، لكنها كذلك فقط لمن لا يستحق، كالرسائل المشفرة التي تحمل لمن يحلها الكنوز الواعدة. تلك الكنوز كانت ملكًا لولدي الأحمق الذي لم يرغب في الارتباط بـ"فنانةٍ عابسةٍ تسهر في الحفلات دون مواعيد وتدخن وتصر على آرائها بشكلٍ مستفز"، إنها خسارته الأفدح. أخبرتها أن تفعل ما تريد بالشقة بعد موتي، لكنها قالت بعينٍ دامعة: "لن أغير فيها شيئًا".

***

الختام يا يوسف، هذا ما نسعى إليه، أليس كذلك؟ أفضل ختامٍ ممكن! لو أن المصائر المختلفة تُرَص أمامنا كأوراق اللعب لنختار منها ما يناسبنا، لاخترت دون ترددٍ الخاتمة التي أرحل فيها معك باللحظة ذاتها. هكذا ترى أن خاتمتي تأخرت أعوامًا طويلة رديئة كما قرر يعقوب يومًا في حضرة فرعون. هل ندمت يومًا على ابقاء تلحينك للترانيم التي كتبتها سرًا؟ لقد باتت من التراث الآن، هكذا يصنفون كل الترانيم مجهولة النسب، وبتنا معًا شركاء في ذاك المصير. لا أعرف ما هو الأهم، أن نصبح تراثًا غير معنونٍ يعرفه القاصي والداني أم أسماءً محفوظة الأثر؟ أن تُردد ترانيمنا من جيلٍ إلى جيلٍ أم تُذكر مشفوعةً بهويتنا كصانعين لها؟ وكيف يراها الله... قربانًا مقبولًا أم مرفوضًا؟

بعدك حاولت الوصول للآخرين، أولئك الذين لم تتقاطع معهم طرقنا في حياتك رغم فداحة أدوارهم فيها، وإليك ما وصلت إليه:

آرام مات في إنجلترا في العام نفسه معك! ما الذي تعلنه تلك المصادفة؟

***

t.me/qurssan

مراد عاش في سويسرا حتى بلغ الستين، وترك نصف ثروته للخدم الذين رافقوه والنصف الآخر للمنظمات الإنسانية في أفريقيا.

***

نسيم ما زال يدرس اللغة القبطية في الإكليريكية وكذلك ابناه الوحيدان.

***

الوحيد الذي لم أتوصل إليه أبدًا رغم بحثي الدؤوب هو نجيب. زرت دير الأنبا صموئيل وسألت عن راهبٍ تقدم إليه في وقت تولي البابا كيرلس لرئاسة الدير، أعطيتهم الاسم والسن والمؤهل الدراسي، لا شيء. قابلت أكبر الرهبان سنًا ومؤرخ الدير لكنه لم يعرف أي راهبٍ أو طالب رهبنةٍ بتلك المواصفات. بدا مصمتًا راغبًا عن إطالة الكلام ومتعجلًا صرفي كأني أعكر صفو خلوته. أردت أن أعرف ذاك الشخص الذي استعرت هويته دون إذنٍ منه وكيف أصبح، لكنه يبدو كمن اختفى أو تبخر. لقد حاولت، ولم أعد من تلك الزيارة سوى بنسخةٍ مهداة من شرح سفر الرؤيا كتبها أحد الرهبان.

يريحني نوعًا أن أترك مفتاح كل شيء لأسِنات، ستنجز هي ما ضعفت عنه، ستذكرنا كما لم يفعل أحد، ستشفق على إخفاقاتنا وتفخر بصمودنا. ستتلمس في نفسها ما أورثناها باعتزازٍ وتتغاضى عما اضطررنا إليه من غشٍ في اللعب. ستكتب هي الرواية وتعلن عن موسيقاك. سنوجد من جديد في كل مرةٍ يقرأ فيها أحدهم عن محبة آرام وطيش إسطفانوس، وحرارة كامل وتخبط نجيب، وشجاعة مراد وإخلاص نسيم، وشهامة علي وجنون هيلانة، وتفرد الأوحد، الحبيب...

أنت ..

يوسف.

t.me/qurssan

المراجــع

١. يونان لبيب رزق: الأهرام ديوان الحياة المعاصرة

٢. سيسل البورت: ساعة عدل واحدة

٣. محمد رفعت الامام: تاريخ الأرمن في مصر

٤. عطا درغام: الوضع القانوني للأرمن في مصر

٥. عطا درغام: الأرمن المصريون والسياسة المصرية

٦. إسماعيل محمد زين الدين: المعارضة في البرلمان المصري

٧. محمد حسنين هيكل: حلقات مع هيكل تجربة حياة

٨. محمد حسنين هيكل: ثورة يوليو، خمسون عاما

٩. ارتميس كوبر: القاهرة في الحرب العالمية الثانية

١٠. هنري دو ديللي: سوريا١٩٤١ الحرب المخفية بين أنصار فيشي وأنصار ديجول

١١. مقالات محمد التابعي عن محمد عبد الوهاب

t.me/qurssan

t.me/qurssan